تاريخ علم الكلام

عصر الإمامة الأوّل

(١٠ هـ - ١٤٨ هـ)

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العباسية المقدسة
المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

العلوم الإسلامية عند الإمامية

تاريخ علم الكلام

عصر الإمامة الأوّل

(١٠ هـ - ١٤٨ هـ)

الجزء الثاني

تأليف
مجموعة باحثين

إعداد
الشيخ الأسعد بن علي قيدارة

تاريخ علم الكلام : عصر الامامه الاول (١٠هـ – ١٤٨ هـ). الجزء الثاني / مجموعة باحثين ؛ تقديم وتحرير الشيخ الاسعد بن علي قيدارة.-الطبعة الأولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٥ هـ. = ٢٠٢٤.
مجلد : ايضاحيات ؛ ٢٤ سم.-(العلوم الاسلامية عند الامامية)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
ردمك : ٩٧٨٩٩٢٢٦٨٠١٩٤
١. علم الكلام (شيعة)--حتى القرن ٤ هـ. أ. قيدارة، الاسعد بن علي، 1964- ، مقدم. ب. العنوان.

LCC : BP194. T37 2024
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٧٠٨) لسنة (٢٠٢٤م)

- **الكتاب: تاريخ علم الكلام، عصر الإمامة الأول (١٠ هـ ـ ١٤٨ هـ) ـ الجزء الثاني.**
- **الإشراف العام:** السيد هاشم الميلاني- الشيخ حسن الهادي.
- **المدير العلميّ:** الشيخ الأسعد بن علي قيدارة
- **مساعد المدير العلميّ:** محمد بن عبدالله بنعمارة
- **تأليف:** مجموعة باحثين
- **الناشر:** العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، المركز الإسلاميّ للدراسات الإستراتيجيَّة.
- **الطبعة:** الأولى ٢٠٢٤م - ١٤٤٥هـ.

Website: www.iicss.iq
E-Mail: islamic.css@gmail.com
Telegram: @iicss

الفهرس

مقدمة المركز ٧

المدخل ١١

. أدوار الإمام عليعليه السلام في التأسيس الكلامي (١١-٤٠هـ)

(دراسة لروايات الإمام عليّعليه السلام في أصول الدين)

الشيخ محمد رضا الخاقاني ٢١

. أدوار الإمام الحسن بن عليّ المجتبى عليه السلام في التأسيس الكلامي

الشيخ حسين حسن السعلوك ٧٩

. أدوار الإمام الحسين بن علي عليه السلام في التأسيس الكلامي

الشيخ محمد رضا الخاقاني ١٣٧

. أدوار الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام في التأسيس الكلامي

الأستاذة ندى الطويل ١٦٧

. أدوار الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام في التأسيس الكلامي

الشيخ حسن فوزي فواز ٢٢٥

. أدوار الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في التأسيس الكلامي

الشيخ أمين ترمس العاملي ٢٧١

مقدمة المركز

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله وعلى آله الطّيبين الطاهرين عليهم السلام، وبعد...

لا يخفى على من تتبّع النصوص الدينيّة أهمّيّة المعرفة والعلم في هدفيّة خلق الله عزّ وجلّ للإنسان، والمعرفة لا تتولّد بطريقة ذاتيّة عند الإنسان، وإنّما يكتسبها وينتجها بالأدوات والقوى التي وهبها الله تعالى له، وقد حثّ الإسلامُ الإنسانَ بألسنة مختلفة، كما يظهر من مدلول العديد من الآيات القرآنيّة، على التعلّم والتفكّر والتدبّر والتأمّل والنظر والتعقّل...، ورغّبه في إنتاج المعرفة وتوليد العلم، وحمّله مسؤوليّة إيصال المعرفة إلى الآخرين وبثّها وبذلها لهم. رُوي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قرأت في كتاب عليّ عليه السلام! إنّ الله لم يأخذ على الجهّال عهدًا بطلب العلم، حتى أخذ على العلماء عهدًا ببذل العلم للجهّال...**»[1].

ويعتبر علم الكلام من أهمّ العلوم الإسلاميّة، وأقدمها تاريخًا، وأشدّها حساسيّةً، حيث إنّه لا بدّ لكلّ مسلم أن يتّخذ موقفًا واضحًا من أصول الاعتقادات، ويبني عليها عقيدته الإسلاميّة، فعليه أن يتحرّى في الأصول الدليل الصحيح والمقنع، كما وعليه أن يسأل حتّى يصل إلى ما يطمئنّ له باله وقلبه. وقد تعرّض القرآن الكريم، والنبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمّة المعصومون عليهم السلام من بعده، وكذا المسلمون الأوائل لكثيرٍ من الأدلّة الفطريّة والعقليّة الداخلة في ضمن المسائل الاعتقاديّة، لا سيّما الأصول منها، وهذا ممّا يدلّ

---

[1]- الكلينيّ، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ٤١.

على عمق هذه الأبحاث في تاريخ العلوم الإسلاميّة، وعلى شدّة أهمّيّتها، وحساسيّتها. وإنّ اختلاف الفرق الإسلاميّة منذ العصر الأوّل الإسلاميّ، حتّى العصر الحاضر وتمسّك كلّ فرقةٍ بأطروحتها وأدلّتها، ومحاولة الردّ على أدلّة باقي الفرق، وغير ذلك من الأسباب، أدّى إلى تطوّر هذا العلم، واتساع مسائله، وجعله من أكثر العلوم الإسلاميّة حيويّةً.

ولتعميق فهم بحوث هذا العلم ومسائله كان من الضروريّ العودة إلى جذوره التاريخيّة، ودراسة تاريخ هذا العلم ومدخليّته في نموّ العلم نفسه وتطوّره، فقد أكّدت الدّراسات المعرفيّة التّرابط بين تاريخ العلم وحتميّة التطوّر التاريخيّ؛ لأنّ تاريخ العلم يساعد على فهم نظريّات العلم، فهو يُبيّن كيف نشأت تلك المسألة، وكيف تفرعّت الأقوال فيها، وما طبيعة السّجالات التاريخيّة التي جرت حولها. وعلى مستوى مصطلحات العلم، يمكن أن يساهم تاريخ العلم في كشف الالتباسات والغموض الذي يكتنف بعض المصطلحات ودلالاتها: فقد تختلف معاني مفردةٍ ما من عصر إلى عصر، ومن حقبةٍ إلى حقبة، ومن عَلَمٍ إلى آخر؛... والقراءة التاريخيّة هي التي تكشف تلك التداخلات كلّها. وما إسقاط بعض الباحثين للمصطلحات المتأخّرة على الحقبات القديمة، إلا غفلة عن أنّ ظهور تلك المصطلحات وتلك الحدود حدثَ في عصرٍ متأخّر نسبيًّا.

ودراسات تاريخ العلوم من جهة أخرى، تمكّن الباحثين والدّارسين من القدرة الاستشرافيّة لآفاق ذلك العلم وما نتوقّعه من مساراتٍ مستقبليّةٍ له في أركانه المعرفيّة، واهتماماته، وعلاقاته بالعلوم الأُخر،... وهكذا يتجلّى لنا أنّ تاريخ العلم ليس مجرّد استردادٍ للماضي في وقائعه وتسلسل أحداثه، ومحاولة إعادة بناء هذا الحدث كما وقع. بل إنّ تاريخ العلم هو جهدٌ علميٌّ منظّمٌ يقوم على التّحقيق والتّحليل التاريخيّ، من خلال الحفريّات العلميّة متعدّدة الأبعاد للوصول إلى مسارات نموّ ذلك العلم وتكامله في الجهات كلّها، من: جهة النشأة، التحوّلات الكبرى، المنعرجات الحاسمة، والعلاقة

بالعلوم الأخرى...؛ قصد بلوغ منطقٍ علميّ في تفسير الرسم البيانيّ لمسيرة العلم في علاقته الجدليّة بمنظومة المعارف الإنسانيّة عمومًا والعلوم الإسلاميّة بالخصوص، كما يمكّننا هذا المنطق من استشراف مستقبل العلم والقدرة على التنبّؤ العلميّ بالتحوّلات المتوّقعة، وبالتالي الاستعداد لتحدّيات الغد كلّها ومقتضياته.

وانطلاقًا من القيمة المعرفيّة والحضاريّة لهذه الأعمال في تاريخ العلوم، أطلق المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة -بعون الله وتسديده - مشروع تاريخ الكلام الإماميّ، هو عبارة عن سلسلة معرفيّة موضوعيّة تتناول تاريخ كلام الشيعة الإماميّة في أبعاده جميعها: من حيث النشأة، والتحقيب التاريخيّ لعصور الكلام الإماميّ إلى يومنا الحاضر، والأعلام، والحواضر والمدارس العلميّة، والنظريّات الكلاميّة التي توالت وتوالدت عبر الزمن...، وسيلمس القارئ عبر تسلسل أقسام هذا المشروع تغطيته لكلّ هذه القضايا.

ختامًا، نتقدّم بخالص الشكر والامتنان لكلّ من ساهم في إنجاز هذا العمل المبارك من مدير مشروع تاريخ الكلام الإماميّ الشيخ الأسعد بن علي قيدارة، والهيئة العلميّة، ومن مجموعة الباحثين والباحثات، وفريق المركز في التحرير والتدقيق والإخراج، ونسأل المولى تعالى أن يكافئهم على مثابرتهم، وصبرهم، وحسن تعاونهم، فإنّه سبحانه لا يضيع لديه ثواب العاملين.

والحمد لله ربّ العالمين

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة

المدخل

الحمد لله الذي له الخلق والأمر وهو أحسن الخالقين، وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور المبين، وصلّى الله على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله خاتم النبيّين وعلى آله الطيبين الطاهرين أئمّة الهدى ومصابيح الدجى وسلّم تسليمًا.

هذا الجزء الثاني من سلسلة (تاريخ الكلام الإماميّ)، ويحوي ستّة مباحث بحثيّة لعصر الأئمّة الأوّل، والذي يمتدّ من عصر إمامة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى نهاية عصر إمامة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أي (من ١٠هـ إلى ١٤٨هـ).

وعصر الأئمّة عليهم السلام وفق المنظور الإماميّ بدأ بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو امتداد لعصر النصّ، فسنّة الإمام (قوله وفعله وتقريره) حجّةٌ، كسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله. وموقع الإمامة ليس انتخابيًّا، وهذا المنصب لا يُسلب عن الإمام حتى لو لم يُمكَّن من أداء دوره السياسيّ والاجتماعيّ في قيادة النّاس وإدارة شؤون الدولة. فالإمام إمامٌ قام أو قعد، وهذا كلامٌ مستوحى من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام: "الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا"[١].

ولا تتزعزع مرجعيّة الإمام الدينيّة والفكريّة، حتى لو أقصي من منصبه الزمني، وحيل بينه وبين إمامته السياسيّة. والوظائف الدينيّة للإمام هي الوظائف الدينيّة للنبيّ صلى الله عليه وآله نفسها بفارق اختصاص الوحي بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فالأنبياء أنيطت بعهدتهم هذه المهمّة (هداية الناس) عن طريق الوحي من الله. أمّا الأئمّة عليهم السلام، فهم بدورهم ينهضون لتعليم المجتمع وهدايته؛

---

[١]- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢.

لأنّ رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله تحتاج لكي تستمر إلى قيّم يتولّى الإشراف على الرسالة، وقيادة الحياة الفكريّة والروحيّة على الأقلّ، ولا بدّ لأجل ذلك أن يكون منصوصًا من السماء.

"ووجود دور مشترك مارسه الأئمّة عليهم السلام ليس مجرّد افتراض يبحث عن مبرّراته التاريخيّة، وإنّما هو ممّا تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات؛ لأنّ الإمامة واحدة في الجميع بمسؤوليّتها وشروطها"[١]. ومن جهة أخرى، توجد خصوصيّة لعصر كلّ إمام؛ ولذلك يتنوّع أداء الأئمّة عليهم السلام وتتعدّد أساليبهم، فوحدة الهدف التي تجمع الأئمّة لا تلغي البتّة تنوّع الأدوار.

وقد قسّمنا تاريخ الإمامة إلى عصرين اثنين؛ شكّل عصر الإمام الصادق عليه السلام الفيصل بينهما؛ وذلك لأنّه عليه السلام واكب مرحلة انتقاليّة في تاريخ الأمّة، وهي سقوط الدولة الأمويّة وقيام الدولة العباسيّة، فهذا التحوّل الذي تزامن مع فترةٍ وجيزةٍ من تخفيف الضغوط على أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم استفاد منه الإمام الصادق عليه السلام ومن هذا الانفراج النسبيّ ليوطّد أركان المذهب ويستكمل شرح وتبيين أصوله، إلى جانب إعادة إحياء وتصحيح ما أقصي أو شُوّه من أصول الفكر.

مباحث الكتاب بين المأمول والمنجز:

استندت الرؤية البحثيّة لعصر الأئمّة عليهم السلام في حقبته الأولى (مضمون هذا الكتاب)، وكذلك في الحقبة الثانية (يأتي في الكتاب التالي: الجزء الثالث من السلسلة) إلى خطّة استهدفت دراسة أدوار كلّ إمام في التأسيس لعلم الكلام على العناصر الآتية:

- التعريف بالإمام.

- نبذة مختصرة عن عصره، وعن إمامته، والتحدّيات السياسيّة والاجتماعيّة التي واجهها.

- الأدوار العلميّة والدينيّة العامّة التي أدّاها.

[١]- انظر: الصدر، محمّد باقر، أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف.

- العقيدة من منظور الإمام: قراءة تحليليّة موضوعيّة للمأثور الروائيّ للإمام فيما يتعلّق بأصول الدين.

- القضايا والإشكالات العقديّة والفكريّة التي طُرحت في هذا العصر ومعالجات الإمام عليه السلام.

- التعريف بأصحاب الإمام وتلاميذه من أهل الكلام وأدوارهم في هذا المجال.

- محاججات الإمام عليه السلام ومناظراته وسجالاته مع أرباب الأديان الأخرى والمذاهب المخالفة.

- مآلات علم الكلام في نهاية هذا العصر.

والدراسات التي قدّمها الباحثون الأعزّاء تفاوتت من حيث الإحاطة بهذه العناوين، فغلب على بعضهم النفس الرّوائي الحديثيّ، وركّز على دراسة المنظومة العقديّة من المأثور الروائيّ للإمام عليه السلام، والبعض الآخر طغى عليه نفسه الرجاليّ، واستأثر اهتمامه بدراسة أصحاب الإمام ورموز مدرسته، ومن الباحثين من اعتنى عنايةً خاصّةً بدراسة المحيط الدينيّ والمذهبيّ لعصر الإمام ودوره في التّصدّي لتلك التيّارات والمذاهب وبالمناظرات والردود. نعم، لم يخلُ الأمر من بحوث اتّسمت بالشموليّة، وحاولت أن تقدّم قراءةً أكثر موضوعيّة لطبيعة العصر وأبعاد دور الإمام عليه السلام.

ولعلّ هذا التنوّع يضفي على المدوّنة المزيد من الثّراء، والتعدّد في منهجيّات المقاربة لهذه العصور، ما ينفع الباحثين على هذا الصّعيد في الاستفادة من كلّ هذه المنهجيّات؛ لأجل فهمٍ أعمق لتاريخ الأئمّة عليهم السلام وتاريخ العلوم في عصورهم...

ولنستعرض إجمالًا مضامين الفصول الستّة، كما تتوالى في هذا الكتاب:

المبحث الأوّل: أدوار الإمام عليّ عليه السلام في التأسيس الكلاميّ (دراسة لروايات الإمام عليّ عليه السلام في أصول الدين)

سعى هذا الفصل إلى تبيين معالم الدور العلويّ في علم الكلام الإماميّ، فبدأ بإطلالةٍ

على الأجواء الكلاميّة في ذلك العصر، وبيان التحدّيات التي واجهها المجتمع الإسلاميّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، سيّما في عهد "الفتوحات الإسلاميّة". وبعد ذلك، بوّب الرّوايات العلويّة الكلاميّة حسب الترتيب الخماسيّ المشهور لأصول عقائد الإماميّة: التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، والمعاد. وهذه الروايات والخطب العلويّة جمعها الباحث من مصادر شيعيّة أوّليّة.

ورغم الانتقائية الشديدة التي اضطرّ إليها الباحث في انتخاب النّصوص والخطب العلويّة، بحكم محدوديّة البحث، فإنّا نظنّ أنّ ما ورد من الرّوايات سلّط الضّوء إلى حدّ كبير على الدور التأسيسيّ والتبيينيّ لأمير المؤمنين عليه السلام، رغم الظّروف الصّعبة التي عاصرها وأحاطت بحياته الشريفة. ما انعكس على إبراز المعارف الإلهيّة الحقّة والصحيحة بشكل عامّ وعلنيّ في القسم الأوّل من حياته عليه السلام. وفي سنين خلافته الظاهريّة، عمل جاداً على معالجة الخلل المعرفيّ الموروث ببيان خطب يتناول فيها شتّى المسائل المعرفيّة، وهذا الأمر يكشف عن دورٍ تأسيسيٍّ وإصلاحيٍّ للإمام عليّ عليه السلام في منظومة الكلام الشيعيّ بشكل خاصّ، ومنظومة الكلام الإسلاميّ عمومًا.

وتجلّى هذا الدّور بالخصوص في بيان الأصول الاعتقاديّة عمومًا والتوحيد خصوصًا، ولا غرابة أن تفرض موقعيّة الإمام علي عليه السلام مرجعيّته في هذا المقام؛ لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله الذي خصّه من العلم ما لم يمنحه أحدًا، حيث لازم النبيّ صلى الله عليه وآله وورث العلم منه صلى الله عليه وآله.

المبحث الثاني: أدوار الإمام الحسن بن علي المجتبى عليه السلام في التأسيس الكلامي

في هذا الفصل، يدور البحث عن عصر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، والواقع الكلاميّ الذي ساد المجتمع الإسلاميّ في ذلك العصر، وطبيعة الاتجاهات والتيّارات الفكريّة التي ظهرت أو تفاعلت فيه، وكذلك المسائل والقضايا التي أثيرت في سبيل

محاولة رسم صورةٍ واضحةٍ عن واقع الكلام الإماميّ في تلك الفترة، والدور الذي لعبه الإمام الحسن عليه السلام في تطوّر هذا الحقل العلميّ.

ولأجل مقاربة دور الإمام الحسن عليه السلام كان للباحث خطوات عدّة: في الخطوة الأولى، أورد تعريفًا مقتضبًا بالإمام عليه السلام بيّن فيه بعض الملامح التي تُعين على فهم شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام، وفي خطوة ثانية، كانت له إطلالة على الواقع السياسيّ للمجتمع الإسلاميّ في عصر الإمام عليه السلام؛ لِمَا للتجاذبات السياسيّة والاجتماعيّة من دور في ظهور القضايا والإثارات الكلاميّة.

وفي خطوة ثالثة، استعرض أهم التيّارات الكلاميّة التي كان لها حضورٌ في عصر الإمام المجتبى عليه السلام، وبيّن أهم مقولاتها واعتقاداتها، فتحدّث عن: التيّار الأمويّ، فرقة الخوارج، فرقة المرجئة، وغلاة السبئيّة.

وفي الخطوة الرابعة، تناول مساهمة الإمام عليه السلام في تطوير الكلام الإماميّ وتعميقه، ولجأ في سبيل ذلك إلى استقصاء أهمّ المرويّات العقائديّة المنسوبة للإمام عليه السلام، مع تحليلها وتبويبها وتسليط الضوء على أهمّ نكاتها. وانتهى الباحث إلى التأكيد على الآثار الجليّة التي تركها الإمام الحسن عليه السلام في تنامي هذا الحقل المعرفيّ وتأصيل المقولات العقيديّة الأصيلة وحفظها من التحريف والتضليل، كما أكّد أنّ المحور الأساسيّ الذي دارت عليه رحى الجدل الكلاميّ في حقبة الإمام المجتبى عليه السلام كان محور الإمامة.

المبحث الثالث: أدوار الإمام الحسين بن علي عليه السلام في التأسيس الكلامي (قراءة في الروايات العقديّة)

واجه الباحث في هذا الفصل عن العصر الحسينيّ والدور الكلاميّ للإمام الحسين عليه السلام تحدّيًا كبيرًا، وهو قلّة الروايات الحسينيّة في المصادر الرئيسة، وندرة الروايات الحسينيّة في المجال الكلاميّ بالخصوص.

وفي الأحوال كلّها، إنّ التراث الكلاميّ الحسينيّ تراثٌ مهمّ، سواء أكان من جهة المرحلة الزمنيّة التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام والتعقيدات التي واجهها، أم من جهة موقع الإمام الحسين نفسه وخصوصيّته من بين أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

ورتّب الباحث الموضوعات الكلاميّة بحسب الترتيب الخماسيّ لأصول عقائد الإماميّة المؤلّفة من: التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، والمعاد. وفي كلّ قسم، قدّم عيّنة من الروايات الحسينيّة التي تندرج تحت هذه الموضوعات.

وكشفت هذه القراءة التحليليّة لمرويّات الإمام الحسين عليه السلام الدّور الإصلاحيّ والإرشاديّ للإمام الحسين عليه السلام في تبيين الموضوعات الكلاميّة في المسائل العامّة، كالتوحيد والعدل، وذلك من خلال بثّ الإمام عليه السلام الروايات العلويّة والأحاديث النبويّة، وهو بهذا الدور التوجيهيّ في المجتمع، حاول عليه السلام تصحيح الاعوجاج الناشئ من الإعلام الأمويّ بنشر الروايات المكذوبة والموضوعة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، والترويج للدعايات الزائفة عن أمير المؤمنين عليه السلام وسبّه ولعنه والتبرّؤ منه.

وشرح الباحث في مسألة الإمامة كيف انبرى المنهج الحسينيّ لدحض الإعلام الأمويّ الذي سخّر العقيدة الجبريّة في سبيل إثبات خلافة بني أميّة وحقّهم الإلهيّ في الملك، فأكّد في أحاديثه على خلافة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبيّن فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم العلميّة. واللّافت في هذا الموروث الروائيّ، هو تأكيد الإمام عليه السلام على بيان عدد الأئمّة وأسمائهم عليهم السلام، وبيان إمامة عليّ بن الحسين عليه السلام، وترسيخ القضيّة المهدويّة في الوجدان الإسلاميّ.

المبحث الرابع: أدوار الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام في التأسيس الكلامي

يختصّ هذا الفصل بالإمام الرابع: الإمام السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام، الذي تولّى

الإمامة في فترةٍ عصيبةٍ عصفت بالأمّة الإسلاميّة؛ حيث وصل مبلغ الانقلاب على قيم الدين ووصايا الرسول صلى الله عليه وآله، أن تجنح هذه الأمّة، فتقتل إمامها وحفيد نبيّها صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام، وتستسلم -ولو في الجملة- لقيادة يزيد بن معاوية بكلّ ما يمثّله من انحراف، وتحلّل، وفسوق. فلم تمضِ على وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أكثر من نصف قرن حتّى تبلغ الأمّة هذه المرتبة من الوهن والتهتّك والاستهتار بالدين، فيُقتل الحسين عليه السلام، وتُستباح مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، وتُرمى الكعبة بالمنجنيق!!!

وفي هذه الأجواء المريعة، تصدّى الإمام السجّاد عليه السلام للإمامة، وسعى لمواجهة ظروف داخليّة قاتمة فرضتها سلطات بني أميّة بجبروتها وعلوّها، وظروف خارجيّة لا تقلّ وطأةً عن سابقتها، كخطر الانفتاح على العالم الخارجيّ عقيب ما يُسمّى بالفتوحات الإسلاميّة، وبلوغ حدود الدولة الإسلاميّة مديات واسعة، واختلاط المسلمين مع شعوب أخرى.

فكانت مدرسة الإمام السجّاد عليه السلام وقيادته استجابةً واقعيّةً لكلّ هذه التحدّيات، فصان العقيدة، وعمّق روح التوبة في نفوس الناس، وأحيا القيم التي هدّدها فسق الملوك وتجبّرهم، وتهتّك العوام وانقيادهم للدنيا والشهوات.

ومن أبرز هذه الأدوار التي أدّاها الإمام عليه السلام، الدّور العقيديّ، والذي سعت الباحثة الفاضلة إلى استكشاف معالمه الأساسيّة، فتحدّثت عن لجوء الإمام السجّاد عليه السلام إلى استخدام أسلوب الدعاء؛ ليوصل من خلاله كلّ الأهداف التي تخدم هذا الدين القويم، والتصدّي لردّ الشبهات من خلال الكنز الثمين الكامن في الصحيفة السجّاديّة.

وأشارت إلى نجاح الإمام في اختراق المجتمع عبر مؤسّسة العتق بطريقة لا تستفزّ السلطة، فكان عليه السلام يشتري العبيد ويقوم بتثقيفهم ومن ثمّ يعتقهم، فصنع حصنًا منيعًا للدفاع عن نهج أهل البيت عليهم السلام لاحقًا.

كما وضّحت الباحثة معالجة الإمامعليه السلام الوضع الشيعيّ الداخلي نتيجة ما حدث في عصره، واستنتجت من خلال بعض الروايات بأنّه كان داعمًا بطريقةٍ غير مباشرةٍ بعض الثورات التي حصلت.

واعتبرت الباحثة أنّ من أهمّ الأمور التي حقّقها الإمام السجّادعليه السلام أنّه صنع على عينيه مجموعة من العلماء والأصحاب المخلصين، الذين تتلمذوا على يديه، وشكّلوا حصنًا منيعًا للدين، وكانوا النواة للجامعة التي استكملها الإمام الباقرعليه السلام، وتبلورت بشكل واضح وجليّ على يدي الإمام الصادقعليه السلام فيما بعد.

المبحث الخامس: أدوار الإمام محمّد بن عليّ الباقرعليه السلام في التأسيس الكلامي

في سبيل الكشف عن أدوار الإمام الباقرعليه السلام في التأسيس الكلاميّ، اعتمد الباحث منهجًا تحليليًّا نقليًّا، واستند إلى مصادر الحديث وكتب الملل والنحل؛ ليُشكّل رؤيةً موضوعيّةً عن الواقع والظروف التاريخيّة التي عاشها الإمام، ولاستكشاف الأفكار الاعتقاديّة التي روّجها الإمامعليه السلام، وطرق معالجته للانحرافات والأفكار الضالّة، ومعالجته للمشاكل التي واجهتها الكتلة الشيعيّة، ورسم حدود المذهب وتحصينه. وجاءت الدّراسة في مطالب أربعة:

المطلب الأوّل: فيه تحدّث الباحث عن حياة الإمام الباقرعليه السلام والظرف الفكريّ الذي عايشه، باستقراء الوضع السياسيّ وأهمّ الطروحات الفكريّة التي عاصرت زمنهعليه السلام.

المطلب الثاني: وفيه بيان دور الإمام الباقرعليه السلام في رسم حدود المذهب وتحصينه، لا سيّما عن طريق التأكيد على مصادر المعرفة الصحيحة، وحثّه على طلب العلم من جهة وعلى حصر المرجعيّة بهمعليهم السلام من جهة أخرى، مع بيان أصالة علمهم وأنّه وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله.

المطلب الثالث: عرض فيه الباحث لاحتجاجات الإمام وبياناته للردّ على الأفكار الضالة والتيّارات المنحرفة؛ حيث بيّن الإمام الباقرعليه السلام التفاصيل الاعتقاديّة التي كانت محلّ خلاف بين المسلمين، كما في مسألة ضابط التعرّف على الله تعالى وصفاته ولزوم الخروج من حدّي التعطيل والتشبيه، والتأكيد على علم الله تعالى المطلق غير المنافي لفكرة البداء، وفي الجبر والتفويض وإثبات أمر بين الأمرين، وبيان ضابط الحكم بالإيمان مع الردّ على تفريط المرجئة وإفراط الخوارج في تلك المسألة...

المطلب الرابع: حلّل الباحث دور الإمامعليه السلام في صون استمراريّة المذهب عن طريق التأكيد على اتصال الإمامة وبقائها في عَقِبه، والنصّ على الإمام من بعده، أو عن طريق حفظ هذا الدين بتربية جيل من العلماء، مضافًا إلى ذكره أحوال الغيبة وما يلزم على المؤمنين في ذلك الظرف الصعب.

المبحث السادس: أدوار الإمام جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام في التأسيس الكلامي

امتاز عصر الإمام الصادقعليه السلام بفسحةٍ من الحرّيّة الفكريّة، والانفراج السياسيّ المحدود، الذي حاول الإمامعليه السلام من خلاله تثبيت مكتسبات الأئمّة السابقين في ترسيخ أصول العقيدة، ومحاججة الملحدين، والزنادقة، ذودًا عن الدين وتحصين المذهب، وإبطال دعاوى الفرق الضّالة، وضمان استمراريّة مدرسة أهل البيتعليهم السلام.

ويتصدّى هذا الفصل، لدراسة هذه الأدوار التي أدّاها الإمام الصادقعليه السلام، ويُبرز خصوصيّات مدرسته الكلاميّة، فقدّم في المطلب الأوّل نبذةً عن الإمام الصادقعليه السلام وفضائله، ومن ثمّ جرى تناول المدرسة العقديّة للإمام الصادقعليه السلام من خلال الإشارة إلى الأصول الاعتقاديّة في الموروث المرويّ عنهعليه السلام. وركّز هذا المبحث في مطلبه الثاني على أصل التوحيد عند الإمامعليه السلام، بالاعتماد على أحد الأصول المرويّة عنه، وهو توحيد المفضّل. وفي المطلب الثالث، حلّل الباحث منهجيّة الإمام الصادقعليه السلام في إعداد

أصحابه في تلك الحقبة الزمنيّة، التي تميّزت بكثرة الآراء وأصحاب الآراء في الدين، وهو الخطر الداخليّ الذي كان يهدّد استمراريّة الدين. وفي مطلب رابع، عمد إلى ذكر أبرز أعلام مدرسة الإمام الصادقعليه السلام ممّن عُرف بالمناظرات واشتهر بالمحاججات؛ حيث سُلّط الضوء على شيءٍ من سيرتهم ومسيرتهم وجهودهم المباركة التي بذلوها في تحصين الأمّة من شبهات وأضاليل المنحرفين. وفي المطلب الأخير، ذُكرت أهمّ الفرق والمذاهب المنحرفة التي كانت في زمن الإمام الصادقعليه السلام، فمنها ما تفرّع عن الإسلام بشكل عامّ، ومنها ما تفرّع عن الشيعة بشكل خاصّ، فكان للإمامعليه السلام موقفه ووقفته الصارمة ضدّهم، سواء أكان عن طريق المناظرة أم بالردّ عليهم وإظهار ضلالهم أمام أصحابه. وكان لتلك الجهود المباركة الأثر الأكبر في القضاء على كثير من تلك الجماعات، بحيث لم يبقَ لها أثرٌ ولا أتباع. ولم يغفل البحث عن ذكر عدد من الروايات التي وصلتنا عن الإمامعليه السلام والتي تحسم الجدل في أهمّ وأخطر الأبحاث العقديّة والتحذير من قائليها ومروّجيها.

هذه هي تمام فصول الكتاب، التي نجدّد لباحثيها كلّ الشكر والتقدير للجهود الكبيرة التي بذلوها إزاء كلّ الصعوبات التي تواجه البحث العلميّ على هذا الصعيد.

كما نجدّد شكرنا لكلّ الأخوة الأعزاء من فريق المركز، الذين ساهموا في جميع مراحل العمل، من مرحلة الاستكتاب إلى مرحلة الإخراج، على أن يجد هذا العمل العلميّ الرائد إن شاء الله طريقه إلى النور.

اللهم تقبّل منهم جميعًا وتقبّل منّا إنّك سميع مجيب.

الشيخ الأسعد بن علي قيدارة

مدير مشروع تاريخ الكلام الإمامي

أدوار الإمام علي عليه السلام في التأسيس الكلاميّ (١١-٤٠هـ)

(دراسة لروايات الإمام علي عليه السلام في أصول الدين)

الشيخ محمد رضا الخاقاني(*)

المقدّمة

تمتاز الشيعة الإماميّة من بين المذاهب الإسلاميّة باستمداد معارفها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله من مصدر معصوم متمثّل بالإمام عليه السلام. والإمام عليه السلام ينوب عن النبيّ صلى الله عليه وآله في أمر قيادة الأمّة وهدايتها، وتبيين المعارف الإسلاميّة الصحيحة، وتصحيح الاعوجاج الناشئ من تسلّم مقام خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله من قِبَل من لا صلة به ونسبة. من هذا المنطلق، وفي سبيل معرفة أدوار علم الكلام عند الإماميّة، لا بدّ من النّظر في تراث الأئمّة عليهم السلام باعتبارهم المصدر الرئيسيّ للكلام الشيعيّ، فكلّ إمام عليه السلام بثّ المعارف الإلهيّة، وفقًا لما يقتضيه عصره وزمانه من تساؤلات وأمور رائجة.

يسعى هذا البحث إلى تبيين معالم الدور العلويّ في علم الكلام الإماميّ. وفي المقدّمة إطلالة على الأجواء الكلاميّة في العصر العلويّ، وبيان تحدّياتٍ واجهها المجتمع الإسلاميّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، سيّما في عهد الفتوحات الإسلاميّة. وبعد ذلك، تبويب الروايات العلويّة الكلاميّة، حسب الترتيب الخماسيّ المشهور لأصول عقائد الإماميّة: التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، والمعاد.

لم يكن محور الاهتمام الأساسيّ في هذا البحث هو الشرح التفصيليّ للروايات، بل حاول عرض ذلك بأقلّ شرح ممكن. نعم، ثمّة بعض التوضيحات عن موضوع الروايات وصلتها بعلم الكلام لا بدّ من إيرادها، كذلك جُمعت الروايات والخطب

(*)- باحث وأستاذ في الحوزة العلمية ـ قم.

العلويّة من مصادر شيعيّة أوّليّة، فلذلك أصبح الأساس في اختيار الروايات والخطب صحّتها، ما لم تعارض آية من القرآن أو سنّة ثابتة أو حدثًا تاريخيًّا ثابتًا.

لقد سبق بعض الباحثين في البحث عن الدور الكلاميّ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومنهم:

– د. حسن حمزة شهيد في مقالته «تأسيس علم الكلام الإسلاميّ عند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام».

– أ. سامي سنوسي في مقالته «تأصيل مقولات علم الكلام بمقالات الإمام علي عليه السلام».

– رسول كاظم عبد السادة في مقالة تحت عنوان «مفهوم القضاء والقدر وخلق الأعمال في كلام الإمام عليّ عليه السلام».

وعلى الرغم من فوائد هذه البحوث، إلّا أنّها لم تكن جامعةً للموضوعات الكلاميّة، كما تمّ السعي إلى ذلك. فمن هذا المنطلق توجد ثغرات في تبيين الدور العلويّ في الكلام الإماميّ لا بدّ من سدّها.

توجد بعض المسانيد للإمام علي عليه السلام، قد أُلّفت بيد بعض المحقّقين، حيث حاولوا فيها أن يجمعوا كلّ ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في المصادر الشيعيّة الحديثيّة. فيمكن أن يُشار إلى أهمّ الكتب في هذا الموضوع إلى مسند الإمام علي عليه السلام تأليف المرحوم السيد حسن القبانجي، وإلى مسند الإمام أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام تأليف المرحوم الشيخ العطاردي. كذلك موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسّنة والتاريخ وموسوعة العقائد الإسلاميّة للمرحوم الشيخ الريشهري. كانت هذه المصادر، بالإضافة إلى نهج البلاغة، بمثابة مصادر أساسيّة لهذا البحث. ولا بدّ من تقديم جزيل الشكر والتقدير للأستاذ العلّامة السيّد هاشم الميلاني، حيث أفادني كثيرًا بتقديم مسودّته الرائعة التي كتبها عن الدور العلويّ في أدوار علم الكلام عند الإماميّة، فكان ذلك ملهمًا ومساعدًا لي في ترتيب هذا البحث.

إطلالة على الأجواء الكلاميّة في العصر العلويّ

شهد المجتمع الإسلاميّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله تحدّيات معرفيّة من مختلف الأنحاء، كان بعضها نتيجة صراعاتٍ سياسيّة داخليّة، أو نتيجة انفتاح المجتمع الإسلاميّ على آفاق جغرافيّة إثر الفتوحات الإسلاميّة. بشكل عام، يمكن تقسيم تلك التحدّيات إلى «تحدّيات معرفيّة داخليّة» و«تحدّيات معرفيّة خارجيّة»؛ تشتمل التحدّيات من القسم الأوّل على ما وقع إثر أحداث ووقائع كانت في المجتمع الإسلاميّ نفسه، وبعبارة أوضح، ما حدث من خلاف بين المسلمين أنفسهم حول أمور داخليّة إسلاميّة، كالإمامة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، أو اعتبار مانعي الزكاة مرتدّين.

أمّا التحدّيات المعرفيّة الخارجيّة، فهي التحدّيات المعرفيّة التي اجتاحت المجتمع الإسلاميّ من الخارج، أي من قِبَل معتنقي الأديان الأخرى، فهي تشتمل على المناظرات والتساؤلات التي أجراها بعضٌ من اليهود والنصارى ومعتنقي الأديان الأخرى مع المسلمين حول المسائل المعرفيّة والكلاميّة.

المسائل المعرفيّة والعقديّة في العصر العلويّ، لم تكن تحمل اسم الكلام بعد، بل كانت مجموعة من التساؤلات نتجت إثر وقائع معيّنة أو مسائل مطروحة في ثقافات غير إسلاميّة. التساؤلات العقديّة آنذاك كانت متأثّرة في الغالب بالمسائل السياسيّة والاجتماعيّة في المجتمع الإسلاميّ. من هذا المنطلق، يُمكن أن يُطلق على المسائل الكلاميّة في هذه الحقبة التاريخيّة اسم «الكلام السياسيّ». الهدف من طرح المسائل العقديّة في هذا العصر، هو النتاج العينيّ والعمليّ؛ لذلك نجد أنّ مسائل الإيمان والكفر أو موضوع الإمامة سادت في الأجواء الكلاميّة آنذاك. وكانت طريقة مناقشة المسائل الكلاميّة في هذا العصر شفهيّة، وفي الغالب بشكل خطابات، واحتجاجات، ومناشدات. والموضوعات العقديّة في هذا العصر لم تكن كلّية، بل موضوعات جزئيّة[١].

يمتاز عصر إمامة أمير المؤمنين عليه السلام بكونه معاصرًا لكلٍّ من التحدّيات الداخليّة

[١]- سبحانى، محمدتقى: «كلام اماميه: ريشه ها ورويش ها». نقد ونظر ٦٥، ص ٥-٣٧، ١٤-١٥.

والخارجيّة، فهذا العصر يمتاز بتأسيس نواة الفرق الكلاميّة، التي أصبحت فيما بعد ذات نظام كلاميٍّ ممنهج. شاهد العصر العلويّ أوّل وأكبر خلاف بين المسلمين، وهو الخلاف في مسألة الإمامة. ذكر أبو الحسن الأشعريّ (ت ٣٢٠هـ) بعض الآراء في الإمامة ضمن المقولات الأولى التي ابتدعت والتي سبّبت الفرقة والانشقاق بين المسلمين بعد نبيّهم صلى الله عليه وآله[١]، كذلك الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) عدّ الخلاف في الإمامة أعظم خلاف حدث بين المسلمين، حيث صرّح: «أعظم خلاف بين الأمّة خلاف الإمامة؛ إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان»[٢]. وقعت خلافات أخرى بين المسلمين من قبيل: قتال مانعي الزكاة، في تعيين عمر خليفة لأبي بكر، في أمر الشورى بعد عمر، في أمر عثمان، وخروج أهل الجمل ومعاوية والخوارج على الإمام علي عليه السلام بعد أن تمّت البيعة له[٣]. كلّ هذه الأحداث وغيرها أنتجت فيما بعد فرقًا كلاميّة، كما يمكن إرجاع معظمها إلى مسألة الإمامة والخلافة. وهذا نموذج من التحدّيات المعرفيّة الداخليّة.

أمّا بالنسبة إلى التحدّيات المعرفية الخارجيّة، فهناك بعض الوفود اليهوديّة أو المسيحيّة وفدت على المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فحملت بعض التساؤلات. أضف إلى ذلك دور الفتوحات في حُكم الخلفاء، حيث وصلت الحدود الإسلاميّة من الشرق إلى هرات والسند، من الغرب إلى صحراء مصر، من الشمال إلى إرمينيا ومن الجنوب إلى عدن[٤]. بما أنّ سكّان هذه الأراضي كانوا من اليهود، والنصارى، وأتباع زرادشت، والديانة المانويّة، وسائر الأديان، فقد واجه المسلمون تحدّيات معرفيّة جديدة. بالنظر إلى المناظرات والتساؤلات الكلاميّة التي حفظتها لنا النصوص التاريخيّة والحديثيّة، فإنّ أكثر تلك المناظرات كانت من قِبَل اليهود والنصارى وبعض الزنادقة، حيث تمحورت موضوعاتها حول التوحيد، العدل، صفات الباري تعالى، والنبوّة.

في العصر العلويّ، على الخصوص في فترة الحكومة العلويّة، يمكن الحصول على

[١]- الأشعريّ، علي بن اسماعيل، مقالات الاسلاميّين واختلاف المصلّين، ص٢.

[٢]- الشهرستاني، محمّد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ج١، ص ٣١.

[٣]- م. ن، ج١، صص ٣٣-٣٥.

[٤]- انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، لبنان-بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٨.

مواد معرفيّة ضمن خطب ورسائل أمير المؤمنين عليه السلام. وهذا القسم يؤكّد كون الخطاب الكلاميّ في العصر العلويّ خطابًا عامًّا شفهيًّا. نعم، توجد بعض الروايات التي تبيّن بعض المسائل المعرفيّة لم تكن قُرِأت على رؤوس الأشهاد، لكنّها لم تتضمّن الخطوط العريضة للمسائل الكلاميّة.

أوّلًا: أصل التوحيد:

كان التوحيد بمنزلة الأصل الأساس للإسلام، فالنبيّ صلى الله عليه وآله بذل الغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمة التوحيد. كانت مهمّة رسول الله صلى الله عليه وآله تتمحور حول تبليغ التوحيد، ومحاربة الشرك المتفشّي في العقيدة الجاهليّة آنذاك. فنجد أنّ الأحاديث النبويّة قد كثرت حول المسائل التوحيديّة. وبفضل هذه البيانات النبويّة كانت المسائل التوحيديّة مستقرّة في أجواء المجتمع الإسلاميّ في العصر العلويّ، لكن لم يكن معنى ذلك استغناء المجتمع عن بيان تلك المسائل.

بعض الروايات العلويّة التي وردت في التوحيد، صدرت كمناظرات مع اليهود والنصارى الوافدين على المدينة المنورة. وبعض المناظرات أُقيمت بهدف معرفة الوصيّ الحقيقيّ للنبيّ صلى الله عليه وآله[١].

كان لأمير المؤمنين عليه السلام الدور الأساس في بيان أَصْلَيْ التوحيد والعدل. فما جاء به المتكلّمون فيما بعد قد أُخذ من كلمات علي عليه السلام. قال الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) في ذلك: «اعلم أنّ أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه، فإنّها تتضمّن من ذلك ما لا زيادة عليه، ولا غاية وراءه، ومَن تأمّل المأثور في ذلك من كلامه، عُلم أنّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعد في تصنيفه وجمعه، إنّما هو تفصيلٌ لتلك الجمل، وشرحٌ لتلك الأصول»[٢].

---

[١]- نموذجًا لذلك، انظر: الطوسي، محمّد بن حسن، الأمالي، ص٢١٨.

[٢]- الشريف المرتضى، أمالي المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد، ج١، ص١٤٨.

١- معرفة الله تعالى

طالما أكّد الإمام عليّ عليه السلام في خُطبه أنّ "أوّل الدين معرفته"[١]، حيث ورد عنه "ثمرة العلم معرفة الله"[٢]، "معرفة الله سبحانه أعلى المعارف"[٣]، و«ما يسّرني لو متُّ طفلًا وأُدخلتُ الجنّة ولم أكبر فأعرفَ ربّي»[٤].

توجد كثير من الآيات القرآنيّة التي تؤكّد على فطريّة المعرفة الإلهيّة لدى الإنسان[٥]، كذلك ورد الكثير عن النبيّ صلى الله عليه وآله يعرّف المعرفة الإلهيّة معرفةً كامنةً في فطرة البشريّة أجمع[٦]. وفقًا لذلك المنوال، أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذه النقطة، حيث قال في بعض أدعيته: «اللهمّ خلقتَ القلوبَ على إرادتك، وفطرتَ العقولَ على معرفتك»[٧]، وقال في بعض خُطبه: «الحمد لله المُلهم عبادَه حمدَه، وفاطرهم على معرفة ربوبيّته»[٨]. المعرفة الفطريّة لله قد تتجلّى عند الشدائد، فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام عن سؤال مَن سأله عن معنى «بسم الله الرحمن الرحيم» ما منه: «اللهُ هُوَ الَّذي يَتَأَلَّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائِدِ كُلُّ مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ دُونَهُ وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ مِنْ جَمِيعِ مَا سِوَاه»[٩].

من الروايات التي تدلّ على فطريّة معرفة الباري تعالى، هي روايات «عالم الذرّ». في رواية عن الأصبغ بن نُباتة، أجاب الإمام عليه السلام عن سؤال ابن الكوّاء بأنّه هل كلّم الله سبحانه أحدًا قبل موسى عليه السلام؟ فقال: «قَدْ كَلَّمَ اللهُ جَمِيعَ خَلْقِهِ بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِ الْجَوَاب... أَوَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ

[١]- الشريف الرضي، محمّد بن الحسن، نهج البلاغة، الخطبة ١.

[٢]- الآمدي، عبد الواحد بن محمّد، غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٢٦.

[٣]- م. ن، ص٧١٢.

[٤]- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبدالله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١، ص ٧٤.

[٥]- منها: سورة الروم، الآية ٣٠؛ سورة البقرة، الآية ١٣٨؛ سورة الحج، الآية ٣١؛ سورة لقمان، الآية ٣١؛ سورة الزمر، الآية ٣٥.

[٦]- نموذجًا لذلك: الكلينيّ، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، ص١٣.

[٧]- ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، ص١٢٠.

[٨]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٣٩.

[٩]- الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، ص٢٣١.

تَعَالَى إِذْ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢). «فَقَدْ أَسْمَعَهُمْ كَلَامَهُ وَرَدُّوا عَلَيْهِ الْجَوَابَ كَمَا تَسْمَعُ فِي قَوْلِ اللهِ يَا ابْنَ الْكَوَّاءِ (قَالُوا بَلَى)، وَقَالَ لَهُمْ ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ (طه: ١٤). وَأَنَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ فَأَقَرُّوا لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ»[١].

في رواية أخرى في المقام، إنّه حين أراد عمر أن يستلم الحجر قال: أما والله إنّي لأعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولو لا أنّ رسول الله استلمك ما استلمتك، فقال له عليّ عليه السلام: «مه يا أبا حفص، لا تفعل، فإنّ رسول الله لم يستلم إلّا لأمر قد علمه، ولو قرأتَ القرآن فعلمتَ مِن تأويله ما علم غيرك، لعلمتَ أنّه يضرّ وينفع، له عينان وشفتان ولسان ذلق، يشهد لمن وافاه بالموافاة. قال: فقال له عمر: فأوجدْني ذلك من كتاب الله يا أبا الحسن، فقال علي: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، فلمّا أقرّوا بالطاعة بأنّه الربّ وأنّهم العباد، أخذ عليهم الميثاق بالحجّ إلى بيته الحرام، ثمّ خلق الله رقًّا أرقّ من الماء، وقال للقلم: اكتب موافاة خلقي بيتي الحرام، فكتب القلم موافاة بني آدم في الرقّ، ثمّ قيل للحجر: افتح. قال: ففتحه فألقم الرقّ، ثمّ قال للحجر: احفظ واشهد لعبادي بالموافاة، فهبط الحجر مطيعًا لله. يا عمر، أوليس إذا استلمت الحجر قلت: أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة؟ فقال عمر: اللهم نعم، فقال له علي: من ذلك»[٢].

ثمّ تطوّرت هذه المعرفة إلى معرفة الله بآثاره، حيث قال في جواب مَن سأله أنّه كيف عرف ربّه فأجاب عليه السلام: «بِفَسْخِ الْعَزْمِ وَنَقْضِ الْهَمِّ، لَمَّا هَمَمْتُ فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي، عَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي»[٣]. قد أجاب علي عليه السلام جاثليق النصرانيّ حيث سأله عن كيفيّة معرفة الله: «مَا عَرَفْتُ اللهَ بِمُحَمَّدٍ وَلَكِنْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، حِينَ خَلَقَهُ وَأَحْدَثَ فِيهِ الْحُدُودَ مِنْ طُولٍ وَعَرْضٍ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ

---

[١]- العيّاشي، محمد بن مسعود، التفسير، ج٢، ص ٤١.

[٢]- م.ن، ج٢، ص ٣٨.

[٣]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٢٨٨؛ انظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، حكمة ٢٥٠.

مُدَبَّرٌ مَصْنُوعٌ بِاسْتِدِلَالٍ وَإِلْهَامٍ مِنْهُ»[١]، وكما أجاب من سأله: بِمَ عرفتَ ربّك؟ فقال: «بما عرّفني نفسه»، فقيل: وكيف عرّفك نفسه؟ قال: «لَا يُشْبِهُهُ صُورَةٌ وَلَا يُحَسُّ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ شَيْءٌ فَوْقَهُ، أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ لَهُ أَمَامٌ، دَاخِلٌ فِي الْأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ دَاخِلٍ فِي شَيْءٍ، وَخَارِجٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ خَارِجٍ مِنْ شَيْءٍ. سُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا غَيْرُهُ وَلِكُلِّ شَيْءٍ مُبْتَدَأٌ»[٢]. رأى الله معروفاً بالدّلالات منعوتًا بالعلامات[٣]، فكان يدعوا الناس إلى أن «اعرفوا الله بالله»[٤].

هناك أمر يُعرف الله به في كلام أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ، وهو معرفة أبوابه والصراط إليه، وهم أهل البيتعَلَيْهِمُالسَّلَامُ. قال الإمام عليعَلَيْهِالسَّلَامُ في خطبة: «نَحْنُ الْأَعْرَافُ الَّذِينَ لَا يُعْرَفُ اللهُ إِلَّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا... وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَوْ شَاءَ لَعَرَّفَ النَّاسَ حَتَّى يَعْرِفُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ وَيَأْتُوهُ مِنْ بَابِهِ، وَلَكِنْ جَعَلَنَا أَبْوَابَهُ وَصِرَاطَهُ وَسَبِيلَهُ وَبَابَهُ الَّذِي يُؤْتَى مِنْه»[٥].

إنّ عدم رؤية الباري عزّ وجل لا تدلّ على عدم وجوده، كما أنّ العقل لا يحكم على ما لا تراه العين بعدم الوجود، هذا ما نصّ عليه أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ في خطبة: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ، فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُه... فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُود»[٦].

لا يُرى الله سبحانه بالعيون، لكن تراه القلوب بحقائق الإيمان. هذا ما أجاب به أمير المؤمنينعَلَيْهِالسَّلَامُ من سأله: هل رأى ربّه؟ فقال: "لَمْ أَكُ بِالَّذِي أَعْبُدُ مَنْ لَمْ أَرَهُ... لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ"[٧]. كذلك قال في

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص ٢٨٦-٢٨٧.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص٨٥-٨٦؛

[٣]- المفيد، محمّد بن محمّد: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج١،صص ٢٢٤-٢٢٥؛

[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص ٨٥.

[٥]- الصفّار، محمّد بن حسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ج١، ص٤٩٧.

[٦]- ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، الخطبة ٤٩.

[٧]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج١، صص ٢٢٤-٢٢٥؛

مناظرته عليه السلام مع يهوديّ شاميّ في رؤية النبيّ صلى الله عليه وآله لله سبحانه: "غَشِيَ النُّورُ بَصَرَهُ فَرَأَى عَظَمَةَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفُؤَادِهِ وَلَمْ يَرَهَا بِعَيْنِه"[١]، وفي دعاء له عليه السلام علّمه نوفًا البكالي: "إِلَهِي، تَنَاهَتْ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ إِلَيْكَ بِسَرَائِرِ الْقُلُوب"[٢].

٢- براهين وجود الله تعالى

لا يُمكن إنكار دور العقل في المعرفة الإلهيّة وإثبات وجود الصانع، فمن هذا المنطلق سعى المتكلّمون إلى تأليف وتصنيف براهين مختلفة تثبت وجود الباري تعالى. كلّ واحد من تلك البراهين حمل اسمًا على الأساس الذي ابتنى عليه، من قبيل: برهان النظم، برهان حدوث العالم، وغير ذلك من البراهين.

إنّ العقل بمشاهدة نظام الطبيعة وإتقان صنع العالَم يحكم بوجود خالق له، فلا يمكن أن يجحده، هذا ما هو معروف باسم «برهان النظم»، فقد أشار أمير المؤمنين إلى ذلك حيث قال: «عَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ الله"[٣]. وفي خطبة قال عليه السلام: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي... بَطَنَ مِنْ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ وَظَهَرَ فِي الْعُقُولِ بِمَا يُرَى فِي خَلْقِهِ مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الَّذِي سُئِلَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بِحَدٍّ وَلَا بِبَعْضٍ، بَلْ وَصَفَتْهُ بِفِعَالِهِ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ عُقُولُ الْمُتَفَكِّرِينَ جَحْدَهُ، لِأَنَّ مَنْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِطْرَتَهُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَهُوَ الصَّانِعُ لَهُنَّ، فَلَا مَدْفَعَ لِقُدْرَتِهِ الَّذِي نَأَى مِنَ الْخَلْقِ»[٤]. في خطبة أخرى أشار الإمام عليه السلام إلى آثار الله عزّ وجل التي صرّحت بوجوده: «أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائمة»[٥].

---

[١]- الطبرسيّ، الإحتجاج، م.س، ج١، ص ٢٢٠.

[٢]- المجلسيّ، محمّد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار، ج٩١، ص ٩٥.

[٣]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، حكمة ١٢٦.

[٤]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص١٤١.

[٥]- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م.س، الخطبة ٩١.

لقد سبق في جوابهعليه السلام على أسئلة جاثليق النصرانيّ، حيث قال: «مَا عَرَفْتُ اللهَّ بِمُحَمَّدٍ وَلَكِنْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا بِاللهِّ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ خَلَقَهُ وَأَحْدَثَ فِيهِ الْحُدُودَ مِنْ طُولٍ وَعَرْضٍ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مُدَبَّرٌ مَصْنُوعٌ بِاسْتِدلَالٍ وَإِلْهَامٍ مِنْهُ»[١]. ومن قوله عند رؤية الهلال: «أَيُّهَا الْخَلْقُ الْمُطِيعُ، الدَّائِبُ السَّرِيعُ، الْمُتَرَدِّدُ فِي فَلَكِ التَّدْبِيرِ، الْمُتَصَرِّفُ فِي مَنَازِلِ التَّقْدِيرِ، آمَنْتُ بِمَنْ نَوَّرَ بِكَ الظُّلَمَ وَأَضَاءَ بِكَ الْبُهَمَ، وَجَعَلَكَ آيَةً مِنْ آيَاتِ سُلْطَانِهِ، وَامْتَهَنَكَ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَالطُّلُوعِ وَالْأُفُولِ، وَالْإِنَارَةِ وَالْكُسُوفِ، فِي كُلِّ ذَلِكَ أَنْتَ لَهُ مُطِيعٌ وَإِلَى إِرَادَتِهِ سَرِيعٌ، سُبْحَانَهُ مَا أَحْسَنَ مَا دَبَّرَ وَأَتْقَنَ مَا صَنَعَ فِي مُلْكِهِ، وَجَعَلَكَ اللهُّ هِلَالَ شَهْرٍ حَادِثٍ لِأَمْرٍ حَادِثٍ»[٢]. كان أمير المؤمنينعليه السلام كثيرًا ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل: «أشهدُ أنّ السماوات والأرض وما بينهما آياتٌ تدلّ عليك وشواهد تشهد بما إليه دعوت، كلّ ما يؤدّي عنك الحجّة ويشهد لك بالربوبيّة، موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك»[٣].

إنّ العقل حين يرى حدوث الأشياء، يستنتج وجود محدِث له، فبما أنّ العالم بأجمعه حادث بحسب قانون العلّيّة، فيجب أن يكون له محدِث. هذا ما سماه المتكلّمون بـ «برهان الحدوث»، فأشار أمير المؤمنينعليه السلام في بعض كلماته إلى ذلك: «الْحَمْدُ للهَّ... الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ... مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِه، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِه»[٤]. ومنها: «كَفَى بِإِتْقَانِ الصُّنْعِ لَهَا آيَةً وَبِمَرْكَبِ الطَّبْعِ عَلَيْهَا دَلَالَةً وَبِحُدُوثِ الْفِطَرِ عَلَيْهَا قِدْمَةً وَبِإِحْكَامِ الصَّنْعَةِ لَهَا عِبْرَةً»[٥].

هناك برهان آخر يُستدلّ به في إثبات الصانع مبنيّ على قانون العلّيّة، وهو «برهان الحركة». مفاده أنّ كلّ شيء في الوجود متحرّك، وكلّ متحرّك يحتاج إلى محرِّك. يشير

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص ٢٨٦-٢٨٧.

[٢]- الصدوق، محمّد بن علي، من لايحضره الفقيه، ج٢، ص١٠١.

[٣]- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م.س، ج٢٠، ص٢٥٥.

[٤]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥؛ انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص١٣٩-١٤٠.

[٥]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٧١.

الإمام عليّ عليه السلام إلى ذلك في خطبة له في التوحيد ويقول: «لَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَلَا يُمْكِنُ فِيهِ التَّجْزِئَةُ وَلَا الِاتِّصَالُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ أَوْ يَعُودُ إِلَيْهِ مَا هُوَ ابْتَدَأَهُ أَوْ يَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَه»[١].

٣- معرفة كُنه ذاته عزّ وجل

معرفة كُنه الباري تعالى أمرٌ مستحيل؛ إذ كيف يُمكن للمحدود أن يصل إلى كُنه معرفة غير المحدود؟ هذا الأمر تجلّى في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال عن الله تعالى اسمه: «مُمْتَنِعٌ عَنِ الْأَوْهَامِ أَنْ تَكْتَنِهَهُ، وَعَنِ الْأَفْهَامِ أَنْ تَسْتَغْرِقَهُ، وَعَنِ الْأَذْهَانِ أَنْ تُمَثِّلَهُ، قَدْ يَئِسَتْ مِنِ اسْتِنْبَاطِ الْإِحَاطَةِ بِهِ طَوَامِحُ الْعُقُولِ، وَنَضَبَتْ عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِالاكْتِنَاهِ بِحَارُ الْعُلُومِ، وَرَجَعَتْ بِالصُّغْرِ عَنِ السُّمُوِّ إِلَى وَصْفِ قُدْرَتِهِ لَطَائِفُ الْخُصُوم»[٢]. وفي خطبة خاطب الباري عزّ وجل: «فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومُ، لا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَر»[٣]. وقال في خطبة أخرى: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِه»[٤]. قال عليه السلام مخاطبًا الله عزّ وجلّ: «إِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفًا، وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُودًا مُصَرَّفًا»[٥]، وقال أيضًا: «لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلا»[٦]، وقال عليه السلام: «حَارَ فِي مَلَكُوتِهِ عَمِيقَاتُ مَذَاهِبِ التَّفْكِيرِ، وَانْقَطَعَ دُونَ الرُّسُوخِ فِي عِلْمِهِ جَوَامِعُ التَّفْسِيرِ، وَحَالَ دُونَ غَيْبِهِ الْمَكْنُونِ حُجُبٌ مِنَ الْغُيُوبِ، تَاهَتْ فِي أَدْنَى أَدَانِيهَا طَامِحَاتُ الْعُقُولِ فِي لَطِيفَاتِ الْأُمُورِ، فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَن»[٧].

---

[١]- ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، ص٦٧.

[٢]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٧٠.

[٣]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

[٤]- م. ن، الخطبة ١٩٥.

[٥]- م. ن، الخطبة ٩١.

[٦]- الشريف الرضي، نهج البلاغه، الخطبة ١٥٥.

[٧]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص ١٣٤-١٣٥.

نهى الإمام عليه السلام عن التفكّر في ذات الله. كان النهي مباشرة تارة، كقوله عليه السلام: «مَنْ أَفْكَرَ فِي ذَاتِ اللهِ تَزَنْدَق»[١] و«من تفكّر في ذات الله سبحانه ألحد»[٢]، وتارة أخرى نهى عن التفكير كنايَة: «أَزَلُهُ نُهْيَةٌ لِمَجَاوِلِ الْأَفْكَارِ، وَدَوَامُهُ رَدْعٌ لِطَامِحَاتِ الْعُقُول»[٣]. وفي النهاية عرّف عليه السلام غاية ما يُمكن للإنسان أن يفعل عند التعمّق في معرفة ذات الله: «غاية كلّ متعمّق في معرفة الخالق سبحانه، الاعتراف بالقصور عن إدراكها»[٤].

٤- التوحيد ومراتبه

ورد في الروايات المرويّة عن أمير المؤمنين عليه السلام التأكيد البالغ على أهمّيّة التوحيد، حيث عرّف قول لا إله إلّا الله مفاتيح أقفال السماء[٥]. فتارة قال: «التَّوْحِيدُ حَيَاةُ النَّفْس»[٦]، و«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُه»[٧]، أو قال عليه السلام في ثواب من قال لا إله إلاّ الله: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصًا، طُمِسَتْ ذُنُوبُهُ كَمَا يُطْمَسُ الْحَرْفُ الْأَسْوَدُ مِنَ الرَّقِّ الْأَبْيَضِ. فَإِنْ قَالَ ثَانِيَةً لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا، خُرِقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ وَصُفُوفُ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَقُولَ الْمَلَائِكَةُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ اخْشَعُوا لِعَظَمَةِ اللهِ. فَإِذَا قَالَ ثَالِثَةً لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا، لَمْ تُنَهْنَهْ دُونَ الْعَرْشِ فَيَقُولُ الْجَلِيلُ: اسْكُنِي، فَوَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَغْفِرَنَّ لِقَائِلِكِ بِمَا كَانَ فِيه»[٨]. وأخرى روى روايات كثيرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في أهمّيّة التوحيد، منها: «مَا جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْه بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الْجَنَّةُ»[٩]، «إِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ كَرِيمَةٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ قَالَهَا مُخْلِصًا اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا كَاذِبًا عُصِمَتْ مَالُهُ وَدَمُهُ وَكَانَ مَصِيرُهُ إِلَى

---

[١]- م. ن، ج٨، ص ٢٢.

[٢]- الآمديّ، غرر الحكم، م.س، ص٦١٨.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٤٠.

[٤]- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠: ٢٩٢.

[٥]- الصدوق، الخصال، م.س، ج٢، ص٤٥٦.

[٦]- الآمديّ، غرر الحكم، م.س، ص٣٧.

[٧]- الشريف الرضي، نهج البلاغه، الخطبة ١.

[٨]- الطبرسي، الإحتجاج، م.س، ج١، ص٢٦٠.

[٩]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص٢٢-٢٣.

النَّارِ»[١]، «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، طَلَسَتْ مَا فِي صَحِيفَتِهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ»[٢].

وأمّا التوحيد فله مراتب: التوحيد في الذات، التوحيد في الصفات، التوحيد في الأفعال وغيره من أقسام التوحيد. جدير بالذكر أنّ هذه التسميات لمراتب التوحيد، لم تُذكر في كلمات المعصومين عليهم السلام، إذ ذلك نتيجة لتصانيف المتكلّمين في المسائل التوحيديّة.

أ- التوحيد في الذات: وهو أوّل مراتب التوحيد، وهو أنّ الله -تعالى اسمه- واحد بلا شريك. قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب أعرابيٍّ عن معنى كون الله واحدًا: «يَا أَعْرَابِيُّ، إِنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: فَوَجْهَانِ مِنْهَا لَا يَجُوزَانِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ، فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ: فَقَوْلُ الْقَائِلِ وَاحِدٌ يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الْأَعْدَادِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ مَا لَا ثَانِيَ لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ، أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؟ وَقَوْلُ الْقَائِلِ هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ، وَجَلَّ رَبُّنَا عَنْ ذَلِكَ وَتَعَالَى. وَأَمَّا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ: فَقَوْلُ الْقَائِلِ هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شِبْهٌ، كَذَلِكَ رَبُّنَا. وَقَوْلُ الْقَائِلِ إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدِيُّ الْمَعْنَى، يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا وَهْمٍ، كَذَلِكَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ»[٣]. كذلك أكّد الإمام عليه السلام على وحدانيّة الله عزّ وجل: «إنّ الله عزّ وجلّ واحدٌ أحدٌ تفرّد في وحدانيّته، ثمّ تكلّم بكلمة صارت نورًا»[٤]. وكما برهن عليه السلام في توحيد الله تبارك، في وصيّة له لابنه الإمام الحسن عليه السلام، حيث جاء فيه: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَد»[٥].

في رواية أخري عن أمير المؤمنين عليه السلام، قام الإمام عليه السلام بتفسير معنى كلمة التوحيد:

---

[١]- الصدوق، التوحيد، ص٢٣.

[٢]- م. ن، ص٢٣.

[٣]- م. ن، صص٨٣-٨٤.

[٤]- العلويّ، محمّد بن علي، المناقب، صص١١٣-١١٤.

[٥]- الشريف الرضّي، نهج البلاغه، الكتاب ٣١؛ انظر: ابن شعبة، تحف العقول، م.س، صص٧٢-٧٣.

لا إله إلّا الله، في الأذان. قال الإمامعليه السلام في قول المؤذّن لا إله إلّا الله: «فَإِعْلَامٌ بِأَنَّ الشَّهَادَةَ لَا تَجُوزُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ مِنَ الْقَلْبِ. كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ بَاطِلٌ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأُقِرُّ بِلِسَانِي بِمَا فِي قَلْبِي مِنَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا مَنْجَى مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ وَفِتْنَةِ كُلِّ ذِي فِتْنَةٍ إِلَّا بِاللهِ. وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مَعْنَاهُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا هَادِيَ إِلَّا اللهُ، وَلَا دَلِيلَ لِي إِلَى الدِّينِ إِلَّا اللهُ، وَأُشْهِدُ اللهَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأُشْهِدُ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ وَسُكَّانَ الْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَشْجَارِ وَالدَّوَابِّ وَالْوُحُوشِ، وَكُلِّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَلَا رَازِقَ وَلَا مَعْبُودَ وَلَا ضَارَّ وَلَا نَافِعَ وَلَا قَابِضَ وَلَا بَاسِطَ، وَلَا مُعْطِيَ وَلَا مَانِعَ وَلَا نَاصِحَ وَلَا كَافِيَ وَلَا شَافِيَ وَلَا مُقَدِّمَ وَلَا مُؤَخِّرَ إِلَّا اللهُ، (لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، (تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[١]»[٢].

ب- التوحيد في الصفات: ومعناه أنّ صفات الله سبحانه ليس لها وجود غير وجود ذات الله تبارك وتعالى، فصفاته عزّ وجلّ عين ذاته. يشير الإمامعليه السلام إلى ذلك في إحدى خطبه: «أَوَّلُ عِبَادَةِ اللهِ مَعْرِفَتُهُ، وَأَصْلُ مَعْرِفَتِهِ تَوْحِيدُهُ، وَنِظَامُ تَوْحِيدِهِ نَفْيُ التَّشْبِيهِ عَنْهُ. جَلَّ عَنْ أَنْ تَحُلَّهُ الصِّفَاتُ، لِشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَنَّ كُلَّ مَنْ حَلَّتْهُ الصِّفَاتُ مَصْنُوعٌ، وَشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ صَانِعٌ لَيْسَ بِمَصْنُوعٍ، بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ وَبِالنَّظَرِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ. جَعَلَ الْخَلْقَ دَلِيلًا عَلَيْهِ فَكَشَفَ بِهِ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ. هُوَ الْوَاحِدُ الْفَرْدُ فِي أَزَلِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَلَا نِدَّ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ بِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ، عُلِمَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُقْتَرِنَةِ عُلِمَ أَنْ لَا قَرِينَ لَه»[٣].

ت- التوحيد في الأفعال: ومعناه أنّ كلّ ما يحدث في العالم، هو تحت أمر الله سبحانه وتعالى وربوبيّته جلّ جلاله وتأثيره وتدبيره. فقال أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة له في

---

[١]- سورة الأعراف، الآية ٥٤.

[٢]- الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٩.

[٣]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج١، صص ٢٢٣-٢٢٤.

التوحيد: «عَلِمَ مَا خَلَقَ وَخَلَقَ مَا عَلِمَ، لَا بِالتَّفْكِيرِ فِي عِلْمٍ حَادِثٍ أَصَابَ مَا خَلَقَ، وَلَا شُبْهَةٍ دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِيمَا لَمْ يَخْلُقْ، لَكِنْ قَضَاءٌ مُبْرَمٌ وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُتْقَنٌ، تَوَحَّدَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَخَصَّ نَفْسَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ»[١]. وقال عليه السلام في خطبة خطبها في صفّين: «فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا»[٢].

وأمّا في سبيل الاستدلال على التوحيد في ربوبيّة الله سبحانه، قال الإمام عليّ عليه السلام: «بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَلُ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالنَّظَرِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ. جَعَلَ الْخَلْقَ دَلِيلًا عَلَيْهِ فَكَشَفَ بِهِ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ. هُوَ الْوَاحِدُ الْفَرْدُ فِي أَزَلِيَّتِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَلَا نِدَّ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِه»[٣]. كذلك جاء في رواية أخرى عنه عليه السلام: «اللهُ أَكْبَرُ الْحَلِيمُ الْعَلِيمُ الَّذِي لَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ غَرَائِبِ فِطْرَتِهِ وَعَجَائِبِ صَنْعَتِهِ آيَةٌ بَيِّنَة تُوجِبُ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ وَعَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنْ غَوَامِضِ تَقْدِيرِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ وَشَاهِدٌ عَدْلٌ يَقْضِيَانِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّة»[٤]. كذلك قال الإمام عليه السلام في الاستدلال على أنّ الربّ واحد في ربوبيّته: «لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاء»[٥].

ث- التوحيد في الطاعة: ومعناه أنّ لا معبود إلّا ربّ العالمين، فالله وحده يستحقّ العبادة والطاعة، قال الإمام عليه السلام في ذلك: «الْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ أَنْ لَا يَرْجُو الرَّجُلُ إِلَّا رَبَّهُ وَلَا يَخَافَ إِلَّا ذَنْبَه»[٦] و«طُوبَى لِمَنْ أَخْلَصَ للهِ الْعِبَادَةَ وَالدُّعَاءَ، وَلَمْ يَشْغَلْ قَلْبَهُ بِمَا تَرَى

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٣٦.
[٢]- م. ن، ج٨، ص ٣٥٧.
[٣]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج١، صص٢٢٣-٢٢٤.
[٤]- الكفعميّ، ابراهيم بن علي، البلد الأمين والدرع الحصين، صص ١١٢-١١٣.
[٥]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.
[٦]- الآمدي، غرر الحكم، م.س، ص١٢٢.

عَيْنَاهُ، وَلَمْ يَنْسَ ذِكْرَ اللهَّ بِمَا تَسْمَعُ أُذُنَاهُ، وَلَمْ يَحْزُنْ صَدْرَهُ بِمَا أُعْطِيَ غَيْرُهُ»[١].

٥- الأسماء والصفات

قال العلّامة الطباطبائيّ قدس سره في الأسماء والصفات: «لا فرق بين الصفة والاسم، غير أنّ الصفة تدلّ على معنى من المعاني يتلبّس به الذات أعمّ من العينيّة والغيريّة، والاسم هو الدالّ على الذات مأخوذة بوصف. فالحياة والعلم صفتان، والحيّ والعالم اسمان، وإذ كان اللفظ لا شأن له إلّا الدلالة على المعنى وانكشافه به، فحقيقة الصفة والاسم هو الذي يكشف عنه لفظ الصفة والاسم، فحقيقة الحياة المدلول عليها بلفظ الحياة هي الصفة الإلهيّة وهي عين الذات، وحقيقة الذات بحياتها التي هي عينها هو الاسم الإلهيّ، وبهذا النظر يعود الحيّ والحياة اسمين للاسم والصفة، وإن كانا بالنظر المتقدّم نفس الاسم ونفس الصفة»[٢]. على هذا، لا يوجد فرق جوهريّ بين أسماء الباري تعالى وصفاته.

لم يرد عن أمير المؤمنين عليه السلام رواية في تحديد عدد الأسماء الإلهيّة، إلّا ما رواه عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله في تحديد الأسماء وعددها[٣]. رُوي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «مَا مِنْ حَرْفٍ إِلَّا وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهَّ عَزَّ وَجَل»[٤]، ففي الرواية نفسها قام الإمام عليه السلام بتفسير حروف الهجاء على أنّ كلًّا منها اسم من أسماء الباري وصفة من صفات الله عزّ وجل. هذا لا يعني أنّه يمكن أن يوصف الله بأيّ صفة أو يُسمّى بأيّ اسم، بل يجب الاقتصار على ما دلّ عليه القرآن والسنّة النبويّة وكلام أهل البيت عليهم السلام: «فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ، فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَلَا فِي سُنَّةِ النبيّ وَأئمّة الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهَّ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهَّ عَلَيْك»[٥]. في رواية أخرى، نهى الإمام عليه السلام عن قَياس أسماء الباري تعالى وصفاته مَع صفات البشر، فقال: «إِنَّ رَبِّي

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص ١٦.

[٢]- الطباطبائيّ، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص ٣٥٢.

[٣]- راجع: الصدوق، التوحيد، م.س، صص ١٩٤-١٩٥.

[٤]- م. ن، ص ٢٣٥.

[٥]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

لَطِيفُ اللَّطَافَةِ فَلَا يُوصَفُ بِاللُّطْفِ، عَظِيمُ الْعَظَمَةِ لَا يُوصَفُ بِالْعِظَمِ، كَبِيرُ الْكِبْرِيَاءِ لَا يُوصَفُ بِالْكِبَرِ، جَلِيلُ الْجَلَالَةِ لَا يُوصَفُ بِالغِلَظِ»[١].

إنّ العقول لا تدرك وصف الله جلّ جلاله، فقال الإمام عليه السلام عن ذلك: «سُبْحَانَهُ هُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ وَالْوَاصِفُونَ لَا يَبْلُغُونَ نَعْتَه»[٢]. و«لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِه»[٣]. شدّد الإمام عليه السلام على قصور العقل عن وصف الباري: «كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِه»[٤]. و«إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَز»[٥].

كما نبّه أمير المؤمنين عليه السلام من جهة ثانية من اللوازم الباطلة لنسبة الصفات إلى الذات الالهية الأبية عن كل أشكال التركيب«فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَه»[٦] و«كَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ. فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَه»[٧]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام في التشبّث بالرأي والقياس في توصيف الله عزّ وجلّ: «مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ ضَلَّ وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِ الْأُمُور»[٨].

هذا ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام في مسائل التوحيد، فمن خلال قراءة هذه النصوص، نجد أنّ أكثرها كان ضمن خطب عامّة، وهذا الأمر ينجم عن حاجة المجتمع المتزايدة إلى بيان المسائل التوحيديّة، الأمر الذي بيّنه النبيّ صلى الله عليه وآله. لكنّ المجتمع، نظرًا إلى الأحداث التي شهدها، أصبح بحاجة ماسّة إلى هذه المباحث. الأمر الثاني الذي

---

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٣٠٨.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٣٥.

[٣]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ٤٩.

[٤]- م.ن، الخطبة ١١٢.

[٥]- م.ن، الخطبة ١٦٣.

[٦]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص ١٤٠.

[٧]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١.

[٨]- الآمديّ، غرر الحكم، م.س، ص ٦٦٧.

يُمكن استنتاجه من كون البيانات التوحيديّة العلويّة جاءت على شكل خطب عامّة، هو أنّه في عصر الخلفاء الثلاث الذين حكموا المجتمع الإسلاميّ، قد خفيت مسائل التوحيد. ربما هذا الأمر ناشئ عن اشتغال معظم المجتمع بالفتوح والجهاد في الثغور، حيث تدلّنا الروايات التاريخيّة إلى ذلك. نظرًا إلى هذا الأمر، ربما يمكن أن نجعل الدور العلويّ دورًا توعويًّا، حاول الإمام عليه السلام أن يصلح فهوم التوحيد في عقول الناس، ويُبيّن ما لم تبيّنه الحكومات التي كانت تدّعي خلافة النبيّ صلى الله عليه وآله، هذا الأمر يشهد عليه النصوص المتبقّية من عصر الخلفاء الثلاث؛ إذ لم نعثر على خُطب لهم في المسائل المعرفيّة، وإن كان بعضها وُجدَ فهو نادر جدًّا.

ثانيًا: العدل:

من صفاته تعالى العدل، فهو العادل، وهذا مبنيّ على الحُسن والقُبح العقليّين، فعلى أساس ذلك، لا يفعل الله سبحانه وتعالى في جميع شؤون الخلق والتدبير ما هو قبيح، بل الله عادل في جميع شؤونه، وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى حسن العدل وقبح الظلم: «إِنَّ الْقُبْحَ فِي الظُّلْمِ بِقَدْرِ الْحُسْنِ فِي الْعَدْلِ»[١].

قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب يهوديّ سأله عمّا ليس عند الله: «فَلَيْسَ عِنْدَ اللهَّ ظُلْمٌ لِلْعِبَادِ»[٢]، وكذلك قال في دعاء له عليه السلام: «اللَّهُمَّ لاَ تَفْعَلْ بِي مَا أَنَا أَهْلُهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ بِي مَا أَنَا أَهْلُهُ تُعَذِّبْنِي وَلَمْ تَظْلِمْنِي، أَصْبَحْتُ أَتَّقِي عَدْلَكَ وَلَا أَخَافُ جَوْرَكَ، فَيَا مَنْ هُوَ عَدْلٌ لَا يَجُورُ، ارْحَمْنِي»[٣]، وقال عليه السلام في خطبة: «الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِد... الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِه»[٤].

قال الإمام عليه السلام في مصاديق العدل عن الباري تعالى: «الْحَمْدُ للهَّ الْخَافِضِ الرَّافِع...

[١]- الآمديّ، غرر الحكم، م.س، ص٢٢٣.

[٢]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص ٣٧٧.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٤، ص٤٣٣.

[٤]- الشريف الرضّي، نهج البلاغه، الخطبة ١٨٥.

الَّذي جعَلَ المَوْتَ بَيْنَ خَلْقِهِ عدْلًا»[١]، «فإِنَّ اللهَّ جَلَّ شَأْنُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، خلَقَ خَلْقَهُ فَأَلْزَمَهُمْ عِبَادَتَهُ وَكَلَّفَهُمْ طَاعَتَهُ، وَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ وَوَضَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِحَيْثُ وَضَعَهُمْ، وَوَصَفَهُمْ فِي الدِّينِ بِحَيْثُ وَصَفَهُمْ وَهُوَ فِي ذَلِكَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ، لَكِنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ قُصُورَهُمْ عَمَّا يَصْلُح عَلَيْهِ شُؤونُهُمْ وَيَسْتَقِيمُ بِهِ أَوَدُهُمْ، وَهُمْ فِي عَاجِلِهِمْ وَآجِلِهِمْ فَأَدَّبَهُمْ بِإِذْنِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَأَمَرَهُمْ تَخْيِيرًا وَكَلَّفَهُمْ يَسِيرًا، وَأَمَازَ سُبْحَانَهُ بِعَدْلِ حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ بَيْنَ المُوجِفِ مِنْ أَنَامِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَبَيْنَ المُبْطِئِ عَنْهَا وَالمُسْتَظْهِرِ عَلَى نِعْمَتِهِ مِنْهُمْ بِمَعْصِيَتِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية: ٢١»[٢]، «قَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا»[٣]، «إِنَّ المَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ، قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ، وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُم»[٤].

إنّ الله عدل في قضائه وحكمه فلا يجور، إذ قال الإمام علي عليه السلام: «الْحَمْدُ للهَّ... الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى»[٥]، «الحَقُّ أَجْمَلُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَأَوْسَعُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلا جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ ذَلِكَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ للهَّ عَزَّ وَجَلَّ خَالِصًا دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ ضُرُوبُ قَضَائِهِ»[٦]. وقال عليه السلام

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٨، ص ١٧٠.

[٢]- الكراجكي، محمّد بن علي، كنز الفوائد، ج١، صص ٨٩-٩٠.

[٣]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص ٣٠.

[٥]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٩١.

[٦]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٨، صص ٣٥٢-٣٥٣.

في ذلك أيضًا: «الْعَدْلُ قَضَاؤُكَ»[١]، «لاَ يَجُورُ فِي حُكْمِهِ إِذَا قَضَى»[٢]، «حُكْمُهُ عَدْل... حَسَنُ الْقَضَاء»[٣].

إنّ الله سبحانه كما أوجب العدل على نفسه وامتنع عن الظلم، أمر بالعدل ونهى عن الظلم أيضًا: «إِنَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالظُّلْم»[٤].

١- القضاء والقدر

إنّ مسألة القضاء والقدر، كما يظهر من النصوص التاريخيّة والحديثيّة، شغلت حيّزًا من الاهتمام في العصر العلويّ، وقد برز ذلك في الأسئلة المطروحة. يبدو من بعض النّصوص التي تحتوي على وقت هذه التساؤلات، أنّ الحروب الثلاث التي خاضها أمير المؤمنين عليه السلام، خاصة حرب صفّين التي انتهت بالتحكيم، كان لها الأثر البالغ في إيجاد بعض التساؤلات حول هذه المسألة. والشاهد على ذلك، ما رُوي في سؤال عن قضاء الله وقَدَره بعد منصرف الإمام عليّ عليه السلام من الصفين، فقد جاء: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ جَالِسًا بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صِفِّينَ، إِذْ أَقْبَلَ شَيْخٌ فَجَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنَا عَنْ مَسِيرِنَا إِلَى أَهْلِ الشَّام، أَبِقَضَاءٍ مِنَ اللهَّ وَقَدَرٍ؟ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: أَجَلْ يَا شَيْخُ، مَا عَلَوْتُمْ تَلْعَةً وَلَا هَبَطْتُمْ بَطْنَ وَادٍ إِلَّا بِقَضَاءٍ مِنَ اللهَّ وَقَدَرٍ... لَمْ تَكُونُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالاتِكُمْ مُكْرَهِينَ، وَلَا إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: وَكَيْفَ لَمْ نَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ حَالاتِنَا مُكْرَهِينَ وَلَا إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ، وَكَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مَسِيرُنَا وَمُنْقَلَبُنَا وَمُنْصَرَفُنَا؟ فَقَالَ لَهُ: وَتَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ قَضَاءً حَتْمًا وَقَدَرًا لَازِمًا؟ إِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ، لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالزَّجْرُ مِنَ اللهَّ، وَسَقَطَ مَعْنَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَلَمْ تَكُنْ لَائِمَة لِلْمُذْنِبِ وَلَا مَحْمَدَةٌ لِلْمُحْسِنِ، وَلَكَانَ الْمُذْنِبُ أَوْلَى بِالْإِحْسَانِ مِنَ الْمُحْسِنِ، وَلَكَانَ الْمُحْسِنُ أَوْلَى بِالْعُقُوبَةِ مِنَ الْمُذْنِبِ، تِلْكَ مَقَالَةُ إِخْوَانِ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَخُصَمَاءِ الرَّحْمَنِ

[١]- ابن طاووس، علي بن موسى، الدروع الواقية، صص ٩٠ و١٧٩.

[٢]- الكفعميّ، البلد الأمين، م.س، ص٩٣.

[٣]- ابن طاووس، الدروع الواقية، م.س، صص ٨٨ و١٧٨.

[٤]- الآمديّ، غرر الحكم، م.س، ص ٢٣٤.

وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ وَقَدَرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمَجُوسِهَا. إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَلَّفَ تَخْيِيرًا وَنَهَى تَحْذِيرًا، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوبًا وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهًا وَلَمْ يُمَلِّكْ مُفَوِّضًا، وَلَمْ يَخْلُقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا، وَلَمْ يَبْعَثِ النبيّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ عَبَثًا، (ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)[١]»[٢].

في هذه الرواية، يمكن أن نشاهد تشابك مسألة القضاء والقدر بمسألة الجبر والتفويض، وقد أجاب الإمام عليه السلام على التناقض الذي حصل لبعض أتباعه، مع علمهم بكونهم على الحقّ، لكنّهم وجدوا أنفسهم خاسرين للحرب مع معاوية الذي كان على الباطل بلا أدنى شكّ وشبهة.

لقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في معنى القضاء وتفسيره، حيث قال: «هُوَ عَشَرَةُ أَوْجِهٍ مُخْتَلِفَةُ الْمَعْنَى: فَمِنْهُ قَضَاءُ فَرَاغٍ وَقَضَاءُ عَهْدٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ إِعْلَامٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ فِعْلٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ إِيجَابٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ كِتَابٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ إِتْمَامٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ حُكْمٍ وَفَصْلٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ خَلْقٍ، وَمِنْهُ قَضَاءُ نُزُولِ الْمَوْتِ. أَمَّا تَفْسِيرُ قَضَاءِ الْفَرَاغِ مِنَ الشَّيْءِ، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩). مَعْنَى (فَلَمَّا قُضِىَ) أَيْ فَلَمَّا فَرَغَ».

وَكَقَوْلِهِ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (البقرة: ٢٠٠). أَمَّا قَضَاءُ الْعَهْدِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، أَيْ عَهِدَ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ (القصص: ٤٤) أَيْ عَهِدْنَا إِلَيْهِ. أَمَّا قَضَاءُ الْإِعْلَامِ، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٦٦)، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:

﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤) أَيْ أَعْلَمْنَاهُمْ فِي التَّوْرَاةِ مَا هُمْ عَامِلُونَ. أَمَّا قَضَاءُ الْفِعْلِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى

---

[١]- الآمديّ، غرر الحكم، م.س، ص ٢٧.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص ١٥٥-١٥٦.

فِي سُورَةِ طه: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ طه: ٧٢ أَيِ افْعَلْ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ، وَمِنْهُ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾ (الأنفال: ٤٤) أَيْ يَفْعَلُ مَا كَانَ فِي عِلْمِهِ السَّابِقِ، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ. أَمَّا قَضَاءُ الْإِيجَابِ لِلْعَذَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ (إبراهيم: ٢٢) أَيْ لَمَّا وَجَبَ الْعَذَابُ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾(يوسف: ٤١) مَعْنَاهُ أَيْ وَجَبَ الْأَمْرُ الَّذِي عَنْهُ تَسَاءَلَانِ. أَمَّا قَضَاءُ الْكِتَابِ وَالْحَتْمِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ (مريم: ٢١) أَيْ مَعْلُومًا. وَأَمَّا قَضَاءُ الْإِتْمَامِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ (القصص: ٢٩) أَيْ فَلَمَّا أَتَمَّ شَرْطَهُ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَيْهِ، وَكَقَوْلِ مُوسَى: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ (القصص: ٢٨) مَعْنَاهُ إِذَا أَتْمَمْتُ.

وَأَمَّا قَضَاءُ الْحُكْمِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الزمر: ٧٥) أَيْ حُكِمَ بَيْنَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (غافر: ٢٠)، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾(الأنعام، ٥٧)[١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ (يونس: ٥٤).

وَأَمَّا قَضَاءُ الْخَلْقِ، فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾(فصلت: ١٢) أَيْ خَلَقَهُنَّ. وَأَمَّا قَضَاءُ إِنْزَالِ الْمَوْتِ، فَكَقَوْلِ أَهْلِ النَّارِ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧) أَيْ لِيَنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَوْتَ، وَمِثْلُهُ: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ (فاطر: ٣٦) أَيْ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ فَيَسْتَرِيحُوا، وَمِثْلُهُ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ:

---

[١]- يبدو قد وقع فيه تصحيف، فأصل الآية: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الأنعام: ٥٧.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ (سبأ: ١٤) يَعْنِي تَعَالَى: لَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْمَوْت"[١].

في رواية أخرى عن معنى القضاء والقدر، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الْأَمْرُ بِالطَّاعَةِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَالتَّمْكِينُ مِنْ فِعْلِ الْحَسَنَةِ وَتَرْكِ السَّيِّئَةِ، وَالْمَعُونَةُ عَلَى الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ وَالْخِذْلَانُ لِمَنْ عَصَاهُ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ، كُلُّ ذَلِكَ قَضَاءُ اللهِ فِي أَفْعَالِنَا، وَقَدَرُهُ لِأَعْمَالِنَا، فَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَلَا تَظُنَّهُ، فَإِنَّ الظَّنَّ لَهُ مُحْبِطٌ لِلْأَعْمَالِ»[٢].

في الروايتين المتقدّمتين، نجد أنّ جواب الإمام عليه السلام كان مرتكزًا على تفصيل معنى القضاء دون القدر، ففي الرواية الثانية التي سأل السائل فيها عن معنى القضاء والقدر معًا، أجاب الإمام عليه السلام على معنى القضاء بالتفصيل، واقتصر على معنى القدر بـ "وَقَدَرُهُ لِأَعْمَالِنَا". إضافة إلى ذلك، نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن الخوض في القدر لأنّه سرٌّ من أسرار الله تعالى. تقول الرواية: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْقَدَرِ. قَالَ: بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلَا تَلِجْهُ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْقَدَرِ. قَالَ: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلَا تَسْلُكْهُ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْقَدَرِ. قَالَ: سِرُّ اللهِ فَلَا تَكَلَّفْهُ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْقَدَرِ. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: أَمَّا إِذَا أَبَيْتَ فَإِنِّي سَائِلُكَ. أَخْبِرْنِي أَكَانَتْ رَحْمَةُ اللهِ لِلْعِبَادِ قَبْلَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ أَمْ كَانَتْ أَعْمَالُ الْعِبَادِ قَبْلَ رَحْمَةِ اللهِ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: بَلْ كَانَتْ رَحْمَةُ اللهِ لِلْعِبَادِ قَبْلَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: قُومُوا فَسَلِّمُوا عَلَى أَخِيكُمْ فَقَدْ أَسْلَمَ وَقَدْ كَانَ كَافِرًا»[٣]. هذه الرواية، رغم الغموض الذي يسود معانيها، ترينا أنّ مسألة القدر هي مسألةٌ خطيرة، فكما قال أمير المؤمنين عليه السلام إنّه بحر عميق، طريق مظلم وسرّ الله، لا ينبغي للإنسان الدخول في تفاصيل معرفته، فقال الإمام في لفظ آخر: «أَلَا إِنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مِنْ سِرِّ اللهِ، وَسِتْرٌ مِنْ سِتْرِ اللهِ، وَحِرْزٌ مِنْ حِرْزِ اللهِ، مَرْفُوعٌ فِي حِجَابِ اللهِ، مَطْوِيٌّ عَنْ خَلْقِ اللهِ، مَخْتُومٌ بِخَاتَمِ اللهِ،

---

[١]- المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، ج٩٠، صص ١٨-٢٠.

[٢]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج١، ص٢٢٦.

[٣]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص ٣٦٥-٣٦٦.

سَابِقٌ فِي عِلْمِ اللهِ»[١]. هذه العبارات صارخة بأنّ مسألة القدر من أمر الله، فلا طريق للعباد في الوصول إلى كُنهه ومعناه.

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الغموض والتحذير الصادر في الروايات العلويّة بشأن القدر، ربما كانت بسبب الظرف التاريخيّ والسياق الزمنيّ الذي جاءت فيه هذه الروايات؛ إذ في بعض الروايات عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أو الإمام الرضا عليه السلام، نجد إجابات واضحة لهذه التساؤلات، ويمكن الإجابة عن السؤال المقدّر في اختلاف طريقة التعامل مع السؤال عن القدر، بأنّ منهج أهل البيت عليهم السلام في بيان المعارف هو منهج تدريجيّ. بمعنى أنّ كلًّا من المعارف الإلهيّة لا بدّ أن يُعرض وفقًا للجوّ التاريخيّ والمناخ الفكري لتلك الأعصار والأزمنة. ولعلّه هذا هو السر في اختلاف الأجوبة، والله العالم.

إنّ حتمية القضاء والقدر، أمر ظهر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام كثيرًا، ومنه قوله في خطبة له: «فَإِنَّ اللهَ أَبْرَمَ الْأُمُورَ وَأَمْضَاهَا عَلَى مَقَادِيرِهَا، فَهِيَ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ عَنْ مَجَارِيهَا دُونَ بُلُوغِ غَايَاتِهَا فِيمَا قَدَّرَ وَقَضَى مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ فِيمَا قَدَّرَ وَقَضَى مِنْ أَمْرِهِ الْمَحْتُومِ وَقَضَايَاهُ الْمُبْرَمَةِ مَا قَدْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْأَخْلَافُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَسْبَابُ...»[٢]. كذلك ورد عن الإمام عليه السلام: «لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ»[٣]، «لَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ، وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ، وَلَنْ يُبْطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ»[٤]، «تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقْدُورِ حَتَّى تَصِيرَ الآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ»[٥]، «الْأُمُورُ بِالتَّقْدِيرِ لاَ بِالتَّدْبِيرِ»[٦]، «إِذَا كَانَ الْقَدَرُ لَا يُرَدُّ فَالاحْتِرَاسُ بَاطِلٌ»[٧].

إنّ سيرة الإمام علي عليه السلام مشحونة بإيمانه بحتميّة القضاء والقدر، وذلك مشهود

---

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٣٨٣.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٥، ص ٣٧٠.

[٣]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

[٤]- م. ن، حكمة ٣٧٩.

[٥]- ابن شعبة، تحف العقول، م.س، ص٢٢٣.

[٦]- الآمدي، غرر الحكم، م.س، ص ١٠٧.

[٧]- م. ن، ص ٢٨٦.

في بعض ما رُوي عن سيرته، بأنّه قيل له في صفّين أن يحترس من القتل فأجاب: «كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِسًا، لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَائِكَةٌ حَفَظَةٌ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَنْ يَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ أَوْ يَقَعَ عَلَيْهِ حَائِطٌ أَوْ يُصِيبَهُ سُوءٌ، فَإِذَا حَانَ أَجَلُهُ خَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُصِيبُهُ. وَكَذَلِكَ أَنَا، إِذَا حَانَ أَجَلِي انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَخَضَّبَ هَذِهِ مِنْ هَذَا ـ وَ أَشَارَ إِلَى لِحْيَتِهِ وَرَأْسِهِ-»[١]، وحين قيل له عليه السلام: ألا نحرسك؟ قال: «حَرَس كلّ امرء أجلُه»[٢]. وقد كان يدعو عليه السلام إلى الرضا بقدر الله سبحانه؛ إذ قال عليه السلام للأشعث بن قيس حين عزّاه لولدٍ له: «يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنْ عَلَى ابْنِكَ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ مِنْكَ ذَلِكَ الرَّحِمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ. يَا أَشْعَثُ، إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»[٣].

على الرغم من أنّ القضاء والقدر من الأمور الحتميّة، إلّا أنّ هناك بعض ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام يوضحّ بعض الطرق لتحسين القضاء المبرم. ومن أهمّ تلك الطرق الدعاء. قال عليه السلام: «الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ الْمُبْرَمَ فَاتَّخِذُوهُ عُدَّة»[٤]، وفي دعاء له عليه السلام: «اللَّهُمَّ اصْرِفْ عَنِّيَ الْأَزْلَ وَاللَّأْوَاءَ وَالْبَلْوَى وَسُوءَ الْقَضَاءِ»[٥]. كذلك في وصيته عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[٦].

الإيمان بحتميّة القضاء الإلهيّ، يجب أن لا يوردنا وادي الجبر، فلا يمكن للإنسان بقبوله قضاء وقدر ربّ العالمين، أن ينسب ما يفعل من معاصي إلى الله سبحانه. كذلك لم يجز بالنّظر إلى تأثير الدعاء في ردّ قضاء الله وقدره، أن ندخل وادي التفويض ونقول بتفويض الأمور إلى الله. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تَقُولُوا وَكَلَهُمُ اللهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

---

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص ٣٦٧-٣٦٨.

[٢]- الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٢٩.

[٣]- الشريف الرضي، نهج البلاغه، حكمة ٢٩١.

[٤]- الصدوق، الخصال، م.س، ج٢، ص ٦٢٠.

[٥]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص ٥٢٥.

[٦]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

فَتُوَهِّنُوهُ، وَلَا تَقُولُوا أَجْبَرَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي فَتُظَلِّمُوهُ، وَلَكِنْ قُولُوا الْخَيْرُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَالشَّرُّ بِخِذْلَانِ اللَّهِ، وَكُلٌّ سَابِقٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ»[١]، أو كما نُسب إليه عليه السلام في لفظ آخر: «جَلَّ الله أن يُرِيدَ الفَحشاء، وَعَزَّ عَن أَنْ يَكونَ لَهُ في المُلكِ إلّا ما يَشاء»[٢]، و«لا تحمِلوا ذُنُوبَكُم وخَطاياكُم على الله، وتَذِروا أنفُسَكُم والشَّيطان»[٣]. وأيضًا جاء فيما نُسب إليه في الجبر والتفويض: «فإنّهُ أمرٌ بَينَ أمرَين، لا جَبرَ ولا تَفويض»[٤].

٢- الأسماء والأحكام

من المباحث المهمّة في مبحث الأسماء والأحكام مسألة الإيمان والكفر، فهذه المسألة كانت مطروحةً في العصر النبويّ، فالإيمان كان متمثّلًا بشهادة لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان وحجّ بيت الله[٥]. أمّا في العصر العلويّ، فقد تجدّدت الحاجة إلى بيان هذه المفاهيم؛ إذ بظهور الخوارج وتبيينهم الإيمان والكفر التبس الأمر، فإنّ الخوارج كانوا يعتقدون بكفر فاعل الكبيرة، وبالنتيجة تضييق دائرة الإيمان وتوسيع دائرة الكفر، وهذا الاعتقاد أثّر على معتقدهم بالإمامة أيضًا، فأدّى إلى تكفير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ووجوب الخروج عليه بزعمهم[٦].

أ- **الإيمان:** لقد وردت روايات في تعريف الإيمان عن الإمام علي عليه السلام، فيها يُبيّن عليه السلام حقيقته ومعناه. لقد عرّف الإمام عليه السلام الإيمان بأنّه المعرفة بالقلب، الإقرار باللسان والعمل؛ فكان تارة يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الْإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ»[٧]، و«الْإِيمَانُ قَوْلٌ مَقُولٌ وَعَمَلٌ مَعْمُولٌ وَعِرْفَانُ الْعُقُولِ»[٨]. وأخرى قال حين سُئل عن كفاية الشهادتين في كون الإنسان مؤمنًا، فقال: «فَأَيْنَ فَرَائِضُ

[١]- الطبرسي، الإحتجاج، م.س، ج١، ص ٢٠٩.

[٢]- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م.س، ج٢٠، ص ٢٦٨.

[٣]- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م.س، ج٢٠، ص ٣١٦.

[٤]- ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، ج٥١، ص ١٨٢.

[٥]- الطبرانيّ، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ج٢، ص ٣١٨.

[٦]- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص٥٥؛

[٧]- الصدوق، الخصال، م.س، ج١، ص ١٧٨.

[٨]- المفيد، الأمالي، م.س، ص٢٧٥.

اللهَّ»؟ وفي تكملة الرواية قال عليه السلام: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ كَلَامًا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ صَوْمٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا حَلَالٌ وَلَا حَرَام»[١]. لقد ورد في مناظرة الإمام عليه السلام مع ابن الكواء، حيث سأله عمّن بصير بالليل وبصير بالنهار، وهو يقصد الإيمان، فأجاب عليه السلام: «أَمَّا بَصِيرٌ بِاللَّيْلِ وَبَصِيرٌ بِالنَّهَارِ: فَهُوَ رَجُلٌ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَالْأَوْصِيَاءِ الَّذِينَ مَضَوْا، وَبِالْكُتُبِ وَالنبيّينَ، وَآمَنَ بِاللهَّ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ، وَأَقَرَّ لِي بِالْوَلَايَةِ، فَأَبْصَرَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِه»[٢].

بيّن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الإسلام يرادف الإيمان بقوله: «لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ بَعْدِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمَ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينَ هُو التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقَ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارَ هُوَ الْعَمَلُ، وَالْعَمَلَ هُوَ الْأَدَاءُ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنْ رَأْيِهِ، وَلَكِنْ أَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ فَأَخَذَهُ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُرَى يَقِينُهُ فِي عَمَلِهِ، وَالْكَافِرِ يُرَى إِنْكَارُهُ فِي عَمَلِهِ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا عَرَفُوا أَمْرَهُمْ فَاعْتَبِرُوا إِنْكَارَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ»[٣]. نجد في هذه الرواية أنّ نسبة الإسلام التي بيّنها أمير المؤمنين عليه السلام، هو ما ورد عنه عليه السلام في تعريف الإيمان. فهذا الأمر ينجم عن ترادف الإيمان والإسلام في البيان العلوي. نعم، هناك بعض الروايات، تصف الإيمان مختلفًا عن الإسلام، فقد ورد في بعض الروايات عن الصادقين عليهما السلام أنّ الإسلام يُحقن به الدم، والإيمان هو الهدى وما ثبت في القلب؛ فعليه الإيمان يشارك الإسلام، لكن الإسلام لا يشارك الإيمان [٤]. ولعلّ هذا الاختلاف في تبيين الإيمان، راجع إلى وجود بعض الروايات الصادرة بالفعل عن الإمام علي عليه السلام لكن لم تصل إلينا، أو يمكن أن يكون هذا التبيين مناسبًا للأجواء العامّة آنذاك. على أيّ حال، هذا الأمر ما يظهر من الروايات العلويّة، وتحليل سبب الاختلاف يتطلّب مجالًا غير هذا.

في الروايات العلويّة عن الإيمان، قسمٌ تناول دعائم الإيمان، منها: «الْإِيمَانُ لَهُ أَرْكَانٌ أَرْبَعَةٌ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهَّ، وَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللهَّ، وَالرِّضَى بِقَضَاءِ اللهَّ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللهَّ

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص ٣٣.

[٢]- الطبرسّي، الإحتجاج، م.س، ج١، ص ٢٢٨.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، صص ٤٥-٤٦.

[٤]- م. ن، ج٢، صص ٢٥-٢٧.

عَزَّ وَجل»[١]. وما قاله عليه السلام ضمن رواية طويلة مطلعها: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْإِيمَانَ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْعَدْلِ وَالْجِهَاد...»[٢]. في حال قبول أنّ الإسلام والإيمان مرادفان في البيان العلويّ، تكون الولاية من دعائم الإيمان والإسلام أيضًا، حيث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَثَافِيُّ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ لَا يُنْتَفَعُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ دُونَ صَاحِبَتِهَا: الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالْوَلَايَة»[٣].

ب- **الكفر**: في بيان معنى الكفر ودعائمه، يُكتفى برواية واحدة. قال الإمام علي عليه السلام: «بُنِيَ الْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: الْفِسْقِ، وَالْغُلُوِّ، وَالشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ. وَالْفِسْقُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْجَفَاءِ، وَالْعَمَى، وَالْغَفْلَةِ وَالْعُتُوِّ. فَمَنْ جَفَا احْتَقَرَ الْحَقَّ وَمَقَتَ الْفُقَهَاءَ وَأَصَرَّ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ. وَمَنْ عَمِيَ نَسِيَ الذِّكْرَ وَاتَّبَعَ الظَّنَّ وَبَارَزَ خَالِقَهُ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَطَلَبَ الْمَغْفِرَةَ بِلَا تَوْبَةٍ وَلَا اسْتِكَانَةٍ وَلَا غَفْلَةٍ. وَمَنْ غَفَلَ جَنَى عَلَى نَفْسِهِ وَانْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ وَحَسِبَ غَيَّهُ رُشْدًا، وَغَرَّتْهُ الْأَمَانِيُّ وَأَخَذَتْهُ الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ، إِذَا قُضِيَ الْأَمْرُ وَانْكَشَفَ عَنْهُ الْغِطَاءُ وَبَدَا لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ. وَمَنْ عَتَا عَنْ أَمْرِ اللهِ شَكَّ، وَمَنْ شَكَّ تَعَالَى اللهُ عَلَيْهِ فَأَذَلَّهُ بِسُلْطَانِهِ، وَصَغَّرَهُ بِجَلَالِهِ كَمَا اغْتَرَّ بِرَبِّهِ الْكَرِيمِ وَفَرَّطَ فِي أَمْرِهِ. وَالْغُلُوُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى التَّعَمُّقِ بِالرَّأْيِ، وَالتَّنَازُعِ فِيهِ، وَالزَّيْغِ وَالشِّقَاقِ. فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ وَلَمْ يَزْدَدْ إِلَّا غَرَقًا فِي الْغَمَرَاتِ، وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْهُ فِتْنَةٌ إِلَّا غَشِيَتْهُ أُخْرَى، وَانْخَرَقَ دِينُهُ فَهُوَ يَهْوِي فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ. وَمَنْ نَازَعَ فِي الرَّأْيِ وَخَاصَمَ شُهِرَ بِالْعَثَلِ مِنْ طُولِ اللَّجَاجِ. وَمَنْ زَاغَ قَبُحَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ، وَمَنْ شَاقَّ اعْوَرَّتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ، إِذَا لَمْ يَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ. وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْمِرْيَةِ، وَالْهَوَى، وَالتَّرَدُّدِ وَالِاسْتِسْلَامِ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ (النجم: ٥٥)».

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَلَى الْمِرْيَةِ وَالْهَوْلِ مِنَ الْحَقِّ وَالتَّرَدُّدِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِلْجَهْلِ وَأَهْلِهِ: فَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ، وَمَنِ امْتَرَى فِي الدِّينِ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ، وَسَبَقَهُ

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص ٤٧.

[٢]- م. ن، ج٢، ص ٥٠.

[٣]- البرقيّ، أحمد بن محمّد، المحاسن، ج١، ص ٢٨٦.

الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدْرَكَهُ الْآخِرُونَ وَوَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيْطَانِ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ نَجَا مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ فَضْلِ الْيَقِينِ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ خَلْقًا أَقَلَّ مِنَ الْيَقِينِ. وَالشُّبْهَةُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: إِعْجَابٍ بِالزِّينَةِ، وَتَسْوِيلِ النَّفْسِ، وَتَأَوُّلِ الْعِوَجِ وَلَبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ الزِّينَةَ تَصْدِفُ عَنِ الْبَيِّنَةِ، وَأَنَّ تَسْوِيلَ النَّفْسِ يُقْحِمُ عَلَى الشَّهْوَةِ، وَأَنَّ الْعِوَجَ يَمِيلُ بِصَاحِبِهِ مَيْلًا عَظِيمًا، وَأَنَّ اللَّبْسَ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَذَلِكَ الْكُفْرُ وَدَعَائِمُهُ وَشُعَبُهُ»[١].

ثالثًا: النبوة:

إنّ الروايات العلويّة حملت قسمًا كبيرًا من تواريخ الأنبياء عليهم السلام وقصصهم، فتوجد روايات عدّة في المصادر الشيعيّة الحديثيّة عن ذلك[٢]، لكن توجد إشارات وبيانات بيّنها الإمام عليه السلام في النبوّة العامّة والخاصّة أيضًا، فالنبوّة العامّة لإثبات ضرورة بعثة الأنبياء عليهم السلام، والنبوة الخاصّة لإثبات نبوّة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله. نعم، لم تكن توجد تساؤلات كبيرة وكثيرة من قِبَل المجتمع عن مسألة النبوّة؛ إذ اعتقد المجتمع الإسلاميّ بنبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله وختمها، وكذلك النبوّات والرسالات السابقة؛ حيث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ من شروط كون الإنسان مسلمًا هو الاعتقاد بتلك الرسالات، جنبًا إلى جنب الشهادة برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد بيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن عدّة[٣].

مع ذلك، نجد في بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام، كذا في بعض المناظرات والتساؤلات التي جرت بين الإمام عليه السلام وبعض أتباع الديانات الأخرى، بيانًا في مسائل النبوّة، من فضائل النبيّ صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء عليهم السلام، عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله قبل البعثة وبعدها، وهو ما سنشير إليه لاحقًا، كما سنبوّب الأقوال العلويّة في هذه المسألة في: فلسفة النبوّة، الوحي ونبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله. فالأوّلان من ذلك في النبوّة العامّة والقسم الأخير في النبوّة الخاصّة، أي نبوّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله.

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، صص٢٩١-٢٩٣.

[٢]- نموذجًا لذلك، انظر: العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ج١٣، صص ١٩٨-٢٣٣؛ صص ٢٤٩-٢٥١.

[٣]- نموذجًا لذلك، انظر: ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج١، ص٣٩٧؛ الطبراني، المعجم الكبير، م.س، ج٢، ص ٣١٨.

١- فلسفة النبوّة

قال أمير المؤمنين عليه السلام في فلسفة إرسال الرُسُل أن يذكّروا الناس ميثاق فطرته: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ»[١]. وفي رواية أخرى: «بَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ»[٢].

أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّ إرسال الرسل سنّة إلهيّة، فلم يخلُ عصر منهم: «لَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَة. رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَه أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، ومَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الْآبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاء»[٣]. يُشير الإمام عليه السلام بنحو آخر إلى ذلك، حيث يشير إلى الهدف من بعثة الأنبياء عليهم السلام، فيقول: «وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ عَزَّتْ آلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ. مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ»[٤].

إنّ الهدف من بعثة الأنبياء عليهم السلام كان تذكير الإنسان بميثاق فطرته، حيث نسوا ذلك وجهلوا حقّ الله سبحانه: «وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ (أي ولد آدم عليه السلام) أَنْبِيَاءَ، أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا

[١]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ١.

[٢]- م. ن، الخطبة ١٨٣.

[٣]- م. ن، الخطبة ١.

[٤]- م. ن، الخطبة ٢٢٢.

حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ. فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْدَاثٍ تَتَتَابَعُ عَلَيْهِم»[١]. كما أنّ إرسال الأنبياء عليهم السلام للناس، كي يكونوا حجّة عليهم: «بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِم»[٢]. ولم يكن الهدف من بعثة الأنبياء عليهم السلام، مقتصرًا على هدى الناس والتبشير والإنذار، بل إنّهم يوجبون نزول النعمات الإلهيّة: «فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ»[٣].

٢- الوحي

لقد وردت إشارات إلى مسألة الوحي في بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام، وقد مضت الإشارة إلى قول الإمام عليه السلام عن كون الأنبياء عليهم السلام حجّة على الناس، فهذه الحجّيّة مستمدّة من الوحي، حيث قال عليه السلام: «بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ»[٤]. ومن جملة ما قاله عليه السلام أنّ الله «أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُم وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُم»[٥]، أي ميثاق الأنبياء عليهم السلام، فالميثاق هو العهد الذي أخذه من أنبيائه عليهم السلام على الوحي والأمانة في تبليغ الرسالة، فكأنّ الإمام عليه السلام يشير إلى صدق الوحي والتبليغ عند الأنبياء عليهم السلام، هذا هو المعنى لعصمة الأنبياء عليهم السلام. في خطبة أخرى له عليه السلام وعند الكلام عن الملائكة، يشير الإمام عليه السلام إلى ملائكة أمناء على وحي

[١]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ١.

[٢]- م. ن، الخطبة ١٤٤.

[٣]- م. ن، الخطبة ١٩٢.

[٤]- م. ن، الخطبة ١٤٤.

[٥]- م. ن، الخطبة ١.

الله سبحانه: «جَعَلَهُمُ اللهُّ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ. فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ»[١]. هذه إشارة أخرى إلى صدق الوحي عن الله تعالى إلى أنبيائه ومرسليه.

٣- نبوّة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله

يوجد الكثير في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام عن نبوّة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله، ولم يكن لزامًا على الإمام عليه السلام أن يبذل جهدًا في سبيل إثبات نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ كما مرّ آنفًا، كان المجتمع الإسلاميّ قد أقرّ برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام من قبل. ومعظم إشارات أمير المؤمنين عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله كانت منصبّة على رواية بعض تاريخه وصفاته وسننه صلى الله عليه وآله، والبيئة التي بُعث فيها صلى الله عليه وآله.

أ- أجواء البعثة النبويّة: قال أمير المؤمنين عليه السلام عن أجواء البعثة النبويّة إنّ العرب كانت منقطعة عن ادّعاء النبوّة، حيث قال عليه السلام: «إِنَّ اللهَّ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُم»[٢]. كذلك بينّ الإمام عليه السلام أنّ بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله كانت في حين فترة الرسل وحُكم الجهل على المجتمع. الروايات العلويّة في ذلك مختلفة في الألفاظ والجهات ومتّحدة في المعنى، منها: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَانْبِسَاطٍ مِنَ الْجَهْلِ، وَاعْتِرَاضٍ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ، وَعَمًى عَنِ الْحَقِّ، وَاعْتِسَافٍ مِنَ الْجَوْرِ، وَامْتِحَاقٍ مِنَ الدِّينِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ. عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ رِيَاضِ جَنَّاتِ الدُّنْيَا، وَيُبْسٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، وَانْتِثَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَيَأْسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَاغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا. قَدْ دَرَسَتْ أَعْلَامُ الْهُدَى فَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَالدُّنْيَا مُتَهَجِّمَةٌ فِي وُجُوهِ أَهْلِهَا، مُكْفَهِرَّةٌ مُدْبِرَةٌ غَيْرُ مُقْبِلَةٍ، ثَمَرَتُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَقَدْ أَعْمَتْ عُيُونَ أَهْلِهَا، وَأَظْلَمَتْ عَلَيْهَا أَيَّامُهَا. قَدْ قَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ وَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَدَفَنُوا فِي التُّرَابِ الْمَوْءُودَةَ بَيْنَهُمْ مِنْ

---

[١]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة:٩١.

[٢]- م.ن، الخطبة: ٣٣.

أَوْلَادِهِمْ، يَجْتَازُ دُونَهُمْ طِيبُ الْعَيْشِ، وَرَفَاهِيَةُ خُفُوضِ الدُّنْيَا، لَا يَرْجُونَ مِنَ اللهِ ثَوَابًا، وَلَا يَخَافُونَ وَاللهِ مِنْهُ عِقَابًا، حَيُّهُمْ أَعْمَى نَجِسٌ، وَمَيِّتُهُمْ فِي النَّارِ مُبْلِس»[١].

في لفظ آخر: «بَعَثَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَصَدْفٍ عَنِ الْحَقِّ، وَجَهَالَةٍ بِالرَّبِّ وَكُفْرٍ بِالْبَعْثِ وَالْوَعِيد»[٢]، «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَاخْتِلَافٍ مِنَ الْمِلَلِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ السُّبُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَطُمُوسٍ مِنْ أَعْلَامِ الْهُدَى وَالْبَيِّنَات»[٣]، «ابْتَعَثَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَهَدْأَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَاخْتِلَافٍ مِنَ الْمِلَلِ وَضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ، وَجَهَالَةٍ بِالرَّبِّ وَكُفْرٍ بِالْبَعْثِ وَالْوَعْد»[٤]، «بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ. قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْل»[٥]، «ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْن»[٦].

ب- الهدف من البعثة النبويّة: في الروايات العلويّة المتمثّلة في خطبه عليه السلام، هناك بيان بالغايات الإلهيّة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله.

الغاية الأولى، هي إخراج الناس من الجهل والظلم والكفر الذي كانوا يعيشونه قبل البعثة، فقال عليه السلام: «أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَة»[٧].

الغاية الثانية، التي يمكن فرضها في ضمن الغاية الأولى، هي أن يُخرج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد القهّار: «فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص ٦٠-٦١.

[٢]- م. ن، ج٥، ص ٣٦٩.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص ج٥، ص ٣٧٢.

[٤]- م. ن، ج٨، ص ١٧٤.

[٥]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة: ٩٩.

[٦]- م. ن، الخطبة: ١٩١.

[٧]- م. ن، الخطبة: ١٥١.

رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ»[١]. وفي خطبة أخرى: «أَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْآثَامِ، وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ وَنَيِّرَاتِ الْأَحْكَامِ»[٢].

الغاية الأخرى التي بيّنها الإمامعليه السلام للبعثة النبويّة هي الدعوة إلى الحقّ وهداية الناس: «أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ»[٣]، «إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ»[٤]، و«ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي، وَالْكِتَابِ الْهَادِي»[٥]. كما أنّ الله أرسل نبيّه صلى الله عليه وآله لإنفاذ أمره وإنجاز وعده، لإنذار الناس وإقطاع عذره وإتمام الحجّة عليهم. قال أمير المؤمنينعليه السلام في ذلك: «بَعَثَ مُحَمَّدًا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ»[٦]، "فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيْمِنًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ»[٧]. كذلك قالعليه السلام في ضمن خطب أخرى: «أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ»[٨]، «أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا وَمَضَى رَشِيدًا»[٩]، «بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ»[١٠]، و«بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا شَهِيدًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا»[١١]. في لفظ آخر، بيّن أمير المؤمنينعليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان حجّة الله على خلقه: «تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ»[١٢].

---

[١]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ، ١٤٧.

[٢]- م. ن، الخطبة ٧٢.

[٣]- م.ن، الخطبة ١١٦.

[٤]- م. ن، الخطبة ١٦٩.

[٥]- م. ن، الخطبة ١٦١.

[٦]- م. ن، الخطبة ٢٦.

[٧]- م. ن، الكتاب ٦٢.

[٨]- م. ن، الخطبة ٨٣.

[٩]- م. ن، الخطبة ١٠٠.

[١٠]- م.ن، الخطبة ١.

[١١]- م. ن، الخطبة ١٠٥.

[١٢]- م. ن، الخطبة ٩١.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة جمع فيها الغايات من بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله والأجواء التي بُعث صلى الله عليه وآله فيها: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفًا بِالْمَثُلَاتِ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَى خَامِلٌ وَالْعَمَى شَامِلٌ، عُصِيَ الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ وَخُذِلَ الْإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَت سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ، أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ وَقَامَ لِوَاؤُهُ فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَم»[١].

ت- الاصطفاء الإلهيّ: توجد إشارات عدّة في الخطب العلويّة إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد بُعث باصطفاء إلهي. كما أنّ النبوة بشكل عام هي اصطفاء إلهي. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِي الاصْطِفَاء»[٢]، «اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَة»[٣]، «أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبَتًا وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِسًا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَه»[٤]، «الْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاتِه»[٥]، «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ وَأَمِينُهُ الرَّضِي»[٦]، «مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ وَمَمَاهِدِ السَّلَامَة»[٧] و«أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِر»[٨].

[١]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ٢.

[٢]- م. ن، الخطبة ٢١٣.

[٣]- م. ن، الخطبة ١٠٨.

[٤]- م. ن، الخطبة ٩٤.

[٥]- م.ن، الخطبة ١، ١٧٨.

[٦]- م. ن، الخطبة ١٨٥.

[٧]- م. ن: الخطبة ٩٦.

[٨]- م. ن، الخطبة ٢١٤.

ث- الخاتمية: أشار الإمام عليعليه السلام في خطبه إلى خاتمية النبيّصلى الله عليه وآله، ففي ذلك أيضًا إشارة إلى ختم الوحي بختم الرسالة: «فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ»[١]، «بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِه»[٢]، و«أَمِينُ وَحْيِهِ وَخَاتَمُ رُسُلِه»[٣].

ح- العصمة: عصمة النبيّصلى الله عليه وآله من المسائل الخلافيّة في الكلام الإسلاميّ، فالبعض اعتقد أنّ النبيّصلى الله عليه وآله معصوم في التبليغ لا في غيره، والبعض الآخر اعتقد أنّه معصوم في جميع الأفعال قبل مبعثه وبعده، وقد أشار أمير المؤمنينعليه السلام في بعض خطبه إلى عصمة النبيّصلى الله عليه وآله في تلقّي الوحي وتبليغه، حيث وصفه بالأمين في الوحي والتنزيل أو بأمين الله سبحانه: «بَعَثَ مُحَمَّدًا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيل»[٤]، «فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُون»[٥]، «أَمِينُ وَحْيِهِ وَخَاتَمُ رُسُلِه»[٦]، و«أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ وَأَمِينُهُ الرَّضِي»[٧]. ومنه أنّ النبيّصلى الله عليه وآله بموجب عصمته في التبليغ، لم يكن مقصّرًا في تبليغ رسالات ربّهصلى الله عليه وآله: «فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ»[٨].

أمّا في عصمته قبل البعثة وبعدها، فإضافة إلى الروايات التي تدلّ على الاصطفاء وأنّ الاصطفاء شامل لجميع حياة النبيّصلى الله عليه وآله من مولده إلى وفاتهصلى الله عليه وآله، يمكن أن يُشار إلى أنّ النبيّصلى الله عليه وآله كان خير البريّة طفلًا وكهلًا، فقد قال أمير المؤمنينعليه السلام: «خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلًا وَأَنْجَبَهَا كَهْلًا، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَة»[٩]. وأشار الإمامعليه السلام إلى عصمة النبيّصلى الله عليه وآله، حيث سأله يهوديّ عن توبة آدمعليه السلام من خطيئته ووجه أفضليّة رسول اللهصلى الله عليه وآله على سائر الأنبياءعليهم السلام، فقال: «وَمُحَمَّدٌ نَزَلَ فِيهِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَى، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾.

---

[١]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣.

[٢]- م. ن، الخطبة ١.

[٣]- م. ن، الخطبة ١٧٣.

[٤]- م.ن، الخطبة ٢٦.

[٥]- م. ن، الخطبة ١٠٦.

[٦]- م. ن، الخطبة ١٧٣.

[٧]- م. ن، الخطبة ١٨٥.

[٨]- م. ن، الخطبة ١١٦.

[٩]- م.ن، الخطبة ١٠٥.

إِنَّ مُحَمَّدًا غَيْرُ مُوَافٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِوِزْرٍ وَلَا مَطْلُوبٍ فِيهَا بِذَنْبٍ»[١]. فوقوف النبيّ صلى الله عليه وآله في يوم القيامة بين يدي ربّه من دون أيّ ذنب ووزر يدلّ على عصمته صلى الله عليه وآله. وفي المساءلة نفسها سأل اليهوديّ عن إيتاء الحكم إلى زكريّا عليه السلام صبيًّا، أشار الإمام عليه السلام في جوابه إلى عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله قبل البعثة، فقال: «إِنَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا كَانَ فِي عَصْرٍ لَا أَوْثَانَ فِيهِ وَلَا جَاهِلِيَّةَ، وَمُحَمَّدٌ أُوتِيَ الْحُكْمَ وَالْفَهْمَ صَبِيًّا بَيْنَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ، فَلَمْ يَرْغَبْ لَهُمْ فِي صَنَمٍ قَطُّ، وَلَمْ يَنْشَطْ لِأَعْيَادِهِمْ وَلَمْ يُرَ مِنْهُ كَذِبٌ قَطُّ، وَكَانَ أَمِينًا صَدُوقًا حَلِيمًا، وَكَانَ يُوَاصِلُ الصَّوْمَ الْأُسْبُوعَ وَالْأَقَلَّ وَالْأَكْثَرَ فَيُقَالُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِهِمْ، إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي فَيُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي، وَكَانَ يَبْكِي حَتَّى تَبْتَلَّ مُصَلَّاهُ خَشْيَةً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ»[٢]. فقول الإمام عليه السلام بعدم اختلاط رسول الله صلى الله عليه وآله في الطقوس الجاهليّة وعبادة الأصنام، كذلك عبادته وصومه لله عزّ وجل، حيث كلّ ذلك كانت قبل بعثته الشريفة، يدلّ على عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله قبل بعثته بل حين صباه في البيان العلويّ.

رابعًا: الإمامة:

إنّ مبحث الإمامة من المسائل الكلاميّة الخلافيّة بين الشيعة وأهل السنّة. لقد مضى أنّ الإمامة كانت أوّل خلاف بين المسلمين بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله[٣]. أوّل حدث وقع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كان اختيار الخليفة في سقيفة بني ساعدة، فكان اختيار أبي بكر، في حينٍ كان أكثر الناس، ومنهم بنو هاشم، مشتغلين بدفن النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا الاختيار جرى رغم تنصيب رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام وليًّا للناس في واقعة الغدير، حيث قال صلى الله عليه وآله: «من كُنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه». مع كون معنى هذا ال٠حديث قد نوقش من قِبَل علماء أهل السنّة، حيث حاولوا التصرّف في معنى الوليّ فيه، لكن علماء الشيعة دافعوا عن انصراف معنى الولاية إلى الإمامة والخلافة، فضلًا عن إثبات صدور معنى ذلك في مواطن عدّة من جانب النبيّ صلى الله عليه وآله تجاه أمير المؤمنين عليه السلام. في خصوص حديث الغدير، قد

[١]- الطبرسي، الإحتجاج، م.س، ج١، ص ٢١١.

[٢]- م.ن، ج١، ص ٢٢٣.

[٣]- انظر: الأشعري، مقالات الاسلاميين، م.س، ص٢؛

أجاد المرحوم العلّامة الأمينيّ(ت١٩٧١م) في كتابه الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، حيث أورد فيه رواة حديث الغدير وأثبت تواتره، وكتب علماء الشيعة كثيرًا عن إثبات خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، فقد حاولوا أن يثبتوا ذلك من طرق مختلفة. فبعضهم ركّز على مناقب عليّ عليه السلام، والآخر أثبت ذلك بالأحاديث التي وردت في أمّهات كتب أهل السنّة. لكنّنا نُحاول في هذا البحث أن نورد ما جاء في المصادر الشيعيّة عن أمير المؤمنين عليه السلام، من ضرورة الإمامة، إثبات إمامته، بيان الأوصاف التي يتحلّى بها، وأوصاف الأئمّة عليهم السلام، إضافة إلى إيراد ما جاء عن الإمام عليه السلام في قضيّة المهدويّة؛ إذ هي من الموضوعات المرتبطة بالإمامة.

١- ضرورة الإمامة

ضرورة الإمامة يدركها العقل، إذ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما هو بشر له أمد في حياته، فلا بدّ للمجتمع الإسلاميّ الذي قاده نبيّ معصوم وهداه بأحسن وجه أن يكون له قائدٌ يهديه كما هداه النبيّ صلى الله عليه وآله، الأمر الذي قد شغل النبيّ صلى الله عليه وآله بالفعل، فأشار إليه في مواطن مختلفة من بدء شروعه بمشروعه الإصلاحيّ وإقامة الحكومة الإسلاميّة. حسب الروايات التاريخيّة والحديثيّة، كانت الإشارات النبويّة إلى مسألة الخلافة والإمامة في الأحداث الأولى التي أنتجت هجرته واستقراره في المدينة، منها يوم الإنذار الذي أقدم فيه على دعوة عشيرته الأقربين إلى الإسلام[١]، كذلك في بيعة العقبة قُبيل هجرته[٢].

أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ضرورة الإمامة في بعض المرويّات عنه عليه السلام. قال الإمام عليّ عليه السلام في مواجهته مع أهل التحكيم الذين سُمّوا فيما بعد بالخوارج، وهو يُشير إلى حاجة الأمّة إلى الإمام: «لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ»[٣]. كذلك بينّ عليه السلام أنّ الأرض لا تخلو من الحجّة: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ حُجَجٍ فِي أَرْضِك»[٤]، و«اللَّهُمَّ إِنَّكَ لاَ تُخْلِي أَرْضَكَ مِنْ حُجَّةٍ لَكَ عَلَى خَلْقِك»[٥]. كذلك في لفظ آخر، بينّ عليه السلام وجه بقاء الحجّة

[١]- الطبريّ، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ص ٣٢١.

[٢]- البخاريّ، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٩، ص ٤٧.

[٣]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ٤٠.

[٤]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص ٣٣٩.

[٥]- م. ن، ج١، ص ١٧٨.

على الأرض، حيث قال: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ حُجَجٍ فِي أَرْضِكَ، حُجَّةٍ بَعْدَ حُجَّةٍ عَلَى خَلْقِكَ، يَهْدُونَهُمْ إِلَى دِينِكَ وَيُعَلِّمُونَهُمْ عِلْمَكَ، كَيْلَا يَتَفَرَّقَ أَتْبَاعُ أَوْلِيَائِكَ، ظَاهِرٍ غَيْرِ مُطَاعٍ أَوْ مُكْتَتَمٍ يُتَرَقَّبُ، إِنْ غَابَ عَنِ النَّاسِ شَخْصُهُمْ فِي حَالِ هُدْنَتِهِمْ فَلَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ قَدِيمُ مَبْثُوثِ عِلْمِهِمْ، وَآدَابُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مُثْبَتَةٌ فَهُمْ بِهَا عَامِلُونَ»[١]. وقال عليه السلام في رواية أخرى: «اللَّهُمَّ، لَا تُخْلِ الْأَرْضَ مِنْ حُجَّةٍ لَكَ عَلَى خَلْقِكَ، ظَاهِرٍ أَوْ خَافٍ مَغْمُورٍ، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَّتُكَ وَبَيِّنَاتُكَ»[٢]. هذه جميعها إشارات إلى لزوم وجود الحجّة على الأرض، المتمثّلة في الإمام عليه السلام.

٢- إثبات إمامته عليه السلام

حين واجه الإمام عليّ عليه السلام غصب الخلافة، كان لا بدّ له أن يثبت إمامته عليه السلام، وذلك كان عبر طرق عدّة، فتارة باحتجاجه على الغاصبين، وأخرى ببيان أنّ الإمامة أمر إلهيّ وبيان ولايته وإمامته.

أ- بيان أنّه عليه السلام وارث النبيّ صلى الله عليه وآله ووصيّه: كانت الخطوة الأولى في الاحتجاج على غاصبي الخلافة تكمن في بيان أنّه عليه السلام وارث النبيّ صلى الله عليه وآله ووصيّه. وتبيين ذلك كان بالرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «قَالَ سَلْمَانُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَصِيًّا فَمَنْ وَصِيُّكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ غَدٍ رَآنِي مِنْ بَعِيدٍ فَقَالَ: يَا سَلْمَانُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ، وَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: تَعْلَمُ مَنْ كَانَ وَصِيَّ مُوسَى؟ قُلْتُ: يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، ثُمَّ قَالَ: ذَاكَ لِأَنَّهُ يَوْمَئِذٍ خَيْرُهُمْ وَأَعْلَمُهُمْ. ثُمَّ قَالَ: وَإِنِّي أَشْهَدُ الْيَوْمَ أَنَّ عَلِيًّا خَيْرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ، وَهُوَ وَلِيِّي وَوَصِيِّي وَوَارِثِي»[٣]. وروى عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال له: «أَنْتَ الْوَصِيُّ عَلَى الْأَمْوَاتِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، وَالْخَلِيفَةُ عَلَى الْأَحْيَاءِ مِنْ أُمَّتِي، حَرْبُكَ حَرْبِي وَسِلْمُكَ سِلْمِي»[٤]. كذلك روى الإمام عليه السلام ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله في يوم الدار: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِعَلِيٍّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَا وَرِثْتَ ابْنَ عَمِّكَ دُونَ عَمِّكَ؟ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ فَافْتَحُوا

[١]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص ٣٣٩.

[٢]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٤٦٨؛

[٣]- الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج٢، ص ٤٦٩.

[٤]- الخزّاز، علي بن محمد، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، ص١٥١.

آذَانَكُمْ وَاسْتَمِعُوا فَقَالَ: جَمَعَنَا رَسُولُ اللهِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي بَيْتِ رَجُلٍ مِنَّا، أَوْ قَالَ أَكْبَرِنَا، فَدَعَا بِمُدٍّ وَنِصْفٍ مِنْ طَعَامٍ وَقَدَحٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الْغُمَرُ، فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ وَالشَّرَابُ كَمَا هُوَ، وَفِينَا مَنْ يَأْكُلُ الْجَذَعَةَ وَيَشْرَبُ الْفَرَقَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: إِنْ قَدْ تَرَوْنَ هَذِهِ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنَّهُ أَخِي وَوَارِثِي وَوَصِيِّي، فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ وَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: اجْلِسْ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ ذَلِكَ أَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: اجْلِسْ، حَتَّى كَانَ فِي الثَّالِثَةِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي، فَبِذَلِكَ وَرِثْتُ ابْنَ عَمِّي دُونَ عَمِّي»[١].

ب- **احتجاجاته على خلافته**عليه السلام: كانت الخطوة الثانية لأمير المؤمنينعليه السلام في سبيل إثبات خلافته وإمامته أمام الناس، هي احتجاجاته على الصحابة. قالعليه السلام في بعض خطبه ما قاله يوم الشورى: «وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَإِ الْحَاضِرِينَ، هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ»[٢]. ومنه أيضًا: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاسًا لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[٣].

وفي رواية أخرى طويلة يُكتفى بإيراد مقطع منها هنا، قد ناشد أمير المؤمنينعليه السلام أهل الشورى، حيث جمع فضائلهعليه السلام، فقال: «أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ جَمِيعًا، أَفِيكُمْ أَحَدٌ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللهِ غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا.

قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ جَمِيعًا، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ وَحَّدَ اللهَ قَبْلِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ جَمِيعًا، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ أَخُو رَسُولِ اللهِ غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ لَهُ زَوْجَةٌ مِثْلُ زَوْجَتِي فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا.

قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ لَهُ أَخٌ مِثْلُ أَخِي جَعْفَرٍ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ:

[١]- الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج١، ص ١٧٠.

[٢]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٧٢.

[٣]- م. ن، الخطبة ٧٤.

فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهَّ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ لَهُ سِبْطَانِ مِثْلُ ابْنَيْ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سِبْطَيَّ رَسُولِ اللهَّ سَيِّدَيْ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا.

قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهَّ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ نَاجَى رَسُولَ اللهَّ فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُ صَدَقَةً غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهَّ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ» غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهَّ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى» غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا.

قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهَّ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ أُتِيَ النبيّ بِطَيْرٍ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ ائْتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ، يَأْكُلْ مَعِي مِنْ هَذَا الطَّائِرِ» فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ «اللَّهُمَّ وَإِلَيَّ»، فَلَمْ يَأْكُلْ مَعَهُ أَحَدٌ غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا. قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[١].

ويندرج تحت تلك الاحتجاجات بيان الاعتراض على غصب الخلافة في الخطب العامّة أيضًا، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في أحدها: «أَمَا وَاللهَّ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، لَكِنِّي سَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا وَطَوَيْتُ دُونَهَا كَشْحًا، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ. فَرَأَيْتُ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا، مِنْ أَنْ أَرَى تُرَاثِي نَهْبًا، إِلَى أَنْ حَضَرَهُ أَجَلُهُ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى عُمَرَ. فَيَا عَجَبًا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ، فَصَيَّرَهَا وَاللهَّ فِي نَاحِيَةٍ خَشْنَاءَ، يَجْفُو مَسُّهَا وَيَغْلُظُ كَلْمُهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَقَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا عَسَفَ، يَكْثُرُ فِيهَا الْعِثَارُ وَيَقِلُّ مِنْهَا الِاعْتِذَارُ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللهَّ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ إِلَى أَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَجَعَلَهَا شُورَى بَيْنَ جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا لَلشُّورَى وَللهِّ، هُمْ مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ الْآنَ أُقْرَنُ بِهَذِهِ

[١]- الطوسي، الأمالي، م.س، ص ٣٣٣.

النَّظَائِرِ، لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، صَبْرًا عَلَى طُولِ الْمِحْنَةِ وَانْقِضَاءِ الْمُدَّةِ، فَمَالَ رَجُلٌ لِضِغْنِهِ وَصَغَا آخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ، إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَأَسْرَعَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنْ نَزَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُه...»[١].

وخطبة أخرى خطبها حين خرج عليه أهل الجمل، قال فيها: "فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا قَبَضَ نَبِيَّهُ قُلْنَا: نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِهِ وَعَصَبَتُهُ وَوَرَثَتُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ وَأَحَقُّ خَلَائِقِ اللهِ بِهِ، لَا نُنَازَعُ حَقَّهُ وَسُلْطَانَهُ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَفَرَ الْمُنَافِقُونَ فَانْتَزَعُوا سُلْطَانَ نَبِيِّنَا مِنَّا وَوَلَّوْهُ غَيْرَنَا، فَبَكَتْ لِذَلِكَ وَاللهِ الْعُيُونُ وَالْقُلُوبُ مِنَّا جَمِيعًا، وَخَشُنَتْ وَاللهِ الصُّدُورُ، وَايْمُ اللهِ لَوْلَا مَخَافَةُ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ يَعُودُوا إِلَى الْكُفْرِ وَيُعَوَّرَ الدِّينُ، لَكُنَّا قَدْ غَيَّرْنَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَعْنَا»[٢].

ت- الإمامة أمر إلهي: الخطوة الثالثة لأمير المؤمنين عليه السلام في إبطال اختيار السقيفة، كان ببيان أنّ الإمامة أمرٌ إلهيّ. والطريق إلى ذلك أيضًا كان عبر الرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث قال عليه السلام: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَشْرَفَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا فَاخْتَارَنِي مِنْهَا عَلَى رِجَالِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ اطَّلَعَ الثَّانِيَةَ فَاخْتَارَكَ عَلَى رِجَالِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ اطَّلَعَ الثَّالِثَةَ فَاخْتَارَ الْأَئمّة مِنْ وُلْدِكَ عَلَى رِجَالِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ اطَّلَعَ الرَّابِعَةَ فَاخْتَارَ فَاطِمَةَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»[٣]. وفي لفظ آخر، روى الإمام عليه السلام وصية رسول الله صلى الله عليه وآله له: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَشْرَفَ عَلَى الدُّنْيَا فَاخْتَارَنِي مِنْهَا عَلَى رِجَالِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ اطَّلَعَ الثَّانِيَةَ فَاخْتَارَكَ عَلَى رِجَالِ الْعَالَمِينَ بَعْدِي، ثُمَّ اطَّلَعَ الثَّالِثَةَ فَاخْتَارَ الْأَئمّة مِنْ وُلْدِكَ عَلَى رِجَالِ الْعَالَمِينَ بَعْدَكَ، ثُمَّ اطَّلَعَ الرَّابِعَةَ فَاخْتَارَ فَاطِمَةَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»[٤]. وفي مورد آخر، روى عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَتَّخِذَكَ أَخًا وَوَصِيًّا، فَأَنْتَ أَخِي وَوَصِيِّي، وَخَلِيفَتِي عَلَى أَهْلِي فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَوْتِي، مَنْ تَبِعَكَ فَقَدْ تَبِعَنِي، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْكَ فَقَدْ تَخَلَّفَ عَنِّي، وَمَنْ كَفَرَ

---

[١]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج١، صص ٢٨٧-٢٨٩؛

[٢]- المفيد، الأمالي، م.س، صص ١٥٤-١٥٥.

[٣]- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، م.س، ج٤، ص ٣٧٤.

[٤]- الصدوق، الخصال، م.س، ج١، صص ٢٠٦-٢٠٧.

بِكَ فَقَدْ كَفَرَ بِي، وَمَنْ ظَلَمَكَ فَقَدْ ظَلَمَنِي»[١].

ث- إثبات إمامته وولايته عليه السلام: هذه الخطوة النهائيّة لأمير المؤمنين عليه السلام في سبيل إثبات إمامته. إنّها كانت تارة برواية حديث الغدير: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَأَعِنْ مَنْ أَعَانَهُ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وَاخْذُلْ عَدُوَّهُ، وَكُنْ لَهُ وَلِوُلْدِهِ وَاخْلُفْهُ فِيهِمْ بِخَيْرٍ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِيمَا تُعْطِيهِمْ وَأَيِّدْهُمْ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَاحْفَظْهُمْ حَيْثُ تَوَجَّهُوا مِنَ الْأَرْضِ، وَاجْعَلِ الْإِمَامَةَ فِيهِمْ وَاشْكُرْ مَنْ أَطَاعَهُمْ وَأَهْلِكْ مَنْ عَصَاهُمْ، إِنَّكَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ»[٢]، وأخرى بالاحتجاج بحديث الغدير.

وفي رواية طويلة عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه احتجّ على أربعة من الصحابة، هم: مالك بن أنس، البراء بن العازب، الأشعث بن قيس، وخالد بن يزيد، على سماعهم لحديث الغدير من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد عاتبهم على عدم الشهادة بذلك. قال في خطبة عامّة: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ قُدَّامَ مِنْبَرِكُمْ هَذَا أَرْبَعَةُ رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، مِنْهُمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ الْأَنْصَارِيُّ وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ الْكِنْدِيُّ وَخَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الْبَجَلِيُّ.

ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَقَالَ: يَا أَنَسُ، إِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ يَقُولُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، ثُمَّ لَمْ تَشْهَدْ لِيَ الْيَوْمَ بِالْوَلَايَةِ، فَلَا أَمَاتَكَ اللهُ حَتَّى يَبْتَلِيَكَ بِبَرَصٍ لَا تُغَطِّيهِ الْعِمَامَةُ.

وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَشْعَثُ، فَإِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»، ثُمَّ لَمْ تَشْهَدْ لِيَ الْيَوْمَ بِالْوَلَايَةِ، فَلَا أَمَاتَكَ اللهُ حَتَّى يَذْهَبَ بِكَرِيمَتَيْكَ.

وَأَمَّا أَنْتَ يَا خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ، إِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»، ثُمَّ لَمْ تَشْهَدْ لِيَ الْيَوْمَ بِالْوَلَايَةِ، فَلَا أَمَاتَكَ اللهُ إِلَّا مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.

وَأَمَّا أَنْتَ يَا بَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ، إِنْ كُنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ، وَالِ مَنْ وَالاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»، ثُمَّ لَمْ تَشْهَدْ لِيَ الْيَوْمَ

[١]- الطوسيّ، الأمالي، م.س، ص ٢٠٠.

[٢]- الصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص ٥٩.

بِالْوَلَايَةِ، فَلَا أَمَاتَكَ اللهُ إِلَّا حَيْثُ هَاجَرْتَ مِنْهُ»[١].

هناك روايات أخرى عن النبيّ صلى الله عليه وآله في ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، رواها أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي وَيَمُوتَ مَمَاتِي وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَنِي رَبِّي، جَنَّةَ عَدْنٍ مَنْزِلِي، قَضِيبٌ مِنْ قُضْبَانِهِ غَرَسَهُ رَبِّي بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ، فَلْيَتَوَلَّ عَلِيًّا مِنْ بَعْدِي وَالْأَوْصِيَاءَ مِنْ ذُرِّيَّتِي»[٢]. وفي لفظ آخر: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي وَيَمُوتَ مَمَاتِي وَيَدْخُلَ جَنَّةَ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَنِي رَبِّي، قَضِيبٌ مِنْ قُضْبَانِهِ غَرَسَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ، فَلْيَتَوَلَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالْأَوْصِيَاءَ مِنْ بَعْدِه»[٣].

روى أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ما يدلّ على أخذ الميثاق من الناس في عالم الذرّ: «أَنْتَ الَّذِي احْتَجَّ اللهُ بِكَ فِي ابْتِدَائِهِ الْخَلْقَ حَيْثُ أَقَامَهُمْ أَشْبَاحًا، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَصِيِّي؟ فَأَبَى الْخَلْقُ جَمِيعًا إِلَّا اسْتِكْبَارًا وَعَتَوْا مِنْ وَلَايَتِكَ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ، وَهُمْ أَقَلُّ الْقَلِيلِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ»[٤]. كذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام لمن كان يدّعي ولايته، وقد رُوي بألفاظ مختلفة: «وَيْلَكَ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَبْدَانِ بِأَلْفَيْ عَامٍ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْنَا الْمُحِبَّ لَنَا، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ رُوحَكَ فِيمَنْ عَرَضَ عَلَيْنَا، فَأَيْنَ كُنْتَ؟»[٥].

ح- **بيان الأوصاف التي يتحلّى بها عليه السلام**: كان على عليّ عليه السلام أن يعرّف الناسَ نفسه ويبيّن لهم الصفات التي يتحلّى بها من علم وحكمة ومنزلة في سبيل بيان أحقّيته بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد بيّن للناس أنّه عليه السلام سبب هدايتهم، حيث قال في إحدى خطبه: «بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيَاءِ»[٦]. في المرويّات عن أمير المؤمنين عليه السلام نجد تبييناً منه عليه السلام لبعض صفاته، منه علمه عليه السلام بالكتب السماويّة، أنّ عنده علم البلايا والمنايا وأنّه مدينة الحكمة.

---

[١]- الصدوق، الأمالي، م.س، صص ١٢٢-١٢٣.

[٢]- الصفار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص ٥٠.

[٣]- م.ن، ج١، ص ٥١.

[٤]- الطوسي، الأمالي، م.س، ص ٢٣٣.

[٥]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، صص ٨٧-٨٩؛

[٦]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة ٤.

لقد ورد عن الإمام عليه السلام أنّه عالم بالكتب، فقد قال عليه السلام: "وَاللهِّ لا يَسْأَلُني أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَلا أَهْلُ الْإِنْجِيلِ وَلا أَهْلُ الزَّبُورِ وَلا أَهْلُ الْفُرْقَانِ، إِلّا فَرَّقْتُ بَيْنَ أَهْلِ كُلِّ كِتَابٍ بِحُكْمِ مَا فِي كِتَابِهِم"[١]، وفي لفظ آخر: "لَأَنَا أَعْلَمُ بِالتَّوْرَاةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَأَعْلَمُ بِالْإِنْجِيلِ مِنْ أَهْلِ الْإِنْجِيل"[٢]. ومن ضمن ما يدلّ على علمه عليه السلام بالكتب، أنّه إن ثُنيت له وسادة سيقضي بين أهل كلّ ملّة بكتابهم. قال عليه السلام: «لَوْ ثُنِيَتْ لِي وِسَادَةٌ، لَحَكَمْتُ بَيْنَ أَهْلِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ حَتَّى يَزْهَرَ إِلَى اللهِّ، وَلَحَكَمْتُ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْرَاةِ بِالتَّوْرَاةِ حَتَّى يَزْهَرَ إِلَى اللهِّ، وَلَحَكَمْتُ بَيْنَ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ بِالْإِنْجِيلِ حَتَّى يَزْهَرَ إِلَى اللهِّ، وَلَحَكَمْتُ بَيْنَ أَهْلِ الزَّبُورِ بِالزَّبُورِ حَتَّى يَزْهَرَ إِلَى اللهِّ»[٣]، وقد ورد ذلك بألفاظ مختلفة[٤].

من جملة تلك الصفات، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عنده علم المنايا والبلايا. كان الإمام عليه السلام يعرّف اختصاص هذا العلم بأهل البيت عليهم السلام أجمعهم، حيث يقول: «إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ عُلِّمْنَا عِلْمَ الْمَنَايَا وَالْبَلَايَا وَالْأَنْسَابِ، وَاللهِّ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَّا قَامَ عَلَى جِسْرٍ ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ، لَحَدَّثَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَنْسَابِهِم»[٥]، وأخرى ينسب ذلك العلم إلى نفسه وأنّه واجده: «لَقَدْ أُعْطِيتُ خِصَالًا مَا سَبَقَنِي إِلَيْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: عِلْمَ الْمَنَايَا وَالْبَلَايَا وَالْأَنْسَابِ وَفَصْلَ الْخِطَابِ، فَلَمْ يَفُتْنِي مَا سَبَقَنِي وَلَمْ يَعْزُبْ عَنِّي مَا غَابَ عَنِّي، أُبَشِّرُ بِإِذْنِ اللهِّ وَأُؤَدِّي عَنْهُ، كُلُّ ذَلِكَ مَنًّا مِنَ اللهِّ مَكَّنَنِي فِيهِ بِعِلْمِه»[٦]، وقد ورد ذلك بألفاظ مختلفة[٧]. كذلك قال عليه السلام إنّ هذه العلوم علّمه إيّاها النبيّ صلى الله عليه وآله: «إِنَّ رَسُولَ اللهِّ عَلَّمَنِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمِمَّا كَانَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا يَفْتَحُ أَلْفَ بَابٍ، فَذَلِكَ أَلْفُ أَلْفِ بَابٍ حَتَّى عَلِمْتُ عِلْمَ الْمَنَايَا وَالْبَلَايَا وَفَصْلَ الْخِطاب»[٨].

---

[١]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص ١٣٤.

[٢]- م. ن، ج١، صص ١٣٤-١٣٥.

[٣]- م. ن، ج١، ص ١٣٢.

[٤]- للألفاظ المختلفة لهذه الرواية، راجع: م. ن، ج١، صص ١٣٢-١٣٤؛

[٥]- الصفار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص ٢٦٨.

[٦]- م. ن، ج١، صص ٢٠٠-٢٠١.

[٧]- للألفاظ المختلفة لهذه الرواية، راجع: م. ن، ج١، صص١٩٩-٢٠٢؛ ص٢٦٦-٢٦٩؛ صص٣٥٧-٣٥٨؛

[٨]- الصدوق، الخصال، م.س، ج٢، صص ٦٤٣ - ٦٤٦.

روى أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ، أَنَا مَدِينَةُ الْحِكْمَةِ وَأَنْتَ بَابُهَا، وَلَنْ تُؤْتَى الْمَدِينَةُ إِلَّا مِنْ قِبَلِ الْبَابِ»[١]، وبألفاظ مختلفة[٢]. كما أنّه بيّن أنّ لأهل البيت عليهم السلام معاقل العلم وأبواب الحكمة: «خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّاسِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالرِّسَالَةِ وَأَنْبَأَهُ بِالْوَحِيِ، وَأَنَالَ فِي النَّاسِ وَأَنَالَ، وَفِينَا أَهْلَ الْبَيْتِ مَعَاقِلُ الْعِلْمِ وَأَبْوَابُ الْحِكْمَةِ وَضِيَاؤُهُ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ»[٣].

٣- أوصاف الأئمّة عليهم السلام:

في هذا القسم، بعد الفراغ من إيراد بعض ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام في إثبات إمامته وولايته، نُورِد بعض ما رُوي عنه عليه السلام في أوصاف الأئمّة عليهم السلام وخصائصهم. فنجدُ في الخطب العلويّة بيانًا لصفات وفضائل أهل البيت عليهم السلام. باعتبار أنّهم موضع الإمامة، وقد يُعدّ ذلك إثباتًا لحصر الإمامة والخلافة في أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله.

أ- الصفات العامة لأهل البيت عليهم السلام: عرّف أمير المؤمنين عليه السلام أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّهم خير الأسر، حيث قال عليه السلام في خطبة: «عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ»[٤]. وفي خطبة أخرى عرّفهم عليه السلام بأنّهم موضع سرّ النبيّ صلى الله عليه وآله: «هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ وَكُهُوفُ كُتُبِهِ وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِه»[٥].

كذلك بيّن الإمام عليه السلام عن كون أهل البيت عليهم السلام أساس الدين، أزمّة الحقّ، معادن العلم. وببيان آخر، عرّفهم عليهم السلام بأنّهم المرجع في الدين، فجاء في بعض خطبه عليه السلام: «هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ»[٦]. ونجد في هذه الخطبة أنّه عليه السلام بينّ أنّ الولاية حقٌّ لأهل البيت عليهم السلام.

---

[١]- الصدوق، الأمالي، م.س، ص ٢٦٩.

[٢]- م. ن، ص١٢٦؛ ص٣٨٨؛ ص٥٢٦؛

[٣]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٣٦٤.

[٤]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ٩٤.

[٥]- م.ن، الخطبة ٢.

[٦]- م.ن، الخطبة،٢.

«هُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ وَأَعْلَامُ الدِّينِ وَأَلْسِنَةُ الصِّدْق»[١]، «نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَة وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ وَيَنَابِيعُ الْحُكْم»[٢]، «عِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْر»[٣]، «هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ، هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، فَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ شُهَدَاءُ بِالْحَقِّ وَمُخْبِرٌ صَادِقٌ لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، قَدْ خَلَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ السَّابِقَةُ وَمَضَى فِيهِمْ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حُكْمٌ صَادِقٌ، وَفِي ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين»[٤]، «هُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ وَوَلَائِجُ الِاعْتِصَام، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرُعَاتَهُ قَلِيل»[٥].

الخطب المنقولة أعلاه، تدلّ على علم أهل البيت عليهم السلام، وأنّ لهم المرجعيّة الدينيّة للمجتمع الإسلاميّ. كذلك الإمام علي عليه السلام أشار في خطبة إلى استدامة حركة أهل البيت عليهم السلام، فبفقد أحدهم يقوم الآخر مقامه. قال عليه السلام: «أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُون»[٦].

ب- **عصمة الأئمّة عليهم السلام**: رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام في العصمة: «إِنَّ اللهَ طَهَّرَنَا وَعَصَمَنَا وَجَعَلَنَا شُهَدَاءَ عَلَى خَلْقِهِ وَحُجَّتَهُ فِي أَرْضِهِ، وَجَعَلَنَا مَعَ الْقُرْآنِ وَجَعَلَ الْقُرْآنَ مَعَنَا، لَا نُفَارِقُهُ وَلَا يُفَارِقُنَا»[٧]. في رواية أخرى، يستدلّ أمير المؤمنين عليه السلام على عصمة الأئمّة عليهم السلام فيقول: «لَا يَنْبَغِي لِلْمَخْلُوقِ أَنْ يَكُونَ حُبُّهُ لِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَلَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَتِهِ

[١]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة٨٧.
[٢]- م. ن، الخطبة ١٠٩.
[٣]- م. ن، الخطبة ١٢٠.
[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٨، ص٣٩١؛ انظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٩.
[٥]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٩.
[٦]- م. ن، الخطبة ١٠٠.
[٧]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص ٨٣؛

وَلَا طَاعَةَ لِمَنْ عَصَى اللهَ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِوُلَاةِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مُطَهَّرٌ لَا يَأْمُرُ بِمَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مُطَهَّرُونَ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْصِيَتِهِ»[١]. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير أولي الأمر: «إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَإِنَّهُ يَنْزِلُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَمْرُ السَّنَةِ، وَلِذَلِكَ الْأَمْرِ وُلَاةٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: أَنَا وَأَحَدَ عَشَرَ مِنْ صُلْبِي أئمّة مُحَدَّثُونَ»[٢].

ت- خصائص الأئمّة عليهم السلام: هناك بعض الروايات العلويّة، تبيّن أوصاف الأئمّة عليهم السلام وخصائصهم. ورُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّهم عليهم السلام أمان لأهل الأرض، فروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ ذَهَبَ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، فَإِذَا ذَهَبَ أَهْلُ بَيْتِي ذَهَبَ أَهْلُ الْأَرْضِ»[٣]. كذلك رُوي عن عليّ عليه السلام أنّهم شجرة النبوّة: «إِنَّا أَهْلَ بَيْتٍ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ وَمَوْضِعُ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ وَبَيْتُ الرَّأْفَةِ وَمَعْدِنُ الْعِلْمِ»[٤]. من هذه الخصائص والصفات، هو كون الأئمّة محدَّثين. رُوي عن سُليم بن قيس الشامي، قال الإمام عليه السلام: «إِنِّي وَأَوْصِيَائِي مِنْ وُلْدِي أئمّة مُهْتَدُونَ، كُلُّنَا مُحَدَّثُونَ. قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، ثُمَّ ابْنِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ -قَالَ: وَعَلِيٌّ يَوْمَئِذٍ رَضِيعٌ- ثُمَّ ثَمَانِيَةٌ مِنْ بَعْدِهِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ»[٥].

روى أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله، بأنّ الله سبحانه ختم الدين بالأئمّة عليهم السلام: «قَالَ عَلِيٌّ لِرَسُولِ اللهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنَّا الْهُدَاةُ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا؟ قَالَ: بَلْ مِنَّا الْهُدَاةُ إِلَى اللهِ إِلَى يَوْم الْقِيَامَةِ، بِنَا اسْتَنْقَذَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ضَلَالَةِ الشِّرْكِ، وَبِنَا يَسْتَنْقِذُهُمْ مِنَ ضَلَالَةِ الْفِتْنَةِ، وَبِنَا يُصْبِحُونَ إِخْوَانًا بَعْدَ ضَلَالَةِ الْفِتْنَةِ كَمَا بِنَا أَصْبَحُوا إِخْوَانًا بَعْدَ ضَلَالَةِ الشِّرْكِ، وَبِنَا يَخْتِمُ اللهُ كَمَا بِنَا فَتَحَ اللهَ»[٦]. كذلك روى عليه السلام: «يَا عَلِيُّ، بِنَا يَخْتِمُ

---

[١]- الصدوق، الخصال، م.س، ج١، ص ١٣٩.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص ٥٣٢-٥٣٣.

[٣]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج١، ص٢٠٥.

[٤]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص ٥٨.

[٥]- المفيد، الإختصاص، م.س، ص ٣٢٩.

[٦]- الصدوق، كمال الدين، م.س، صص ٢٣٠-٢٣١.

اللهُ الدِّينَ كَمَا بِنَا فَتَحَهُ، وَبِنَا يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ»[١].

ومنها أيضًا، أنّ الأرض للإمام عليه السلام، فرُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيٍّ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] أَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي الَّذِينَ أَوْرَثَنَا اللهُ الْأَرْضَ، وَنَحْنُ الْمُتَّقُونَ وَالْأَرْضُ كُلُّهَا لَنَا، فَمَنْ أَحْيَا أَرْضًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلْيَعْمُرْهَا وَلْيُؤَدِّ خَرَاجَهَا إِلَى الْإِمَامِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَلَهُ مَا أَكَلَ مِنْهَا، فَإِنْ تَرَكَهَا أَوْ أَخْرَبَهَا وَأَخَذَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ فَعَمَرَهَا وَأَحْيَاهَا، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا مِنَ الَّذِي تَرَكَهَا، يُؤَدِّي خَرَاجَهَا إِلَى الْإِمَامِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَلَهُ مَا أَكَلَ مِنْهَا، حَتَّى يَظْهَرَ الْقَائِمُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي بِالسَّيْفِ فَيَحْوِيَهَا وَيَمْنَعَهَا وَيُخْرِجَهُمْ مِنْهَا، كَمَا حَوَاهَا رَسُولُ اللهِ وَمَنَعَهَا، إِلَّا مَا كَانَ فِي أَيْدِي شِيعَتِنَا، فَإِنَّهُ يُقَاطِعُهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَيَتْرُكُ الْأَرْضَ فِي أَيْدِيهِمْ»[٣].

٤- المهدويّة:

نجد في الخطب العلويّة إشارة إلى آخر الزمان. فباعتبار أنّ آخر الزمان هي الحقبة الزمنيّة التي تسبق الظهور، سنورد واحدة من تلك الإشارات. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه عن آخر الزمان: «وَذَلِكَ زَمَانٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ... أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ»[٤].

إنّ في المصادر الشيعيّة الحديثية، روايات علويّة كثيرة عن قضيّة المهدويّة، وأحداث ظهور المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف وتفاصيلها[٥]. وفي هذا القسم تُطرح عيّنة من تلك الروايات التي تبينّ الخطوط العريضة للقضيّة المهدويّة.

في الوهلة الأولى، قد روى أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله روايات في المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، منها: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقُومَ قَائِمٌ لِلْحَقِ مِنَّا، وَذَلِكَ حِينَ يَأْذَنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، وَمَنْ

[١]- الطوسي، الأمالي، م.س، ص٢١.

[٢]- سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص ٤٠٧-٤٠٨.

[٤]- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

[٥]- للإطلاع على هذه الروايات، راجع: العطاردي، مسند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ج١٤، ص٣٨٥-٤٤٢.

تَبِعَهُ نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ هَلَكَ. اللهَ اللهَ عِبَادَ اللهَ، فَأْتُوهُ وَلَوْ عَلَى الثَّلْجِ، فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَخَلِيفَتِي»[١]، «لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَقُومَ رَجُلٌ مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ، يَمْلَؤُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرا»[٢]، «الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، يُصْلِحُ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ فِي لَيْلَةٍ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «يُصْلِحُهُ اللهُ فِي لَيْلَةٍ»[٣]، «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ بَشِيرًا، لَيَغِيبَنَّ الْقَائِمُ مِنْ وُلْدِي بِعَهْدٍ مَعْهُودٍ إِلَيْهِ مِنِّي حَتَّى يَقُولَ أَكْثَرُ النَّاسِ مَا للهَّ فِي آلِ مُحَمَّدٍ حَاجَةٌ، وَيَشُكُّ آخَرُونَ فِي وِلَادَتِهِ، فَمَنْ أَدْرَكَ زَمَانَهُ فَلْيَتَمَسَّكْ بِدِينِهِ وَلَا يَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ إِلَيْهِ سَبِيلًا بِشَكِّهِ فَيُزِيلَهُ عَنْ مِلَّتِي وَيُخْرِجَهُ مِنْ دِينِي، فَقَدْ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ»[٤]، و«الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِي، تَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ وَحَيْرَةٌ تَضِلُّ فِيهَا الْأُمَمُ، يَأْتِي بِذَخِيرَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَيَمْلَؤُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا»[٥]. روى عليعليه‌السلام عن النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله في انتظار الفرج: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ»[٦].

قد أعلن أمير المؤمنينعليه‌السلام عن وجود المهديّعجل‌الله‌فرجه في موارد عدّة، وكان ذلك في بعض الأحيان لأهل بيتهعليهم‌السلام ومنهم الإمام الحسينعليه‌السلام، حيث خاطبه أمير المؤمنينعليه‌السلام، فقال: «التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِكَ يَا حُسَيْنُ، هُوَ الْقَائِمُ بِالْحَقِّ الْمُظْهِرُ لِلدِّينِ وَالْبَاسِطُ لِلْعَدْلِ. قَالَ الْحُسَيْنُ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ؟ فَقَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالنُّبُوَّةِ وَاصْطَفَاهُ عَلَى جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ غَيْبَةٍ وَحَيْرَةٍ، فَلَا يَثْبُتُ فِيهَا عَلَى دِينِهِ إِلَّا الْمُخْلِصُونَ الْمُبَاشِرُونَ لِرَوْحِ الْيَقِينِ، الَّذِينَ أَخَذَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِيثَاقَهُمْ بِوَلَايَتِنَا وَكَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»[٧]. وفي رواية أخرى أنّهعليه‌السلام نظر إلى الحسينعليه‌السلام فقال: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ سَيِّدًا، وَسَيُخْرِجُ اللهُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلًا بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ، يُشْبِهُهُ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ، يَخْرُجُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَإِمَاتَةٍ لِلْحَق وَإِظْهَارٍ لِلْجَوْرِ، وَاللهِ لَوْ لَمْ يَخْرُجْ لَضُرِبَتْ عُنُقُهُ، يَفْرَحُ بِخُرُوجِهِ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَسُكَّانُهَا، وَهُوَ

[١]- الصدوق، عيون أخبار الرضاعليه‌السلام، م.س، ج٢، صص ٥٩-٦٠.

[٢]- م. ن، ج٢، ص ٦٦.

[٣]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج١، ص ١٥٢.

[٤]- م.ن، ج١، ص ٥١.

[٥]- م. ن، ج١، ص ٢٨٧.

[٦]- م. ن، ج١، ص ٢٨٧.

[٧]- م.ن، ج١، ص ٣٠٤.

رَجُلٌ أَجْلَى الْجَبِينِ أَقْنَى الْأَنْفِ ضَخْمُ الْبَطْنِ أَزْيَلُ الْفَخِذَيْنِ، بِفَخِذِهِ الْيُمْنَى شَامَةٌ أَفْلَجُ الثَّنَايَا، وَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا»[١].

في حين آخر، كان الإعلان عن وجوده عجل الله فرجه الشريف لأصحابه عليه السلام. فقد روى الأصبغ بن نباتة: «أَتَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَجَدْتُهُ مُتَفَكِّرًا يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لِي أَرَاكَ مُتَفَكِّرًا تَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، أَرَغْبَةً مِنْكَ فِيهَا؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، مَا رَغِبْتُ فِيهَا وَلَا فِي الدُّنْيَا يَوْمًا قَطُّ، وَلَكِنِّي فَكَّرْتُ فِي مَوْلُودٍ يَكُونُ مِنْ ظَهْرِي الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ وُلْدِي، هُوَ الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، تَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ وَحَيْرَةٌ يَضِلُّ فِيهَا أَقْوَامٌ وَيَهْتَدِي فِيهَا آخَرُونَ»[٢].

قد أعلن أمير المؤمنين عليه السلام القضيّة المهدويّة إعلانًا عامًّا، فقال وهو على المنبر: «يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وُلْدِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ «أَبْيَضُ اللَّوْنِ مُشْرَبٌ بِالْحُمْرَةِ، مُبْدَحُ الْبَطْنِ عَرِيضُ الْفَخِذَيْنِ عَظِيمٌ مُشَاشُ الْمَنْكِبَيْنِ، بِظَهْرِهِ شَامَتَانِ: شَامَةٌ عَلَى لَوْنِ جِلْدِهِ وَشَامَةٌ عَلَى شِبْهِ شَامَةِ النبيّ، لَهُ اسْمَانِ: اسْمٌ يَخْفَى وَاسْمٌ يَعْلَنُ، فَأَمَّا الَّذِي يَخْفَى فَأَحْمَدُ وَأَمَّا الَّذِي يَعْلَنُ فَمُحَمَّدٌ، إِذَا هَزَّ رَايَتَهُ أَضَاءَ لَهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رؤُوسِ الْعِبَادِ، فَلَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلَّا صَارَ قَلْبُهُ أَشَدَّ مِنْ زُبَرِ الْحَدِيدِ، وَأَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى قُوَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، وَلَا يَبْقَى مَيِّتٌ إِلَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْفَرْحَةُ فِي قَلْبِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ وَهُمْ يَتَزَاوَرُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيَتَبَاشَرُونَ بِقِيَامِ الْقَائِمِ صلوات اللهَّ عليه»[٣]. أو قال عليه السلام: «بِأَبِي ابْنُ خِيَرَةِ الْإِمَاءِ -يَعْنِي الْقَائِمَ مِنْ وُلْدِهِ- يَسُومُهُمْ خَسْفًا وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ، وَلَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ هَرْجًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَتَمَنَّى فَجَرَةُ قُرَيْشٍ لَوْ أَنَّ لَهَا مُفَادَاةً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِيُغْفَرَ لَهَا، لَا نَكُفُّ عَنْهُمْ حَتَّى يَرْضَى اللهَّ»[٤]. وفي رواية أخرى عنه عليه السلام، بينّ أنّ المهديّ عجل الله فرجه الشريف سينتقم لأهل البيت عليهم السلام: «أَمَا وَاللهَّ لَأُقْتَلَنَّ أَنَا وَابْنَايَ هَذَانِ، وَلَيَبْعَثَنَّ اللهُّ رَجُلًا مِنْ وُلْدِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُطَالِبُ بِدِمَائِنَا، وَلَيَغِيبَنَّ عَنْهُمْ تَمْيِيزًا لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ حَتَّى

[١]- النعمانيّ، محمد بن إبراهيم، الغيبة، صص٢١٤-٢١٥.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص ٣٣٨.

[٣]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج٢، ص ٦٥٣.

[٤]- النعمانيّ، الغيبة، م.س، ص ٢٢٩.

يَقُولَ الجَاهِلُ مَا للهِ فِي آلِ مُحَمَّدٍ مِنْ حَاجَةٍ»[١].

كذلك هناك روايات علوية عن غيبة المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف: «أَمَا لَيَغِيبَنَّ حَتَّى يَقُولَ الجَاهِلُ مَا للهِ فِي آلِ مُحَمَّدٍ حَاجَةٌ»[٢]، «لِلْقَائِمِ مِنَّا غَيْبَةٌ أَمَدُهَا طَوِيلٌ، كَأَنِّي بِالشِّيعَةِ يَجُولُونَ جَوَلَانَ النَّعَمِ فِي غَيْبَتِهِ يَطْلُبُونَ المَرْعَى فَلَا يَجِدُونَهُ، أَلَا فَمَنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ وَلَمْ يَقْسُ قَلْبُهُ لِطُولِ أَمَدِ غَيْبَةِ إِمَامِهِ فَهُوَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْقَائِمَ مِنَّا إِذَا قَامَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، فَلِذَلِكَ تَخْفَى وِلَادَتُهُ وَيَغِيبُ شَخْصُهُ»[٣].

وفي حيرة الشيعة أيام غيبة صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كَأَنِّي بِكُمْ تَجُولُونَ جَوَلَانَ النَّعَمِ تَطْلُبُونَ المَرْعَى فَلَا تَجِدُونَه»[٤]، وفي لفظ آخر: «كَأَنِّي بِكُمْ تَجُولُونَ جَوَلَانَ الْإِبِلِ تَبْتَغُونَ مَرْعًى وَلَا تَجِدُونَهَا يَا مَعْشَرَ الشِّيعَةِ»[٥].

خامسًا: المعاد:

إنّ الموت من الحقائق الأوّليّة التي واجهها الإنسان طوال مسيرته، فالموت حقيقة ملموسة ثابتة لدى البشر أينما حلّوا. ففي الخطب العلويّة، نجد توجيهًا للناس بأن يستعدّوا للموت، فإنّه «قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ وَانْقَطَعَتْ مِنكُمْ عَلَائِقُ الْأُمْنِيَّةِ»[٦]. فالمواعظ العلويّة المتمثّلة بخطبه العامّة، تحذّر الناس من الموت وتحرّضهم على الاستعداد له: «اسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا»[٧]، «أَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُم»[٨]، «بَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ، فَإِنَّ

[١]- النعمانيّ، الغيبة، م.س، ص ١٤١.

[٢]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج١، ص ٣٠٢.

[٣]- م.ن، ج١، ص ٣٠٣.

[٤]- م. ن، ج١، ص ٣٠٣.

[٥]- النعمانيّ، الغيبة، م.س، ص ١٩٢.

[٦]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ٨٥.

[٧]- م.ن، الخطبة ٦٤.

[٨]- م.ن، الخطبة ١١٣.

الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ، وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهِلَ»[١]. وفي الفقرة الأخيرة، نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يحرّض الناس على الاستعداد للموت، فإنّ الغاية من الدنيا يوم القيامة.

أمّا بالنسبة إلى سؤال القبر وعالم البرزخ، فقد ورد عنه عليه السلام: «إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ، وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ»[٢].

كذلك قد ورد عنه عليه السلام في مراحل القيامة. ففي نفخ الصور: «وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ»[٣]. وفي البعث والنشور: «حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ وَأَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ وَأَوْجِرَةِ السِّبَاعِ وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ سِرَاعًا إِلَى أَمْرِهِ مُهْطِعِينَ، إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلًا صُمُوتًا قِيَامًا صُفُوفًا، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الِاسْتِكَانَةِ وَضَرَعُ الِاسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ، قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَهَوَتِ الْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً، وَأَلْجَمَ الْعَرَقُ وَعَظُمَ الشَّفَقُ، وَأُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ، وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ وَنَكَالِ الْعِقَابِ وَنَوَالِ الثَّوَابِ. عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَارًا وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَارًا وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَارًا، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثًا وَكَائِنُونَ رُفَاتًا وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَادًا، وَمَدِينُونَ جَزَاءً وَمُمَيَّزُونَ حِسَابًا، قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ، وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ وَرَوِيَّةِ الِارْتِيَادِ وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ»[٤].

وفي الصراط: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ

[١]- الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

[٢]- م.ن، الخطبة ٨٣.

[٣]- م.ن، الخطبة ١٩٦.

[٤]- م.ن، الخطبة ٨٣.

الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ، وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ، ظَافِرًا بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى وَرَاحَةِ النُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ، وَقَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيدًا وَقَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيدًا، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ وَنَظَرَ قُدُمًا أَمَامَهُ، فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا وَنَوَالًا وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَابًا وَوَبَالًا، وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِمًا وَنَصِيرًا وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجًا وَخَصِيمًا»[١].

وكانت هناك إشارة إلى الحساب في يوم القيامة، فقد رُوي عن أمير المؤمنين في الحساب: «وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ، خُضُوعًا قِيَامًا، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالًا مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعًا وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعًا»[٢].

نجد أنّ الإشارات إلى المعاد، والتحذير من يوم القيامة، والحضّ على ذكر الموت، قد تمثّلت بخطب أمير المؤمنين عليه السلام العامّة، هذا الأمر ينجم عن حاجة المجتمع إلى التذكير بالموت والقيامة ويوم الحساب. وأثر هذه التنبيهات على المجتمع، هو أنّه إن أدرك الفرد أنّ الأجل مدركه عاجلًا أم آجلًا، وأنّ وراءه يوم الحساب، سيسعى إلى تهذيب نفسه والنظر في أعماله، وتهذيب الفرد خطوة على طريق تهذيب المجتمع وتخلّقه، سيُهذّب المجتمع.

---

[١]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.

[٢]- م. ن، الخطبة ١٠٢.

الخاتمة:

رغم الانتقائيّة الشديدة التي اضطرّ إليها الباحث في انتخاب النصوص والخطب العلويّة بحكم محدوديّة البحث، فإنّا نظن أنّ ما ورد من الروايات سلّط الضوء إلى حدّ كبير على الدور التأسيسيّ والتبيينيّ لأمير المؤمنين عليه السلام، رغم الظروف الصعبة التي عاصرها. فهو لم يتمكّن من إبراز المعارف الإلهيّة الحقّة والصحيحة بشكل عامّ وعلنيّ في القسم الأوّل من حياته خلال حكم الخلفاء. وفي سنين خلافته الظاهريّة، حاول أن يُصلح الاعوجاج المعرفيّ الموروث ببيان تناول فيه شتّى المسائل المعرفيّة. وهذا الأمر يكشف عن دور تأسيسيّ وإصلاحيّ للإمام علي عليه السلام في منظومة الكلام الشيعيّ بشكل خاصّ، ومنظومة الكلام الإسلاميّ عمومًا.

وتجلّى هذا الدور أكثر في بيان الأصول الاعتقاديّة عموما والتوحيد خصوصًا، ولا غرابة أن تفرض موقعيّة الإمام عليّ عليه السلام مرجعيّته في هذا المقام لمكانته من رسول الله الذي خصّه من العلم ما لم يمنحه أحدًا حتى الخلفاء أنفسهم الذين لم يلازموا النبيّ صلى الله عليه وآله كما لازمه الإمام عليه السلام، ولم يرثوا علم النبيّ صلى الله عليه وآله كما ورثه الإمام عليه السلام.

ونحن في هذا البحث إذ نتحدّث عن خصوصيّة البيان العلويّ، فهذا لا ينسينا أنّ هذا البيان وهذه المعارف هي بيان ومعارف رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر الأئمّة الأطهار؛ لأنّ الأئمّة عليهم السلام كلّهم نورٌ واحد، وفيوضاتهم العلميّة والمعرفيّة منبثقة من معدن واحد، ولكن كلّ إمام عليه السلام ينفع المسلمين عمومًا، والشيعة خصوصًا من معارفه وعلومه بما يناسب عصره، وحاجات زمانه.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أبونعيم الأصبهاني، أحمد بن عبدالله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١١، مصر- القاهرة، دار أم القرى، بلا تا.

٣. ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ج١٠، ايران-قم، مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ، ١٤٠٤.

٤. ابن حبّان، محمّد، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ج١٨، لبنانبيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٩٩٣.

٥. ابن شعبة، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول، ج١، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقمّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٤٠٤.

٦. ابن طاووس، علي بن موسى، الدروع الواقية، ج١، لبنان-بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٩٩٥.

٧. ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، ج١، ايران- قم، دار الذخائر، ١٤١١.

٨. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، ٨٠ ج، لبنان-بيروت، دار الفكر، ١٤١٥.

٩. الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ايران- قم، دار الكتاب الإسلاميّ، ١٤١٠.

١٠. الأشعري، علي بن اسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، ج١، لبنان-بيروت، فرانز اشتاينر، ١٤٠٠.

١١. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٩، بلا مك، دار طوق النجاة، ١٤٢٢.

١٢. البرقيّ، أحمد بن محمد، المحاسن، ج٢، ايران- قم، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧١.

١٣. البغداديّ، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ج١، لبنان- بيروت، دار الجيل-دار الآفاق، ١٤٠٨.

١٤. البلاذريّ، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، ج١، لبنان-بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٨.

١٥. الحويزيّ، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين، ج٥، ايران- قم، اسماعيليان، ١٤١٥.

١٦. الخزّاز، علي بن محمد، كفاية الأثر في النص على الأئمّة الاثني عشر، ج١، ايران- قم، بيدار، ١٤٠١.

١٧. الشريف الرضيّ، محمّد بن الحسن، نهج البلاغة، ج١، ايران- قم، هجرت، ١٤١٤.

١٨. الشريف الرضيّ، محمّد بن حسين، نهج البلاغه، ترجمة حسين انصاريان، ج١، ايران-قم، دار العرفان، ١٣٨٨.

١٩. الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، ج٢، مصر-القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٩٨٨.

٢٠. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ج٢، ايران- قم، الشريف الرضيّ، ١٣٦٤.

٢١. الصدوق، محمّد بن علي، الأمالي، ١ ج، ايران-طهران، كتابچى، ١٣٧٦.

٢٢. الصدوق، محمّد بن علي، التوحيد، ج١، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٣٩٨.

٢٣. الصدوق، محمّد بن علي، الخصال، ج٢، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٣٦٢.

٢٤. الصدوق، محمّد بن علي، علل الشرائع، ج٢، ايران- قم، مكتبة الداوري، ١٩٦٦.

٢٥. الصدوق، محمّد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ايران-طهران، نشر جهان، ١٣٧٨.

٢٦. الصدوق، محمّد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ايران-طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٩٥.

٢٧. الصدوق، محمّد بن علي، معاني الأخبار، ج١، ايران- قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ- مؤسّسة الإمام الصادق ع، ١٤٠٣.

٢٨. الصدوق، محمّد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ٤ ج، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٤١٣.

٢٩. الصفّار، محمد بن حسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليه وآله، ١ ج، ايران- قم، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قدس سره، ١٤٠٤.

٣٠. الطباطبائيّ، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، لبنان-بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، ١٣٩٠.

٣١. الطبرانيّ، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ج٢٥، مصر-القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ١٩٩٤.

٣٢. الطبرسيّ، أحمد بن علي، الاحتجاج على أهل اللجاج، ج٢، ايران-مشهد، نشر المرتضى، ١٤٠٣.

٣٣. الطبريّ، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج١١، لبنان-بيروت، دار التراث، ١٣٨٧.

٣٤. الطوسي، محمّد بن حسن، الأمالي، ج١، ايران- قم، دار الثقافة، ١٤٠٤.

٣٥. العطارديّ، عزيز الله، مسند الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ج٢٧، ايران-طهران، نشر عطارد، ١٣٨٦.

٣٦. العلويّ، محمّد بن علي، المناقب، ج١، ايران- قم، دليل ما، ١٤٢٨.

٣٧. العيّاشي، محمّد بن مسعود، التفسير، ج٢، ايران-طهران، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، ١٣٨٠.

٣٨. الكراجكيّ، محمّد بن علي، كنز الفوائد، ج٢، ايران- قم، دار الذخائر، ١٤١٠.

٣٩. الكفعميّ، إبراهيم بن علي، البلد الأمين والدرع الحصين، ج١، لبنان-بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، ١٤١٨.

٤٠. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج٨، ايران-طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٧.

٤١. المجلسيّ، محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار، ج١١١، لبنان-بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٠٣.

٤٢. المفيد، محمّد بن محمد، الأمالي، ج١، ايران- قم، المؤتمر العالميّ لألفيّة الشيخ المفيد، ١٤١٣.

٤٣. ———، الاختصاص، ج١، ايران- قم، المؤتمر العالمي لألفيّة الشيخ المفيد، ١٤١٣.

٤٤. ———، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ايران- قم، المؤتمر العالميّ لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

٤٥. النعمانيّ، محمّد بن إبراهيم، الغيبة، ج١، ايران-طهران، مكتبة الصدوق، ١٣٩٧.

٤٦. سبحاني، محمّدتقى، «كلام اماميه: ريشه ها ورويش ها»، نقد ونظر ٦٥، ش. ١٧ (١٣٩١).

٤٦. ناجى، محمّد رضا، وحيد صفري، محمّد زار، حسين مفتخري، وستار عودى، «خوارج»، دانشنامه جهان اسلام، ايران-تهران، ١٣٩٣.

أدوار الإمام الحسن بن علي المجتبى عليه السلام في التأسيس الكلامي

الشيخ حسين حسن السعلوك(*)

المقدّمة

يذهب بعض المستشرقين ممّن بَحَثَ في تاريخ العلوم الإسلاميّة إلى بثّ دعوى مُفادها أنّ انطلاقة علم الكلام الإسلاميّ وتفتُّحَ أولى براعمه يمكن أن تُرصد بدءًا من النصف الثاني من القرن الهجريّ الأوّل، وتحديدًا على أرضيّة النقاشات الحادّة التي وقعت بين تيّارَي «القدريّة» و«الجبريّة»، والتي تطوّرت عبر السنين واتّسعت لتطال مسائل مهمّة في الإلهيّات، وتمخّض عنها فيما بعد ظهور الشرخ الكبير بين فرقتَي «المعتزلة» و«أهل الحديث»، وبعده بين فرقتَي «المعتزلة» و«الأشاعرة».

إلّا أنّ التّدقيق في آيات القرآن الكريم، وفي سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وكلماته، وسيرة خلفائه الأئمّة المعصومين عليهم السلام وكلماتهم أيضًا، يفضي إلى القول بأنّ انطلاقة علم الكلام إنّما يمكن رصدها من لحظة ظهور الإسلام الأولى. والحجّة في ذلك أنّ علم الكلام إذا كان بمعنى البحث في مسائل الاعتقاد، سواء أكان على مستوى التحديد الهويتيّ للمسائل، أو على مستوى الإثبات لصدقها بالبراهين والأدلّة، أو على مستوى الدفاع عنها ضدّ ما يُثار من الإشكالات والشبهات، فإنّ ذلك كلّه يجده الباحث في آيات القرآن الكريم نفسها، ثمّ في كلمات النبيّ وأوصيائه المعصومين عليهم السلام، بوضوح وجلاء، فلا يمكن القبول بدعوى أنّ التباشير الأولى لعلم الكلام إنّما كانت مع النقاشات التي دارت بين الفرقتَين المذكورتَين أعلاه.

(*)- باحث وأستاذ حوزويّ من لبنان.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ البحث في تاريخ الكلام الإسلاميّ، ورصدَ طبيعة المسائل الكلاميّة، والتحوّلات التي طرأت على مسائل هذا العلم ومنهجه وغير ذلك، ينبغي أن يَلحَظ انطلاقة هذا العلم مع أوّل ظهور للإسلام في شبه الجزيرة العربيّة. ويُصبح لزامًا على من ابتغى دراسة تاريخ الكلام الإماميّ أن لا يغفل عن تلك الفترة، وأن يوليها أكبر العناية، لخطورتها ومركزيّتها باعتبارها مرحلة التأسيس، والحقبة التي سعى فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام إلى تكريس أهمّ المعتقدات والأصول والمباني التي ينبغي للدين والاعتقاد أن يقوم عليها. ويكون من الضروريّ أيضًا الوقوف على عهد كلّ واحد من المعصومين على حدة لاستطلاع واقع المجتمع الإسلاميّ في عهده، وطبيعة التطلّعات والرؤى في ذلك العصر، ودراسة الدور الذي أدّاه المعصوم بوصفه خليفة الله في أرضه وحجّته على عباده والوصيّ على دينه.

وفي هذا البحث، نعمد إلى تسليط الضوء على عصر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ودراسة الواقع الكلاميّ الذي ساد المجتمع الإسلاميّ في عهده، وطبيعة الاتجاهات والتيّارات الفكريّة التي ظهرت أو تفاعلت فيه، وكذلك المسائل والقضايا التي أثيرت فيه؛ في سبيل محاولة رسم صورةٍ واضحةٍ عن واقع الكلام الإماميّ في تلك الفترة والدور الذي لعبه الإمام الحسن عليه السلام في تطوّر هذا الحقل العلميّ.

وانطلاقًا مما تقدّم، يمكن صوغ الإشكاليّة التي سيقاربها هذا البحث من خلال الأسئلة الآتية:

- هل يمكن الحديث على دور خاصٍّ للإمام الحسن المجتبى عليه السلام في ترسيخ الملامح النظريّة الأولى لعلم الكلام الإماميّ؟ أو في تثبيت العقائد الإماميّة الأساسيّة والأصيلة؟ أو أنّ دوره انحصر في بيان الأحكام الشرعيّة؟

- وهل يصحّ الكلام عن وجود سماتٍ فريدة وَسَمَتْ علمَ الكلام في عصره عليه السلام؟ أم أنّه كان امتدادًا طبيعيًّا لما كان سائدًا قبله؟ ثمّ ما هي أهمّ القضايا الكلاميّة التي عمل الإمام عليه السلام على بيانها؟ وما هي أهمّ الإشكالات العقائديّة التي انبرى عليه السلام لدفعها؟ وما كانت طريقته في طرح هذه المقاربات؟

سنحاول في هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة، مقسّمين إيّاه إلى مطالب أربعة، أوّلها التعريف بالإمام الحسن عليه السلام بشكل موجز، وثانيها تسليط الضوء على الظروف السياسيّة التي شهدها عصره، مع التركيز على دوره في مواكبة تلك الظروف، وثالثها تحديد أهمّ الاتجاهات الكلاميّة والتنبيه لأهمّ ما طرحوه من عقائد، ورابعها محاولة تحديد معالم واضحة لدور الإمام المجتبى عليه السلام الكلاميّ، وفعاليّته في بيان الأصول الاعتقاديّة وتطوير علم الكلام عند الإماميّة.

أوّلًا: التعريف بالإمام الحسن المجتبى عليه السلام

١. نسب الإمام عليه السلام وولادته

هو الحسن بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، أمّه فاطمة بنت محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، فهو سليل البيت الهاشميّ من الأبوين، وأوّل مولودٍ لأمير المؤمنين عليّ وسيّدة نساء العالمين فاطمة عليهما السلام، والسبط الأكبر لخير خلق الله أجمعين النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله.

وُلد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في المدينة المنوّرة في السنة الثالثة للهجرة، وقيل الثانية في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك[١]. وقد وردت في خصوص ولادته روايات تختلف فيما بينها، إلّا أنها تعبّر بمجموعها عن اهتمام النبيّ صلى الله عليه وآله الكبير والاستثنائيّ به، وتدلّ على عظم شأنه عنده، وتؤكّد على أنّ النبيّ هو من سمّى الإمام باسمه، وأنّ اختياره الاسم كان التزامًا منه بأمر الله سبحانه[٢].

٢. نشأته عليه السلام وعلاقته بالنبيّ صلى الله عليه وآله

ترعرع الإمام الحسن في كنف جدّه النبيّ صلى الله عليه وآله، الذي كان أولاه وأخاه الحسين عليهما السلام عنايةً خاصةً، فقرّبهما منه وربّاهما بيدَيه ولازماه حتى قبضهُ الله إليه وكان للإمام الحسن من العمر سبعُ سنوات.

---

[١]- القمّي، عبّاس، منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل، ص٢٣١.

[٢]- للوقوف على بعض الروايات المختلفة الواردة في هذا الشأن، انظر: م.ن، ص٢٣١؛ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص٥؛ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ، الأمالي، ص١٠٥، الحديث ٣ من المجلس ٢٨؛ وغيرها.

وقد وردت في كتب التاريخ والسيرة مرويّاتٌ كثيرةٌ عن علاقة النبيّ بسبطه الحسن وأخيه الحسين عليهما السلام، تؤكّد كلّها حرص النبيّ على هذا الولد وعلى تنشئته على أفضل وجهٍ ممكنٍ، تمهيدًا لأمرٍ عظيم سيحمله على عاتقه في فترةٍ قادمةٍ من الزمن. فالإمام قد «نشأ في أحضان جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وتغذّى من معين رسالته وأخلاقه ويُسره وسماحته، وظلّ معه في رعايته حتى اختار الله لنبيّه دار خُلده، بعد أن ورّثه هَديَه وأدبه وهيبته وسؤدُده، وأهّله للإمامة التي كانت تنتظره بعد أبيه»[١].

ولمعرفة واقع وحقيقة محلّه من رسول الله ومنزلته عنده، يكفي أن تلقي نظرة سريعة على كتب السيرة حتى ترى المواقف العظيمة التي جمعت بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين سبطه الحسن عليه السلام. ونحن نذكر هنا بعضها دون إطناب:

أ. حبّ النبيّ الشديد له: وقد تضافرت على هذا الأمر الأخبار، من طرق الفريقَين الشيعة والسنة، حيث ورد «في مسند أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن مسعود، وروى عبد الله بن شداد عن أبيه، وأبو يعلى الموصلّي في المسند عن ثابت البناني عن أنس وعبد الله بن شيبة عن أبيه: أنّه دُعيَ النبيّ إلى صلاة والحسن متعلّق به، فوضعه النبيّ مقابل جنبه وصلّى، فلمّا سجد أطال السجود، فرفعت رأسي من بين القوم، فإذا الحسن على كتف رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا سلّم قال له القوم: يا رسول الله لقد سجدتَ في صلاتك هذه سجدةً ما كنت تسجدها كأنّما يوحى إليك، فقال: «لم يوحَ إليّ، ولكن ابني كان على كتفي فكرهت أن أعجّله حتّى نزل»»[٢].

وورد أيضًا في «سنن ابن ماجة وفضائل أحمد، روى نافع عن ابن جبير عن أبي هريرة أنّه [يعني النبيّ] صلى الله عليه وآله قال [في حقّ سبطه الحسن]: «اللهمّ إني أحبّه، فأحبّه وأحبّ من يحبّه»»[٣].

وهذه الروايات وأمثالها وردت في حقّ الحسن منفردًا، وأمّا ما ورد في حق الحسنَين عليهما السلام معًا، فهو أكثر من أن يُحصى، وقد فاضت به كتب الفريقَين جميعًا، وعلى سبيل المثال نذكر منه:

[١]- مجموعة مؤلفين، أعلام الهداية (٤/ الإمام الحسن المجتبى)، ص١٧.

[٢]- انظر: ابن شهرآشوب، أبو جعفر محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ج٤، صص٢٨-٢٩.

[٣]- م.ن، ص٢٩.

ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا عليّ لقد أذهلني هذان الغلامان - يعني الحسن والحسين عليهما السلام - أن أحبّ بعدهما أحدًا أبدًا، إنّ ربّي أمرني أن أحبّهما وأحبّ من يحبّهما»[١].

ولعلّ في ما أوردناه كفايةً للدلالة على المطلوب.

ب. حملُه إيّاهُ معه في واقعة المباهلة: وهي الواقعة المعروفة التي شهدها التاريخ وأشار إليها الكتاب العزيز في قوله تعالى:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١)، حيث رُوي أنّه «لمّا انتشر الإسلام بعد الفتح وما وليَه من الغزوات المذكورة وقوي سلطانه، وفد إلى النبيّ صلى الله عليه وآله الوفود [...] وكان في من وَفَدَ عليه أبو حارثة أُسقفُ نجران في ثلاثين رجلًا من النصارى [...] توجّهوا إليه يقدُمُهم الأسقف، فقال له: يا محمّد، ما تقول في السيّد المسيح؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «عبد الله اصطفاه وانتجبه»، فقال الأسقف: أتعرف له - يا محمّد - أبًا ولَدَهُ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لم يكن عن نكاحٍ فيكون له والد»، قال: فكيف قلتَ: إنه عبدٌ مخلوق، وأنت لم ترَ عبدًا مخلوقًا إلّا عن نكاحٍ وله والد؟ فأنزل الله تعالى الآيات من سورة آل عمران إلى قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٥٩ - ٦١)، فتلاها النبيّ صلى الله عليه وآله على النصارى ودعاهم إلى المباهلة [...] فلمّا كان من الغد جاء النبيّ صلى الله عليه وآله آخذًا بيد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، والحسن والحسين بين يديه يمشيان، وفاطمة - صلوات الله عليهم - تمشي خلفه، وخرج النصارى يَقدُمُهم الأسقف [...] فنظر الأسقف إلى العاقب والسيّد وعبد المسيح وقال لهم: انظروا إليه قد جاء بخاصّته من وُلده وأهله

[١]- القمّيّ، جعفر بن محمّد بن قولويه، كامل الزيارات، ص١١٢.

ليباهل بهم واثقًا بحقّه، والله ما جاء بهم وهو يتخوّف الحجّة عليه، فاحذروا مباهلته، والله لولا مكانُ قيصرَ لأسلمتُ له، ولكن صالحوه على ما يتّفق بينكم وبينه»[١].

والحالُ أنّ هذه الواقعة كانت من أهمّ الوقائع التي انتصر الله فيها لدينه وأثبت الحقّ لنبيِّه، فيكون من عظيم الشأن للإمام الحسن ولأبوَيه وأخيه أن يكونوا شركاء النبيّ عليهم السلام فيها.

ج. واقعة الكساء: وهي الواقعة المعروفة حول مرض النبيّ صلى الله عليه وآله وحضوره في بيت ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، ثمّ حضور الحسن فالحسين فأمير المؤمنين عليهم السلام ودخولهم مع فاطمة مع النبيّ تحت الكساء، والمهمّ في هذه الحادثة هو ما قاله النبيّ صلى الله عليه وآله فيهم، حيث قال: «اَللّهُمَّ إِنَّ هٰؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي وَحَامَّتِي، لَحْمُهُمْ لَحْمِي وَدَمُهُمْ دَمِي، يُؤْلِمُنِي مَا يُؤْلِمُهُمْ وَيُحْزِنُنِي مَا يُحْزِنُهُمْ، أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ وَعَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمْ وَمُحِبٌّ لِمَنْ أَحَبَّهُمْ، إِنَّهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ فَاجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وَغُفْرَانَكَ وَرِضْوَانَكَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ وَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»، ثم ما عقب ذلك من قول الله عز وجلّ: «يا مَلاَئِكَتِي وَيَا سُكَّانَ سَمَاوَاتِي إِنِّي مَا خَلَقْتُ سَمَاءً مَبْنِيَّةً وَلَا أَرْضًا مَدْحِيَّةً وَلَا قَمَرًا مُنِيرًا وَلَا شَمْسًا مُضِيئَةً وَلَا فَلَكًا يَدُورُ وَلاَ بَحْرًا يَجْرِي وَلَا فُلْكًا يَسْرِي إِلاَّ فِي مَحَبَّةِ هٰؤُلاَءِ الْخَمْسَةِ الَّذِينَ هُم تَحْتَ الْكِسَاءِ»[٢]. وذلك كلّه كافٍ في بيان منزلة هؤلاء – ومنهم الإمام الحسن – العظيمة عند الله ونبيِّه، ولا حاجة بنا إلى أيّ تعليق على ما مرّ لوضوح دلالته على المطلوب في المقام.

---

[١]- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، م.س، ج١، صص١٦٦-١٦٨.
ومن المعروف أنّ هذه الواقعة يتّفق عليها عموم المسلمين، وتجد المفسّرين من الفريقَين مجتمعين على تفسير الآيات المذكورة من سورة آل عمران بذكر هذه الواقعة، مع بعض اختلاف في تفاصيلها. انظر: الزمخشري، جار الله، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج١، صص٣٦٨-٣٦٩؛ القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ)، ج٤، ص١٠٤؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ج٢، ص٤٧.

[٢]- للوقوف على متن حديث الكساء كاملاً، انظر: الشريف المرتضى، علي بن الحسين، الفصول المختارة من العيون والمجالس، ص٥٣. واعلم أن حديث الكساء ورد في كتب علماء السنة الروائيّة بصيغ متعدّدة، تختلف عن صيغة المرويّ عند الشيعة لفظًا، ولكنّها توافقه من حيث المعنى والدلالة. انظر: النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيريّ، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، بَاب فضائل أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، ج٤، ص١٨٨٣، الحديث ٢٤٢٤؛ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، أبَوابُ تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وآله، بابُ ومن سورة الأحزاب، ج٥، صص٢٦٢-٢٦٣، الحديث ٣٢٠٥؛ ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند النساء، حديثُ أمّ سلَمَة زوجِ صلى الله عليه وآله، ج٤٤، صص١١٨-١١٩، الحديث ٢٦٥٠٨؛ وغيرها من المصادر.

د- تصريح النبيّ بإمامته منذ صغره: وهي من القضايا التي ورد ذكرها في كتب الفريقَين الروائيّة أيضًا، وفي أكثر من مناسبة، حيث ورد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال في حقّ الإمام الحسن وأخيه الإمام الحسين عليهما السلام: «هذان ابناي إماما قاما أو قعدا»[١]، بل ذهب ابن شهرآشوب في مناقبه إلى أنه «اجتمع أهل القبلة على أن النبيّ قال: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[٢]، وهذا تصريح واضح من النبيّ بإمامته، رغم أنّه صدر عنه في وقت كان الإمام الحسن ما يزال في سنٍ صغيرة، بل لم يبلغ بعد سن البلوغ الشرعيّ، فأيّ دلالة يمكن لمثل هذا الكلام الصادر عن النبيّ أن يحمل؟ وأي فضلٍ يمكن أن يُتصوّر لشخصٍ يصرّح نبيّ الأمّة صلى الله عليه وآله بإمامته منذ صغره، بل بأنّه إمامٌ قام أو قعد، أي إنّه في كلّ حال من أحواله، وفي كلّ حركة من حركاته، وفي كلّ كلمة ينطق بها، وفي كلّ شأنٍ من الشؤون هو له، هو إمام منصوبٌ بالنصب النبويّ، فأيّ المجد إلّا قد وليَهُ هذا الإمام الهمام.

٣. خصاله ومناقبه

عُرفت للإمام الحسن عليه السلام مناقب كثيرة، اجتمع على ذكرها رواة السنة والشيعة، ونحن هنا نعرض بعض ما روي من مناقبه تتميمًا للمطلب، محاولين الاقتصار قدر الإمكان على ما يغني، وحتى لا يطول بنا المقام أكثر مما تتيح به حدود البحث.

أ- علمه عليه السلام: وقد وردت في هذا الشأن مرويّات تؤكّد تمتّع الإمام بأعلى درجات العلم منذ صغره، منها ما رُوي في البحار أنّ أعرابيًّا أتى النبيّ صلى الله عليه وآله يومًا وكان معه الحسن، فقال: «يا محمّد، إنّك تزعم أنّك نبيّ، وإنّك قد كذبت على الأنبياء، وما معك من برهانك شيء. قال له: يا أعرابيّ وما يدريك؟ قال: فخبّرني ببرهانك. قال: إن أحببت أَخبَرَكَ عضوٌ من أعضائي، فيكون ذلك أوكد لبرهاني. قال: أَوَيكلّم العضو؟ قال: نعم، يا حسن قم! فازدرى الأعرابيّ نفسه وقال: هو ما يأتي ويقيم صبيًّا ليكلّمني. قال: إنّك ستجده عالمًا بما تريد، فابتدره الحسن...». ثمّ تذكر الرواية كلامًا للإمام يدلّ على مقامه العلميّ على صغره، وتُختتم بأنّ الرجل الأعرابيّ أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، «فكان

[١]- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، م.س، ج٢، ص٣٠.

[٢]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، م.س، ج٣، ص٤٤٥.

الناس إذا نظروا إلى الحسن عليه السلام قالوا: لقد أُعطي ما لم يعطَ أحدٌ من الناس»[١].

ومما يدلّ على هذه المنقبة فيه أيضًا، مرويّاتٌ تذكر عدّة وقائع كان أمير المؤمنين عليه السلام يطلب فيها من الإمام الحسن عليه السلام أن يكلّم الناس في أمور الدين، ثمّ يبدر منه ما يؤكّد فيه صحّة ما قاله ابنُه[٢]، وهذه كلّها تفيد ما نرمي إلى بيانه وتأكيده من عظم مقام الإمام الحسن العلميّ، حتى قبل تسلّمه الإمامة، بل بعضها كان في فترة طفولة الإمام الحسن عليه السلام.

ب- **عبادته** عليه السلام: ووردت في هذا الإطار روايات عدّة، نكتفي بذكر اليسير منها. فقد ورد في أمالي الصدوق، عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «حدّثني أبي، عن أبيه عليه السلام، أنّ الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام كان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم، وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجّ ماشيًا، وربما مشى حافيًا، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممرّ على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقةً يغشى عليه منها. وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربّه عزّ وجلّ، وكان إذا ذكر الجنّة والنار اضطرب اضطراب السليم، وسأل الله الجنة وتعوَّذَ به من النار، وكان عليه السلام لا يقرأ من كتاب الله عز وجلّ يا أيها الذين آمنوا إلّا قال لبّيك اللهم لبّيك، ولم يُرَ في شيءٍ من أحواله إلّا ذاكرَ الله سبحانه»[٣].

وفي هذه الرواية ما ترى من عجيب أمر عبادته عليه السلام وانصرافه في كلّ شأن من شؤون حياته إلى ذكر الله، وتلبّسه لباس العبوديّة في كلّ حال من أحواله.

ومما ورد في شأن عبادته أيضًا عن الصادق عليه السلام: «إنّ الحسن بن عليّ عليه السلام حجّ خمسةً وعشرين حجةً ماشيًا»[٤].

ت- **جوده وسخاؤه** عليه السلام: حيث عُرف الإمام بشدّة كرمه، وبكونه لا يتوانى عن

---

[١]- انظر: المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج٤٣، صص٣٣٥-٣٣٨.

[٢]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، م.س، ج٤، صص١٣-١٥.

[٣]- الصدوق، الأمالي، م.س، ص١٣٦، الحديث ٨ من المجلس ٣٣.

[٤]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، م.س، ج٤، صص١٧-١٨.

بذل العطاء في سبيل الله، وقد وردت في ذلك مرويّات عدّة، منها قول الراوي: «خرج الحسن بن عليّ من مالِه مرّتَين، وقاسمَ اللهَ مالَه ثلاث مرّات، حتى أن كان ليعطي نعلًا ويُمسِك نعلًا»[١]، ومنها ما رُوي «أنه سألَ الحسنَ بن عليّ عليهما السلام رجلٌ، فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمئة دينار، وقال: ائت بحمّالٍ يحمل لك، فأتى بحمّالٍ فأعطى طيلسانه، فقال: هذا كري الحمّال»[٢]، ومنها أنّه عليه السلام «سمع رجلاً إلى جنبه في المسجد الحرام يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف إلى بيته وبعث إليه بعشرة آلاف درهم»[٣]. وفي هذه الروايات كفاية للدلالة على شدّة جود الإمام وسخائه.

ث- مكارم أخلاقه عليه السلام: وهو ما تضافرت عليه الروايات، التي نكتفي منها باثنتين: الأولى منهما، الرواية المعروفة «أنّ شاميًّا رآه راكبًا، فجعل يلعنه والحسن عليه السلام لا يردّ، فلما فرغ أقبل الحسن عليه السلام عليه وضحك وقال: أيها الشيخ أظُنُّك غريبًا، ولعلّك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، إن كنت جائعًا أشبعناك، وإن كنت عريانًا كسوناك، وإن كنت محتاجًا أغنيناك، وإن كنت طريدًا آويناك. إن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك؛ لأنّ لنا موضعًا رحبًا وجاهًا عريضًا ومالًا كبيرًا، فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: أشهد أنّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالاته»[٤].

والثانية، ما روي «أنّ الحسن عليه السلام لم يُسمَع منه كلمةٌ فيها مكروه إلّا مرّةً واحدة، فإنّه كان بينه وبين عمرو بن عثمان خصومةٌ في أرض، فقال له الحسن: ليس لعمروٍ عندنا إلّا ما يُرغم أنفه»[٥].

وهما واضحتان في بيان المطلوب مما تحلّى به الإمام من حُسن الخلق.

---

[١]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، م.س، ص١٨.

[٢]- م.ن، ص٢٠.

[٣]- م.ن، ص٢١.

[٤]- م. ن، ج٤، ص٢٣.

[٥]- م.ن، ص٢٣.

٤. شهادته

روت كتب التاريخ أنّ الإمام المجتبى عليه السلام مات مقتولًا بالسمّ، وذلك على يدَي زوجةٍ له تدعى جعدة بنت الأشعث، حيث روي: «أرسل معاويةُ إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس: أنّي مزوّجك (يزيد ابني)، على أن تَسُمّي الحسن، وبعث إليها مئة ألف درهم، ففعلت وسمّت الحسن عليه السلام، فسوّغها المال ولم يزوّجها من يزيد»[١].

وقد تمّ لمعاوية «ما أراد وكانت شهادته عليه السلام بالمدينة يوم الخميس لِلَيلتَين بَقِيَتا من صفر، سنة خمسين من الهجرة أو تسع وأربعين [...] والنصوص على اغتيال معاوية للإمام الحسن عليه السلام بالسمّ متضافرة كأوضح قضيّة في التاريخ»[٢].

وأما عن الأسباب التي دفعت معاوية إلى الأمر بقتل الإمام عليه السلام، فإنك ستعرف تفاصيلها فيما يأتي من ملابسات نتعرّض إليها في المطلب الآتي.

ثانيًا: الملابسات السياسيّة للعالم الإسلاميّ خلال فترة إمامة الإمام الحسن عليه السلام

ونعقد الكلام في هذا المطلب لما نجده من مساسٍ مباشرٍ بين واقع الأمّة السياسيّ في تلك الفترة وواقعها الفكريّ والاعتقاديّ من جهة أخرى، ذاك أنّ حركة الفكر في أيّ بيئة أو مجتمع لا تنفكّ يومًا عن الملابسات السياسيّة التي اكتنفت أبناء تلك البيئة، هذا أولًا. وثانيًا، لأنّ المجتمع الإسلاميّ في تلك الفترة كان يعجّ بالمواقف والأحداث التي يحاول أصحابها أن يربطوها بمرحلة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، فكان كلّ صاحب طرحٍ ـ سواء أكان سياسيًّا أو اعتقاديًّا ـ يعمد إلى تأكيد مشروعيّة طرحه من خلال نسبته إلى النبيّ، وذلك كان متاحًا لهم لقربهم من عهد النبيّ ومعاصرة أكثر رجالات ذلك العصر له صلى الله عليه وآله، ومثل هذا الواقع لا بدّ أن ينتج عنه ظهور الكثير من الإشكالات التي تندرج بسهولة ضمن القضايا الكلاميّة والاعتقاديّة.

---

[١]- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، م.س، ج٢، ص١٦.

[٢]- مجموعة مؤلّفين، أعلام الهداية (٤/ الإمام الحسن المجتبى)، م.س، ص١٨٥.

وأمّا تفصيل الكلام في هذا المطلب، فنبدؤه من مرحلة تسلّم الإمام الحسن عليه السلام مقاليد الحكم.

١. ظروف تسلّمه الحكم

و تجنّبًا للاستطراد نكتفي بذكر ثلاثة ملامح عامّة لظروف تسلّم الإمام الحسن عليه السلام السلطة:

الملمح الأوّل: الذي يهمّنا تسليط الضّوء عليه من ملامح ذلك العصر هو انقسام أهواء الناس إلى ملتزمٍ لأمر النبيّ باتّباع العترة والاعتقاد بأحقّيّتهم في أمر إمامة المسلمين، ومخالفٍ لأمر النبيّ مطيعٍ لأمر أسياده تابعٍ لهم على ما أنكروه من حقّ أهل البيت عليهم السلام.

الملمح الثاني، فهو ما يمكن رصده من أحداث شهدها عصر خلافة عمر بن الخطاب، حيث ذكر التاريخ أنّ الأخير كان يولي في عهد خلافته أكبر العناية والاهتمام بشخص معاوية بن أبي سفيان الأمويّ، حيث روي: «كان معاوية بن أبي سفيان عاملًا على الشام لعمر بن الخطاب، فكان هو الرجل المفضّل والمدلّل عنده، حتى إنّه كان طيلة فترة حكمه يحاسب جميع عُمّاله، في كلّ عام، ويقاسمهم أموالهم، ويبقي من يبقي، ويعزل من يعزل منهم، ولا يبقي عاملًا أكثر من عامين، باستثناء معاوية، فإنّه أبقاه وأطلق يده، وقال له: لا آمرك ولا أنهاك، ليتصرّف كيف يشاء، من دون حساب ولا كتاب، ولا سؤال ولا جواب.. فهو بعمله هذا تجاه عُمّاله يشكّكهم في أنفسهم، ويشكّك الناس بهم، ويجعلهم مظنّةً للخيانة، ويواجههم بما يُضعف شخصيّتهم، ولكنّه يرفع شأن معاوية، ويعزّز مقامه، ويزيده شوكةً وعظمةً ونفوذًا، بل هو قد كان إذا نظر إليه يقول: هذا كسرى العرب»[١].

وعليه، فمعاوية تولّى حكم الشام في تلك الفترة، وراحت مكانته في قلوب أهلها تكبر شيئًا فشيئًا، وتحديدًا مع علمهم بقربه من الخليفة الثاني، واستمرار ولايته عليهم دون انقطاع كما ذُكر، وتلبيته مطامعهم الدنيويّة.

---

[١]- مرتضى، جعفر، عاشوراء بين الصلح الحسنيّ والكيد السفيانيّ، صص٢٥-٢٦.

وكان من نتائج تسلُّم معاوية لأمر حكم الشام وبسط يده فيها طوال هذه المدة، وما ترتّب عليه من محبّة أهل الشام له، وموالاتهم له موالاةً مطلقة، وتطبّعهم على قيمه الباطلة المتمثّلة بالطمع والغدر والخيانة والتمييز العنصريّ وغيرها من الرذائل. وقد تبع ذلك ما تبعه من ويلات بدأت تجلّياتها مع الملمح الثالث

الملمح الثالث: ممّا كان وقع قبل تولّي الإمام المجتبى عليه السلام أمر الخلافة؛ الذي بدأ مع تجرّؤ معاوية على مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام فترة خلافته، حيث يُذكر أنّ معاوية عارض أمير المؤمنين عليه السلام في أمر الخلافة، ولم يبايعه كما بايعه الناس عليها، بل طالبه بدم عثمان وأن يبعث إليه بقتلة عثمان، إلّا أنّ أمير المؤمنين أبى وأصرّ عليه أن ينزل على أمر البيعة.

وبعيدًا عن ذكر التفاصيل فإنّ معاوية امتنع عن مبايعة الإمام، وأثار في البيئة الشاميّة نار الغضب على مقتل عثمان، وأشاع بين أهلها أنّ عليًّا هو المطالَب بدمه، وأوعد الإمام بالحرب، وشحذ نفوس الشاميّين عليها، عندها جهّز الإمام جيشه وزحف ناحية أهل الشام، وكذلك فعل معاوية وزحف ناحية الكوفة، فالتقى الجيشان في صفّين، ووقعت هناك المعركة الشهيرة التي نتج عنها ما نتج من أمر خديعة التحكيم، التي أعطت نتائجُها لمعاويةَ الشرعيّةَ التامّة في حكم الشام، وأشاع لمواليه أمر مخاطبته بـ«أمير المؤمنين»، والتعامل معه كخليفة رسميّ للمسلمين.

إذًا، فنحن أمام ثلاثة ملامح تراكميّة وَسَمَت الواقع التاريخيّ السابق على تولّي الإمام المجتبى عليه السلام الخلافة: أوّلها: انقسام المسلمين الحادّ بين مؤيِّد لولاية عترة النبيّ صلى الله عليه وآله ومعارض لها، ويعود ذلك إلى ما بعد رحيل النبيّ مباشرةً؛ ثانيها: بسط يد معاوية في الشام وتعاظم شأنه عند أهلها كحاكمٍ لهم يحاكي بطريقته مطامعهم الدنيويّة وأهواءهم الشخصيّة، ويعود ذلك إلى فترة خلافة عمر ومن بعده عثمان؛ ثالثها: تكريسُ الصراع بين التيّارَين العلويّ والأمويّ واتّخاذ الأمور منحًى أكثر حدّةً وخطورةً، حيث تحوّل الخلاف إلى صراع دمويّ، وانتهاءُ ذلك إلى تحوّل معاوية إلى أمير رسميّ لأهل الشام مُنَصَّبٍ – بحسب الدعوى الباطلة – بالنصب الشرعيّ الذي اتّفقت عليه كلمة المسلمين.

٢. البيعة للإمام عليه السلام

في ظلّ هذه الأجواء المشحونة والمريبة، تولّى الإمام المجتبى عليه السلام أمر الخلافة، وكان عليه أن يعمل وفق ما تقتضيه الحكمة ليواجه كلّ أمواج الفتن التي من شأنها لو أُغفلت أن تضرب صلب الإسلام وقيمَهُ، وأن تضيع كلّ جهود النبيّ الأعظم وشهداء الإسلام الكرام في حفظ هذا الدين وبيان أحقّيّـته.

وقد روت صفحات التاريخ أنّ انتقال الإمامة والخلافة إلى الإمام الحسن عليه السلام كان سببًا لاستبشار أهل الكوفة، ومحلّ قبولٍ واحتفاءٍ لأكثرهم، وكانت بيعته محطّ قبولٍ واجتماعٍ لآرائهم التي قلّما كانت تجتمع على شيء.

إذ يُذكر أنّ الإمام عليه السلام خطب في الناس صبيحة اليوم الذي استُشهد فيه أبوه أمير المؤمنين عليه السلام، فحمد الله وصلّى على رسوله، وأعلم القوم بشهادة أبيه، ذاكرًا شيئًا من فضائله، ثمّ عقّب بالقول: «أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير، أنا من أهل بيتٍ أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، أنا من أهل بيتٍ افترض الله حبّهم في كتابه فقال عز وجلّ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى: ٢٣)، فالحسنةُ مودّتُنا أهل البيت». فقام عندها ابن عبّاس بين يديه «فقال: معاشر الناس، هذا ابنُ نبيِّكُم ووصيُّ إمامكُم فبايعوه، فاستجاب له الناس وقالوا: ما أحبّه إلينا! وأوجبَ حقّه علينا! وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة [...] فرتّب العُمّال وأمّرَ الأمراء [...] ونظر في الأمور»[١].

وفي بيان حال الكوفة إبّان البيعة، نذكر مقاطع من كلامٍ للمحقّق الشيخ راضي آل ياسين قدّس سرّه لما فيه من إشارات مهمّة، قال:

«وجاءت بيعة الحسن عليه السلام يوم بايعته الكوفة عند ملتقى الآراء من سائر العناصر الموجودة فيها يوم ذاك، على أنّها كانت قلَّ ما تلتقي على رأي. وكان للحسن من أسلوب

[١]- انظر: المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، م.س، ج٢، صص٨-٩.

حياته في هذه الحاضرة، مدى إقامته فيها، ما جعله قبلةَ الأنظار ومهوى القلوب ومناطَ الآمال [...] فقد كانت القلوب كلّها معه لأنّه ابن بنت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ولأنّ مِن شَرْطِ الإيمان مودّتُه، ومِن شَرْطِ البيعة طاعته. قال ابن كثير: وأحبّوه أشدّ من حبّهم لأبيه»[١].

فهذا كان حال أهل الكوفة في مبايعتهم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إلّا أنّ العارف بأحوال ذلك الزمان لا يستغرب هذا الواقع، ولا يتقبّل بسهولةٍ أن يكون أمر بيعة الحسن على هذه الدرجة من السهولة، كيف وهم الذين جرّعوا أباه أمرّ كؤوس الخذلان، وأذاقوه أمضّ معاني الجفاء وتبدّل الآراء! ولهذا، نحتاج إلى مزيد بيانٍ حتى نفهم السرّ وراء هذا الإقبال الكبير الذي شهده أمر مبايعة هؤلاء للإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو ما يتكفّل الشيخ آل ياسين قُدِّسَ سِرُّهُ بيانه؛ إذ يقول:

«وكان لا يزال بمنجاة من هؤلاء وهؤلاء، ما دام لم يباشر عملًا إيجابيًّا يصطدم بأهداف البعض، أو يمسّ الوتر الحسّاس من عصبيّات البعض الآخر؛ ذلك لأنّ الوسائل التي أصبح يعيش بها الإسلام يومئذ، كانت تخضع في أمثال هؤلاء المسلمين للأهداف الشخصيّة تارةً، وللعصبيّات أخرى. وخُيّل للكثيرين من أولئك الذين تتحكّم فيهم الأنانيّة والنفعيّة حتّى تتجاوز بهم حدود العقيدة، أنهم إذ يبايعون الحسن بالخلافة، إنما يتسوّرون بهذه البيعة إلى إسناد قضاياهم، وإرضاء مطامعهم، عن طريق الخُلق الثريّ الواسع الذي أَلِفوه في الحسن بن عليّ منذ عرفوه بين ظهرانيهم [...] وتسابق على مثل هذا الظنّ كثيرٌ من ذوي المبادئ التي لا تتفق والحسن في رأي ولا عقيدة، فبايعوه راغبين، كما يبايعه المخلصون من المؤمنين. ثمّ كان هؤلاء - بعد قليل من الزمن - أسرع الناس إلى الهزيمة من ميادينه لا يلوون على شيء؛ ذلك لأنّهم حين عركوا مواطن طمعهم من ليونة الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجدوها بعد تسلّمه الحكم واضطلاعه بالمسؤوليّة، أعنف من زبر الحديد»[٢].

ومن هنا، فإن أكثر المبايعين للإمام إنّما بايعوه طمعًا منهم بليونته وجوده ودماثة

[١]- آل ياسين، راضي، صلح الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، م.س، صص١٣٤-١٣٥.
[٢]- م.ن، صص١٣٥-١٣٦.

خُلقه، التي ظنّوا أنّها ستكون مظانّ لإمكان تحقيق مصالحهم، ولمداهنته إيّاهم في ما يريدون من أمور دنياهم، من مصالح مادّيّة ورغبات عصبيّة.

إلّا أنّ آمالَهم خابت عندما وجدوا أنّ الإمام في أمر الحكم لا يقلّ حزمًا عن أبيه، ولا يعدو في حرصه على أمر الدين مسلك سلفه، بل هو مثله لا تأخذه في الله لومة لائم، وعندها اختلفت أهواؤهم، وتزلزل ولاؤهم، وبانت حقيقة أمرهم، فحادوا عن جادّة الهدى، وصدرت عنهم مظاهر الانحراف والخذلان، وكان ذلك مدعاةً لنشوء حركة المعارضة في النفوس القلقة لهؤلاء، وعادوا إلى سابق عهدهم الذي كانوا عليه مع أمير المؤمنين عليه السلام، «واستغل هذه المرحلة الدقيقة فئات من النفعيّين، تمكّنوا أن يخلقوا من أنفسهم همزة وصل بين الكوفة والشام [...] ووجد هؤلاء من نشوء الخلافة الجديدة في الكوفة، ومن استمرار معاوية على الخلاف لها في الشام، ظرفًا مناسبًا لبعث النشاط واستئناف أعمال الشغب واستغلال الممكن من المنافع العاجلة، ولو من طريق اللعب على الجانبَين، فإمّا أن يحتلّوا من الإمارة الجديدة أمكنتهم التي ترضي طموحهم، وإما أن يعملوا على الهدم ويتعاونوا على الفساد. وكانت خزائن الشام لا تفتأ تلوح بالمغريات من الأموال والمواعيد، وكانت الأموال والمواعيد أمضى أسلحة الشام في مواقفها من الكوفة على طول الخطّ»[١].

وقد كان هؤلاء ومن على شاكلتهم أربعة فرق:

(١) الحزب الأمويّ، وهم الموالون لمعاوية الراغبون به حاكمًا والذين عمد بعضهم إلى مكاتبته سرًّا يدعوه للقدوم إلى الكوفة، وكان منهم من حاول قتل الإمام عليه السلام غيلةً تحقيقًا لرغبة معاوية.

(٢) الخوارج، وهم أعداء أمير المؤمنين عليه السلام منذ واقعة التحكيم، وكذلك أعداء معاوية، وقد بايعوا الإمام عليه السلام ولجّوا عليه ليقدم على الحرب، بل حاولوا أن يشترطوها عليه في مبايعتهم، إلّا أنّه أبى وشرط عليهم أن يبايعوه على مسالمة من يسالم ومحاربة من يحارب.

---

[١]- آل ياسين، راضي، صلح الإمام الحسن عليه السلام، م.س، صص١٣٦-١٣٧.

(٣) الشكّاكون، وهم الذين تأثّروا بدعاوى الخوارج ولم يكونوا منهم، فهم المذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

(٤) الحمراء، وهم عشرون ألفًا من مسلَحَة الكوفة، ولم يكونوا عربًا بل مهجّنين من موالٍ وعبيد، وكانوا دائمًا أجناد المتغلّبين وسيوف الجبابرة المنتصرين.

وكان في الكوفة إلى جانب هؤلاء قلّةٌ يمكن تسميتهم بالحزب العلويّ، وهم الخُلّص من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، الذين والوا وصيَّه وبايعوه بيعةً صادقة، أثبتوا صدقها بأفعالهم واتّباعهم أمر الإمام في كلّ منقلبٍ واجهه أو مسلكٍ سلكه، مهما اختلفت أو تباينت تلك المسالك ظاهرًا.

وهنا لا بدّ لنا أن نلفت إلى أنّ الإمام كان يتخيّر حركاته ويتّخذ مواقفه انطلاقًا من ذهنيّةٍ محكومةٍ لهدفَين أساسيَّين يأتيان في طول الأهداف التفصيليّة الأخرى، هما: «حفظ الشيعة. والثاني: حفظ جهود الأنبياء بحفظ الدين في عقائده وسياساته ومفاهيمه وقيمه، وفي أحكامه وشرائعه»[١]. ولهذا، فإنّ بعض مواقفه لا يمكن فهمها إلاّ في سياق تحقيق هذَين الهدفَين.

٣. المواجهة مع معاوية وقضيّة الصلح

لم يكد خبر شهادة أمير المؤمنين ومبايعة أهل الكوفة لابنه الإمام الحسن عليهما السلام يبلغ معاوية حتى «عزم على الإخلال والإفساد، ودعا الناس إلى الطاعة له والانقياد، ودسّ رجلًا من حِمْيَر إلى الكوفة ورجلًا من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور، ولم يقنع بذلك حتى كتب ودسّ دسيسًا إلى رؤساء أهل الكوفة [...] وأفرد كلّ واحدٍ منهم بعينٍ من عيونه وكتب إلى كلّ واحدٍ منهم أنّك إن قتلت الحسن بن عليّ فلك مأتا [مئتا] ألف درهم وجندٌ من جنود الشام وبنت من بناتي، فبلغ ذلك إمامنا الحسن عليه السلام وكان يحترز من هؤلاء ولبس درعًا وكفّرها ولا يتقدّم للصلاة بهم إلّا كذلك»[٢].

وبما مرّ يتّضح أنّ معاوية عزم منذ بداية عهد ولاية الحسن عليه السلام على معارضته

[١]- مرتضى، جعفر، عاشوراء بين الصلح الحسنيّ والكيد السفيانيّ، م.س، صص٣٥-٣٦.
[٢]- المازندراني، محمد مهدي الحائري، معالي السبطَين في أحوال الحسن والحسين، ج١، ص٣١.

ومعاداته، والدعوة إلى نفسه باعتباره هو الحاكم الشرعيّ وصاحب الحقّ في مسألة أمارة المؤمنين، وقد عرفتَ خلفيّات هذه الدعوة وبطلان مقدّماتها.

وكيف كان، فهو لم يكتفِ بمحاولات التخريب على الإمام من بعيد، بل عمد إلى تجهيز جيشٍ جرّار قوامه ستّون ألف مقاتلٍ وقصد العراق ليحارب الإمام[١].

«فبلغ الخبر إلى الحسن عليه السلام [فـ]قام في أصحابه وخطبهم ووعظهم وأخبرهم بمجيء معاوية ودعاهم إلى القتال، وذكر لهم عهودهم ومواثيقهم، وقال يا قوم إن كنتم صادقين فيما أعطيتموني من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة فوافوا إلى معسكري بالمدائن، فموعد ما بيني وبينكم هناك، فقام وركب وركب معه من أراد الخروج، وتخلّف عنه خلقٌ كثير فما وَفَوا بما قالوه وبما وعدوه وغرّوه كما غرّوا أمير المؤمنين من قبله عليه السلام»[٢]. ثم إنه وجّه إلى معاوية قائدًا في أربعة آلاف مقاتل وأمره أن يلزم الأنبار وينتظر أمره، إلّا أنّ معاوية أغراه بالمال وبالجاه، فانقلب على الإمام عليه السلام، ثمّ أرسل من بعده آخر في مثلهم، فكان من أمره ما كان من أمر صاحبه، وكان الإمام في كلّ مرّة يعاتب أهل الكوفة ويُشهدهم على قلّة وفائهم، إلّا أنّهم تعذّروا بأنّ هذا الذي صدر من الرجلَين لا يمثّل حال أهل الكوفة، فقال لهم الإمام عندها: «إنّ معسكري بالنخيلة فوافوني هناك وإنّي لأعلم أنّكم غادرون بي، ووالله لا تفون لي بعهد ولتنقُضُنَّ الميثاق بيني وبينكم، ثم إنّه أخذ طريق نخيلة فعسكر عشرة أيام، فلم يحضره إلّا أربعة آلاف، وكتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية بأنّا معك وإن شئت أخذنا الحسن أسيرًا وبعثناه إليك، وكتب معاوية كتابًا إلى الحسن عليه السلام يقول فيه يا ابن العم، لا تقطع الرحم الذي بيني وبينك، فإنّ الناس غدروا بك وبأبيك من قبل، وهذا كتاب أهل الكوفة إليّ»[٣].

وبذلك، تأكّد للإمام بالشواهد ما كان سبق له أن أعلمَ أهلَ الكوفة به من غدرهم وقلة وفائهم، وبات أمام أحد سبيلَين، فإمّا أن يحارب معاوية، أو أن يسالمه، وكان لا بدّ له في تخيُّر أيّهما من مراعاة مصلحة الإسلام حتى ولو كان ذلك على حساب تنازله عمّا هو

[١]- انظر: مرتضى، جعفر، عاشوراء بين الصلح الحسنيّ والكيد السفيانيّ، م.س، ص٣٥.

[٢]- المازندراني، معالي السبطَين في أحوال الحسن والحسين، م.س، ص٣٣.

[٣]- م.ن، ص٣٤.

حقٌّ له، وعلى حساب نبذ القوم إيّاه، وقذفهم إيّاه بأقْذَعِ التهم وأقبحها، واجترائهم عليه ومحاولتهم قتله[١]، وعودتهم إلى النيل من أبيه عليه السلام، فذلك كلّه ما كان يردع الإمام عليه السلام عن فعل ما يجد فيه مراعاةً لما ذكرنا من حفظ الشيعة وحفظ جهود الأنبياء بحفظ الدين في أصوله وفروعه، وكان واضحًا له أن خيار الحرب، في مثل الظروف المذكورة، ومع وجود مثل هؤلاء الأنصار، هو الخيار الأضرّ على الإسلام[٢]. يقول الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره في هذا الخصوص: «وعندما أصبح خوض معركة منتصرة [أمرًا] مستحيلًا، بقي أمام الإمام الحسن عليه السلام أن يخوض المعركة اليائسة، يعني: المعركة التي يُستشهد فيها [من يُستشهد] ويُقتل فيها من يُقتل. وهذه المعركة اليائسة لم تكن لتؤدّي مفعولًا على الإطلاق؛ لأنّها سوف تتمُّ في ظلّ شكّ الجماهير، فما هي أهدافها؟ وما هي طبيعتها؟ أهي مجرّد عناد؟! [مجرّد] استمرار على خطّ الزعامة القَبَليّة والعناد بين البيتَين؟! أو هي رسالة وأمانة إلهيّة؟! ولو خاض الإمام الحسن عليه السلام هذه المعركة اليائسة لكانت في نظر كثيرٍ من المسلمين على مستوى المعركة اليائسة التي خاضها عبد الله بن الزبير [...] كان لا بدّ للإمام الحسن عليه السلام - ولا بدّ للخطّ الصحيح - أن ينحسِر مؤقّتًا ويهادن مؤقّتًا، ويستولي معاوية بن أبي سفيان على كلّ العالم الإسلاميّ؛ لكي ينكشف مضمون أطروحة معاوية، ولكي يعرف هؤلاء المسلمون البسطاء - الذين لم يكونوا يعرفون إلّا ما يرونه بأعينهم - مَن كان عليّ عليه السلام، ومن كان معاوية، وماذا كانت أطروحة عليّ عليه السلام، وما هي أطروحة معاوية. ولقد ساهم معاوية نفسه إلى درجة كبيرة في كشف هذا الواقع»[٣].

وانطلاقًا من كلّ ذلك، لم يجد الإمام بُدًّا من عقد الصلح مع معاوية، الذي سعى من خلاله إلى ضمان تجنُّب أكبر قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، والذي كان يقضي بتسليم الأمر لمعاوية، على أن يكون له الأمر من بعده، مضافًا إلى عددٍ من البنود التي لا نرى هنا ضرورةً لذكرها تجنّبًا للإطالة، والتي حرص الإمام من خلالها على تقييد حدود

---

[١]- انظر: المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، م.س، ج٢، صص١١-١٢.

[٢]- للوقوف على استعراض مفصّلٍ للخيارات التي كانت أمام الإمام الحسن عليه السلام وتحليل قيّم للنتائج التي كان من الممكن ترتّبُها على كلٍ من الخيارات، انظر: مرتضى، جعفر، عاشوراء بين الصلح الحسنيّ والكيد السفيانيّ، م.س، صص٣٦-٥٢.

[٣]- الصدر، محمّد باقر، أئمّة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة، (تراث الشهيد الصدر ج ٢٠)، صص٣٥٤-٣٥٥.

صلاحيّات معاوية وخدمة الأهداف الكبرى المتوخّاة من الصلح قدر الإمكان[١].

٤. العزلة السياسية للإمام عليه السلام وتمنّعه عن معاونة معاوية

بعد عقده اتفاقيّة الصلح مع معاوية، اعتزل الإمام الحسن عليه السلام العمل السياسيّ، وتمنّع عن أيّ مشاركةٍ في هذا الإطار، واجتنب معاونة معاوية في أيّ شأن من شؤون الحكم، بل إنّه أيضًا غادر الكوفة عائدًا إلى مدينة جدّه، حيث أمضى ما تبقّى من عمره الشريف قبل أن يلقى شهادته على يد إحدى زوجاته بتحريض من معاوية.

وبالنّظر إلى مسلك الإمام عليه السلام في مسألة الصلح وما بعدها، فبإمكاننا أن نستنتج أمرًا عمد الإمام إلى تكريسه، وهو أنّ البيئة الاجتماعيّة للمسلمين في وقته ما كانت مستعدّةً أبدًا لتَقَبُّل آل بيت الرسول عليهم السلام حكّامًا على الأمة، وذاك لما عرفوا عنهم من شدّة حرصهم على الدين وشدّة احتياطهم في الالتزام بحدود الله سبحانه، وعدم تقريبهم أحدًا وتمييزه إلّا وفق ما يقضيه أمر الله، وقد عرفتَ أنّ الإمام عليه السلام امتحنهم أكثر من مرّة واختبر صدقهم، ولكن وجدهم لأهوائهم تابعين وبتحقيق مصالحهم الدنيويّة راغبين، حتى ولو كان ذلك على حساب تجاوز حدود الله المفروضة.

وانطلاقًا من ذلك، فقرار الإمام الاعتزال السياسيّ كانت له أهداف أراد الإمام لها أن تتحقّق، وكان منها أن يحفظ وجود تيّارٍ في الإسلام يمتنع عن مهادنة الظالمين وأتباعهم المتزلّفين، ويعمل في عرض ذلك التيّار المخرّب على الحفاظ على أهمّ القيم الرساليّة التي عمل رسول الله صلى الله عليه وآله على إرسائها، فالإمام سعى بموقفه هذا إلى حفظ النّهضة الإسلاميّة من التشويه حتى لو من خلال إلباسها ثوبًا آخر غير ثوب الحكم، أي بتحويل مسارها من مسار الحكم - الذي تعذّر تطبيقه كما عرفت - إلى مسار آخر هو مسار الثورة: «فالأمر جرى تنظيمه بعد صلح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بذكاء وفطنة، بحيث لا يلج الإسلام والنهضة الإسلاميّة نفق الخلافة بما تحمله من مواصفات الملكيّة، وهذا ما أبدعه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. وقد قام هذا الإمام بعملٍ جعل

[١]- للوقوف على أهمّ بنود الصلح التي حدّدها الإمام، انظر: مرتضى، جعفر، عاشوراء بين الصلح الحسنيّ والكيد السفيانيّ، م.س، صص٥٧-٦١؛ آل ياسين، راضي، صلح الإمام الحسن عليه السلام، م.س، صص٣٩٦-٤٠٠.
وللوقوف على تحليل تلك البنود انظر المصدرَين السابقَين، الصفحات التي تلي ذكر بنود الصلح.

تيّار الإسلام الأصيل - الذي انطلق من مكّة وتبلور بشكل حكومةٍ إسلاميّةٍ امتدّت حتى عهد أمير المؤمنين عليه السلام ومن ثمّ عهده - يسير في مجرًى آخر. غاية الأمر أنّه لم يكن بصبغة حكوميّة لتعذُّر ذلك، بل كان على هيئة نهضةٍ ثوريةٍ جديدة»[1].

وبهذا، فحِرصُ الإمام عليه السلام إنّما كان على حفظ روح الإسلام، ولو من خلال فرض اتّجاهٍ آخر لمسار عمل الإمام المفروض الطاعة، فكان فعله هذا تمهيدًا لمرحلة آتية سيتحوّل فيها مسار الإسلام الأصيل الذي يحمله أئمّة الهدى إلى مسارٍ ثوريٍّ رافضٍ يعمد دائمًا إلى منع اختلاط المدّعيات الزائفة والباطلة بالأصول الصحيحة للعقيدة والمنهج القويم.

ثالثًا: وقفة على واقع البحث الكلاميّ في العالم الإسلاميّ خلال فترة إمامة الإمام الحسن عليه السلام

نسلّط في هذا المطلب الضّوء على أهمّ التيّارات الكلاميّة التي كان لعقائدها حضورٌ وفاعليّة في عصر الإمام الحسن عليه السلام، ونستعرض أبرز المقولات الكلاميّة التي طرحتها هذه التيّارات، محاولين بذلك صياغة صورة عامّة عن الواقع الكلاميّ السائد في عصر الإمام عليه السلام، تمهيدًا للمطلب الرابع الذي نعمد فيه إلى بيان الآراء العقائديّة للإمام.

ولا يخفى أنّ الواقع الكلاميّ المذكور لم يكن منفكًّا عن واقع الأمّة السياسيّ والاجتماعيّ، بل على صلة وثيقة به، والسّبب في ذلك أنّ أكثر آراء المسلمين الاعتقاديّة كانت تنشأ نتيجة أحد عاملَين: إمّا وقوع أحداثٍ سياسيّة معيّنة أثّرت في المجتمع الإسلاميّ كلّه، كالحروب والنزاعات وما شابه، وجد المسلمون أنفسهم معها أمام أسئلةٍ مصيريّةٍ تمسّ إيمانهم واعتقادهم؛ أو نتيجة توجيهٍ من فئةٍ حاكمةٍ أو فاعلةٍ في المجتمع كانت تدفع بعض متكلّمي المسلمين وأعيانهم إلى النطق بعقائد جديدة بغية تبرير أفعالها ومسلكيّاتها.

ويبقى هنا أن نلاحظ أنّ التيّارات الكلاميّة التي ظهرت في عصر الإمام الحسن عليه السلام

[1]- الخامنئيّ، علي، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، ص١٣٠.

إنّما كان ظهورها نتيجة التجاذبات التي سبقت عصره، أو لامسته، ومن هنا فقد نضطرّ مع بعض الفرق إلى ذكر شيء من الإرهاصات السياسيّة التي رافقت ظهورها، وهذا سيكون في سياق توضيح معتقدات هذه الفرقة ومنطلقاتها في تبنّي تلك المعتقدات.

ولا بدّ من التنبيه أيضًا إلى أنّ الفِرقَ التي سنذكرها فيما سيأتي تطوّرت كلّها مع مرور الزمن، وتشعّبت إلى فرق عدّة اختلفت فيما بينها في عقائدها وأفكارها، إلّا أنّنا لن نتناول في كلامنا إلّا عقائد مرحلة النشأة لتلك الحركات؛ لأنّ تطوّرها وتشعّبها كان لاحقًا بعدَ عصر الإمام الحسن، متأخّرًا عنه، فلا يُعنى به بحثنا، كما أنّ استقصاء تطوّرات تلك الفرق وتشعّباتها يخرجنا عن حدود البحث.

١. التيّار الأمويّ وقضايا الحكم والإمامة

ولعلّه من المستغرب أن نجعل التيّار الأمويّ في بوتقة الفرق الكلاميّة التي ظهرت وانتشرت آراؤها في تلك الفترة؛ وذلك أوّلًا لأنّ الأمويّين لم يكونوا في تلك الفترة قد حكموا بعد، وبهذا فلم تكن الدولة الأمويّة إذ ذاك قد اكتسبت اسمها وموقعها التاريخيّ الذي اكتسبته لاحقًا، وثانيًا لأنّه ليس من المتعارف نسبة التيّار الأمويّ إلى الفرق الكلاميّة، وحتى لو قال قائل إنّ الأمويّين التجؤوا إلى بعض الآراء الكلاميّة لتبرير أفعالهم، فإنّه يقال إنّ ذلك لم يكن في تلك الفترة قد تكرّس كحقيقةٍ تاريخيّة.

فعلينا هنا أن نوضّح مسألتَين: الأولى، ما مقصودنا بالتيّار الأمويّ؟ والثانية، ما حجّتنا في إدراجهم مع الفرق الكلاميّة؟

فأمّا الأولى، فما نقصده بالتيّار الأمويّ هو معاوية ومن كان معه من الأتباع من أهل الشام، والذين سبقت الإشارة إليهم في المطلب السابق، والذين ستأتي الإشارة إلى فاعليّتهم عند الحديث عن فرقة الخوارج، والذين كان لحركتهم في العالم الإسلاميّ الأثر الكبير على أهمّ التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة التي شهدها ذلك العصر وما تلاه من العصور حتى زوال الدولة الأمويّة.

وأمّا ثانيًا، فسبب إدراجنا لهم مع الفرق الكلاميّة أنّهم وإن لم يكونوا يطرحون عقائد

خاصّةً ومختلفةً في قضايا التوحيد والنبوّة والإمامة وما شابه، إلّا أنّهم قدّموا في خصوص مسألة الحكم قولًا كان على مستوًى من الخطورة لا يقلّ عن غيره بالنّظر إلى تأثيره الهادم على المجتمع الإسلاميّ؛ وهو قولهم بعدم أحقّيّة عليّ عليه السلام بالحكم والإمامة، بالإضافة إلى ترويجهم وتشجيعهم لآراء شاذة لبعض الفرق المنحرفة كمقولة الجبر وعقائد التشبيه والتجسيم، وفكرة الإرجاء عند بعض المرجئة القريبين من السلطة الأموية.

وهذه القضيّة هي التي انطلق منها الأمويّون في حربهم ضد علي عليه السلام، فمعاوية لم يكتفِ برفض البيعة لعلي عليه السلام، بل عمل على إيجاد خرقٍ كبير في البيئة الكوفيّة خصوصًا والإسلاميّة عمومًا، من خلال مساعيه الفتنويّة لتأليب الناس ضدّ عليّ، باذلًا لذلك كلّ ما يمكن من وسائل البذل.

وعليه، فلو أردنا أن نوجز القضايا الكلاميّة التي يمكن نسبتها لهذه الفئة نقول:

أ- إنكار أحقّيّة أمير المؤمنين علي عليه السلام بالحكم والخلافة.

ب- رفض البيعة للإمام الحسن عليه السلام الإمام الشرعيّ بعد أبيه.

ت- نسبةُ معاويةَ المشروعيّةَ لنفسه دونما مستندٍ شرعيّ، وتكريسه مبدأ التوريث، حيث هيّأ الظروف لتسلّم يزيد ابنه الحكم من بعده.

ث- ترويجهم للجبر والتشبيه والإرجاء لانسجام هذه الأفكار المنحرفة مع مشروعيتهم ومساهمتها في توطيد سلطانهم وإسكات معاريضهم.

٢. الخوارج وعقائدهم

والخوارج هم الفئة الذين «خرجوا على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حين جرى أمر المحكّمين»[١]، وكانوا في صفوف جيشه عليه السلام في حربه ضدّ معاوية وجيش الشام في

---

[١]- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، المِلَل والنِحَل، ج١، ص١٣٣.

صفّين، حيث ذكرت كتب التاريخ أنّ الحرب كانت على مشارف النهاية وتحقُّق الهزيمة الحتميّة لجيش معاوية، لولا حيلةٌ أشار عمرو بن العاص على معاوية باللّجوء إليها، وهي أن يرفع جنود معاوية المصاحف على رؤوس الرماح، مدّعين بذلك طلب الاحتكام إلى القرآن، فما كان من جنود جيش أمير المؤمنين إلّا أن يوقفوا قتالهم، ويعترضوا على حكم إمامهم، الذي حذّرهم بأنّ هذه ليست إلّا فتنة أراد بها معاوية تخليص نفسه من مغبّة الهزيمة.

اُضطرّ أمير المؤمنين عليه السلام، ونتيجة خذلان أكثر المقاتلين في صفه، إلى القبول بهذا التحكيم؛ وذلك لأنّ خدعة رفع المصاحف تلك كانت قد «أحدثت [...] زلزالًا في جيش عليّ عليه السلام، حيث أدّت إلى إجابة أكثر ذلك الجيش إلى حكم المصحف - على حدّ تعبيرهم - وبقي عليه السلام مع أهل بيته عليهم السلام في عدة يسيرة، يواجهون تهديدات أولئك الانفصاليّين بنفس المستوى أو أشدّ من التهديد الذي كان يواجههم به جيش أهل الشام. ولم يكن يحقّ له عليه السلام أن يلقي بهذه الصفوة إلى التهلكة»[١].

وبمعزلٍ عن هذه التفاصيل، فإنّ اللّافت في أمر مسألة التحكيم أنّ الخوارج «الذين أجبروا عليًّا عليه السلام على قبول التحكيم، وهدّدوه بأن يسلّموه إلى معاوية أو أن يفعلوا به كما فعلوا بعثمان، هم أنفسهم حين انقلبوا عليه ووقفوا لمعارضة التحكيم قد اعتبروا قبوله كفرًا وكفّروا عليًّا عليه السلام لقبوله به»[٢]، وقالوا له: «لِمَ حكّمتَ الرجال؟ لا حكم إلّا لله»[٣]، «وحين رجع عليه السلام إلى الكوفة لم يدخل الخوارج معه، وساروا حتى نزلوا حروراء، وكانوا اثني عشر ألفًا، وقيل: ستة عشر ألفًا [...] ثم كانوا يُسمعون أمير المؤمنين عليه السلام الشتم والتعريضات القاسية»[٤].

ورغم أنّ الإمام عليّ عليه السلام حاربهم في النهروان ولم يُبقِ منهم إلّا عدد قليل، إلّا أنّ العقائد التي صدح بها هؤلاء ظلّت متفشيةً في أرجاء المجتمع الإسلاميّ، خصوصًا

[١]- مرتضى، جعفر، علي عليه السلام والخوارج، صص١٣٠-١٣١.

[٢]- م.ن، صص١٣١-١٣٢.

[٣]- الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، ص١٣٣.

[٤]- مرتضى، جعفر، عليّ عليه السلام والخوارج، م.س، ص١٣٣.

مع الالتفات إلى أنّ القلّة الناجية منهم سلكت مسلك الدعوة إلى هذه العقائد، وصار لهؤلاء وجودٌ وتمظهرٌ في أكثر من فرقة ظهرت في عصور لاحقة من التاريخ الإسلاميّ.

وأمّا عقائد هذه الفرقة وما ذهبت إليه من الآراء، فيمكن إجمالها في الآتي:

أ- إنّ الخلافة تجوز لأيّ مسلم وليست حكرًا على قريش، ما دام المسلم عادلًا، ولكن إذا خرج عن العدل تصحّ الثورة عليه[١].

ب- جوّزوا أن لا يكون في العالم إمامٌ أصلًا، وإن احتيج إليه، فيجوز أن يكون عبدًا أو حُرًّا، أو نبطِيًّا أو قرشيًّا[٢].

ت- إنّ الإيمان قولٌ وعملٌ، فمن لم يعمل بشروط الدين اعتُبر كافرًا، وإذا ارتكب المسلم كبيرةً واحدةً خرج عن الدين ويستباح ماله وعرضه وكلّ شيء له، ولهذا كان تاريخهم حافلًا بالمجازر. وهذه المسألة هي التي تُعرف بحكم مرتكب الكبيرة[٣].

ث- تخطئتهم أمير المؤمنين عليه السلام في ما ذهب إليه من التحكيم، وتجاوزهم التخطئة والوصول إلى حدّ تكفيره ولعنه، والعياذ بالله[٤].

ج- طعنهم في عثمان للأحداث التي عدّوها عليه، وطعنهم كذلك في أصحاب الجمل وأصحاب صفين[٥].

٣. المرجئة وعقيدتهم

والمرجئة فرقة تنتسب إلى الإسلام، ظهرت بادئ الأمر عقب شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك على خلفيّة الفتن الكبيرة التي شهدها العالم الإسلاميّ بدءًا من عهد الخليفة الثالث عثمان، واختلاف الناس بعد مقتل أمير المؤمنين.

---

[١]- انظر: ماجد، أحمد، المعارف العقليّة في الإسلام، ص٣٧.

[٢]- انظر: الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، ص١٣٤.

[٣]- انظر: ماجد، أحمد، المعارف العقليّة في الإسلام، م.س، ص٣٧.

[٤]- انظر: الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، ص١٣٦.

[٥]- انظر: م.ن.

قيل في شأن ظهورهم: «فلمّا قُتل عليّ عليه السلام التقت الفرقة التي كانت معه والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير وعائشة، فصاروا فرقةً واحدةً مع معاوية بن أبي سفيان [...] وهم السواد الأعظم وأهل الحشو وأتباع الملوك وأعوان كلّ من غلب أعني الذين التقوا مع معاوية، فسُمّوا جميعًا «المرجئة»؛ لأنهم تولّوا المختلفين جميعًا، وزعموا أنّ أهل القبلة كلّهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان ورجوا لهم جميعًا المغفرة»[١].

وأما تسميتهم، فراجعةٌ إلى أحد وجوه[٢]:

الأوّل: بمعنى التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ (الأعراف: ١١١)، أي أمهِلهُ وأخِّره.

الثاني: إعطاء الرجاء، وهو الذي أشار إليه النوبختيّ في كلامه أعلاه.

الثالث: تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكمٍ في الدنيا، من كونه من أهل الجنّة أو النار.

وأمّا عقائدهم، فهي تحاكي ما ذُكر في وجوه التسمية، ونحن نذكر أهمّها في الآتي:

أ- عدم تكفير أحد من أهل القبلة والحكم بإسلامهم جميعًا.

ب- تأخير العمل على النيّة والعقد، أي اعتبار عمل الإنسان شيئًا متأخّرًا عن إيمانه، غير مؤثّر فيه.

ت- القول بأنّه لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

ث- عدم الحكم على مرتكب الكبيرة وتأخير أمره إلى يوم القيامة.

وقد ظهر عند بعض المؤرّخين رأيٌ مُفاده أنّ «هذه الفرقة نشأت أساسًا بإيعازٍ ودعمٍ من الحكم الأمويّ، فحكمت بمشروعيّة حكمهم، وتركت الحكم فيما اقترفوه من الأحداث الجسام إلى الله تعالى، فهو الذي يحكم بين عباده بالحقّ يوم القيامة، والمسلم

---

[١]- النوبختيّ، الحسن بن موسى، فِرقُ الشيعة، ص٣٦.

[٢]- انظر: الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، صص١٦١-١٦٢.

يكفي أن يكون مسلمًا، وليس لأحد أن يخوض في أعمالهم أو يحكم عليهم بشيء من عنده»[١]. ومع حاجته إلى التحقيق والدراسة، إلاّ أنّه رأيٌ جديرٌ بالتأمّل.

٤. غُلاة السبئيّة وعقائدهم

وهي فرقة تنتسب في ظاهرها إلى التشيُّع، تعود تسميتها إلى مؤسّسها عبد الله بن سبأ، الذي ذهب إلى مجموعة أقوال اعتبرها المؤرّخون أوّل تمظهرٍ للغلوّ في تاريخ الإسلام.

والغلاة أو الغالية هم «الذين غالوا في حقّ أئمّتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة، وحكموا فيهم بأحكام الإلهيّة، فربّما شبّهوا واحدًا من الأئمّة بالإله، وربما شبّهوا الإله بالخلق»[٢]، وهذا التعريف أعمّ مما عليه السبئيّة؛ لأنّ حركات الغلوّ في الإسلام لم تقف عندها، بل تشعّبت شعبًا كثيرةً لا يعنينا منها إلّا الكلام على السبئيّة، لأنّها هي التي ظهرت قبل عصر الإمام الحسن عليه السلام وكانت آراؤها موجودةً في عصره، أمّا ما يليها فحركات ظهرت بعد عصره.

وأمّا عبد الله بن سبأ، فهو شخصٌ اختلف المؤرّخون والمحقّقون حوله أيّما اختلاف، فذهبوا في شأنه إلى أقوال عدّة.

وكان من أوائل من ذكره النوبختيّ، حيث قال: «حكى جماعة من أهل العلم من أصحاب عليّ عليه السلام أنّ عبد الله بن سبأ كان يهوديًّا، فأسلم ووالى عليًّا عليه السلام، وكان يقول وهو على يهوديّته في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة [وسيأتي بيانها]، فقال في إسلامه بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام بمثل ذلك، وهو أوّل من شَهَرَ القول بفرض إمامة عليّ عليه السلام وأظهر البراءة من أعدائه وكاشَفَ مخالفيه»[٣].

وذكره الطبريّ في تاريخه، فقال: «كَانَ عَبْد اللهَّ بن سبأ يهوديًّا من أهل صنعاء، أمُّه سوداء، فأسلم زمان عُثْمَان، ثُمَّ تنقّل فِي بلدانَ المسلمينَ، يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثُمَّ البَصرَة، ثُمَّ الكُوفَة، ثُمَّ الشام، فلم يقدر على ما يريد عِندَ أحد من أهل

---

[١]- القاسم، أسعد وحيد، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة: عرض ودراسة، ص٢٥٥.

[٢]- الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، ص٢٠٣.

[٣]- النوبختيّ، فِرَق الشيعة، م.س، صص٥٧-٥٨.

الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر، فاعتمر فِيهِم، فقالَ لَهُم فِيمَا يقول: لَعَجَبٌ ممن يزعم أن عِيسَى يرجع، ويكذب بأنّ محمّدًا يرجع، وَقَد قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُكَ إِلى مَعادٍ﴾ (القصص، ٨٥). فمحمّدٌ أحقّ بالرجوع من عِيسَى، قَالَ: فقُبِلَ ذَلِكَ عنه، ووضع لَهُمُ الرجعة، فتكلّموا فِيهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُم بعد ذَلِكَ: إنه كَانَ ألف نبيّ، ولكلّ نبيّ وصيّ، وَكَانَ عليٌّ وصيَّ مُحَمَّد، ثُمَّ قَالَ: مُحَمَّدٌ خاتم الأنبياء، وعليٌّ خاتم الأوصياء، ثُمَّ قَالَ بعد ذَلِكَ: من أظلم ممن لم يجز وصية رَسُول الله صلى الله عليه وآله، ووثب على وصيِّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وتناول أمر الأمّة! ثُمَّ قَالَ لَهُم بعد ذَلِكَ: إنّ عُثمان أخذها بغير حقّ، وهذا وصيُّ رسول الله صلى الله عليه وآله»[١].

وكما عرفت، فآراء المؤرّخين حول ابن سبأ لم تجتمع البتّة، بل تراوحت بين القول بأنّه يهوديّ الأصل، والقول بأنّه كان روميًّا نصرانيًّا، والقول بأنّ ابن سبأ اسمٌ رمزيٌّ استُخدم للدلالة على الصحابيّ عمّار بن ياسر، والقول بأنّ ابن سبأ شخصيّةٌ وهميّةٌ لم يكن لها وجود في التاريخ أصلًا[٢]، مضافًا إلى غير ذلك من الأقوال والتفاصيل المتباينة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما يعنينا هنا ليس البحث في تاريخ ابن سبأ وحقيقته، بل الكلام في العقائد والآراء التي طرحها السبئيّون؛ لأنّ وجود تلك الآراء عند فرقةٍ من الناس في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وما بعده حقيقةٌ لم ينكرها أحدٌ من المؤرّخين.

وأما عقائد تلك الفرقة، فنذكر أبرزها فيما يأتي:

أ- الطعن على أبي بكرٍ وعمر وعثمان والصحابة والتبرّؤ منهم[٣].

ب- القول إنّ عليًّا عليه السلام لم يمُت ولم يُقتل ولا يُقتل ولا يموت، بل لمّا بلغ عبدَ الله بن سبأ نعيُ عليٍّ بالمدائن قال للذي نعاه: لو جئتنا بدماغه في سبعين صرّةٍ وأقمت على قتله

---

[١]- الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري [= تاريخ الرسل والملوك]، ج٤، ص٣٤٠.

[٢]- وقد وقف وقفةً سريعةً لكن مفيدةً على أهم هذه الأقاويل والإشارة إلى أصحابها الدكتور علي سامي النشّار (ت ١٩٨٠ م) في كتابه، انظر: النشّار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، ج٢ (نشأة التشيُّع وتطوُّره)، صص٣٦-٣٩. ومن بين أهمّ التحقيقات التي هدفت إلى إثبات عدم وجود هذه الشخصيّة كان ما قام به العلّامة السيّد مرتضى العسكريّ (ت ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م) في كتابه القيّم عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى.

[٣]- انظر: النوبختي، فِرَق الشيعة، م.س، ص٥٧.

سبعين عدلًا لعلمنا أنّه لم يمت ولم يُقتل[١].

ت- القول بألوهيّة أمير المؤمنين عليه السلام، حيث رويَ أنّ ابن سبأ قال له: أنت أنت، يعني أنت الإله، وهذا القول هو الذي دفعهم إلى إنكار موته، فإنّ فيه الجزء الإلهيّ ولا يجوز أن يُستولى عليه[٢].

ث- معراج عليّ عليه السلام إلى السماء، حيث يُروى أنّ ابن سبأ زعم بعد مقتل أمير المؤمنين عليه السلام أنّ المقتول لم يكن هو، وإنّما شيطانٌ تصوّر للناس في صورته، وأنّه عليه السلام صعد إلى السماء[٣]، والسبئيّة يعتقدون أنّ أمير المؤمنين هو الذي يجيء في السحاب، وأن الرعدَ صوتُه، والبرقَ تبسُّمُه[٤]، وقيل: سَوطُه[٥].

ج- القول إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يرجع إلى الأرض، فيملؤها قسطًا وعدلًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا، وأنّ الأموات يرجعون إلى الدنيا[٦].

ح- القول بتناسخ الجزء الإلهيّ في الأئمّة عليهم السلام بعد عليّ عليه السلام[٧].

اتّضح لنا ممّا تقدّم، أنّ القضايا الكلاميّة التي أثيرت في تلك الحقبة كانت تتمحور بأغلبها حول موضوعات شبه محصورة، ولم يكن البحث الكلاميّ إذ ذاك قد انفتح بعدُ على قضايا باتت فيما بعد من أبرز قضايا هذا العلم؛ فلا نجد مثلًا كلامًا كثيرا في الجبر والتفويض، ولا إطنابا في البحث حول صفات الله، وأنّها عين الذات أو زائدة عليها، أو أنّ الذات تنوب عنها، ولا في مبدأ التحسين والتقبيح ما هو، ولا في مراتب التوحيد، ولا غير ذلك من القضايا التفصيليّة التي تعمّق البحث فيها في عصور لاحقة.

وأمّا المحاور الأساسيّة التي دارت حولها النقاشات الكلاميّة في ذلك العصر، فكان

---

[١]- انظر: النوبختي، فِرَق الشيعة، م.س، صص٥٧-٥٨.

[٢]- انظر: الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، ص٢٠٤.

[٣]- انظر: ماجد، أحمد، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، م.س، ج٢، ص٤٠.

[٤]- انظر: الشهرستاني، المِلَل والنِحَل، م.س، ج١، ص٢٠٤.

[٥]- انظر: ماجد، أحمد، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، م.س، ج٢، ص٤٠.

[٦]- انظر: الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل، مقالاتُ الإسلاميّين واختلافُ المُصلّين، ج١، ص٨٦.

[٧]- انظر: ماجد، أحمد، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، م.س، ج٢، ص٤١.

أهمّها ما له صلة بمسألة الإمامة والخلافة، وأنّها لمن تكون؟ وما هي حدود الخليفة وصلاحيّاته؟ وكيف يُعيَّنُ خليفة المسلمين؟ وما إلى ذلك.

ورأينا أيضًا أنّه طُرحت بعض الإثارات حول محور آخر، وهو الكلام في الحكم بالكفر على أحدٍ من المسلمين، بين قائلٍ بتكفير فئة من المسلمين، ومنكرٍ إمكان تكفير أحد منهم، والخوض في تحديد علاقة عمل الإنسان بإيمانه، وهل العمل شرط في الإيمان؟

ومن المحاور المهمّة ظاهرة الغلوّ التي رأينا مفصّلًا حجم الطروحات التي ترتّبت في العالم الإسلاميّ عليها، ولا يخفى على المطّلع حجم السّعة والتضخّم الذي شهدته هذه المقولة في عصور لاحقة.

فهذه بالإجمال كانت أهمّ محاور ما يمكن أن يندرج في عداد البحوث الكلامّية في عصر الإمام الحسنعليه السلام.

رابعًا: الإمام المجتبىعليه السلام والرسالة العقديّة المباشرة:

سنحاول مقاربة الدور الكلاميّ المباشر للإمام الحسنعليه السلام من خلال أمرين اثنين:

الأوّل: أن نقف على أهمّ طروحات الإمام الحسنعليه السلام الكلاميّة، وسنعمد في سبيل ذلك إلى استعراض أهمّ الروايات التي وقع عليها اختيارنا بعد استقصاءٍ طويلٍ لكلماته ومواقفهعليه السلام، في ظروف ومحطّات مختلفة من حياته.

الثاني: أن نستفيد من مجمل الروايات المذكورة، ونضمّ إليها ما استعرضناه في طيّات بحثنا من معطيات، لنصل إلى النتائج النافعة والمفيدة في تحديد معالم ومحدّدات دور الإمام المجتبى الكلاميّ.

١. تبويب أهمّ مرويّات الإمام الحسنعليه السلام العقائديّة والتعليق عليها

وقد وقع اختيارنا في هذا العنوان على إيراد أهمّ مرويّات الإمام المجتبىعليه السلام التي

وجدنا فيها بيانًا لمسألة كلاميّة، أو دفعًا لإشكالٍ كلاميٍّ، أو إطلاقًا لموقفٍ كلاميّ، أو ذكرًا لما يمكن أن يلزم عنه شيءٌ من ذلك، مبوّبين إيّاها بحسب التبويبات المعتمدة في البحوث الكلاميّة عادةً.

ومضافًا إلى ذكرها وتبويبها، سنقدّم عقِب كلّ رواية، أو مجموعة روايات، تعليقًا نحاول فيه أن نوضح أهمّ الدلالات المستفادة منها، لافتين إلى الجهة العقائديّة التي حاول الإمام الإشارة إليها في كلامه، وذلك كلّه تمهيدًا للمحطّة الأخيرة من البحث؛ والتي نقارب فيها الإضافات الكلاميّة التي قدّمها إمامنا، والتي بناءً عليها سيكون بإمكاننا تشخيص الدور الذي لعبه في تنضيج علم الكلام بالمستوى الذي كان يناسب عهده وطبيعة القضايا الكلاميّة المثارة فيه.

أ. في معرفة الله سبحانه:

حيث وردت عن الإمام المجتبى عليه السلام روايات عدّة يمكن إدراجها في باب معرفة الله تعالى، وقد تنوّعت هذه الروايات بين روايات تتعرّض لذكر صفات الله سبحانه، وأخرى تتناول بعض المباحث المرتبطة ببحث الصفات والأفعال، كعنوان الحكمة، والقدر، وما شابه ذلك.

فمما ورد عنه في ذكر صفة الله، ما أجاب به رجلًا جاء إليه فقال له: «يا ابن رسول الله، صِف لي ربّك حتّى كأنّي أنظر إليه، فأطرَقَ الحسن بن عليّ عليهما السلام مليًّا، ثمّ رفع رأسه، فقال: الحمد للهِّ الذي لم يكن له أوّل معلوم ولا آخر متناهٍ، ولا قبلَ مدرَكٌ، ولا بعدَ محدودٌ، ولا له أمدٌ بحتّى ولا شخصٌ فيتجزّأ ولا اختلافُ صفةٍ فيتناهى، فلا تدرك العقولُ وأوهامُها، ولا الفكرُ وخطراتُها، ولا الألبابُ وأذهانُها صفته فتقول: متى، ولا بُدئَ ممّا، ولا ظاهرٌ على ما، ولا بطنٌ فيما، ولا تاركٌ فهلّا، خَلَقَ الخلقَ فكان بديئًا بديعًا، ابتدأ ما ابتدع، وابتدع ما ابتدأ، وفعل ما أراد وأراد ما استزاد، ذلكم الله ربّ العالمين»[١].

ومن ذلك أيضًا ما ورد عنه أنه قال: «الحمد للهِّ الواحدِ بغير شبيه، الدائمِ بغير تكوين، القائمِ بغير كلفة، الخالقِ بغير منصَبَة، الموصوفِ بغير غاية، المعروفِ بغير معدوديّة، العزيزِ لم يزل قديمًا في القدم، ردعت القلوبُ لهيبته وذهلت العقولُ لعزّته وخضعت

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، ص٤٨٩، الحديث ١.

الرقابُ لقدرته، فليس يخطر على قلبِ بشرٍ مَبلغُ جبروته، ولا يبلغ الناسُ كنهَ جلاله، ولا يفصح الواصفون منهم لكُنهِ عظمته، ولا يقوم الوهمُ على التفكير على مضا سببه، ولا تبلغه العلماءُ بألبابها، ولا أهل التفكُّر بتدبير أمورها، أعلمُ خلقِه به الذي بالحد لا يصفه، يدرِكُ الأبصارَ ولا تدركه الأبصارُ وهو اللطيف الخبير، أما بعد فإنّ عليًّا بابٌ من دخله كان آمنًا ومن خرج منه كافرًا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[١].

وقد رأينا في هاتَين الروايتَين ما بيّنه الإمام من عجز الناس مهما بلغت أفهامهم عن إدراك كنه ذات الله أو إدراك حقيقة صِفَته. والمستفاد من هذا البيان أمران:

أحدهما أنّ حقيقة الصفات الإلهيّة أمرٌ لا يمكن إدراكه بالعقول، ولا حدُّه بالأفهام؛ وذلك لأنّ الصفات الإلهيّة ليست حقائق منفصلةً عن الذات الإلهيّة أو شيئًا غيرها، بل هي عين الذات، فهذا البيان من الإمام يأتي في سياق تأكيد عجز الممكنات عن إدراك حقيقة صفات الله سبحانه، وتأكيد كونها على أعلى درجات الكمال، كما هو ملاحظ في الصيغ المستعملة في كلا الروايتَين.

وثانيهما، أنّ الله سبحانه ليس ممّا يمكن أن يدرك بأي نحوٍ من أنحاء الإدراك الحسّيّ، لا في هذه النشأة ولا في غيرها، وهذه القضيّة نتيجةٌ طبيعيةٌ للقضيّة الأولى، فما كان إدراكُ صِفَتِه ممتنعًا على العقول فإنّ رؤيته بالأبصار ممتنعٌ من بابٍ أولى، ولعلّ ذكر الإمام هذه النتيجةَ كان لدفع شبهات التجسيم عنه تعالى، التي كانت قد بدأت بالظهور في زمن الإمام وتكرّست بشكل أكبر عند بعض الاتجاهات الإسلاميّة في وقت لاحق.

ورُوي عنه عليه السلام أنّه قال في كلام له: «الحمد لله، اللهُ المستحمدُ بالآلاء وتتابعِ النعماء وصارفُ الشدائد والبلاء عند الفهماء وغير الفهماء، المذعنين من عباده لامتناعه بجلاله وكبريائه وعلوِّه عن لحوقِ الأوهام ببقائه، المرتفعِ عن كنه ظنانة المخلوقين من أن تحيط بمكنون غيبه روايات عقول الرائين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده في ربوبيّة وجوده ووحدانيّته، صمدًا لا شريك له، فردًا لا ظهير له»[٢].

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص١٠٣، الحديث ٢١.

[٢]- م.ن، ص٣٠٧، الحديث ٦.

والوارد في هذه الرواية واضحٌ في تأكيد المعنى الذي سبقت الإشارة إليه في سابقتَيها، من عجز أوهام العباد وطنونهم عن إدراك حقيقة صفة الله سبحانه، مضافًا إلى ذكر شيءٍ من معاني تنزيهه تعالى ذكره، كتوحيد الذات، وتوحيد الربوبيّة، والصمديّة والفردانيّة.

وأمّا ما رُويَ عنه من كلامٍ حول بعض المباحث المرتبطة بمباحث الصفات والأفعال الإلهيّة، فقد ورد عنه أنّه أجاب سائلًا سأله عن القدر والاستطاعة فقال: «من لم يؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه أنّ اللهَ يعلمُه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر، إنّ الله لم يُطَع مُكرِهًا ولم يُعصَ مغلوبًا ولم يهمل العباد سدًى من المملكة، بل هو المالك لما ملّكَهُم والقادر على ما عليه أقدرَهُم، بل أمَرَهُم تخييرًا ونهاهم تحذيرًا، فإن ائتَمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صادًّا وإن انتهوا إلى معصيةٍ فشاء أن يمنّ عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل، وإن لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبرًا ولا أُلزمُوها كرهًا، بل منّ عليهم بأن بصّرهم وعرّفهم وحذّرهم وأمرهم ونهاهم، لا جبرًا لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة، ولا جبرًا لهم على ما نهاهم عنه، ولله الحجّة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، والسلام على من اتّبع الهدى»[١].

وفي هذه الرواية تصريحٌ أكيدٌ حول حقيقة القدر الإلهيّ وأنّه لا يَلزَم عنه القول بالجبر، وهذا من المباحث الشائكة التي شهدها علم الكلام الإسلاميّ في الفترة اللاحقة لعهد الإمام الحسن عليه السلام، والتي وقع فيها خلاف كبير بين الفرق الإسلاميّة، بين قائلٍ بالجبر وقائلٍ بالتفويض، وكلام الإمام إنّما يُثبت عينَ الوجهة التي ذهب إليها أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهي أنّ الأمر لا هو جبرٌ ولا تفويض، فهذا ما صرّح به الإمام عند تأكيده القدر ونفيه الجبر، حيث يكون الإنسان خاضعًا للقدر الإلهيّ في عين كونه مختارًا لأفعاله مستطيعًا الإتيان بها أو عدمَ ذلك.

وورد عن الإمام عليه السلام أيضًا أنّه قال: «اعلموا أنّ الله لم يخلقكم عبثًا، وليس بتارككم سدًى، كتب آجالكم وقسّم بينكم معايشكم ليعرف كلُّ ذي لبٍّ منزلته، وأن ما قُدِّرَ له

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص٤٩٣، الحديث ٥.

أصابه وما صُرف عنه فلن يصيبه، قد كفاكم مؤونة الدنيا وفرّغكم لعبادته، وحثّكم على الشكر وافترض عليكم الذكر وأوصاكم بالتقوى»[١].

وهذه الرواية كما نرى تؤكد على مقولتَين: إحداهما مسألة التقدير الإلهيّ، والأخرى مسألة الحكمة الإلهيّة، والتي مفادها أنّ الله لا يفعل شيئًا عبثًا، بل كلّ أفعاله تكون لغاية هي في حدّ ذاتها مطلوبة وكمالٌ.

ب. في معرفة النبيّ:

نورد في هذا العنوان روايتَين عن الإمام عليه السلام نَقَل فيهما شيئًا من أوصاف النبيّ صلى الله عليه وآله.

حيث نقل الإمام عن أبيه أمير المؤمنين عليهما السلام أنّه: «جاء نفرٌ من اليهود إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، فسأله أعلمُهم وكان فيما سأله، أن قال له: لأيّ شيء سمّيت محمّدًا، وأحمد، وأبا القاسم، وبشيرًا، ونذيرًا، وداعيًا؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أمّا محمّد، فإنّي محمود في الأرض، وأمّا أحمد فإنّي محمود في السماء، وأمّا أبو القاسم فإنّ الله عز وجلّ يقسّم يوم القيامة قسمة النار فمن كفر بي من الأوّلين والآخرين ففي النار، ويقسّم قسمة الجنة فمن آمن بي وأقرّ بنبوّتي ففي الجنّة، وأمّا الدّاعي فإنّي أدعو الناس إلى دين ربّي عزّ وجلّ، وأمّا النذير فإنّي أُنذر بالنار من عصاني، وأمّا البشير، فإنّي أبشّر بالجنّة من أطاعني»[٢].

كما ورد عنه أنّه نقل عن هند بن أبي هالة التّميمي – في جملة كلامٍ طويل يصف فيه النبيّ – ما يأتي:

«كان عليه السلام متواصلَ الأحزان، دائمَ الفكر، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلّم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلّم بجوامع الكلم فصلًا لا فضولَ فيه ولا تقصير، دمثًا ليّنًا ليس بالجافي ولا بالمهين، تعظم عنده النعمة وإن دقّت، لا يذمّ منها شيئًا، غير أنّه كان لا يذمّ ذوّاقًا ولا يمدحه، ولا تُغضِبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحقّ لم يَعرِفهُ أحدٌ ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفّه

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص٥٥١، الحديث ٢.

[٢]- م.ن، ص٤٩٥، الحديث ١.

كلّها، وإذا تعجّب قلّبها، وإذا تحدّث اتصل بها، فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جُلّ ضحكه التبسّم، يفترّ عن مثل حبّ الغمام»[١].

وقد ورد في هاتَين الروايتَين ما رأينا من التعظيم للنبيّ، حيث بيّنت الرواية الأولى جملة خصالٍ تُبيّن سموّ مقام النبيّ ورفعته وتفوّقه على سائر الناس من الأوّلين والآخرين، مثل كونه محمودًا في السماء والأرض، وكون الإيمان به سبب النجاة في الآخرة، والكفرَ به سبب الهلاك فيها، فيما بيّنت الرواية الثانية ما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وآله من كريم الخُلُق وحسن الأدب مع الله والناس.

وكما ترى، فما ورد في الرواية الأولى بيانٌ واضحٌ حول مطلب عقائديّ أساسٍ هو وجوب الإيمان بنبوّة النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله، مضافًا إلى وجوب اتّباعه والالتزام بأوامره وتعاليمه، كما في ذيل الرواية، وأمّا ما ورد في الرواية الثانية، ففيه من التفاصيل ما يمكن أن يقع في طريق الاستدلال على عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله وكماله، وهذا من المطالب العقائديّة أيضًا، والتي عولجت كذلك في علم الكلام.

ت- في معرفة أمير المؤمنين:

رُويَت عن الإمام الحسن جملة روايات في معرفة أبيه أمير المؤمنين عليهما السلام، بعضُها في ذكر فضائله، وبعضها الآخر في تأكيد إمامته وحقّه في ولاية أمر المسلمين بعد النبيّ، وبعضها في دفع شبهات الغلوّ فيه.

فأمّا التي في بيان فضله، فقد ورد أنّ أمير المؤمنين طلب من ابنه الحسن يومًا أن يرتقي المنبر ويكلّم الناس، «فصعد الحسن عليه السلام المنبر، فحمد الله بمحامد بليغة شريفة وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله صلاةً موجزة. ثمّ قال: يا أيها الناس، سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، وهل تدخل المدينة إلّا من بابها، ثم نزل، فوثب إليه عليّ عليه السلام وحمله وضمّه إلى صدره»[٢].

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، الحديث ٢.

[٢]- م. ن، ص٤٩١، الحديث ٣.

وورد أنّه عليه السلام خطب «في صبيحة اللّيلة التي قُبض فيها أمير المؤمنين عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ قال: لقد قُبض في هذه اللّيلة رجلٌ لم يسبقه الأوّلون بعملٍ ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه. كان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجّهه برايته، فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله ولا يرجع حتّى يفتح الله على يديه، ولقد توفّي عليه السلام في اللّيلة التي عُرج فيها بعيسى بن مريم وفيها قُبض يوشع بن نون وصيّ موسى عليه السلام، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلّا سبع مائة درهم فضلت عن عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله، ثمّ خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه»[١].

وكما رأينا فالإمام أشار في هاتَين الروايتَين إلى جملةٍ من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وفضائله، فذَكَرَ كونَه باب مدينة علم رسول الله الذي لا تؤتى إلّا منه، وكونَه لم يسبِقهُ أحدٌ من الأوّلين ولن يسبقَه أحدٌ من الآخرين بعمل، وأشار إلى محطّات جهادِه مع النبيّ ووقايته إياه بنفسه، وأنّه كان ثقة النبيّ في معاركه، وحامل رايته، والمنصور بجبرائيل وميكائيل، ومن يفتح الله على يدَيه.

وأما ما روي عنه في بيان إمامة أبيه عليهما السلام وتأكيد أحقّيته في تولّي أمور المسلمين بعد النبيّ، فهي روايات تناولت في طيّاتها بيانَ شطرٍ كبيرٍ من فضائل أمير المؤمنين أيضًا، إلّا أنّها تمتاز عن سابقاتها بأنّ الإمام الحسن يؤكّد فيها أيضًا على مسألة إمامة أمير المؤمنين.

فمن هذه الروايات ما ورد من قوله ضمن كلام له، حيث رويَ أنّه: «قام الحسن عليه السلام، فحمد الله تعالى بما هو أهله، ثم ذَكَر المباهلة فقال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله من الأنفس بأبي، ومن الأبناء بي وبأخي، ومن النساء بأمّي وكنّا أهلَه، ونحن له وهو منّا ونحن منه، ولـمّا نزلت آية التطهير جمَعَنَا رسول الله صلى الله عليه وآله في كساءٍ لأمّ سلمة رضي الله عنها خيبريّ، ثمّ قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي فأذهِب عنهم الرجس وطهِّرهُم تطهيرًا، فلم يكن أحدٌ في الكساء غيري وأخي وأبي وأمّي، ولم يكن أحدٌ يُجنب في المسجد ويولد له فيه إلّا النبيّ صلى الله عليه وآله وأبي، تكرمةً من الله تعالى لنا وتفضيلًا منه لنا، وقد رأيتم مكان منزلتنا من

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص٤٩٨، الحديث ١.

رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمَرَ بسدِّ الأبواب فسدّها وترك بابنا، فقيل له في ذلك فقال: أمّا إنّي لم أسدّها وأفتح بابَه، ولكنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أسدّها وأفتح بابَه»، ثم ذكر كلامًا حول ترك الناس مبايعةَ أبيه وقال بعده: «وقد سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا النبوّة، وقد رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله نصب أبي يوم غدير خمّ، وأمرَهُم أن يبلّغ الشاهدُ منهم الغائبَ»[١].

وممّا ورد عنه أيضًا في ذكر فضل أمير المؤمنين وأسبقيّتِه وأهليّتِه للولاية ما ذُكر ضمن كلام طويل له أنّه قال: «ثم أمرَه [والكلام عن النبيّ] بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ، فكان أبي عليه السلام أوّل من استجاب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وأوّل من آمن وصدّق اللهَ ورسولَه، وقد قال الله تعالى في كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ (هود: ١٧)، فرسول الله الذي على بيّنةٍ من ربه وأبي الذي يتلوه وهو شاهدٌ منه، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله حين أمره أن يسير إلى مكة والمواسم ببراءة: «سر بها يا عليّ فإني أُمرت أن لا يسير بها إلّا أنا أو رجلٌ منّي، وأنت هو يا عليّ»، فعليٌّ من رسول الله ورسول الله منه. وقال له نبيّ الله صلّى الله عليه وآله حين قضى بينه وبين أخيه جعفر بن أبي طالب عليهما السلام ومولاه زيد بن حارثة في ابنة حمزة: «أمّا أنت يا عليّ فمنّي وأنا منك، وأنت وليّ كلّ مؤمن بعدي». فصدّقَ أبي رسولَ الله صلى الله عليه وآله سابقًا ووقاهُ بنفسه، ثمّ لم يزل رسولُ الله صلى الله عليه وآله في كلّ موطنٍ يقدِّمُه ولكلّ شديدةٌ يرسِلُهُ، ثقةً منه وطمأنينةً إليه، لِعِلْمِه بنصيحته لله ورسوله وأنّه أقرب المقرّبين من الله ورسوله، وقد قال الله عز وجلّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولِئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(الواقعة، ١٠-١١)، وكان أبي سابق السابقين إلى الله عز وجلّ وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وأقرب الأقربين، فقد قال الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولِئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾(الحديد، ١٠)، فأبي كان أوّلَهم إسلامًا وإيمانًا، وأوّلَهم إلى الله ورسوله هجرةً ولحوقًا، وأوّلَهم على وجده ووسعه نفقةً، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر، ١٠)، فالناس من جميع الأمم يستغفرون له بسبقه إياهم الإيمان بنبيّه صلى الله عليه وآله، وذلك أنّه لم يسبقه

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص٣٠٥، الحديث ٥.

إلى الايمان أحد. وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ﴾(التوبة، ١٠٠)، فهو سابق جميع السابقين، فكما أنّ الله عزّ وجل فضّل السابقين على المتخلّفين والمتأخّرين، فكذلك فضّل سابقَ السابقين على السابقين، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(التوبة، ١٩)، المجاهد في سبيل الله حقًّا، وفيه نزلت هذه الآية»[١].

وكما ترى، فالإمام الحسن عليه السلام بيّن في هاتَين الروايتَين جملة مناقب لأمير المؤمنين عليه السلام فذكر ما يلي:

١. أنّه نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وأنّه من النبيّ والنبيّ منه.

٢. أنّه أوّل مصداق للذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم من الآثام.

٣. أنّه أسبق الناس إلى الإيمان وإلى كل ما يرضي الله ورسوله، وأوّلهم هجرةً إلى الله.

ولكن المهمّ هنا والذي فيه إضافة عمّا سبق هو ما يفيد تأكيده حقّ أمير المؤمنين في الولاية، وقد بيّنَه في:

١. إشارته إلى حديث المنزلة، والذي يفيد كون أمير المؤمنين خليفة النبيّ كما كان هارون خليفة موسى (سلام الله عليهم أجمعين).

٢. إشارته إلى واقعة الغدير التي نصّب فيها النبيّ أمير المؤمنين مولًى للمؤمنين من بعده على رؤوس الأشهاد.

٣. ذكره قول النبيّ لأمير المؤمنين «أنت وليّ كلّ مؤمن بعدي».

وهنا نقول: لقد قدّمت هذه الروايات الأربع إشاراتٍ قويةً ومهمّةً تحمل دلالاتٍ واضحةً على ما أراد الإمام الحسن تأكيده من كون أبيه عليهما السلام أفضل خلق الله بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، وأولاهم بقيادة الخلق وإدارة سياسة بلاد المسلمين، وكون النبيّ نفسه قد ذكر ذلك

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص٣٠٧، الحديث ٦.

صريحًا في أكثر من مورد، كما وتأكيده على كون إنكار ذلك خروجًا عن حدود الإيمان ونقضًا لعهد الولاية لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وأمّا ما ورد عنه في دفع شبهات الغلوّ في أبيه عليهما السلام، فقد نُقل عنه أنّه قال ضمن كلامٍ له بعد مبايعة الناس إيّاه: «إنّ عليًّا عليه السلام في المحيا والممات والمبعث عاش بقدرٍ ومات بأجلٍ»[١]. وورد عنه في موقفٍ آخر أنّ شخصًا أتاه فقال له: «إنّ هذه الشيعة تزعم أنّ عليًا مبعوثٌ قبل يوم القيامة، قال: كذبوا والله ما هؤلاء بالشيعة، لو علمنا أنّه مبعوث ما زَوّجْنا نساءه ولا اقتسمنا ماله»[٢]، وورد بعبارة مختلفة أنّه «قيل للحسن بن عليّ إنّ ناسًا من شيعة أبي الحسن علي عليه السلام يزعمون أنّه دابّة الأرض، وأنه سيُبعث قبل يوم القيامة، فقال: كذبوا، ليس أولئك شيعته، أولئك أعداؤه، لو علمنا ذلك ما قسّمنا ميراثه ولا أنكَحْنا نساءه»[٣].

وفي هذه الروايات دفعٌ صريحٌ لأبرز مقولات غُلاة السبئيّة، إذ عندما يؤكّد الإمام على أنّ أباه عليهما السلام عاش بقدرٍ ومات بأجلٍ، فهذا إنّما يعني أنّه من ناحية حياته وموته لا يختلف عن غيره من البشر، وليس فيه أيّ جهةِ ألوهيّةٍ يمتاز بها بطبيعة وجوده عن غيره من البشر، بل هو عليه السلام مثل غيره محكوم لسنن الوجود المادّيّ التي سنّها الله سبحانه وفرضها على الناس وجعل على وفقها أقدارهم وآجالهم. وأمّا الروايتان الثانية والثالثة، فهما واضحتان في كونهما تردّان مقولة السبئيّة في رجعة أمير المؤمنين عليه السلام قبل يوم القيامة، وأنّه لم يمُت بل رُفع إلى السماء كما زعموا، حيث يؤكّد الإمام في كلمةٍ مختصرة كذب مدّعيات هؤلاء، وينفي صحّة ما ذهبوا إليه بالدليل، بل هو يذهب إلى إخراج هؤلاء من التشيُّع، لينفي أوهام نسبة هذه المقولات وما شابهها إلى العقائد الشيعيّة.

ث- في الإمامة وفضلها:

وتنقسم الروايات التي تندرج تحت هذا العنوان إلى أقسامٍ ثلاثةٍ: الأوّل منها ما ورد في ذكر فضل أهل البيت عمومًا وتقدُّمِهم وأحقّيَتِهم ووجوب طاعتهم، والثاني منها ما

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٤٩٣، الحديث ٤.

[٢]- م.ن، ص ٥٠٤، الحديث ١١.

[٣]- م.ن، ٥٣٤، الحديث ٣٥.

ورد في بيان أحقّيّته هو عليه السلام في الإمامة وفضله على غيره من أهل زمانه، والثالث منها ما ورد عنه في خصوص الصلح مع معاوية، والذي شكّل لكُثرٍ من شيعته مورد شكٍّ والتباس في حكمة قرار الإمام وموقفه.

فأمّا التي في فضل أهل البيت عليهم السلام، فقد روي عن هشام بن حسّان أنّه قال: «سمعت أبا محمّد الحسن بن عليّ عليهما السلام يخطب الناس بعد البيعة له بالأمر، فقال: نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلَين اللذَين خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أمّته، والثاني كتاب الله فيه تفصيل كلّ شيء لا يأتيه الباطل من بين يدَيه ولا من خلفه، فالـمُعوَّلُ علينا في تفسيره، لا نتظنّى تأويله، بل نتيقّن حقائقه، فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضةٌ إذ كانت بطاعة الله عزّ وجلّ ورسوله مقرونة، قال عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩. وأحذّركم الإصغاء لهتاف الشيطان، فإنّه لكم عدوّ مبين، فتكونوا أولياءه الذين قال لهم: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ ﴾ الأنفال: ٤٨، فتلقون إلى الرماح وزرًا وإلى السيوف جزرًا وللعمد حطمًا وللسهام غرضًا، ثمّ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»[١].

ورويَ عنه عليه السلام أنه قال: «أيها الناس، إنّ الله اختارنا بالنبوّة واصطفانا على خلقِه، وأنزل علينا كتابَه ووحيَه، وأيم الله لا ينقصُنا أحدٌ من حقّنا شيئًا إلّا ينقصُه في عاجل دنياه وآجل آخرتِه، ولا تكون علينا دولة إلّا كانت لنا العاقبة، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين»[٢].

والروايتان تؤكّدان على المبدأ نفسه، وهو كون أهل البيت قرناء القرآن، والمخاطبين به، والمتفرّدين وحدهم بأهليّة فهم ما فيه وتبيين خفاياه، وأنّهم هم والقرآن من ينبغي

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٥٠٠، الحديث ٤.

[٢]- م.ن، ص ٥٢٤، الحديث ١٢.

اتّباعهما بعد النبيّ بأمرٍ منهﷺ، لتتحقّق على أيديهم بشائر الهداية القرآنيّة التي بشّر الله بها عبادَه المؤمنين، فهداية القرآن لا تتحقّق إلّا بإتيانه من بابهم. كما وورد فيهما تحذيرُ من تَرَكَ طريقَ الاقتداء بهم، والتنبيه على أنّ ترك ولايتهم إصغاءٌ للشيطان ودخولٌ في ربقة أوليائه، فالويل لمن يترك ولاية أولياء الله ليختار ولاية الشيطان وحزبه.

وأمّا الروايات الواردة في بيان فضله هو وإمامته، فمنها ما رُوي عنه في موقفٍ له جمعه مع معاوية، حيث قال: «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن ابن رسول الله، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن المصطفى بالرسالة، أنا ابن من صلّت عليه الملائكة، أنا ابن من شرفت به الأمّة، أنا ابن من كان جبرئيل السفير من الله إليه، أنا ابن من بُعِث رحمةً للعالمين صلّى الله عليه وآله أجمعين [...] أنا ابن المستجاب الدعوة، أنا ابن من كان من ربّه كقاب قوسَين أو أدنى، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن مكّة ومِنى، أنا ابن من خضعت له قريش رغمًا، أنا ابن من سعد تابعه وشقي خاذله، أنا ابن من جُعلت الأرض له طهورًا ومسجدًا، أنا ابن من كانت أخبار السماء إليه تترى، أنا ابن من أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا»[١].

وهذا الذكر لفضائل جدّه النبيّﷺ ومكارمه إنّما يُراد منه تذكير الأمّة بما عرفته، من كون النبيّ صرّح في حياته بعصمة أهل بيته، وبأحقّيّتهم في ولاية أمر المسلمين، وبأنّهم هم الذين يرثون عنه مقاليد الإمامة والخلافة، فيأخذون بيد الناس إلى ما فيه خلاصهم ونجاتهم في شؤون الدنيا ومصير الآخرة. ودلالة ذلك كلّه أنّ الإمامعليه السلام إنّما ينبّه على أحقِّيَته في تولّي أمر المسلمين، ويلقي على الناس الحجّة كرّةً أخرى، حتى لا يكون لأحد منهم العذر في ترك اتّباعه.

ومنها ما روي عنه أنّه قال: «إنّ لله مدينتَين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، عليهما سور من حديد وعلى كلّ مدينة ألف ألف مصراعين من ذهب، وفيها سبعون ألف ألف يتكلّم كلّ لغة بخلاف لغة صاحبتها، وأنا أعرف جميع اللّغات، وما فيهما وما بينهما وما عليهما حجّةٌ غيري وغير أخي الحسين»[٢].

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن عليعليهما السلام، م.س، ص ٥٢١، الحديث ٩.

[٢]- م.ن، ص ٤٩٩، الحديث ٣.

وهنا يصرّح الإمام بصريح العبارة أنّه هو حجّة الله، والعالِم الذي علّمه الله، وبأنّه لا حجّة لله في أرضه غيره إلّا أخوه الحسين، وهذا التصريح منه تأكيد على ما ذكره النبيّ من كونهما إمامَين قاما أو قعدا.

ولقد كان الإمام عليه السلام شديد الحذر من الناس وأهوائهم في أن يأخذوا أمر مبايعته إلى غير ما أراد الله أن تكون عليه الأمور، وقد سبقت منّا في المطلب الثاني الإشارة إلى أنّ الغالبيّة من أهل الكوفة إنّما بايعوا الإمام رغبةً في منفعةٍ أرادوا تحقيقها أو غايةٍ أرادوا استيفاءها. فها هو الإمام عند مبايعة الناس له يحرص على أن لا تكون المبايعة إلّا على النحو الذي يراهُ هو، حيث ورد أنّه «بويع للحسن بن عليّ عليه السلام بالخلافة، وقيل: إنّ أوّل من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عزّ وجلّ، وسنّة نبيِّه، وقتال المحلّين، فقال له الحسن عليه السلام: على كتاب الله وسنة نبيِّه، ذلك يأتي من وراء كلّ شرط، فبايعه وسكت، وبايعه الناس»[١]. فقيس بن سعد كان يحاول أن يفرض في مبايعته للإمام شرطًا يتوافق مع تطلّعاته وغايته هو، وهي قتال أهل الشام، إلّا أنّ الإمام حرص على أن لا يقبل بأيّ شرطٍ يشترطه عليه أحدٌ من المبايعين، لأنّه عليه السلام يعلم أنّ إمارة المؤمنين لا تحكمها شروط الناس، بل تكون محكومةً لكتاب الله وسنّة نبيِّه، ومن بعد ذلك يكون الإمام أدرى بما هو دون ذلك من أمور الحكم.

وربطًا بموضوع البيعة، يصل المقام إلى الطائفة الثالثة من روايات هذا القسم، أعني الروايات التي بيّن فيها الإمام حقيقة أمر صلحه مع معاوية وتسليم أمر الحكم إليه؛ إذ قد وردت في هذا المقام روايات عدّة عن الإمام عليه السلام، كان جلّها في بيان السبب الذي من أجله لجأ الإمام إلى خيار الصلح مع معاوية. وعلى الرغم مما أوردناه في المطلب الثاني من تحليل هذه المسألة وبيان الحكمة منها، فإنّنا نعمد هنا إلى بيان ذلك من خلال كلمات الإمام نفسه، مما يتقاطع بشكل أساسيّ مع ما نرمي إليه هنا من بيانِ رؤيةِ الإمام لمسألة الإمامة بوصفها واحدةً من أصول العقائد عند الشيعة.

ومما ورد في هذا المقام أنه «لـمّا صالح الحسن بن علي عليهما السلام معاوية بن أبي سفيان دخل

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٥٠٤، الحديث ١٠.

عليه الناس، فلامه بعضهم على بيعته. فقال عليه السلام: ويحكم ما تدرون ما عملت، والله الذي عملتُ خيرٌ لشيعتي ممّا طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنّني إمامكم مفترضُ الطاعة عليكم، وأحد سيّدَي شباب أهل الجنّة بنصٍّ من رسول الله صلّى الله عليه وآله عليَّ؟ قالوا: بلى، قال: أما علمتم أنّ الخضر عليه السلام لـمّا خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام كان ذلك سخطًا لموسى بن عمران إذ خفيَ عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمةً وصوابًا. أما علمتم أنّه ما منّا أحد إلّا ويقع في عنقه بيعةٌ لطاغية زمانه إلّا القائم الذي يصلّي روح الله عيسى بن مريم عليه السلام خلفه، فإنّ الله عزّ وجلّ يخفي ولادته ويغيب شخصه لئلّا يكون لأحدٍ في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين، ابن سيّدة الإماء، يطيل الله عمره في غيبته، ثمّ يُظهره بقدرته في صورة شابٍ دون أربعين سنة، ذلك ليعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير»[١].

وكما هو ملحوظ، فقد بيّن الإمام في كلامه هذا عدّة نقاطٍ مهمّة يصلح أن نعتبرها مبادئ أساسيّة في مقولة الإمامة، وهي:

أوّلها: أنّ فعل الإمام لا يكون إلّا على وفق المصلحة الأتّم لشيعته، حيث عبّر بأنّ ما فعله خيرٌ لهم مما طلعت عليه الشمس وغربت، وبعبارة أخرى: فِعلُ الإمام لا يكون إلّا على وفق استيفاء المصلحة العليا والإتيان بالأَولى.

ثانيها: أنّ إمام الشيعة مفترض الطاعة، فلا ينبغي معارضته أو الإشكال عليه حتى مع الجهل بالحكمة وراء أفعاله ومواقفه؛ لأنّ فعله سيكون على وفق ما تقتضيه الحكمة بلا شكّ، والإتيان بحكاية الخضر وموسى عليهما السلام كان خير شاهدٍ على هذا المعنى.

ثالثها: أنّ الأئمّة ـ على الرغم من استحقاقهم ـ تقع منهم البيعة الظاهريّة لطغاة زمانهم، وذلك لما تقتضيه المصلحة العامّة كما ذكرنا أعلاه. فليس شأن الإمام بالضرورة أن يثور على طاغية زمانه، ولا أن يقعد عن القيام، بل الأمر يدور مدار عنوانَي المصلحة والحكمة.

رابعها: الإشارة إلى مسألة الإمام المهديّ عليه السلام من ولد الإمام الحسين عليه السلام، الذي لا يبايع طاغيةً، بل يقوم على الطغاة ويحذو حذوًا مختلفًا بأمرٍ من الله.

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٥٠٧، الحديث ٢.

ولعلّ من الشواهد اللطيفة على أنّ فعل الإمام كان محكومًا لمقتضى الحكمة ما ورد عنهعليه السلام في جواب سائل له، حيث «سُئل الحسن بن عليّ بن أبي طالب عن العقل، فقال: التجرّع للغصّة ومداهنة الأعداء»[١].

ولعمري إنّ في هذا الكلام تصريحًا واضحًا منه أنّ مبايعة معاوية لم تكن أمرًا يستسيغه الإمام لو أنّه ضَمِنَ السلامة من عدم الخوض فيه؛ إذ قد اعتبر مداهنة الأعداء تجرّعًا للغصّة، ولكنّها كانت عنده محمودةً؛ لأنّها بملاحظة ظروف زمانه مثّلت تمام معنى العقل.

ورُوي «عن أبي سعيد عقيصًا، قال قلتُ للحسن بن عليّ بن أبي طالبعليه السلام: يا ابن رسول الله، لم داهنتَ معاوية وصالحتَه، وقد علمتَ أنّ الحقّ لك دونَه، وأنّ معاوية ضالٌّ باغٍ.

فقال: يا أبا سعيد، ألستُ حجّة الله تعالى ذكره على خلقه، وإمامًا عليهم بعد أبيعليه السلام، قلت: بلى، قال: ألستُ الذي قال رسول اللهصلى الله عليه وآله لي ولأخي: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، قلت: بلى، قال: فأنا إذن إمام لو قمت وأنا إمام إذ لو قعدت، يا أبا سعيد، علّة مصالحتي لمعاوية علّة مصالحة رسول اللهصلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكّة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفّار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفّار بالتأويل.

يا أبا سعيد، إذا كنت إمامًا من قِبَل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفَّه رأيي فيما آتيته من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبسًا، ألا ترى الخضرعليه السلام لـمّا خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسىعليه السلام فِعلَه لاشتباه وجه الحكمة عليه حتّى أخبره فرضي، هكذا أنا، سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحدًا إلّا قُتل»[٢].

وهذه الرواية على الرغم من قُرب مضمونها من الرواية الأولى، وتأكيدها، كما

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن عليعليهما السلام، م.س، ص ٤٨٥، الحديث ١.

[٢]- م. ن، ص٢٨٢، الحديث ٣.

الأولى، على أنّه لا ينبغي مخالفة رأي الإمام المفترض الطاعة في أيّ اتجاهٍ سلك، حتى مع فرض خفاء الحكمة وراء فعله، إلّا أنّ المطلب الإضافيّ الموضَّح هنا هو أنّ الإمام ذكر هنا علّة مصالحته لمعاوية، وبيّنها بأنّها عين علّة مصالحة رسول الله لكفّار قريش، ومعلومٌ أنّ مصالحة الرسول إنّما كانت في سياق ضمان السلامة له وللقلّة الذين كانوا معه من أصحابه، فالإمام أراد هنا أن يقول إنّ مصالحة معاوية لم تكن إلّا لعلمه بأنّ سلامته وسلامة من معه لا تكون إلّا بهذا الصلح، وبأنّه لو سلك خيارًا غيره، فلن يكون المآل سوى شهادته وشهادة أصحابه جميعًا، خصوصًا مع علمه بخذلان الناس له، ما يعني اندثار تيّار الحقّ من الوجود، وتكريس الغلبة لتيّار الباطل، وفي ذلك نقضٌ لكلّ الأغراض التي عمل النبيّ على تحقيقها كما سبقت منّا الإشارة.

ولعلّ خير مؤشّرٍ على يأس الإمامعليه السلام من نصرة الناس له في مواجهته مع معاوية أنّه كتب إليه كتابًا ورد فيه: «أمّا بعد فإنّ خطبي انتهى إلى اليأس من حقّ أُحييه وباطلٍ أميتُه، وخطبُكَ خطبُ من انتهى إلى مراده، وإنّني أعتزل هذا الأمر وأخلّيه لك، وإن كان تخليتي إيّاه شرًا لك في معادك»[١].

وقد وردت أيضًا ضمن هذا القسم روايتان تحكيان عن واقعة واحدة، إحداهما أكثر تفصيلًا من الأخرى، ننقلهما ههنا لمزيد تبيُّنٍ حول توجيه الإمام لمسألة مصالحتهِ معاويةَ[٢].

فقد ذكرت الرواية الأولى أنّ « معاوية صعد المنبر وجمع الناس فخطبهم وقال: إنّ الحسن بن عليّ رآني للخلافة أهلًا ولم يرَ نفسه لها أهلًا، وكان الحسنعليه السلام أسفل منه بمرقاة، فلمّا فرغ من كلامه قام الحسنعليه السلام فحمد الله تعالى بما هو أهله»، ثمّ ابتدأ كلامه بذكر فضائل أمير المؤمنينعليه السلام إلى أن قال: «وإنّ معاوية زعم لكم أنّي رأيته للخلافة أهلًا، ولم أرَ نفسي لها أهلًا، فكذب معاوية، نحن أولى الناس بالنّاس في كتاب الله وعلى

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن عليعليهما السلام، م.س، ص٢٩٦.

[٢]- اعلم أنّنا قد سبقت منّا الاستفادة من هاتَين الروايتَين في محطّة سابقة من هذا المطلب، أثناء الكلام على استحقاق أمير المؤمنينعليه السلام الولاية، لكن دون الإشارة إلى كونهما ظاهرتَين في الدلالة على الواقعة نفسها، لعدم تشابه محلّيّ الشاهد في استفادتَينا السابقتَين.

لسان نبيّه صلّى الله عليه وآله، ولم نزل أهل البيت مظلومين منذ قبضَ الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله، فالله بيننا وبين من ظلَمَنا حقَّنا وتوثّب على رقابنا وحَمَل الناس علينا ومَنَعَنا سهمنا من الفيء ومنع أمّنا ما جعل لها رسول الله صلى الله عليه وآله. وأُقسم بالله لو أنّ الناس بايعوا أبي حين فارقَهم رسول الله صلى الله عليه وآله لأعطتْهُم السماءُ قطرَها والأرضُ بركتَها، وما طمِعتَ فيها يا معاوية، فلمّا خرجَت من معدنها تنازعَتها قريشٌ بينها، فطَمِعَتْ فيها الطلَقاءُ وأبناءُ الطلَقاء أنتَ وأصحابك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولّت أمّةٌ أمرَها رجلًا وفيهم من هو أعلمُ منه إلّا لم يزل أمرُهُم يذهب سفالًا حتى يرجعوا إلى ما تركوا [...] وقد هرب رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه وهو يدعوهم إلى الله تعالى حتى دخل الغار، ولو وجد أعوانًا ما هرب، وقد كفّ أبي يدَه حين ناشدهم واستغاث فلم يغث، فجعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه، وجعل الله النبيّ صلى الله عليه وآله في سعةٍ حين دخل الغار ولم يجد أعوانًا، وكذلك أبي وأنا في سعةٍ من الله حين خذَلَتنا الأمّة وبايعوك يا معاوية، وإنّما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضًا. أيّها الناس إنّكم لو التمستم فيما بين المشرق والمغرب أن تجدوا رجلًا والدُه نبيٌّ غيري وأخي لم تجدوه، وإنّي قد بايعتُ هذا، وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين»[١].

وأمّا الرواية الثانية، فهي التي رُويَت بتفصيلٍ أكبر وبيانٍ أطول، وتذكر أنّ الإمام عليه السلام حين أجمع على صلح معاوية خرج حتى لقيَهُ، «فلمّا اجتمعا قام معاوية خطيبًا، فصعد المنبر [...] فقال: أيّها الناس هذا الحسن بن عليّ وابن فاطمة رآنا للخلافة أهلًا، ولم يرَ نفسه لها أهلًا، وقد أتانا ليبايع طوعًا، ثمّ قال: قم يا حسن، فقام الحسن عليه السلام فخطب».

وقد ورد في هذه الرواية كلامٌ طويلٌ خصّصهُ الإمام لبيان فضلهم أهلَ البيت، وفضل أبيه أمير المؤمنين، وتقدُّمِهم على غيرهم واستحقاقِهم أمر الحكم، ولكنّنا نستغني عن نقلها تجنّبًا للإطالة، وننقل منها محلّ الإفادة من كلامه، حيث قال: «وإن معاوية بن صخر زعم أنّي رأيته للخلافة أهلًا، ولم أرَ نفسي لها أهلًا، فكذب معاوية وأيم الله، لأنّا أولى الناسِ بالناس، في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله، غير أنّا لم نزل أهلَ البيت مخيفين مظلومين مضطهدين منذ قُبض رسولُ الله صلّى

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص٣٠٥، الحديث ٥.

الله عليه وآله. فاللهُ بيننا وبين من ظلَمَنا حقَّنا ونزلَ على رقابنا وحملَ الناس على أكتافنا، ومنَعَنا سهمَنا في كتاب الله والغنائم [...] أقسم بالله قسمًا تاليًا لو أنّ الناس سمعوا قول الله عزّ وجلّ ورسوله لأعطتهم السماء قطرَها والأرضُ بركتَها، ولما اختلف في هذه الأمّة سيفان، ولأكلوها خضراءَ خضرةً إلى يوم القيامة، إذًا وما طمعت فيها يا معاوية، ولكنّها لـمّا أُخرجت سالفًا من معدنها وزُحزحت عن قواعدها تنازعَتها قريشٌ بينها وترامَتها كترامي الكرة حتى طمِعتَ فيها أنت يا معاوية وأصحابُك من بعدك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولّت أمّةٌ أمرَها رجلًا قطّ وفيهم من هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرهم يذهب سفالًا حتى يرجعوا إلى ما تركوا [...]، وقد خذلتني الأمة وبايعتك يا بن حرب، ولو وجدتُ عليك أعوانًا يخلصوك ما بايعتك، وقد جعل الله عز وجلّ هارون في سعة حين استضعفه قومه وعادوه، كذلك أنا وأبي في سعةٍ حين تركَتنا الأمّة وبايعت غيرنا ولم نجد عليهم أعوانًا، وإنّما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضًا. أيها الناس، إنّكم لو التمستم بين المشرق والمغرب رجلًا جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله وأبوه وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم تجدوا غيري وغير أخي، فاتقوا الله ولا تضِلّوا بعد البيان، وكيف بكم وأنّى ذلك منكم، ألا وإنّي قد بايعت هذا - وأشار بيده إلى معاوية - وإن أدري لعلّه فتنةٌ لكم ومتاع إلى حين. أيها الناس إنّه لا يُعاب أحدٌ بترك حقّه وإنّما يُعاب أن يأخذ ما ليس له، وكلّ صوابٍ نافعٌ وكلّ خطأ ضارٌّ لأهله [...] أيها الناس اسمعوا وعوا واتقوا الله وراجعوا، وهيهات منكم الرجعة إلى الحقّ وقد صارعكم النكوص وخامركم الطغيان والجحود ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، والسلام على من اتّبع الهدى.

قال: فقال معاوية والله ما نزل الحسن حتى أَظلَمَت عليَّ الأرضُ وهممتُ أن أبطش به، ثمّ علمتُ أنّ الإغضاء أقرب إلى العافية»[١].

وأمام هاتَين الروايتَين، نستخلص بعض الإشارات المفيدة في مقام فهم مسألة الصلح، حيث أشار فيهما إلى الآتي:

١. عدم كونه قد وجد في معاوية الأهليّة للحكم، حتّى رغم مبايعته له.

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٣٠٧، الحديث ٦.

٢. بيان حقيقة اضطهاد أهل البيت عليهم السلام من يوم قَبَضَ الله رسولَه الأكرم، والتي كان أبرزها إخراج الناس أمر الولاية منهم، وهو في واقعه إخراجٌ لها من معدنها وزحزحتُها عن قواعدها، وهو ما فتح لقريشٍ باب التنازع حولها، وهيّأ لمثل معاوية ظرف الطمع فيها حتّى آلت الأمور إلى ما آلت إليه.

٣. الإشارة إلى كونه وكون أبيه عليهما السلام في سعةٍ من الله عند خذلان الأمّة لهما، بمعنى كونهما غير ملومَين على ما تركاه من شأن ولاية الأمّة، وكون اللوم إنّما يقع على من خذلهما، وقد زاد الإمام بيان المسألة بقوله إنه لو وجدَ على معاوية أعوانًا ما كان بايعه، وقد عرفت تفصيل ذلك فيما ذكرناه سابقًا، وقد اختصر الإمام هذه المسألة بقوله: «إنّه لا يعاب أحدٌ بترك حقّه وإنّما يعاب أن يأخذ ما ليس له»، مستشهدًا بقول الله تعالى: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ (هود: ٢٨). وهذا كلّه مؤشّرٌ على مسألة مركزيّة فيما خصّ قضيّة الإمامة، وهي أنّ الإمام لا يكون ملزمًا بالتصدّي للحكم ما لم يجد الأرضيّة المناسبة لإقامة حكمه، وهي استعداد الناس لقبول هذا الحكم، ومبايعتهم لمن نصّبه الله حاكمًا عن قبولٍ ورضًى، وهذا كان حال كلّ الأئمّة بعد الإمام الحسن عليه السلام.

ج- في العلم:

وقد رويت عن الإمام المجتبى عليه السلام عدّة روايات تحدّد موقفه من العلم، وتبيّن بالغ اهتمامه بالعلم وتحصيله والعمل بهديِه، نذكر منها:

ما روي عنه عليه السلام أنّه كان «يقول لبنيه وبني أخيه: يا بَنِيَّ وبني أخي تعلّموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه أو قال يرويه، فليكتبه وليضعه في بيته»[١].

وما روي عنه في بيان أهمّيّة العلم المبطل للعقائد الفاسدة، حين أتى إليه رجلٌ حاملًا إليه هديّةً فقال له: «أيّما أحبّ إليك أن أردّ عليك بدلها عشرين ضعفًا يعني عشرين ألف درهم أو أفتح لك بابًا من العلم تنتقذ به ضعفاء أهل قريتك؟ [...] فقال: يابن رسول الله، فثوابي في قهر ذلك الناصبي واستنقاذي لأولئك الضعفاء من يده قدره عشرون

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٤٨٩، الحديث ٦.

ألف درهم؟ قال: أكثر من الدنيا عشرين ألف ألف مرة. قال: يابن رسول الله، فكيف أختار الأدون بل أختار الأفضل؟ الكلمةَ التي أقهر بها عدو الله وأذوده عن أوليائه، فقال الحسن بن عليّ عليهما السلام: قد أحسنت الاختيار، وعلّمه الكلمة»[١].

وما روي عنه عليه السلام في كلام له أنّه قال: «واعلموا علمًا يقينًا أنّكم لن تعرفوا التُقى حتى تعرفوا صفة الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حقّ تلاوته حتّى تعرفوا الذي حرّفه، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلّف ورأيتم الفرية على الله والتحريف، ورأيتم كيف يهوى من يهوى، ولا يجهلنكم الّذين لا يعلمون. التمسوا ذلك عند أهله، فإنّهم خاصّةُ نورٍ يُستضاء بهم، وأئمّة يُقتدى بهم، بهم عَيشُ العلم وموتُ الجهل، وهم الذين أخبركم حلمُهم عن جهلِهم، وحكمُ منطقهم عن صمتِهم، وظاهرُهم عن باطنهم»[٢].

وكما رأينا، فالإمام عليه السلام أَوْلى في كلماته العلمَ أهمّيّة كبرى، إلّا أنّه ركّز الاهتمام على قسم خاصٍّ منه، وهو العلم المتمحور حول المعارف الدينيّة والاعتقاديّة، حيث قرن تحقُّق التُقى وتلاوة الكتاب وغيرها من أساسيّات تحقُق الإيمان به، وحدّده في وجوه منها: العلم بموارد البدع والشبهات العقائديّة، ثمّ العلم بمفاتيح مواجهة تلك الشبهات ومعالجتها. ثم إنّه أكّد في المقام على أنّ الملجأ الوحيد لتحصيل مثل هذا العلم هو العودة إليهم هم، أئمّة الهدى وأعلام التُقى، الذين بهم تكون حياة العلم وموت الجهل. وعليه، فإنّ لنا من هذه الروايات استفادتان:

الأولى: تأكيد الإمام على أهمّيّة علم العقائد بوصفه أحد أهمّ أبواب العلم التي ينبغي لكلّ مؤمنٍ الاستزادة منه.

الثانية: أنّ العلمَ - سواءٌ هذا أو غيره - لا يُحصّل إلّا من عند أهله، وليسوا سوى آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله.

---

[١]- العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام، م.س، ص ٤٨٨، الحديث ٣.
[٢]- م.ن، ص ٤٨٥، الحديث ١.

٢. التحليل الموضوعيّ وتشخيص دور الإمام ومساهماته في تطوّر علم الكلام عند الشيعة الإماميّة

رأينا فيما سبق من الروايات العقائديّة الواردة عن إمامنا المجتبى عليه السلام أنّه كان قد تعرّض في كلماته إلى مروحةٍ واسعةٍ من المطالب العقائديّة، تنوّعت بين أكثر من باب من أبواب البحث الكلاميّ، إلّا أنّ ما يعنينا في هذا البحث ليس هو مجرّد استعراض الموضوعات أو المسائل الكلاميّة التي قاربها الإمام في كلماته، بل أن نحلّل حال البحث الكلاميّ ومآله في عهده عليه السلام. بعبارة أخرى: ما هي الملامح التي وسمت علم الكلام الإماميّ في عهده؟ وما أهمّ القضايا التي ارتكز هذا البحث حولها؟ ثمّ هل يمكن الحديث عن دورٍ فعّالٍ للإمام عليه السلام في تطوير علم الكلام أو رفده بأيّ إضافات عليه؟

إن البحث عن إجاباتٍ لهذه الأسئلة لا يمكن أن يكون بالسهولة المتصوَّرة؛ لأنّنا نفتقر للمادّة الوافية بمقاربة هذه القضيّة من جميع جوانبها؛ ولذا فإنّنا في هذه المحطّة من البحث سنستند إلى مرتكزات ثلاثٍ، وهي، أوّلًا: ما قدّمناه - في المطلب الثاني - من معطياتٍ صبغت واقع العالم الإسلاميّ السياسيّ والاجتماعيّ، وثانيًا: ما قدّمناه - في المطلب الثالث - من استقصاءٍ لأهمّ المقولات الكلاميّة التي ظهرت في ذلك العصر عبر بعض الفرق والتيّارات والاتجاهات، وثالثًا: ما بوّبناه - في القسم الأوّل من المطلب الرابع الحاليّ - من مرويّات الإمام الحسن عليه السلام التي تناولت أهمّ المسائل العقائديّة، وسنستفيد من هذه المرتكزات الثلاثة لنطرح التحليل الذي يمكن على أرضيّته أن نصل إلى نتائج واستخلاصات:

١-أوّل نتيجةٍ تؤكّد ما ألمحنا إليه في مقدّمة البحث من نفي الدعوى المذكورة هناك والتي مفادها أنّ الاشتغال الكلاميّ إنّما ظهر في العالم الإسلاميّ في النصف الثاني من القرن الهجريّ الأوّل؛ لأنّنا رأينا بوضوح أنّ الطروحات العقائديّة والجدالات الكلاميّة حولها كانت موجودةً في مجتمع المسلمين منذ بداياته الأولى، ومع هذا فلا وجه لقبول تلك الدعوى.

٢- إنّ القضايا الإشكاليّة التي شهدها ذلك العصر تمحورت بشكل أساسيّ حول مسألة الإمامة، وقد سبقت منّا الإشارة في خلاصة المطلب الثالث من البحث إلى هذه النقطة، إذ مع تنحية الجدل المطروح حول مسألة الإيمان والكفر - التي أثيرت مع الخوارج والمرجئة - وما طُرح من مقولات الغلاة في أمير المؤمنين عليه السلام، لكون حجم المعالجة لهما حينذاك متواضعًا مقارنةً بمسألة الإمامة، فإنّنا لا نجد مسألةً شغلت المجتمع الإسلاميّ حينها غير مسألة الإمامة. نعم، لا يمكن للمطّلع أن ينكر الحيّز الكبير الذي أخذته كلّ واحدةٍ من المسألتَين الأخريَين في أحقاب لاحقة، إلّا أنّنا نصبّ كلامنا هنا على عصر الإمام المجتبى حصرًا.

ولقد رأيت في ما ورد عن الإمام المجتبى عليه السلام من مرويّات عقائديّة قدر الاهتمام الكبير الذي أولاه لمسألة الإمامة، ومقدار التأكيد الذي ظهر عنده عليها، إنْ على مستوى إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، أو على مستوى إمامته هو ومن سَيَلِيه من الأئمّة عليهم السلام.

٣- نجد أنفسنا إزاء نتيجة مهمّة مُفادها أنّ موقف المواجهة المباشرة للإمام في إزاء المقولات الكلاميّة المشبوهة في عصره إنّما تمحور حول ما ورد في خصوص مسألة الإمامة والخلافة، حيث كانت له مواقف وكلماتٌ صريحة في المقام، يمكن من خلالها استجلاء بيانٍ صريحٍ وواضحٍ للإمام أراد أن يكرّسه ويثبته في الأذهان. نعم إنّ الإمام لم يهمل المحورَين الآخرَين من البيان، أعني مسألة «الإيمان والكفر» ومسألة «الغلوّ»، إلّا أنّك لا تجد منه كلامًا مباشرًا في دفع شبهات التكفير أو تحديد الموقف منها، أو ما خصّ مقولات الغلوّ في أمير المؤمنين عليه السلام، مثلَ الذي تجده منه في تحديد الموقف من مسألة الإمامة، وتبيين الحقّ فيها لمن يكون، وإبراز الحجج البيّنة والدلائل الساطعة في مقام كلامه عليها. وهذا كلّه له دلالات ينبغي أن لا نغفلها، وهي أنّ الإمام كأنّما كان همّه منصبًّا بشكلٍ أساسٍ على حفظ عنوان الإمامة، كأصلٍ اعتقاديّ كان يُخشى أن تذهب به الفتن التي شهدها عصره، والالتباسات التي وسمت طبيعة ذلك العصر، أدراج الرياح، ويبقى الإسلام خُلوًا من أحد أهمّ أركانه التي بها يكون حفظه ودوامه.

٤- نتيجة أخرى -أشرنا إليها في مقدّمة المطلب الثالث من البحث - مفادها أنّ الإثارات الكلاميّة في كلّ عصرٍ تتأثّر بالأحداث السياسيّة التي يشهدها ذلك العصر، بمعنى أنّ جزءًا من الجدل الكلاميّ يتحدّد ويتشكّل على أرضيّة الجدالات والوقائع السياسيّة التي يشهدها كلّ عصرٍ من العصور، ولأجل ذلك رأينا بما لا يقبل الشكّ أن أبرز قضيّةٍ سياسيّةٍ أثيرت في تلك الحقبة كانت قضيّة الخلافة، حيث كان المجتمع الإسلاميّ أمام حقبةٍ تحوّليّةٍ ثانية، إذ بعد أن كانت الأمّة قد شهدت عودة أمر الخلافة إلى أهله بتولّي أمير المؤمنينعليه السلام، فإنّ شهادته كانت المحطّة التي ستتمظهر فيها من جديد حالة التردّي والتفكّك التي حكمت نفوس أكثر أبناء الأمّة، والتي مهّدت الأرضيّة مجدّدًا لتكريس المطامع الفرديّة والقبليّة وتحكيمها في مصير الأمّة الإسلاميّة بمختلف تشعّباتها، وتسليط السلالة الأمويّة على رقاب العباد؛ ولهذا كان لا بدّ لمفاعيل الخلاف السياسيّ على مسألة خلافة المسلمين أن تلقي بظلالها على طبيعة وصورة النقاشات الكلاميّة في ذلك العصر، وأن تكون قضيّة الإمامة القضيّة الأبرز في النقاشات الكلاميّة لذلك العصر.

٥-يمكن تلمّس دور الإمام الحسنعليه السلام، من خلال ما عرفت من مواقفه وسلوكيّاته وكلماته، حيث عمد إلى تسليط الضّوء على هذا الأصل المركزيّ من أصول الاعتقاد، فأوضح حقيقتها، وحدّد مدياتها، وبيّن معالمها، ثم أكّد على بعض القضايا التي تعتبر مركزيّةً في فهم مسار الأئمّة من بعدهعليهم السلام من قبيل كلامه على أنّ الإمام ليس عليه بعد إقامة الحجّة على الناس أن يسعى إلى تحصيل شيءٍ من مقتضيات إمامته ما لم تتّخذ الأمّة موقفها في مبايعته، وأنّه يكون معذورًا في ذلك عند الله.

٦- كما هيّأ الإمام الحسنعليه السلام الذهنيّة العامّة والخاصّة لتلقّي أجوبة أصيلة لمسائل وقضايا ستثار في عقود لاحقة، أو سيقع التشديد عليها في السجالات الكلاميّة، والجدالات المذهبيّة مستقبلًا، مثل كلامه في الصفات الإلهيّة، وما روي عنه حول القدر والجبر، وما عَرَفتَ من إشاراته حول النبوّة وعصمة النبيّ، ثمّ إشاراته حول مسألة العلم وأهميّته.

لا يُقال هنا: إنّ المذكور كلّه لا يشكّل إضافةً حقيقيّةً للمنظومة الكلاميّة الإماميّة؛ لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أشار بشكل واضحٍ إلى مسألة الإمامة، وتحدّث عنها ببيانات واضحة وتفصيليّة، فغاية ما يمكن قوله إنّ مرحلة الإمام الحسن لم تكن إلّا مرحلةً استكماليّةً لمرحلة أبيه عليهما السلام.

لأنّا نقول: إنّ هذا الاعتراض مدفوعٌ بأنّ هذه القضيّة لا تُقاربُ في تلك المرحلة المبكرة بهذه الطريقة، لأنّ علم الكلام لم يكن قد تشكّل بعدُ كعلمٍ رسميٍّ يقاربه المهتمّون في كُتُبه أو عند المتخصّصين فيه مثلًا، بل واقع الحال كان أنّ كلمات أمير المؤمنين عليه السلام كلّها - سواء ما كان منها في الإمامة أو ما كان في معرفة الله والنبيّ - أقول: كلمات الإمام كلها لو لم يراكَم عليها ببيانات إضافيّة تخرج من أهل بيت العلم والهدى ما كانت ستندرج ضمن سياقٍ متكاملٍ متّصلٍ ينتج عنه في القرون اللّاحقة ظهور مدرسةٍ كلاميّةٍ واضحة المعالم للشيعة الإماميّة، بعبارة أخرى: لولا ما طرحه الإمام المجتبى عليه السلام ومَن أتى بعدَه من أئمّة الهدى من إيضاحاتٍ وبيانات عقائديّة، فإنّ تعاليم أمير المؤمنين العقائديّة ما كانت ستتسق ضمن مسارٍ واضحٍ، خصوصًا مع كثرة التشعّبات التي ظهرت في التيّارات الشيعيّة المختلفة، والتي يدّعي كلّ من أئمّتها كونه تابعًا لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فالتشيُّع دون ملاحظة المساعي المتّصلة للأئمّة الأبرار بعد أمير المؤمنين عليه السلام ما كانت ستقوم له قائمة حقّ، بل كان سيتشتّت ويضيع بين فرقٍ مختلفة ومللٍ متنافرة قد لا يكون أيٌّ منها على الحقّ.

ومضافًا إلى ذلك، فإنّك عرفت أنّ كلمات الإمام المجتبى لم تكن منحصرةً بالحدود التي تناولتها كلمات أبيه عليهما السلام، بل الإمام المجتبى قارب ظروفًا وتحوّلاتٍ سياسيّةً واجتماعيّةً ما كانت متحقّقةً في عهد الإمام عليّ، كما أنّ بعض المقولات الكلاميّة التي ظهرت في عهد الإمام المجتبى ما كانت موجودةً في عهد الإمام عليّ، وبذلك، فدور الإمام المجتبى ما كان منحصرًا بضمان استمراريّة هذه التعاليم فقط، بل كان له دورٌ مهمٌّ في تنضيج بعضها بإزاء مستويات جديدة من الإشكالات والسجالات السياسيّة والمعرفيّة.

٧- وهكذا نجح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في:

أ-ضمان استمراريّة التعاليم العقائديّة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، التي تُشكّل مصدر الحقيقة ومنار الهدى لكلّ مسلم آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فلولا إفاداته فقد كان يمكن لهذه التعاليم أن تذهب أدراج الرياح.

ب- ضمان سلامة هذه التعاليم من الانحراف عن جادّة الصواب، وتشكيل معياريّة صحيحة تمنع من ترتيب أيّ مقولةٍ باطلةٍ أو بدعةٍ على أيٍّ من تعاليم هذه المدرسة، كمقولات الغلوّ وما شابه.

ج- تنضيج جملةٍ من التعاليم العقائديّة على أرضيّة التجاذبات السياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة التي شهدها عصره، وهذا كان واضحًا من خلال تعامله مع كلّ المستجدّات، ومواقفه التي كان بعض الناس لا يفهمونها ولا يرونها متوافقةً مع مسار أمير المؤمنين عليه السلام. وعليه، فالإمام شكّل بذلك محطّةً تفسيريةً لكثير من التعاليم العلويّة بما بدر عنه من سلوك وموقف.

د-التطرّق إلى بعض المطالب العقائديّة التفصيليّة التي تعتبر عناوين ومفاتيح لمسائل وقضايا كلاميّة ستكون فيما يلي من القرون من أمهات معتقدات الإماميّة، ومن القضايا التي تحدّد هويّة الاعتقاد الإماميّ الاثني عشريّ والتي تميّزها عمّا عداها.

خاتمة البحث

حاولنا في هذا البحث أن نقارب إشكاليّةً مركزيّةً في دراسة تاريخ علم الكلام الإسلاميّ، وهي الوقوف على دور الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في بلورة مقولات هذا العلم وتنضيج مبانيه.

وقد انطلقنا في بحثنا هذا من مقدّمة مفادها أنّ الاشتغال الكلاميّ في تاريخ الإسلام إنّما بدأ من لحظة ظهور الإسلام، ما مهّد لنا أرضيّة السؤال عن دور الإمام الحسن في هذا الإطار.

وفي سبيل مقاربة دوره عليه السلام كان لا بدّ لنا من عقد جملة مطالب وجدنا أنّها تتكامل فيما بينها في سبيل تحقيق الغاية المرجوّة.

فوقفنا أوّلًا على تعريفٍ مقتضبٍ بالإمام يبيّن بعض الملامح التي تعين القارئ على فهم شخصيّة الإمام الذي سيدور البحث حوله، ومن هذه الجهة اكتسب هذا المطلب أهمّيّته.

ثمّ وقفنا ثانيًا على الواقع السياسيّ للمجتمع الإسلاميّ في عصر الإمام عليه السلام، وكان ذلك أمرًا لا بدّ منه، خصوصًا مع ملاحظة ما تبنّيناه في البحث من أصالة التجاذبات السياسيّة والاجتماعيّة في ظهور القضايا والإثارات الكلاميّة. فبيّنّا هناك حقيقة أمر البيعة للإمام، وعكفنا على استعراض تفاصيل خلافه مع معاوية، ثم مسألة مصالحته له وتسليمه أمر الخلافة، ومن بعدها عزلته السياسيّة، مقدّمين إزاء ذلك كلّه قراءةً تحليليّة لواقع المجتمع الإسلاميّ حينها وتطلّعات أبنائه.

ثمّ خصّصنا المطلب الثالث لاستعراض أهمّ التيّارات الكلاميّة التي كان لها حضورٌ في عصر الإمام المجتبى، وعرضنا لأهمّ المقولات والاعتقادات التي ذهبت إليها كلّ واحدة من هذه التيّارات، حيث تناولنا بالذكر كلًّا من: التيّار الأمويّ، وفرقة الخوارج، وفرقة المرجئة، وغلاة السبئيّة. وكان استعراضنا هذا في سبيل رسم صورة واضحة عن ما كان عليه الواقع الكلاميّ للعالم الإسلاميّ في عصر الإمام عليه السلام.

وعكفنا في المطلب الرابع على معالجة الموضوع المركزيّ لهذه الورقة، وهو استبيان دور الإمام المجتبى عليه السلام الكلاميّ، ومحاولة البحث عن حقيقة مساهمته في تطوير الكلام الإماميّ وتنضيجه، وقد لجأنا في سبيل ذلك إلى استقصاء أهمّ المرويّات العقائديّة المنسوبة للإمام عليه السلام، مع تحليلها وتبويبها وتسليط الضوء على أهمّ النكات المبثوثة فيها، ثمّ انتقلنا بعدها إلى الخطوة الأخيرة، والتي حاولنا فيها الاستفادة من كلّ ما سبق للإجابة على سؤال الورقة المركزيّ حول دور الإمام المجتبى الكلاميّ.

وقد فرغنا عن هذه الدراسة بنتيجة مفادها أنّ الإمام كان له دور كبير في سياق الاشتغال الكلاميّ، وأنّ دوره هذا كان له أثر جليّ في تطوّر هذا الحقل المعرفيّ، وقد تجلّى هذا الدور على أكثر من صعيد، فظهر في استكمال الإمام عجلةَ هذا البحث من ناحية، وفي تنضيج بعض قضاياه من ناحية أخرى، كما أسهم الإمام أيضًا وبشكل كبير في التأسيس لبعض المقولات التي تَمُتُّ لأهمّ الأصول الاعتقاديّة، وتحقّق ذلك كلّه على مستويَي تأكيد تواصليّة تلك التعاليم والعقائد من جهة، وحفظه إيّاها عن التحريف والتضليل من جهة أخرى.

وأثبتنا بما وصلنا إليه حقيقةَ أنّ الاشتغال الكلاميّ لم يكن أمرًا متأخّرًا كما ذهب إليه بعض الباحثين، بل كان واحدًا من أبرز الوظائف التي حملها أئمّتنا الأوائل عليهم السلام، ومن قبلِهم النبيّ صلى الله عليه وآله. غاية الأمر أنّ القضايا الكلاميّة لم تكن بتلك الكثرة أو السعة التي صارت عليها فيما بعد، حيث أكّدنا على أنّ المحور الأساس الذي دارت عليه رحى الجدل الكلاميّ في حقبة الإمام المجتبى عليه السلام كان محور الإمامة، الذي بيّنّا دور الإمام البارز في بلورته وبيان الحقّ فيه.

أخيرًا، نسأل الله أن نكون قد وُفّقنا في تسليط الضوء على بعضٍ من منجزات أئمّتنا عليهم السلام العلميّة، وأن يقبل منّا هذا القليل بأحسن القبول، راجين أن يكون مما نتقرّب به إلى ساحة شفاعة مولانا الإمام المجتبى عليه السلام، ومما يرضيه عنا ويزلفنا لديه، والحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. ابن حنبل، أحمد بن محمّد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركيّ، ط١، مؤسّسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

٣. ابن شهرآشوب، أبو جعفر محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، تحقيق وفهرسة: يوسف البقاعي، ط٢ المصحّحة والمنقّحة، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩١ م.

٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تحقيق: محمّد حسين شمس الدين، ط١، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٩ هـ.

٥. آل ياسين، راضي، صلح الإمام الحسنعليه السلام، تحقيق ومراجعة: عبد الصاحب الموسوي الهاشميّ، ط١، قم، منشورات المكتبة الحيدريّة، ١٣٩٣ هـ ش.

٦. الأشعريّ، أبو الحسن عليّ بن اسماعيل، مقالاتُ الإسلاميّين واختلافُ المُصلّين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، لا.ط، بيروت، المكتبة العصريّة، ١٩٩٠ م.

٧. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: بشار عواد معروف، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٦ م.

٨. الخامنئي، علي، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، ترجمة: عباس نور الدين، لا.ط، بيروت، جمعية المعارف الإسلاميّة الثقافية، ٢٠١٣ م.

٩. الزمخشري، جار الله، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط٣، بيروت، لا.م، ١٤٠٧ ه.

١٠. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، المِلَل والنِحَل، تحقيق: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، ط٣، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٣ م.

١١. الصدر، محمد باقر، أئمّة أهل البيتعليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلاميّة، تراث الشهيد الصدر، ج٢٠)، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة المؤتمر العالميّ للإمام الشهيد الصدر،

ط٢، قم، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدس سره، ١٤٣٢ هـ ق.

١٢. الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّيّ، الأمالي، تقديم: حسين الأعلميّ، ط١، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، ٢٠٠٩ م.

١٣. الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبريّ [= تاريخ الرسل والملوك]، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مصر، دار المعارف، ١٩٦٧ م.

١٤. العامليّ، جعفر مرتضى، عاشوراء بين الصلح الحسنيّ والكيد السفيانيّ، ط١، بيروت، المركز الإسلاميّ للدراسات، ٢٠٠٢ م.

١٥. العاملي، جعفر مرتضى، علي عليه السلام والخوارج، ط٢، بيروت: المركز الإسلاميّ للدراسات، ٢٠٠٧ م.

١٦. العطاردي، عزيز الله، مسند الإمام المجتبى أبي محمد الحسن بن علي عليهما السلام، ط١، خراسان، انتشارات عطارد، ١٣٧٣هـ ش.

١٧. القاسم، أسعد وحيد، أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة: عرض ودراسة، ط١، بيروت، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، ١٩٩٧ م.

١٨. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، القاهرة، دار الكتب المصريّة، ١٩٦٤ م.

١٩. القشيريّ النيسابوريّ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.

٢٠. القمّي، جعفر بن محمد بن قولويه، كامل الزيارات، تحقيق جواد القيومي، ط١، قم، مؤسّسة نشر الفقاهة، ١٤١٧ هـ.

٢١. القمّي، عباس، مفاتيح الجنان، ط١، بيروت، مؤسّسة بنت الهدى، ٢٠٠٧ م.

٢٢. القمّي، عباس، منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل، تلخيص وتحقيق وترجمة: هاشم الميلانيّ، لا.ط، العتبة العباسيّة المقدّسة - المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، لا. ت.

٢٣. المازندراني، محمّد مهدي الحائريّ، معالي السبطَين في أحوال الحسن والحسين، ط١، قم، انتشارات الشريف الرضيّ، ١٤٠٩ هـ.

٢٤. المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط٢، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٩٨٣م.

٢٥. المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسّسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، بيروت، مؤسّسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، ٢٠٠٨ م.

٢٦. المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، المؤسّسة العربيّة الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ١٣٨٢ ه.

٢٧. النشّار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، ط٨، القاهرة، دار المعارف، الجزء٢ (نشأة التشيُّع وتطوُّره).

٢٨. النوبختي، الحسن بن موسى، فِرقُ الشيعة، ط١، بيروت، منشورات الرضا، ٢٠١٢ م.

٢٩. ماجد، أحمد، المعارف العقليّة في الإسلام، ط١، بيروت، دار المعارف الحكميّة، ٢٠١٤ م.

٣٠. مجموعة مؤلفين، أعلام الهداية (٤/ الإمام الحسن المجتبى)، ط١، قم، المجمع العالميّ لأهل البيت، ١٤٢٢ هـ.

أدوار الإمام الحسين بن علي عليه السلام في التأسيس الكلامي
(قراءة في الروايات العقديّة)

الشيخ محمد رضا الخاقاني(*)

المقدّمة

بعد القرآن وسنّة الرسول صلى الله عليه وآله يستمد الكلام الإماميّ من الإمام المعصوم الذي ينوب عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ويمتاز باتّصاله بمصدر إلهيّ، هذا الامتياز يجعل علم الكلام عند الإماميّة متفرّدًا مقارنةً مع سائر المذاهب الإسلاميّة. ولمّا كانت المسائل الكلاميّة في الصدر الأوّل، أي في القرون الهجريّة الثلاثة الأولى، في تطوّر وتغيير دائمين؛ فالأجواء المضطربة سياسيًّا ودينيًّا في تلك المرحلة فرضت أسئلة كلاميّة وعقيديّة متعدّدة ومتنوّعة ومتحوّلة؛ كان أئمّة الهدى عليهم السلام عند مواجهة هذه التساؤلات يقومون بتبيين الاعتقاد الصحيح والنهج الصائب للمسائل المطروحة في كلّ عصر. ومن هذا المنطلق، كان للتراث الكلاميّ للأئمّة عليهم السلام قيمةٌ علميّةٌ خاصّة.

ومن جانب آخر، لمّا كان الإماميّة جزءًا من المجتمع الإسلاميّ، وكان لهم حضور فعّال ومؤثّر في الساحة العلميّة، فإنّ دراسة أدوار الكلام عندهم ستكون لها أهمّيّة بالغة؛ نظرًا إلى محوريّة الإمام المعصوم عليه السلام في منظومة الشيعة العلميّة والاعتقاديّة، وإقرار جميع المسلمين بمذاهبهم المختلفة بمكانة أهل البيت عليهم السلام وموقعهم العلميّ الرفيع ولولا الانغلاق المذهبيّ، والتعصّب الذي أجّجه الحكام والحاقدون، لوجدت معارفهم عليهم السلام طريقها إلى كلّ مسلم وكلّ مذهب وفرقة، ولوجد المسلمون أرضيّة صلبة يلتقون عليها سواء في العقيدة، أم في الأحكام الفقهيّة أيضًا.

(*)- باحث وأستاذ في حوزة النجف الأشرف، العراق.

ولذا فإنّ دراسة التراث الروائيّ الكلاميّ لكلّ معصومعليه‌السلام ستفتح آفاقًا واسعة أمام فهم أعمق وأدقّ لعقائد الإسلام ولتاريخ الكلام عند الشيعة. ويدور هذا البحث مدار العصر الحسينيّ تحديدًا، وسيسلّط الضوء على الموروث الروائيّ عند الإمام الحسينعليه‌السلام.

لا شكّ أنّ استشهاد الإمام الحسينعليه‌السلام وأصحابه في كربلاء في سنة ٦١هـ، كانت بمنزلة منعطف خطير في مسيرة الأمّة الإسلاميّة عمومًا، ومسار التشيّع خصوصًا، لقد كان لهذا الحدث الجلل انعكاساته البالغة في جميع الأبعاد، وبالخصوص في البعد الكلاميّ، حيث كانت تلك الملحمة العاشورائيّة الخالدة أفضل صورة لتجسيد الدفاع عن الدين والعقيدة، وأبهى تجلّيات الوعي التوحيديّ، والعشق الإلهيّ.

لقد جسّد الحسينعليه‌السلام في سيرته، واستشهاده العقيدة في أعلى درجات نضجها وسموّها، وهذا من مظاهر عظمة محمّد وآله الذين كانوا قرآنا ناطقًا وإسلامًا حيًّا وعقيدة نابضة.

ومن آثار استشهاد الإمام الحسينعليه‌السلام أيضًا، وحسب بعض المحقّقين: تغيير برنامج الأئمّةعليهم‌السلام من أمر إصلاح الأمّة إلى بناء أمّة صالحة. ومن هذا المنطلق، نجد في تراث الأئمّةعليهم‌السلام الكلاميّ قبل واقعة الطف التأكيد على تبيين الهويّة التاريخيّة للشيعة وامتدادها التاريخيّ، والحال أنّ بعد تلك الواقعة نجد أنّ بناء المجتمع يتميّز بتراثه الكلاميّ والفقهيّ والفكريّ؛ لذلك نجد في مدرسة المدينة الكلاميّة منهجين كلاميّين، وتُقسّم مدرسة المدينة الكلاميّة إلى الأولى والثانية: فالمدرسة الأولى هي التي تتعلّق بالعصر الذي سبق واقعة الطف، وتختلف عن الثانية في الموضوعات والمنهج في تبيين المسائل الكلاميّة[١].

على أيّ حال، إنّ التراث الكلاميّ الحسينيّ تراث مهمّ سواء أكان من جهة المرحلة الزمنيّة التي عاشها الإمام الحسينعليه‌السلام والتعقيدات التي واجهها، أم من جهة موقع

---

[١]- قد بين ذلك حجّة الإسلام والمسلمين محمّد تقي السبحاني في سلسلة دروس تحت عنوان «دراسة حول تاريخ كلام الإماميّة في عصر حضور الأئمّةعليهم‌السلام (بررسى تاريخ كلام اماميه در عصر حضور ائمهعليهم‌السلام)» في «پژوهشگاه علوم فرهنگ اسلامى في عام ٢٠١٤م، من الجلسة السادسة إلى الجلسة التاسعة.

الإمام الحسين نفسه وخصوصيّته من بين أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

ولكن التحدّي الأساس في هذا الصدد، هو قلّة الروايات الحسينيّة في المصادر الرئيسية. وربما كان ذلك بسبب الأزمات السياسيّة الحادثة في العصر الحسينيّ، وحالة الاختناق السياسيّ الحاكم على المجتمع الإسلاميّ تحت حكم معاوية[١]. مع ذلك توجد بعض المؤلّفات، كانت بمنزلة المصادر الرئيسيّة للعثور على الروايات الحسينيّة، منها: "مسند الإمام الشهيد" للمرحوم الشيخ عزيز الله العطاردي، "موسوعة الإمام الحسين في الكتاب والسنة" و"موسوعة العقائد الإسلاميّة" للمرحوم الشيخ محمد الريشهري، و"موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام" تأليف معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام. مع قلّة الروايات الحسينيّة في المصادر، حاولنا قدر الإمكان استخدام المصادر الأوليّة الحديثيّة الشيعيّة. فالرؤية النقديّة تجاه الروايات في هذا البحث، إنّما يقتصر على نقد المصدر لا النقد السنديّ، إلّا إذا كانت الرواية تنافي القرآن أو الثوابت الكلاميّة والتاريخيّة.

سيكون ترتيب الموضوعات الكلاميّة بحسب الترتيب الخماسيّ لأصول عقائد الإماميّة المؤلّفة من: التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، والمعاد. وفي كلّ قسم سنطرح عيّنة من الروايات الحسينيّة التي تندرج تحت هذه الموضوعات، مع محاولة اجتناب الإطالة في الشرح وبيان الروايات، فالشرح والبيان يقتصران على مواضع الحاجة. والنقطة التي يجب الالتفات إليها، هي أنّ الروايات الحسينيّة في الموضوعات الكلاميّة قليلة جدًّا، فالّتي وردت في المصادر المشار إليها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل، ما رواه الإمام الحسين عليه السلام عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، أو عن أبيه عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله؛ القسم الثاني، الروايات التي رواها الأئمّة عليهم السلام بعد الإمام الحسين عليه السلام، كالإمام السجّاد عليه السلام، الصادقين عليهما السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام؛ والقسم الثالث، الروايات المرويّة عن الإمام الحسين عليه السلام نفسه بواسطة الروّاة، أي التي تمّ بيانها في العصر الحسينيّ، والروايات التي تستعرضها هذه الدراسة هي من القسم الثالث. وسيجري تقديم ما

[١]- عمادى حائرى، سيد محمد، «حسين بن على، امام»، دانشنامه جهان اسلام، ص٤٠٠.

رواه الإمام الحسين عليه السلام عن أبيه عليه السلام أو عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّها الروايات التي رُويت في ذلك العصر.

١- إطلالة على الأجواء الكلاميّة في العصر الحسينيّ

قد يبدوالبحث عن الأجواء الكلاميّة في العصر الحسينيّ سهلًا، لكنّه في الواقع بغاية الصعوبة؛ إذ هذه الحقبة التاريخيّة كانت متأثّرة بالصّراعات السياسيّة على مسألة الخلافة. ففي هذه الأجواء، لم يكن للمسائل الكلاميّة فرصة للبروز في الساحة العلميّة العامّة.

من الممكن العثور على بعض الفرق الكلاميّة التقليديّة في أرجاء الجغرافيا الإسلاميّة، كالقدريّة، والمرجئة، والمجبرة. وقد بذل حسين عطوان في كتابه الرائع «الفرق الإسلاميّة في بلاد الشام في العصر الأمويّ» جهدًا كبيرًا في سبيل تصوير كلٍّ من القدريّة والمرجئة. وقد استخلص عطوان في دراسته حول الفرقتين أنّهما نشأتا لأغراض سياسيّة.

إنّ القدرية كانت ترى حرّيّة الإرادة الإنسانيّة؛ لذلك كانوا ينزّلون الخلفاء الأمويّين منزلة سائر الناس[١]. وهذا الأمر كان يهدّد كيان خلافة معاوية، إذ كان يقول: «لقد أكرم الله الخلفاء أفضل الكرامة، أنقذهم من النار وأوجب لهم الجنّة، وجعل أنصارهم أهل الشام»[٢]. فهذه العقيدة كانت تعطي روح الألوهيّة إلى الخليفة، حيث تعصمه عن أيّ خطأ وزلل. والمطامع الاقتصاديّة التي كان يتمتّع بها الخليفة، كانت محلًّا لاعتراض القدريّة أيضًا، الذين كانوا يدعون إلى المساواة بين العرب والموالي، فكانت آراؤهم الاقتصاديّة تتبع تلك النظريّة، حيث قالوا: إنّ المال مال المسلمين وإنّ الله لا يخوّله أحدًا[٣]. هذه النظريّة تخالف ما كان معاوية يبثّه في المجتمع، حيث كان يقول: «الأرض لله وأنا خليفة الله فما أخذتُ فلي، وما تركتُه للناس فبالفضل منّي»[٤]. من منطلق الدعوة إلى المساواة بين العرب والموالي، اجتمع مرجئة الشام، على الرغم من قولهم بالجبر، مع القدريّة في اعتقاد المساواة بين كلّ طبقات المجتمع، فمن هذه الناحية كانوا يعارضون

---

[١]- عطوان، حسين، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، ص٧٥.

[٢]- البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج٥، ص١١٧.

[٣]- عطوان، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، م.س، ص٧٧.

[٤]- م.ن، ج٥، ص٢٠.

الأرستقراطيّة الأمويّة المتمثّلة بسياسات معاوية آنذاك[١].

الطبقة الأخرى التي انضمّت إلى معارضة الخلافة والأعمال التي كان يرتكبها الخليفة، الطبقة التي تُسمّى بالزهّاد، وهُم طبقة انكبّت على العبادة لله سبحانه وخافت الله خوفًا شديدًا[٢]. لم يكن السبب الرئيسّي في انتقاد أعمال الخليفة من جانب هذه الطبقة المعتقدات الكلاميّة، بل كان السبب البدع التي كان يضعها الخليفة في بعض الأمور الشرعيّة. ونماذج تلك الاعتراضات على معاوية كثيرة، فمنها اعتراض عبادة بن الصامت على بيع معاوية الذهب بالذهب، فكان ذلك مخالفًا للسنّة النبويّة[٣]، ومنها أيضًا اتّجار معاوية بالخمر[٤].

إنّ القول بالجبر، لعب دورًا مهمًّا في تكوين الأسس النظريّة للخلافة الأمويّة، فمعاوية سخّر هذه العقيدة لإثبات خلافته وتوجيه أفعاله التي ناقضت المعايير الإسلاميّة بل الأخلاقيّة، قال عبد الجبار المعتزلي: «أوّل من قال بالجبر وأظهره معاوية، وأنّه أظهر أنّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذرًا فيما يأتيه، ويوهم أنّه مصيب فيه، وأنّ الله جعله إمامًا وولّاه الأمر؛ وفشى ذلك في ملوك بني أميّة»[٥]. أشار معاوية في خطبة بعد صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام إلى عقيدة الجبر[٦]، كذلك في أخذ البيعة لولاية العهد ليزيد، حين اعترضت عائشة على ذلك، فأجاب بأنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم[٧].

هذه النماذج تؤكّد كون الانحيازات الكلاميّة في العصر الحسينيّ الذي عاصر في معظمه مدّة حُكم معاوية، هي انحيازات وردود فعل سياسيّة. والهدف الأساس لترويج عقيدة الجبر كان تأسيس أساس لمشروعيّة الخلافة الأمويّة. ويمكن ملاحظة

[١]- عطوان، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، م.س، ج٥، صص١٠٤-١٠٥.

[٢]- م.ن، ج٥، ص١٠٩.

[٣]- ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٦، ص١٩٩.

[٤]- م.ن، ج٢٦، ص١٩٧.

[٥]- عبد الجبار، أبو الحسن، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج٨، ص٤.

[٦]- المفيد، محمّد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص١٤.

[٧]- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، ج١، ص٢٠٥.

آثار الاعتقاد بالجبر في تعريف حدود الخلافة عند الأمويّين. فقد مضى أنّ معاوية كان يعرّف نفسه بأنّه خليفة الله، هذا الأمر يمكن ملاحظته في الأشعار المنشودة في مدح معاوية، فنجده تارة يُنعت بخليفة الله في الأرض وأخرى يُوصف بالأمين المأمون[١].

من نماذج ترويج أنّ الخلافة وصلت من الله إلى بني أميّة، هي خطبة زياد بن أبيه في عام ٤٥ هـ بعد انحيازه إلى جانب معاوية، حيث قال فيها: «أيّها الناس، إنّا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا»[٢]، كما نُقل أنّه أمر بنَسخ هذه الخطبة وبعثها إلى الأمصار كي تُقرأ على الناس[٣]. على هذا المنوال وطبقًا لهذه العقيدة، كتب يزيد بعد موت أبيه إلى عمّاله: «فإنّ معاوية بن أبي سفيان كان عبدًا من عبيد الله، أكرمه الله واستخلفه وخوّله ومكّن له»[٤]، ورُوي أنّه كتب إلى عامل المدينة كتابًا منه: «فإنّ معاوية بن أبي سفيان، كان عبدًا استخلفه الله على العباد، ومكّن له في البلاد... وقد قلّدنا الله عزّ وجلّ ما كان إليه»[٥]. كذلك أظهر هذه العقيدة بعد استشهاد الحسين عليه السلام وحمل السبايا إلى الشام، حيث قال لعليّ بن الحسين عليه السلام: «أبوك قطع رحمي... فصنع الله به ما قد رأيت»[٦].

هذه الشواهد تؤكّد أنّ المسألة الكلاميّة الأساسيّة في هذا العصر، هي مسألة الخلافة والإمامة؛ لذلك نجدها في التراث الحسينيّ الكلاميّ أكثر من سائر الموضوعات الكلاميّة الأخرى. وإنّ الحسين عليه السلام حاول دحض ما روّجه بنو أميّة بتبيين أمرين محوريّين في المعتقد الدينيّ:

أ- أنّ الإمامة كانت حقًّا لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو حقّ ثابت في النص القرآنيّ أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله أن يبلغه للنّاس.

ب- فضائل أهل البيت عليهم السلام ومرجعيّتهم العلميّة.

---

[١]- عطوان، الفرق الإسلاميّة في بلاد الشام في العصر الأمويّ، م.س، ص٢٠٧.

[٢]- الطبريّ، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٢٢٠.

[٣]- البلاذري، أنساب الأشراف، م.س، ج٥، ص٢٠٦.

[٤]- م.ن، ج٥، ص٢٩٩.

[٥]- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، م.س، ج١، ص٢٢٥.

[٦]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج٢، ص١٢٠.

٢- دراسة الروايات الحسينيّة الكلاميّة وتحليلها

لقد أشرنا إلى أنّ قلّة الروايات الحسينيّة في المصادر الروائيّة عقّدت دراسة الأدوار الحسينيّة في تأسيس الكلام الإماميّ، فعندما نبحث عن الروايات الحسينيّة في المصادر، نجد أنّ قسمًا كبيرًا منها يندرج تحت الأبواب الفقهيّة، والتي تندرج منها تحت الأبواب الكلاميّة قليلة، كما أنّ هذا القليل ينقسم إلى أقسام ثلاثة كما بيّنّا في المقدّمة. والأمر هكذا في الأدعية المرويّة عن الحسين عليه السلام، وفي تفسير السور.

بعد هذه الإشارة، سنجري دراسة على الروايات الحسينيّة الكلاميّة في أصول معتقدات الشيعة: التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، والمعاد. ونحاول هنا أن ندرج الروايات الحسينيّة، وأن نبيّن الأسس الكلاميّة الشيعيّة من منظور الإمام الحسين عليه السلام. والجدير بالذكر، أنّ عدم الحصول على الروايات في بعض الأقسام لا يدلّ على عدم الوجود؛ إذ ربما ذلك ناشئ عن النقص في البحث أو عن فقْدِ قسمٍ كبير من التراث الروائيّ الشيعيّ. نعم، يمكن فرض ارتباط عدم محوريّة بعض الموضوعات الكلاميّة في العصر الحسينيّ، مع قلّة الروايات في تلك الموضوعات.

أوّلًا: التوحيد

إنّ الروايات التوحيديّة قليلةٌ في التراث الحسينيّ، ويمكن تقسيم الروايات الحسينيّة في التوحيد إلى قسمين: قسم فيه الروايات العلويّة والأحاديث النبويّة في التوحيد، والقسم الآخر يتعلق بالروايات الحسينيّة في التوحيد. في القسم الأوّل، نجد اهتمام الإمام عليه السلام بنشر الروايات العلويّة والتراث التوحيديّ له عليه السلام. وكنموذج على ذلك، نجد بيان معاني الأذان عن أمير المؤمنين عليه السلام الذي يكتنز الكثير من المعارف التوحيديّة[١]، أو ما رواه الحسين عليه السلام عن أبيه عليه السلام في المعرفة الشهوديّة حين سُئل أمير

---

[١]- الصدوق، محمّد بن علي، التوحيد، صص٢٣٨-٢٤١.

المؤمنين عليه السلام هل رأى ربّه؟[١]. ومنه أيضًا في معنى «بسم الله الرحمن الرحيم» حين سُئل الحسين عليه السلام وأجاب ما أجابه أبوه عليه السلام[٢].

أمّا في الروايات الحسينيّة، فنجد ما هو عن التوحيد، بحيث يمكن جعله ضمن بعض المواضيع التي تندرج تحت مقولة التوحيد الكلاميّة:

١- معرفة الباري تعالى

لا شكّ أن أوّل خطوة في وصول المرء إلى توحيد الله عزّوجل، معرفته تعالى. ومعرفة الباري هي الهدف الرئيسي من خلق العباد بحسب الروايات الحسينيّة، حيث قال الإمام الحسين عليه السلام حين خرج على أصحابه: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَّ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ، فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ، فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ»، فعندما سُئل عن معرفة الله قال عليه السلام: «مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ»[٣]. نجد في هذه الرواية أنّ الإمام عليه السلام يربط مسألة معرفة الله سبحانه بمعرفة الإمام عليه السلام، فيُبيّنُ أنّ بينهما ارتباطًا وثيقًا. ويُمكن القول إنّ هذا تفسير للنبويّ المشهور: «من مات ولم يعرف إمام زمانه، مات ميتة جاهليّة»، إذ بِعدم معرفة الإمام عليه السلام يتعذّر معرفة الله سبحانه.

ومن طرق معرفة الله والعلم بوجود الخالق، هي معاينة الآثار واختلاف الأطوار. وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى ذلك في دعاء عرفة حين قال: «إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْآثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ، أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ»[٤]. ففي هذه الرواية، يُشير الإمام عليه السلام إلى طريقة من طرق معرفة الله سبحانه، إلاّ أنّه عليه السلام يؤكّد على أنّ الهدف الإلهيّ من خلق الإنسان هو معرفة الله.

أشار الحسين عليه السلام في الدعاء نفسه إلى ذلك، حيث قال عليه السلام: «فَرَبَّيْتَنِي زَائِدًا فِي

---

[١]- الخزاز، علي بن محمد، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، صص٢٦٠-٢٦٤.

[٢]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص٢٣٠-٢٣٢.

[٣]- الصدوق، محمّد بن علي، علل الشرائع، ج١،ص٩؛

[٤]- ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، ج١، ص٣٤٨.

كُلِّ عَامٍ حَتَّى إِذَا كَمَلَتْ فِطْرَتِي وَاعْتَدَلَتْ سَرِيرَتِي أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ وَرَوَّعْتَنِي بِعَجَائِبِ فِطْرَتِكَ وَأَنْطَقْتَنِي لِمَا ذَرَأْتَ فِي سَمَائِكَ وَأَرْضِكَ مِنْ بَدَائِعِ خَلْقِكَ وَنَبَّهْتَنِي لِذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَوَاجِبِ طَاعَتِكَ وَعِبَادَتِكَ وَفَهَّمْتَنِي مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُكَ وَيَسَّرْتَ لِي تَقَبُّلَ مَرْضَاتِكَ وَمَنَنْتَ عَلَيَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِعَوْنِكَ وَلُطْفِكَ»[١]. فقد بيّن الإمام عليه السلام أنّ ما يراه المرء من عجائب الخلق يرشده إلى الاعتقاد بوجود الخالق ومعرفة الله سبحانه.

ويُشير في فقرة أخرى من دعاء عرفة إلى فطريّة الاعتقاد بالله سبحانه: «أَخْرَجْتَنِي رَأْفَةً مِنْكَ وَتَحَنُّنًا عَلَيَّ لِلَّذِي سَبَقَ لِي مِنَ الْهُدَى الَّذِي فِيهِ [لَهُ] يَسَّرْتَنِي وَفِيهِ أَنْشَأْتَنِي، وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ رَؤُفْتَ بِي بِجَمِيلِ صُنْعِكَ وَسَوَابِغِ نِعْمَتِكَ»[٢]. وفي فقرة أخرى: «أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ»[٣]. وتلك معرفة الله التي تتجلّ في قلوب المؤمنين.

هذا وإن كان العقل في مقام المرشد إلى الله سبحانه، إلّا أنّ العقل لا يمكنه الإحاطة بمعرفة الله، إذ كيف للمحدود أن يحيط بما لا حدّ له؟! نعم، أمَر الله بالتفكّر في خلقته للوصول إليه، لكن ليس معناه أنّ ذلك كلّ المطلوب، بل إنّما تعقّل الآثار بمثابة الخطوة الأولى في معرفة الباري عزّ وجل. وقد بيّن الإمام عليه السلام ذلك في فقرة من دعاء عرفة: «كَيْف يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؟ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَزَالُ [تَرَاكَ] عَلَيْهَا رَقِيبًا، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا. إِلَهِي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ فَأَرْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الِاسْتِبْصَارِ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا. إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٤].

---

[١]- ابن طاووس، إقبال الأعمال، م.س، ج١، ص٣٤٠.

[٢]- م.ن.

[٣]- م.ن، ج١، ص٣٤٩.

[٤]- م.ن، ج١، صص٣٤٨-٣٤٩.

٢- أسماء الباري عزّ وجل وصفاته

إنّ إحدى المسائل التي تندرج في ذيل مبحث التوحيد، هي مسألة الأسماء والصفات؛ إذ نجد في الروايات الحسينيّة بعض الإشارات إلى ذلك. وهناك رواية عن سؤال ابن الأزرق الإمام عليه السلام عن وصف الله تعالى، فأجاب الإمام الحسين عليه السلام بإيجاز وأشار إلى أنّه يجب وصف الله بما وصف نفسه، وتعريف الباري جلّ وعلا بما عرّف به نفسه، ثمّ بيّن بعض الأمور، قال عليه السلام: «أَصِفُ إِلَهِي بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَأُعَرِّفُهُ بِمَا عَرَّفَ بِهِ نَفْسَهُ لَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرُ مُلْتَصِقٍ وَبَعِيدٌ غَيْرُ مُتَقَصٍّ يُوَحَّدُ وَلَا يُبَعَّضُ مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ مَوْصُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ»[١].

في رواية أخرى، خطب الحسين عليه السلام في نفي التشبيه عن الله تعالى اسمه، فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَؤُلَاءِ الْمَارِقَةَ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ اللهَ بِأَنْفُسِهِمْ. يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ بَلْ هُوَ اللهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، اسْتَخْلَصَ الْوَحْدَانِيَّةَ وَالْجَبَرُوتَ، وَأَمْضَى الْمَشِيئَةَ وَالْإِرَادَةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْعِلْمَ، بِمَا هُوَ كَائِنٌ لَا مُنَازِعَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَا كُفْوَ لَهُ يُعَادِلُهُ وَلَا ضِدَّ لَهُ يُنَازِعُهُ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ يُشَابِهُهُ وَلَا مِثْلَ لَهُ يُشَاكِلُهُ، لَا تَتَدَاوَلُهُ الْأُمُورُ وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ وَلَا تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ، وَلَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ وَلَا يَخْطُرُ عَلَى الْقُلُوبِ مَبْلَغُ جَبَرُوتِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ عَدِيلٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِأَلْبَابِهَا وَلَا أَهْلُ التَّفْكِيرِ بِتَفْكِيرِهِمْ، إِلَّا بِالتَّحْقِيقِ إِيقَانًا بِالْغَيْبِ، لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، مَا تُصُوِّرَ فِي الْأَوْهَامِ فَهُوَ خِلَافُهُ، لَيْسَ بِرَبٍّ مَنْ طُرِحَ تَحْتَ الْبَلَاغِ وَمَعْبُودٍ مَنْ وُجِدَ فِي هَوَاءٍ أَوْ غَيْرِ هَوَاءٍ، هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ كَائِنٌ لَا كَيْنُونَةَ مَحْظُورٍ بِهَا عَلَيْهِ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ بَائِنٌ لَا بَيْنُونَةَ غَائِبٍ عَنْهَا، لَيْسَ بِقَادِرٍ مَنْ قَارَنَهُ ضِدٌّ أَوْ سَاوَاهُ نِدٌّ، لَيْسَ عَنِ الدَّهْرِ قِدَمُهُ وَلَا بِالنَّاحِيَةِ أَمَمُهُ، احْتَجَبَ عَنِ الْعُقُولِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَعَمَّنْ فِي السَّمَاءِ احْتِجَابُهُ كَمَنْ [عَمَّنْ] فِي الْأَرْضِ قُرْبُهُ كَرَامَتُهُ وَبُعْدُهُ إِهَانَتُهُ، لَا تَحُلُّهُ فِي وَلَا تُوَقِّتُهُ إِذْ وَلَا تُؤَامِرُهُ إِنْ، عُلُوُّهُ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّلٍ وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيْرِ تَنَقُّلٍ، يُوجِدُ الْمَفْقُودَ

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص٧٩-٨٠.

وَيُفْقِدُ الْمَوْجُودَ، وَلَا تَجْتَمِعُ لِغَيْرِهِ الصِّفَتَانِ فِي وَقْتٍ يُصِيبُ الْفِكْرُ مِنْهُ، الْإِيمَانَ بِهِ مَوْجُودًا وَوُجُودَ الْإِيمَانِ لَا وُجُودَ صِفَةٍ، بِهِ تُوصَفُ الصِّفَاتُ لَا بِهَا يُوصَفُ، وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ، فَذَلِكَ اللهُ لَا سَمِيَّ لَهُ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»[١]. نجد في هذه الرواية المفصّلة، أنّ الإمام عليه السلام نفى التشبيه عن ذات الباري تعالى، وأكّد على قصر العقول عن معرفة كُنه ذاته، بل حُجب عن العقول.

كانت هذه الروايات الحسينيّة التي تشير إلى مسألة التوحيد. وكما أشرنا سابقًا، لم تكن هذه الروايات الوحيدة التي بيّن فيها الإمام عليه السلام مسائل التوحيد، بل هناك روايات أخرى رواها عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام. ولعلّ السرّ في قلّة تلك الروايات في التراث الحسينيّ، كامن في أمرين: أوّلًا: أنّ العصر الحسينيّ شهد صراعات سياسيّة تدور رحاها حول قطب الإمامة؛ حيث إنّ الإمامة وما يتعلّق بها أصبحت وسيلة معاوية لنيل مطامعه السياسيّة. فكانت الإمامة هي ما يجب تبيينه للمجتمع في ذلك الوقت. ثانيًا: إنّ العصر الحسينيّ شاهد اندلاع الخلافات الداخليّة، فقلّما نجد حدوث مناظرات مع غير المسلمين في ذلك العصر، أي المناظرات التي تضمّ التوحيد كمسألة رئيسة في طيّاتها. وربما الصراعات السياسيّة الداخليّة في المجتمع الإسلاميّ في النصف الأوّل من القرن الأوّل الهجريّ، كانت السبب الأساس لقلّة التراث التوحيديّ في منظومة الروايات الحسينيّة.

ثانيًا: العدل

إنّ الله سبحانه جامع للصفات المحمودة، ومنها الحكمة. على أساس ذلك وطبقًا لنظريّة العدل الإلهيّ، فإنّ كلّ أفعاله سبحانه في الأمور التكوينيّة والتشريعيّة على أساس المصلحة والحكمة. يُشير الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة إلى ذلك: «قَدْ عَمِلْتُ يَقِينًا غَيْرَ ذِي شَكٍّ أَنَّكَ سَائِلِي مِنْ عَظَائِمِ الْأُمُورِ وَأَنَّكَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَعَدْلُكَ مُهْلِكِي وَمِنْ كُلِّ عَدْلِكَ مَهْرَبِي، فَإِنْ تُعَذِّبْنِي فَبِذُنُوبِي يَا مَوْلَايَ بَعْدَ حُجَّتِكَ عَلَيَّ، وَإِنْ

[١]- ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، صص٢٤٤-٢٤٥.

تَعْفُ عَنِّي فَبِحِلْمِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِك»[١]. وفي فقرة أخرى: «لاَ رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، نَافِذٌ فِينَا حُكْمُكَ، مُحِيطٌ بِنَا عِلْمُكَ، عَدْلٌ فِينَا قَضَاؤُكَ، اقْضِ لَنَا الْخَيْرَ وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ»[٢].

١- القضاء والقدر ومسألة الجبر

إنّ مسألة القضاء والقدر من المسائل المعقّدة في علم الكلام، وقد نشأ عنها مسألة الجبر والتفويض ونسبة أعمال العباد إلى الله مباشرة. كما أنّ مسألة الجبر وانتشار هذه الفكرة، كما مرّ آنفًا، لعبت دورًا محوريًّا في السياسة الأمويّة. فقد روى الحسين عليه السلام عن أبيه عليه السلام في نفي الجبر: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَّ يُجْبِرُ عِبَادَهُ عَلَى الْمَعَاصِي وَيُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَلَا تَأْكُلُوا ذَبِيحَتَهُ وَلَا تَقْبَلُوا شَهَادَتَهُ وَلَا تُصَلُّوا وَرَاءَهُ وَلَا تُعْطُوهُ مِنَ الزَّكَاةِ شَيْئًا»[٣]. هذه الرواية تعني خروج معتقدي الجبر من دائرة الإسلام، إذ لا يمكن أكل ذبيحة الكافر وقبول شهادته. هذا، وإن كانت الروايات الحسينيّة قليلة فيها، إلّا أنّه يمثّل أشدّ الكفاح ضد عقيدة الجبر.

وردت رواية بأنّ الحسن البصريّ (ت ١١٠ هـ) كتب إلى الإمام الحسين عليه السلام يسأله عن القدر، فأجابه عليه السلام: «فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ حَمَلَ الْمَعَاصِيَ عَلَى اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ فَجَرَ وَافْتَرَى عَلَى اللهَّ افْتِرَاءً عَظِيمًا. إِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُطَاعُ بِإِكْرَاهٍ وَلَا يُعْصَى بِغَلَبَةٍ وَلَا يُهْمِلُ الْعِبَادَ فِي الْهَلَكَةِ، وَلَكِنَّهُ الْمَالِكُ لِمَا مَلَّكَهُمْ وَالْقَادِرُ لِمَا عَلَيْهِ أَقْدَرَهُمْ، فَإِنِ ائْتَمَرُوا بِالطَّاعَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ صَادًّا عَنْهَا مُبْطِئًا، وَإِنِ ائْتَمَرُوا بِالْمَعْصِيَةِ فَشَاءَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ فَيَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا ائْتَمَرُوا بِهِ، فَإِنْ فَعَلَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ هُوَ حَامِلُهُمْ عَلَيْهِمْ قَسْرًا وَلَا كَلَّفَهُمْ جَبْرًا بِتَمْكِينِهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ إِعْذَارِهِ وَإِنْذَارِهِ لَهُمْ وَاحْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ، طَوَّقَهُمْ وَمَكَّنَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى أَخْذِ مَا إِلَيْهِ دَعَاهُمْ وَتَرْكِ مَا عَنْهُ نَهَاهُمْ، جَعَلَهُمْ مُسْتَطِيعِينَ لِأَخْذِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِ آخِذِيهِ، وَلِتَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِ تَارِكِيهِ، وَالْحَمْدُ للهَّ الَّذِي جَعَلَ عِبَادَهُ أَقْوِيَاءَ لِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ يَنَالُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ، وَنَهَاهُمْ عَنْهُ وَجَعَلَ الْعُذْرَ لِمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ السَّبَبَ جَهْدًا مُتَقَبَّلًا»[٤]. هذه الرسالة صريحة،

---

[١]- ابن طاووس، إقبال الأعمال، م.س، ج١، ص٣٤٥.

[٢]- م.ن، ص٣٤٧.

[٣]- الطبرسي، أحمد بن علي، الإحتجاج على أهل اللجاج، ج٢، ص٤١٤.

[٤]- مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، صص٤٠٨-٤٠٩. هذه الرسالة قد نسبت أيضًا

بل صارخة، بكفر معتقدي الجبر. وتتضمّن توضيحًا لمسألة الجبر والاختيار في الأعمال لدى الإنسان، لكن قلّما نجدها عند المتكلّمين في بحثهم عن الاستطاعة.

في فقرة من دعاء عرفة، قال الإمام عليه السلام: «إِلَهِي، وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ لِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي؟ إِلَهِي، إِنْ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ»[١]. نجد في هذه الفقرة، إضافة على وصف الله تعالى بالعدل، ينفي الإمام عليه السلام نسبة المساوئ الصادرة عن الإنسان إلى الله، بل بالعكس، يرى الخيرات من فضل الله ومنّه.

من الأمور المتعلّقة بالقضاء والقدر، الرضى بقضاء الله وقدره، لقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنّ معاوية سأله: «ما حمل أباك على أن قتل أهل البصرة، ثمّ دار عشيًّا في طُرُقهم في ثوبين؟!»، فأجابه عليه السلام: «حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ عِلْمُهُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»[٢]. أمّا تسليم الحسين عليه السلام لقضاء الله وقدره فمشحون في سيرته، خاصّة في مسيره إلى كربلاء. فقد جاء بأنّ الحسين عليه السلام خرج من مكّة، فلقيه عبد الله بن مطيع وهو منصرف من العراق، فقال له: «بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أخرجك من حرم الله وحرم جدك؟» فقال: «إنّ أهل الكوفه كتبوا إليّ يسألونني أن أقدم عليهم لِماَ رجوا من إحياء معالم الحق، وإماتة البدع». قال له ابن مطيع: «أنشدك الله أن لا تأتي الكوفة، فوالله لئن أتيتها لتقتلنّ». فقال الحسين عليه السلام: «لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا». ثمّ ودّعه ومضى[٣]. وفي رواية أخرى، قال عليه السلام في جواب عمر بن عبد الرحمن لمّا أشار إليه بعدم الخروج إلى العراق: «جزاكَ الله خيرًا يا ابن عم، فقد علمتُ أنّك أمرتَ بنُصح، ومهما يقضي الله مِن أمر فهو كائن أخذت برأيك أم تركته»[٤].

هذا تسليمٌ مطلق لقضاء الله وقدره، لكن لا يعني ذلك عدم إمكان تغيير ذلك، فقد

إلى الإمام الحسن عليه السلام. انظر: ابن شعبة، تحف العقول، م.س، ص٢٣١.

[١]- ابن طاووس، إقبال الأعمال، م.س، ج١، ص٣٤٨.

[٢]- الصدوق، التوحيد، م.س، صص٣٧٤-٣٧٥.

[٣]- الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، ص٢٤٦.

[٤]- ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح، ج٥، ص٦٥.

جاء الكثير عن أهل البيت عليهم السلام يُبيّن بعض الطرق لتغيير القدر. يقول الإمام الحسين عليه السلام في إحدى فقرات دعاء عرفة: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ كَأَنِّي أَرَاكَ، وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ، وَلَا تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ، وَخِرْ لِي فِي قَضَائِكَ وَبَارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ، حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ»[١].

هذه الروايات لم تكن عن الإمام الحسين عليه السلام مباشرة، لكن يمكننا العثور في المصادر على روايات رواها الحسين عليه السلام عن أبيه عليه السلام في الجبر والتفويض والقضاء والقدر، نغضّ الطرف عن إيرادها هنا[٢].

٢- الأسماء والأحكام

مبحث الأسماء والأحكام، مبحث يُبحث فيه عن معنى الإيمان والكفر، ما هو الإيمان وما هي شروطه؟ مَن المؤمن ومَن الكافر؟ لقد سبق القول في جواب الإمام الحسين عليه السلام على رسالة الحسن البصريّ، أنّه عليه السلام قال بكفر مَن لم يؤمن بقدر الله خيره وشّره. وبغضّ النظر عن ذلك، فإنّ الروايات الحسينيّة في مسألة الإيمان، تنصبّ في رواية الإمام عليه السلام عن أبيه عليه السلام. فمنها ما رواه عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في معنى الإيمان وحدوده: «الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ»[٣]، «الْإِيمَانُ قَوْلٌ مَقُولٌ، وَعَمَلٌ مَعْمُولٌ، وَعِرْفَانُ الْعُقُول»[٤]، «الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَان»[٥]، و«الْإِيمَانُ عَقْدٌ بِالْقَلْبِ، وَنُطْقٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَان»[٦]. هذه الروايات تدلّ على مدخليّة العمل في الإيمان، فهذا خلاف ما تعتقده المرجئة في الإيمان، حيث لا يرون دخلًا للعمل في الإيمان. وفي رواية عن الحسين عليه السلام، عن أمير المؤنين عليه السلام، بأنّ

[١]- ابن طاووس، إقبال الأعمال، م.س، ج١، ص٣٤٢.

[٢]- راجع: الريشهري، محمد، موسوعة الإمام الحسين في الكتاب والسّنة والتاريخ، ج٨، صص٤٠٧-٤١٠.

[٣]- الصدوق، الخصال، ج١، ص٥٣.

[٤]- المفيد، الأمالي، م.س، ص٢٧٥.

[٥]- الصدوق، الخصال، م.س، ج١، ص١٧٨.

[٦]- الطوسي، الأمالي، م.س، ص٤٤٩.

النبيّ صلى الله عليه وآله أمر عليًّا عليه السلام: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، الإيمان ما وقرته القلوب، وصدّقته الأعمال، والإسلام ما جرى به اللسان، وحلّت به المناكحة»[١]. هذه الرواية تُبين الفرق بين الإسلام والإيمان، حيث إنّ الإسلام هو ما يحلّ به المناكحة ويُحقن به دم المسلم، ولكنّ الإيمان أمر قلبيّ وجوارحيّ.

ثالثًا: النبوّة

إنّ مسألة النبوّة، في قسمي النبوّة الخاصّة والعامّة، لم تأخذ مساحةً من التراث الحسينيّ الروائيّ. ربما السرّ في ذلك: أوّلًا: معرفة عامّة الناس وقلّة التساؤلات في ذلك؛ ثانيًا: بالنظر إلى الروايات الحسينيّة، نجد قلّة الاختلاط مع معتنقي سائر الأديان، فمسألة النبوّة من المسائل التي تُطرح عادةً في مناظرات من هذا القبيل. على أيّ حال، ما نجده في الروايات الحسينيّة عن النبوّة، يقتصر على بيان أوصاف النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرته، وما فيه تبيين لسيرته الأخلاقيّة صلى الله عليه وآله. ومن هذه الروايات، رواية مشهورة مطوّلة عن سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله الشخصيّة في البيت وخارجه ومع جلسائه[٢].

رابعًا: الإمامة

إنّ مسألة الإمامة، كما مرّ، كانت المسألة الأساسيّة في العصر الحسينيّ. وادّعى بنو أميّة بأنّ الإمامة وصلتهم من الله تعالى، وسعوا إلى إثبات ذلك بشتّى الطرق والمغالطات، حيث كانوا لا يخافون إشاعة الجبر في الأفعال ونسبته إلى الباري عزّ وجلّ.

أمّا الحسين عليه السلام في المقابل وفي سبيل مكافحة هذه الفكرة وما نشره بنو أميّة في ذلك العصر، تارة نجده يناشد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخرى يبيّن مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام العلميّة، وفي حين آخر يُبيّن عدد الأئمّة عليهم السلام ويفصح عن أسمائهم.

---

[١]- المسعودي، علي بن حسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٨٦.

[٢]- الصدوق، معاني الأخبار، صص٨١-٨٣.

لقد مرّ أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد نبّه على العلاقة الوثيقة بين معرفة الله ومعرفة الإمام عليه السلام، حيث جاء في الرواية: «خَرَجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ، فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ، فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَمَا مَعْرِفَةُ اللهِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُه»[١].

١- خلافة الإمام عليّ عليه السلام

كانت الخطوة الأولى في سبيل دفع كيد بني أميّة في مسألة الإمامة، بيان أحقّيّة أمير المؤمنين عليه السلام بالإمامة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد اهتمّ الإمام الحسين عليه السلام ببيان فضائل أمير المؤمنين عليه السلام. ولكننا نغضّ النّظر عن إيراد هذه الروايات، ونلقي نظرة على احتجاجات ومناشدات الحسين عليه السلام مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله. ففي خطبته بعد استشهاد أخيه الإمام الحسن عليه السلام

يناشد فيها صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام. جاء في كتاب سليم: «فَلَمَّا مَاتَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام لَمْ يَزَلِ الْفِتْنَةُ وَالْبَلَاءُ يَعْظُمَانِ وَيَشْتَدَّانِ، فَلَمْ يَبْقَ وَلِيٌّ للهِ إِلَّا خَائِفًا عَلَى دَمِهِ أَوْ مَقْتُولٌ أَوْ طَرِيدٌ أَوْ شَرِيدٌ، وَلَمْ يَبْقَ عَدُوٌّ للهِ إِلَّا مُظْهِرًا حُجَّتَهُ غَيْرَ مُسْتَتِرٍ بِبِدْعَتِهِ وَضَلَالَتِهِ. فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَوْتِ مُعَاوِيَةَ بِسَنَةٍ، حَجَّ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ [مَعَهُ]، فَجَمَعَ الْحُسَيْنُ عليه السلام بَنِي هَاشِمٍ رِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَمَوَالِيَهُمْ وَشِيعَتَهُمْ مَنْ حَجَّ مِنْهُمْ، وَمِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ يَعْرِفُهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَأَهْلُ بَيْتِه، ثُمَّ أَرْسَلَ رُسُلًا: لَا تَدَعُو أَحَدًا مِمَّنْ حَجَّ الْعَامَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الْمَعْرُوفِينَ بِالصَّلَاحِ وَالنُّسُكِ إِلَّا أَجْمَعُوهُمْ لِي. فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ بِمِنًى أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِمِائَةِ رَجُلٍ وَهُمْ فِي سُرَادِقِهِ عَامَّتُهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ [وَنَحْوٌ مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النبيّ صلى الله عليه وآله] وَ[غَيْرِهِمْ]. فَقَامَ فِيهِمُ الْحُسَيْنُ عليه السلام خَطِيبًا فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

[١]- الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج١، ص٩.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَذَا الطَّاغِيَةَ قَدْ فَعَلَ بِنَا وَبِشِيعَتِنَا مَا قَدْ رَأَيْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَشَهِدْتُمْ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُونِي وَإِنْ كَذَبْتُ فَكَذِّبُونِي. أَسْأَلُكُمْ بِحَقِّ اللهِ عَلَيْكُمْ وَحَقِّ رَسُولِ اللهِ وَحَقِّ قَرَابَتِي مِنْ نَبِيِّكُمْ لَمَّا سيرتم [سَتَرْتُمْ] مَقَامِي هَذَا وَوَصَفْتُمْ مَقَالَتِي وَدَعَوْتُمْ أَجْمَعِينَ فِي أَنْصَارِكُمْ مِنْ قَبَائِلِكُمْ مَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ النَّاسِ وَوَثِقْتُمْ بِهِ، فَادْعُوهُمْ إِلَى مَا تَعْلَمُونَ مِنْ حَقِّنَا فَإِنِّي أَتَخَوَّفُ أَنْ يَدْرُسَ هَذَا الْأَمْرُ وَيَذْهَبَ الْحَقُّ وَيُغْلَبَ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَمَا تَرَكَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا تَلَاهُ وَفَسَّرَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا قَالَه رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي أَبِيهِ وَأَخِيهِ وَأُمِّهِ وَفِي نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا رَوَاهُ. وَكُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ الصَّحَابَةُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَدْ سَمِعْنَا وَشَهِدْنَا؛ وَيَقُولُ التَّابِعِيُّ: اللَّهُمَّ قَدْ حَدَّثَنِي بِهِ مَنْ أُصَدِّقُهُ وَأَئْتَمِنُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ. فَقَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ إِلَّا حَدَّثْتُمْ بِهِ مَنْ تَثِقُونَ بِهِ وَبِدِينِهِ.

قَالَ سُلَيْمٌ: فَكَانَ فِيمَا نَاشَدَهُمُ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَذَكَّرَهُمْ أَنْ قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ أَخَا رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله حِينَ آخَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَآخَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَقَالَ: أَنْتَ أَخِي وَأَنَا أَخُوكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله اشْتَرَى مَوْضِعَ مَسْجِدِهِ وَمَنَازِلِهِ فَابْتَنَاهُ، ثُمَّ ابْتَنَى فِيهِ عَشَرَةَ مَنَازِلَ تِسْعَةً لَهُ وَجَعَلَ عَاشِرَهَا فِي وَسَطِهَا لِأَبِي، ثُمَّ سَدَّ كُلَّ بَابٍ شَارِعٍ إِلَى الْمَسْجِدِ غَيْرَ بَابِهِ، فَتَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ مَنْ تَكَلَّمَ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: مَا أَنَا سَدَدْتُ أَبْوَابَكُمْ وَفَتَحْتُ بَابَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِسَدِّ أَبْوَابِكُمْ وَفَتْحِ بَابِهِ، ثُمَّ نَهَى النَّاسَ أَنْ يَنَامُوا فِي الْمَسْجِدِ غَيْرَهُ، وَكَانَ يُجْنِبُ فِي الْمَسْجِدِ وَمَنْزِلُهُ فِي مَنْزِلِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَوُلِدَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَلَهُ فِيهِ أَوْلَادٌ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَفَتَعْلَمُونَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَرَصَ عَلَى كُوَّةٍ قَدْرَ عَيْنِهِ يَدَعُهَا مِنْ مَنْزِلِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَأَبَى عَلَيْهِ، ثُمَّ خَطَبَ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: [إِنَّ اللهَ أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِدًا طَاهِرًا لَا يَسْكُنُهُ غَيْرُهُ وَغَيْرُ هَارُونَ وَابْنَيْهِ وَ] إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ مَسْجِدًا طَاهِرًا لَا يَسْكُنُهُ غَيْرِي

وَغَيْرُ أَخِي وَابْنَيْهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَم.

قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَصَبَهُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ» فَنَادَى لَهُ بِالْوَلَايَةِ وَقَالَ: لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، وَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ دَعَا النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، لَمْ يَأْتِ إِلَّا بِهِ وَبِصَاحِبَتِهِ وَابْنَيْهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ دَفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ يَوْمَ خَيْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: لَأَدْفَعُهُ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، كَرَّارٌ غَيْرُ فَرَّارٍ، يَفْتَحُهَا اللهُ عَلَى يَدَيْهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ بِبَرَاءَةَ وَقَالَ: لَا يُبَلِّغْ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ تَنْزِلْ بِهِ شِدَّةٌ قَطُّ إِلَّا قَدَّمَهُ لَهَا ثِقَةً بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَدْعُهُ بِاسْمِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ يَقُولَ يَا أَخِي، وَادْعُوا لِي أَخِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَعْفَرٍ وَزَيْدٍ فَقَالَ لَهُ: يَا عَلِيُّ، أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، وَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ [وَ مُؤْمِنَةٍ] بَعْدِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلَّ يَوْمٍ خَلْوَة وَكُلَّ لَيْلَةٍ دَخْلَةٌ، إِذَا سَأَلَهُ أَعْطَاهُ وَإِذَا سَكَتَ أَبْدَاهُ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَضَّلَهُ عَلَى جَعْفَرٍ وَحَمْزَةَ حِينَ قَالَ لِفَاطِمَةَ عليها السلام: زَوَّجْتُكِ خَيْرَ أَهْلِ بَيْتِي، أَقْدَمَهُمْ سِلْمًا وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا وَأَكْثَرَهُمْ عِلْمًا؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قَالَ: أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ، وأَخِي عَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَبِ، وَفَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَابْنَايَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله أَمَرَهُ بِغُسْلِهِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ جَبْرَئِيلَ يُعِينُهُ عَلَيْهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قَالَ فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا: [أَيُّهَا النَّاسُ] إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، كِتَابَ اللهِ وَأَهْلَ بَيْتِي فَتَمَسَّكُوا بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا أَنْزَلَهُ اللهُ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام خَاصَّةً وَفِي أَهْلِ بَيْتِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله إِلَّا نَاشَدَهُمْ فِيهِ، فَيَقُولُ الصَّحَابَةُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَدْ سَمِعْنَا. وَيَقُولُ التَّابِعِيُّ: اللَّهُمَّ قَدْ حَدَّثَنِيهِ مَنْ أَثِقُ بِهِ فُلَانٌ وَفُلَان.

[ثُمَّ نَاشَدَهُمْ] أَنَّهُمْ قَدْ سَمِعُوهُ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي وَيُبْغِضُ عَلِيًّا، فَقَدْ كَذَبَ لَيْسَ يُحِبُّنِي وَهُوَ يُبْغِضُ عَلِيًّا، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، [مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي] وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ [وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَقَدْ أَبْغَضَنِي] وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ؟ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَدْ سَمِعْنَا. وَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ»[١].

في رواية أخرى، حين سأل شخص من بني أسد الحسين عليه السلام أنّ الناس لماذا لا يؤمّروا عليًا عليه السلام؟ أجاب عليه السلام: «إِنَّ الْقَوْمَ تَعَاهَدُوا وَتَوَاثَقُوا أَنْ لَا يُوَلُّوهَا أَبِي»[٢]. هذه الرواية إفصاح بحقّ أمير المؤمنين عليه السلام الذي غُصب منه.

وجاء في رواية أخرى أنّه عليه السلام قال: «قَالَ لِي بُرَيْدَةُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنْ أُسَلِّمَ عَلَى أَبِيكَ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ»[٣].

---

[١]- الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم، ج٢، صص٧٨٨-٧٩٣.

[٢]- المحمودي، ضياء الدين، الأصول الستة عشر، ص١٤٢.

[٣]- الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، م.س، ج٢، ص٦٨.

في رواية أخرى، نجد أمر وجوب طاعة الإمامعليه السلام المتمثّل في أمير المؤمنينعليه السلام حيث جاء: «إنّ الله تبارك وتعالى أدّب نبيّه الآداب كلّها، فلمّا استحكم الأدب فوّض الأمر إليه فقال: ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أدّب عليًّا بتلك الآداب التي أدّبه بها، فلمّا استحكم الآداب كلّها، فوّض الأمر إليه فقال: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»[١].

٢- بيان فضائل أهل البيت ومرجعيّتهم العلميّة

الخطوة الثانية للإمام الحسينعليه السلام، كان بيان فضائل أهل البيتعليهم السلام ومرجعيّتهم العلميّة، وأنّ الإمامة مستدامة في أهل البيتعليهم السلام. قال الإمام الحسينعليه السلام عندما أراد وليد بن عتبة أخذ البيعة منه ليزيد بن معاوية: «قَدْ عَلِمْتَ أَنَّا أَهْلُ بَيْتِ الْكَرَامَةِ وَمَعْدِنُ الرِّسَالَةِ وَأَعْلَامُ الْحَقِّ الَّذِينَ أَوْدَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قُلُوبَنَا وَأَنْطَقَ بِهِ أَلْسِنَتَنَا فَنَطَقَتْ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: إِنَّ الْخِلَافَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى وُلْدِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَيْفَ أُبَايِعُ أَهْلَ بَيْتٍ قَدْ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله هَذَا؟»[٢]. وفي رواية أخرى قال الإمامعليه السلام لمروان حين أراد البيعة ليزيد: «فإنّا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، والحقّ فينا وبالحقّ تنطق ألسنتنا»[٣].

في رواية أخرى، يؤكّد الإمامعليه السلام على مكانة أهل البيتعليهم السلام وعلمهم، حيث يقول لشخص من أهل الكوفة في طريقه إلى كربلاء: «أَمَا وَاللهِ يَا أَخَا أَهْلِ الْكُوفَةِ، لَوْ لَقِيتُكَ بِالْمَدِينَةِ لَأَرَيْتُكَ أَثَرَ جَبْرَئِيلَعليه السلام مِنْ دَارِنَا، وَنُزُولِهِ بِالْوَحْيِ عَلَى جَدِّي. يَا أَخَا أَهْلِ الْكُوفَةِ، أَفَمُسْتَقَى النَّاسِ الْعِلْمَ مِنْ عِنْدِنَا، فَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا؟ هَذَا مَا لَا يَكُون»[٤].

في رواية أخرى، يؤكّد الإمامعليه السلام على انحصار الهداية بأهل البيتعليهم السلام، حيث

[١]- الكوفي، مناقب الإمام أمير المؤمنين، م.س، ج٢، ص٤٢٨.

[٢]- الصدوق، الأمالي، م.س، صص١٥١-١٥٢.

[٣]- ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م.س، ج٥، ص١٧.

[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣٩٩.

قال عليه السلام للمنذر بن الجارود: «أَصْبَحَت الْعَرَبُ تَعْتَدُّ عَلَى الْعَجَمِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله مِنْهَا، وَأَصْبَحَتِ الْعَجَمُ مُقِرَّةً لَهَا بِذَلِكَ، وَأَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَتْ قُرَيْشٌ يَعْرِفُونَ فَضْلَنَا وَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ لَنَا، وَمِنَ الْبَلَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّا إِذَا دَعَوْنَاهُمْ لَمْ يُجِيبُونَا، وَإِذَا تَرَكْنَاهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا بِغَيْرِنَا»[١]. وفي رواية أخرى قال عليه السلام: «مَا نَدْرِي مَا تَنْقِمُ النَّاسُ مِنَّا؟ إِنَّا لَبَيْتُ الرَّحْمَةِ، وَشَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنُ الْعِلْمِ»[٢].

يُبيّن الإمام الحسين عليه السلام في رواية أنّ الحُكم لأهل البيت عليهم السلام، وحين سُئل عن أنّهم عليهم السلام بماذا يحكمون؟ أجاب عليه السلام: «نَحْكُمَ بِحُكْمِ آلِ دَاوُدَ، فَإِذَا عَيِينَا عَنْ شَيْءٍ تَلَقَّانَا بِهِ رُوحُ الْقُدُس»[٣]. هذه الرواية تدلّ أيضًا على اتّصال علم الأئمّة عليهم السلام بروح القدس.

في خطبة للإمام عليه السلام، يبيّن للناس مكانة أهل البيت عليهم السلام من رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله ومرجعيّتهم العلميّة، ويؤكّد على فرض طاعة أهل البيت عليهم السلام من قِبَل الله على الناس واقتران إطاعتهم عليهم السلام بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله. قال الإمام عليه السلام: «نَحْنُ حِزْبُ اللهِ الْغَالِبُونَ وَعِتْرَةُ رَسُولِ اللهِ الْأَقْرَبُونَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ الطَّيِّبُونَ، وَأَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ جَعَلَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله ثَانِيَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْنَا فِي تَفْسِيرِهِ لَا يُبْطِئنا تَأْوِيلُهُ بَلْ نَتَّبِعُ حَقَائِقَهُ. فَأَطِيعُونَا فَإِنَّ طَاعَتَنَا مَفْرُوضَةٌ، إِذْ كَانَتْ بِطَاعَةِ اللهِ مَقْرُونَةً. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ النساء: ٥٩، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ٨٣.

٣- بيان عدد الأئمّة عليهم السلام

الخطوة الثالثة لدفع ما روّجه بنو أميّة في الإمامة، بيان انحصار عدد الأئمّة في عدد

[١]- الحلواني، حسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، ص٨٥.

[٢]- م.ن.

[٣]- الصفّار، محمّد بن حسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلى الله عليه وآله، ج١، ص٤٥٢.

اثني عشر والإفصاح بأسمائهم. قال الحسين عليه السلام حين دخل عليه رجل من العرب وسأله عن عدد الأئمّة: «اثْنَا عَشَرَ عَدَدَ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ: فَسَمِّهِمْ لِي. قَالَ: فَأَطْرَقَ الْحُسَيْنُ عليه السلام مَلِيًّا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: نَعَمْ، أُخْبِرُكَ يَا أَخَا الْعَرَبِ، إِنَّ الْإِمَامَ وَالْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام وَالْحَسَنُ وَأَنَا وَتِسْعَةٌ مِنْ وُلْدِي مِنْهُمْ: عَلِيٌّ ابْنِي، وَبَعْدَهُ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ جَعْفَرٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ مُوسَى ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ الْحَسَنُ ابْنُهُ، وَبَعْدَهُ الْخَلَفُ الْمَهْدِيُّ، هُوَ التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِي يَقُومُ بِالدِّينِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ»[١].

جاء في رواية أخرى أنّ الحسين عليه السلام أشار إلى إمامة الإمام السجّاد عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام. قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: «كُنْتُ عِنْدَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَصْغَرُ، فَدَعَاهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَضَمَّهُ إِلَيْهِ ضَمًّا وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ، مَا أَطْيَبَ رِيحَكَ وَأَحْسَنَ خَلْقَكَ، فَيُدَاخِلُنِي مِنْ ذَلِكَ. فَقُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، إِنْ كَانَ مَا نَعُوذُ بِاللهِ أَنْ نَرَاهُ فِيكَ، فَإِلَى مَنْ؟ قَالَ: إِلَى عَلِيٍّ ابْنِي هَذَا، هُوَ الْإِمَامُ وَأَبُو الْأَئِمّة. قُلْتُ: يَا مَوْلَايَ، هُوَ صَغِيرُ السِّنِّ. قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ ابْنَهُ مُحَمَّدٌ يُؤْتَمُّ بِهِ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ، ثُمَّ يُطْرِقُ. قَالَ: ثُمَّ يَبْقُرُ الْعِلْمَ بَقْرا»[٢].

جاء في رواية أخرى: "مِنَّا اثْنَا عَشَرَ مَهْدِيًّا، أَوَّلُهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام وَآخِرُهُمُ التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِي، وَهُوَ الْقَائِمُ بِالْحَقِّ، يُحْيِي اللهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها، وَيُظْهِرُ بِهِ دِينَ الْحَقِّ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. لَهُ غَيْبَةٌ يَرْتَدُّ فِيهَا قَوْمٌ وَيَثْبُتُ عَلَى الدِّينِ فِيهَا آخَرُونَ فَيُؤْذَوْنَ، وَيُقَالُ لَهُمْ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟ أَمَا إِنَّ الصَّابِرِينَ فِي غَيْبَتِهِ عَلَى الْأَذَى وَالتَّكْذِيبِ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِينَ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله"[٣].

هناك رواية أخرى، رواها الحسين عليه السلام بأنّ الأئمّة عليهم السلام مع تعدّدهم لكنّهم في الفضل

[١]- الخزاز، كفاية الأثر، م.س، صص٢٣٣-٢٣٤.

[٢]- الخزاز، كفاية الأثر، م.س، صص٢٣٤-٢٣٥.

[٣]- م.ن، ص٢٣٢.

عند الله سواء. قال عليه السلام: «دَخَلْتُ أَنَا وَأَخِي عَلَى جَدِّي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَأَجْلَسَنِي عَلَى فَخِذِهِ وَأَجْلَسَ أَخِيَ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ قَبَّلَنَا وَقَالَ: بِأَبِي أَنْتُمَا مِنْ إِمَامَيْنِ صَالِحَيْنِ، اخْتَارَكُمَا اللهُ مِنِّي وَمِنْ أَبِيكُمَا وَأُمِّكُمَا، وَاخْتَارَ مِنْ صُلْبِكَ يَا حُسَيْنُ تِسْعَةَ أَئِمَّةٍ، تَاسِعُهُمْ قَائِمُهُمْ، وَكُلُّكُمْ فِي الْفَضْلِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى سَوَاء»[١].

في هذه الروايات، كما هو ظاهر، توجد إشارات إلى القضية المهدوية وغيبة صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف. وسنوردُ في القسم التالي بعض الروايات التي تتعلّق بقضية الغيبة ومسألة المهدوية.

٤- المهدوية

إنّ مسألة المهدوية أخذت حيّزًا معتنى به من الروايات الحسينيّة. وتدلّنا هذه الروايات إلى أنّ المجتمع كان عارفًا بالقضيّة المهدويّة، فنجد في التراث الحسينيّ بعض التفاصيل عن قيام القائم وآخر الزمان. ربما توجّه المجتمع إلى مسألة المهدويّة بسبب المحن التي كان يعيشها ومعرفته بالإصلاح الذي أراد الحسين عليه السلام القيام به، الشاهد على ذلك، قول عبد الله بن عمر للفرزدق حين سأله عن الحسين عليه السلام فقال: «أمّا إنّه لا يحيك فيه السلاح»[٢]، فذلك من خصوصيّات المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف. الشاهد الآخر على أنّ المجتمع كان ينتظر قيام القائم، قول عيسى الخشاب للإمام الحسين عليه السلام: أنت صاحب هذا الأمر؟ فأجابه عليه السلام: «لَا، وَلَكِنْ صَاحِبُ الْأَمْرِ الطَّرِيدُ الشَّرِيدُ الْمَوْتُورُ بِأَبِيهِ، الْمُكَنَّى بِعَمِّهِ، يَضَعُ سَيْفَهُ عَلَى عَاتِقِهِ ثَمَانِيَةَ أَشْهُر»[٣].

في روايات أخرى، نجد -كما وجدنا في روايات عدد الأئمّة عليهم السلام- أنّ الإمام عليه السلام يعرّف القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف بأنّه التاسع من ولده وأنّ له غيبة. قال عليه السلام: «قَائِمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ

---

[١]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج١، ص٢٦٩.

[٢]- ابن سعد، الطبقات الكبرى(الطبقة الخامسة من الصحابة)، م.س، ج١، ص٤٥٣.

[٣]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج١، ص٣١٨.

التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِي، وَهُوَ صَاحِبُ الْغَيْبَةِ، وَهُوَ الَّذِي يُقْسَمُ مِيرَاثُهُ وَهُوَ حَي»[١]. ومنها: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ، لَطَوَّلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ وُلْدِي فَيَمْلَأَهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، كَذَلِكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُول»[٢].

يعطي الإمام الحسين عليه السلام بعض مواصفات آخر الزمان، الوقت الذي يسبق ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف. فربما ذلك دفعًا لظنّ بعض أفراد المجتمع بأنّه عليه السلام هو القائم. قالت عميرة بن نفيل: «سَمِعْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام يَقُول: لَا يَكُونُ الْأَمْرُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَبْرَأَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيَتْفُلَ بَعْضُكُمْ فِي وُجُوهِ بَعْضٍ، وَيَشْهَدَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْكُفْرِ، وَيَلْعَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. فَقُلْتُ: لَهُ مَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنْ خَيْرٍ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، يَقُومُ قَائِمُنَا وَيَدْفَعُ ذَلِكَ كُلَّه»[٣].

في بعض الروايات الحسينيّة، يوجد وصف الغيبة والحيرة التي تسبق ظهور القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، كما توجد بعض صفات أهل آخر الزمان ممّن يثبت على الدين. وهناك رواية عن الحسين عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يخاطبه عليه السلام: «التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِكَ يَا حُسَيْنُ، هُوَ الْقَائِمُ بِالْحَقِّ الْمُظْهِرُ لِلدِّينِ وَالْبَاسِطُ لِلْعَدْلِ. قَالَ الْحُسَيْنُ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ؟ فَقَالَ عليه السلام: إِي وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله بِالنُّبُوَّةِ وَاصْطَفَاهُ عَلَى جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ غَيْبَةٍ وَحَيْرَةٍ، فَلَا يَثْبُتُ فِيهَا عَلَى دِينِهِ إِلَّا الْمُخْلِصُونَ الْمُبَاشِرُونَ لِرَوْحِ الْيَقِينِ، الَّذِينَ أَخَذَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِيثَاقَهُمْ بِوَلَايَتِنَا، وَكَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»[٤].

٥- الرجعة

---

[١]- م.ن، ج١، ص٣١٧.

[٢]- م.ن، ج١، صص٣١٧-٣١٨.

[٣]- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، صص٢٠٥-٢٠٦.

[٤]- الصدوق، كمال الدين، م.س، ج١، ص٣٠٤.

من المسائل المرتبطة بالقضيّة المهدوية، مسألة الرجعة، وهي أنّ الأئمّة عليهم السلام وجمعًا من الصلحاء سيُحيون عند ظهور القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف. في هذا الموضوع، هناك رواية عن الإمام الباقر عليه السلام عن الحسين عليه السلام، أنّه قال لأصحابه قبل أن يُستشهد في كربلاء: «فَأَبْشِرُوا، فَوَاللهِ لَئِنْ قَتَلُونَا فَإِنَّا نَرِدُ عَلَى نَبِيِّنَا، ثُمَّ أَمْكُثُ مَا شَاءَ اللهُ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ فَأَخْرُجُ خَرْجَةً يُوَافِقُ ذَلِكَ خَرْجَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقِيَامَ قَائِمِنَا وَحَيَاةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ لَيَنْزِلَنَّ عَلَيَّ وَفْدٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَمْ يَنْزِلُوا إِلَى الْأَرْضِ قَطُّ، وَلَيَنْزِلَنَّ إِلَيَّ جَبْرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَجُنُودٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَيَنْزِلَنَّ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ وَأَنَا وَأَخِي وَجَمِيعُ مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ فِي حَمُولَاتٍ مِنْ حَمُولَاتِ الرَّبِّ، خَيْلٍ بُلْقٍ مِنْ نُورٍ لَمْ يَرْكَبْهَا مَخْلُوقٌ، ثُمَّ لَيَهُزَّنَّ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله لِوَاءَهُ وَلَيَدْفَعَنَّهُ إِلَى قَائِمِنَا مَعَ سَيْفِهِ»[١].

خامسًا: المعاد

إنّ الروايات الحسينيّة في موضوع المعاد، تقتصر على الإرشادات والتذكير بالموت ويوم الحساب. وحين سُئل الإمام الحسين عليه السلام بأنّه كيف أصبحت؟ قال عليه السلام: «أَصْبَحْتُ وَلِيَ رَبٌّ فَوْقِي وَالنَّارُ أَمَامِي، وَالْمَوْتُ يَطْلُبُنِي وَالْحِسَابُ مُحْدِقٌ بِي، وَأَنَا مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِي، لَا أَجِدُ مَا أُحِبُّ وَلَا أَدْفَعُ مَا أَكْرَهُ، وَالْأُمُورُ بِيَدِ غَيْرِي فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَنِي وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنِّي، فَأَيُّ فَقِيرٍ أَفْقَرُ مِنِّي؟»[٢]. ففي هذه الرواية، نجد أنّ الإمام عليه السلام يحذّر من يوم القيامة.

وفي رواية أخرى، جاء عن الحسين عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَكَّرْ وَقُلْ: أَيْنَ مُلُوكُ الدُّنْيَا وَأَرْبَابُهَا الَّذِين عَمَرُوا وَاحْتَفَرُوا أَنْهَارَهَا وَغَرَسُوا أَشْجَارَهَا وَمَدَّنُوا مَدَائِنَهَا، فَارَقُوهَا وَهُمْ كَارِهُونَ وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَنَحْنُ بِهِمْ عَمَّا قَلِيلٍ لَاحِقُونَ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اذْكُرْ مَصْرَعَكَ وَفِي قَبْرِكَ مَضْجَعَكَ وَمَوْقِفَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، تَشْهَدُ جَوَارِحُكَ عَلَيْكَ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ وَتَبْلُغُ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، وَتَبْدُو السَّرَائِرُ

---

[١]- الراوندي، سعيد بن هبة الله، الخرائج والجرائح، ج٢، صص٨٤٨-٨٤٩.

[٢]- الصدوق، من لايحضره الفقيه، م.س، ج٤، ص٤٠٤.

وَيُوضَعُ الْمِيزَانُ لِلْقِسْطِ. يَا ابْنَ آدَمَ، اذْكُرْ مَصَارِعَ آبَائِكَ وَأَبْنَائِكَ كَيْفَ كَانُوا وَحَيْثُ حَلُّوا؟ وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ حَلَلْتَ مَحَلَّهُمْ وَصِرْتَ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِ»[١].

يُشير الإمامعليه‌السلام في بعض المرويّات المنقولة عنه إلى أنّ الدنيا فانية والآخرة باقية. وذلك فيما كتب إلى ابن الحنفيّة من كربلاء: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَمَنْ قِبَلَهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ. أَمَّا بَعْدُ، فَكَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ. وَالسَّلَام»[٢].

روى الإمام السجّادعليه‌السلام عن أبيه أبي عبد الله الحسينعليه‌السلام: «فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بِكُمْ عَنِ الْبُؤْسِ وَالضَّرَّاءِ إِلَى الْجِنَانِ الْوَاسِعَةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمَة، فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ سِجْنٍ إِلَى قَصْرٍ؟ وَمَا هُوَ لِأَعْدَائِكُمْ إِلَّا كَمَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَى سِجْنٍ وَعَذَابٍ. إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ رَسُولِ اللهِصلى‌الله‌عليه‌وآله: أَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، وَالْمَوْتُ جِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَى جَنَّاتِهِمْ، وَجِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَى جَحِيمِهِمْ. مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْت»[٣].

[١]- الديلميّ، حسن بن محمد، إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١، صص٢٩-٣٠.

[٢]- ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ص٧٥.

[٣]- الصدوق، معاني الأخبار، ص٢٨٩.

الخاتمة

لا ندّعي في نهاية البحث أنّ الدراسة استقصت كلّ الموروث الروائيّ العقديّ للإمام الحسين عليه السلام، بل يمكن القول إنّ ما ورد من روايات حسينيّة، هي ما تمكنّا من الحصول عليه في المصادر الروائيّة الأوّليّة الشيعيّة. وهناك العديد من الروايات، لم ندرجها في هذه الدراسة؛ لكونها أقلّ اعتبارًا.

وتكشف لنا هذه القراءة التحليليّة لمرويّات الإمام الحسين عليه السلام الدور الإصلاحيّ والإرشاديّ للإمام الحسين عليه السلام في تبيين الموضوعات الكلاميّة في المسائل العامّة، كالتوحيد والعدل. حيث نجد تأكيد الإمام عليه السلام على بثّ الروايات العلويّة والأحاديث النبويّة، وهذا الأمر يدلّ على الدور التوجيهيّ للحسين عليه السلام في المجتمع، حيث حاول عليه السلام تصحيح الاعوجاج الناشئ من الإعلام الأمويّ، بنشر الروايات المكذوبة والموضوعة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، والترويج للدعايات الزائفة عن أمير المؤمنين عليه السلام وسبّه ولعنه والتبرؤ منه.

في مسألة الإمامة، نجد المنهج الحسينيّ يختلف تمامًا؛ لأنّ الإعلام الأمويّ ركّز على هذه المسألة، حيث لاحظنا أنّ معاوية قد سخّر العقيدة الجبريّة في سبيل إثبات خلافة بني أميّة، وجعل الخلافة حقًّا إلهيًّا له!. فالإمام الحسين عليه السلام في بيان مسائل الإمامة كان له دور تصحيحيّ، حيث وطّأ لبيان تلك المسائل بإثبات خلافة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومن ثمّ بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام وتبيين مكناتهم العلميّة. والأمر اللامع في هذا القسم، هو: التأكيد على بيان عدد الأئمّة وأسمائهم عليهم السلام، بيان إمامة علي بن الحسين عليه السلام، والتأكيد على القضيّة المهدويّة.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح، ج٩، لبنان - بيروت، دار الأضواء، ١٤١١.

٢. ابن سعد، محمّد، الطبقات الكبرى (الطبقة الخامسة من الصحابة)، ج٢، السعودية- الطائف، مكتبة الصديق، ب. ت.

٣. ابن شعبة، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، ج١، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٤٠٤.

٤. ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٤، ايران- قم، علامه، ١٣٧٩.

٥. ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، ج٢، ايران-طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٩.

٦. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، ج٨٠، لبنان-بيروت، دار الفكر، ١٤١٥.

٧. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، ج٢، لبنان - بيروت، دار الأضواء، ١٤١٠.

٨. ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ج٢، العراق-النجف، دار المرضوية، ١٣٥٦.

٩. البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج١٣، لبنان-بيروت، دار الفكر، ١٤١٧.

١٠. الحلواني، حسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، ج١، ايران- قم، مدرسة الإمام المهديّ عليه السلام، ١٤٠٨.

١١. الخزّاز، علي بن محمد، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، ج١، ايران- قم، بيدار، ١٤٠١.

١٢. الديلمي، حسن بن محمد، إرشاد القلوب إلى الصواب، ج٢، ايران- قم، الشريف الرضي، ١٤١٢.

١٣. الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، ج١، ايران- قم، الشريف الرضي، ١٣٦٨.

١٤. الراوندي، سعيد بن هبة الله، الخرائج والجرائح، ج٣، ايران- قم، مؤسّسة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف، ١٤٠٩.

١٥. الريشهري، محمد، موسوعة الإمام الحسين في الكتاب والسنة والتاريخ، ج٩. لبنان- بيروت، دار الحديث للطباعة والنشر، ٢٠١٠.

١٦. الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، ج١، ايران-طهران، كتابچى، ١٣٧٦.

١٧. الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، ج١، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٣٩٨.

١٨. الصدوق، محمد بن علي، الخصال، ج٢، ايران- قم، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٣٦٢.

١٩. الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع، ج٢، ايران- قم، مكتبة الداوري، ١٩٦٦.

٢٠. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ايران-طهران، نشر جهان، ١٣٧٨.

٢١. الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ايران-طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٩٥.

٢٢. الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، ج١، ايران- قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ- مؤسّسة الإمام الصادق ع، ١٤٠٣.

٢٣. الصدوق، محمد بن علي، من لايحضره الفقيه، ٤ ج، ايران- قم، جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ١٤١٣.

٢٤. الصفّار، محمد بن حسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليه وآله، ج١، ايران- قم، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قدس سره، ١٤٠٤.

٢٥. الطبرسيّ، أحمد بن علي، الاحتجاج على أهل اللجاج، ج٢. ايران-مشهد، نشر المرتضى، ١٤٠٣.

٢٦. الطبريّ، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج١١، لبنان-بيروت، دار التراث، ١٣٨٧.

٢٧. الطوسيّ، محمّد بن حسن، الأمالي، ج١، ايران- قم، دار الثقافة، ١٤٠٤.

٢٨. الكراجكيّ، محمّد بن علي، كنز الفوائد، ج٢، ايران- قم، دار الذخائر، ١٤١٠.

٢٩. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج٨، ايران-طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٧.

٣٠. الكوفيّ، محمّد بن سليمان، مناقب الإمام أمير المؤمنين، ج٣، ايران- قم، مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة، د.ت.

٣١. المحمودي، ضياء الدين، الأصول الستة عشر، ج١، ايران- قم، دار الحديث، ١٤٢٣.

٣٢. المسعودي، علي بن حسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ايران- قم، دار الهجرة، ١٤٠٩.

٣٣. المفيد، محمّد بن محمّد، الأمالي، ج١، ايران- قم، المؤتمر العالميّ لألفيّة الشيخ المفيد، ١٤١٣.

٣٤. المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ايران- قم، المؤتمر العالميّ لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

٣٥. النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ج١، ايران-طهران، مكتبة الصدوق، ١٣٩٧.

٣٦. الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم، ج٣، ايران- قم، نشر الهادى، ١٤٠٥.

٣٧. عبد الجبار، أبو الحسن، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٤، مصر-القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٢.

٣٨. عطوان، حسين، الفرق الإسلاميّة في بلاد الشام في العصر الأموي، ج١، دار الجيل، ١٩٨٦.

٣٩. عمادى حائرى، سيد محمد، «حسين بن على، امام»، دانشنامه جهان اسلام، ايران-تهران، بنياد دائرة المعارف اسلامى، ١٣٨٧.

٤٠. مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ج١، ايران-مشهد، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٦.

أدوار الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في التأسيس الكلامي

الأستاذة ندى الطويل(*)

المقدّمة

جسّد الأئمّة الأطهار عليهم السلام المسيرة المستقيمة للإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله، ودراسة حياتهم وأدوارهم في حياة الأمّة تكشف لنا الكثير من الحقائق في تاريخ الإسلام، والتحدّيات التي واجهها الدين الخاتم، وكيف استطاعوا -بما أوتوا من تسديد وعلم- أن يقودوا الأمّة في أحلك فترات التاريخ، وأن يحفظوا الرسالة من الزيغ والتحريف.

ومن هؤلاء الأئمّة: الإمام السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام، الذي تولّى الإمامة في فترةٍ عصيبةٍ عصفت بالأمّة الإسلاميّة، حيث وصل مبلغ الانقلاب على قيم الدين ووصايا الرسول، أن تجنح هذه الأمّة، فتقتل إمامها وحفيد نبيّها، الإمام الحسين عليه السلام، وتستسلم -ولو في الجملة- لقيادة يزيد بن معاوية بكلّ ما يمثّله من انحراف وتحلّل وفسوق. فلم تمضِ على وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أكثر من نصف قرن حتّى بلغت الأمّة هذه المرتبة من الوهن والتهتّك والاستهتار بالدين، فيُقتل الحسين عليه السلام، وتُستباح مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، وتُرمى الكعبة بالمنجنيق!!!

وفي هذه الأجواء المريعة، تصدّى الإمام السجّاد عليه السلام للإمامة، وسعى لمواجهة ظروف داخليّة قاتمة فرضتها سلطات بني أميّة بجبروتها وعلوّها، وظروف خارجيّة لا تقلّ وطأةً عن سابقتها، كخطر الانفتاح على العالم الخارجيّ عقيب ما يُسمّى بـ«الفتوحات الإسلاميّة» وبلوغ حدود الدولة الإسلاميّة مديات واسعة، واختلاط المسلمين مع شعوب أخرى.

فكانت مدرسة الإمام السجاد عليه السلام وقيادته استجابةً واقعيّةً لكلّ هذه التحدّيات:

(*)- باحثة وأستاذة بجامعة المصطفى العالميّة (حوزة الزهراء عليها السلام) ـ بيروت.

فصان العقيدة، وعمّق روح التوبة في نفوس الناس، وأحيا القيم التي هدّدها فسق الملوك وتجبّرهم، وتهتّك العوام وانقيادهم للدنيا والشهوات.

ومن أبرز هذه الأدوار التي أدّاها الإمام، الدور العقيدي والذي نسعى إلى استكشاف معالمه الأساسيّة في هذا البحث، والذي قسّمناه إلى أربعة مطالب:

أوّلًا: معالم حياة الإمام السجّاد عليه السلام وخصوصيّات عصره

١. الإمام السجّاد عليه السلام السيرة والمسيرة

٢. خصوصيّات عصر الإمام السجاد عليه السلام وحركته الفكريّة والعلميّة

٣. مؤسّسة العتق ونشر مبادئ النهج المحمديّ الأصيل.

٤. أسلوب الدعاء وأثره في نشر العلوم وأداء رسالة آل البيت عليهم السلام

ثانيًا: الأدوار العقائديّة والكلاميّة للإمام السجّاد عليه السلام

١. بيان الأصول العقائديّة وإثباتها

٢. تبيين فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم وعظمة موالاتهم.

ثالثًا: الإمام السجّاد عليه السلام وتربية الطليعة الشيعيّة.

١. أولاد الإمام عليه السلام

٢. أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام

٣. السجّاد عليه السلام وأعلام المدارس الأخرى

رابعًا: الإمام السجّاد بين الانشقاقات الشيعيّة ومواجهة الفرق المنحرفة

١. الإمام السجّاد ووحدة الصف الشيعيّ

٢. الإمام السجّاد ومواجهة الفرق المنحرفة

أوّلًا: معالم حياة الإمام السجّاد عليه السلام وخصوصيّات عصره

١. الإمام السجّاد عليه السلام السيرة والمسيرة

الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، هو النور الرابع من أنوار آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله. وُلد على أَشْهَر الروايات في اليوم الخامس من شهر شعبان من سنة ٣٧ أو ٣٨ للهجرة، وعاش في كنف والده الإمام الحسين عليه السلام وعمّه الإمام الحسن سلام الله عليه، وقد اشتهر بعبادته، حيث كان من أشهر ألقابه زين العابدين وسيّد الساجدين، كما أنّه لُقّب بذي الثفنات لكثرة سجوده بين يدي الله تعالى.

والتوجّه العباديّ العميق للإمام السجّاد لا يعني أنّه عليه السلام قد انزوى لممارسة العبادة، ولم يكن له دورٌ علميٌّ أو سياسيٌّ، كما هو المرتكز في أذهان الكثيرين، بل لقد أدّى أدوارًا علميّةً رائدةً، واتّخذ خياراتٍ سياسيّةً جريئةً، كما تقتضيها الإمامة الرشيدة لمدرسة آل البيت عليهم السلام. وهذا ما سيأتي توضيحه في المطالب الآتية.

عاصر الإمام السجّاد عليه السلام عددًا من الخلفاء الأمويّين، أوّلهم «يزيد بن معاوية»، وآخرهم «الوليد بن عبد الملك بن مروان»، حيث عانى الكثير بعد شهادة والده الإمام الحسين عليه السلام، وهو الذي قال بعد عودته من كربلاء: «ما بمكة والمدينة عشرون رجلا يحبّنا»[١].

وفي موضع آخر، يُشير إلى وضع الأمّة، كما ورد في البحار عن جابر أنّ الإمام السجّاد عليه السلام قال: «ما ندري كيف نصنع بالناس، إن حدّثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ضحكوا» -فإنّهم لا يكتفون بالرفض وإنّما يضحكون استهزاءً- «وإن سكتنا لا يسعنا»[٢].

فهذان الحديثان يُلخّصان الوضعيّة التي ورثها الإمام زين العابدين في ظلّ استبداد البيت الأمويّ، وانحلال وضع الأمّة الذي يمكن أن نلخّصه في بعدين اثنين، هما:

[١]- ابن أبي الحديد المعتزليّ، عز الدين عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، مج٤، ص١٤٠.
[٢]- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مج٦، ص٢٥٩.

أ- سياسة الترهيب: أدّت هذه السياسة بالأمّة أن خذلت إمامها وابن بنت نبيها، وأوكلت أمره لفراعنة العصر ليقتلوه مع أصحابه وينكّلوا بأهله.

ب- سياسة الترغيب وشراء الذمم: يكفي أن نشير إلى البدعة التي أسّسها معاوية في شراء الذمم قائلًا: والله لأستميلنّ بالأموال ثُقات عليّ، ولأُقسّمنّ فيهم الأموال حتّى تغلب دنياي آخرته[١].

كما رُوي أنّه وفد عليه جماعة من أشراف العرب، فأعطى كلّ واحد منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحتّات عمّ الفرزدق سبعين ألفًا، فلمّا علِم الحتّات بذلك رجع مغضبًا إلى معاوية، فقال له -بلا خجل ولا حياء-: إنّي اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك. فقال الحتّات: اشتر منّي ديني. فأمر له بإتمام الجائزة[٢].

استلم الإمام زين العابدين عليه السلام الإمامة في ظلّ هذه التحدّيات الصعبة، بعد أن عاين ما عاين في واقعة كربلاء، وكان له من العمر ثلاث وعشرون سنة كما تُشير الروايات، وقد سعى بكلّ ما أوتي من قوّة لإبقاء أهداف واقعة الطفّ حيّة في وجدان الأمّة، والتي لخّصها الإمام الحسين عليه السلام بوصيّته التي تركها لأخيه محمّد بن الحنفية: «أَنّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِرًا وَلَا بَطِرًا وَلَا مُفْسِدًا وَلَا ظَالِمًا، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي صلى الله عليه وآله، أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ فَاللهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ، وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ هَذَا أَصْبِرُ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ وهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ»[٣]. لم تكن مسيرة الإمام عليه السلام سهلةً منذ البدايات، «فلقد بدأت حياة الإمام السجّاد بمرحلة مليئة بالصعاب، حيث جرت حادثة كربلاء التي لم تهزّ كيان الشيعة فقط، وإنّما هزّت الأمّة الإسلاميّة بأجمعها. ومع أنّ القتل والأسر والتعذيب كان شائعًا آنذاك، لكنّ قتل أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وأسر العائلة النبويّة ووضع رؤوس آل محمّد صلى الله عليه وآله على الرماح، والاستهانة بمن كان الرسول صلى الله عليه وآله يقبّل ثناياه، كلّ هذا قد زلزل العالم الإسلاميّ وصعقه..»[٤].

---

[١]- انظر: المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، ص٢٩٣.

[٢]- القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين (عليه السّلام)، مج٢، ص١٢٨-١٢٩.

[٣]-المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار م.س، مج ٤٤، ص٣٢٩.

[٤]- الخامنئي، علي، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، ص٢١٠.

وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام في ظلّ هذه التحدّيات رمزًا للأخلاق السامية الذي حيّر العقول، وأظهر أنّه صورة نموذجيّة لأخلاق جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي وصفه الله تعالى بأنّه على خلق عظيم، وقد شهد الأعداء فضلًا عن المقرّبين بذلك، ومن الشواهد التاريخيّة ما حصل مع مروان بن الحكم بعد واقعة الحرّة، فقد قام والي المدينة «عثمان بن محمّد» بإرسال وفد من أشراف أهل المدينة إلى يزيد في أواخر سنة ٦٢ للهجرة، وكان على رأس هذا الوفد عبدالله بن حنظلة الأنصاريّ، ومع ذلك لم يحظَ يزيد بتأييد وعطف هؤلاء؛ إذ أعلنوا على رؤوس الأشهاد قائلين: «إنّا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الغراب والفتيان، وإنّا نُشهدكم، إنّا قد خلعناه فتابعهم الناس»[١].

وعلى إثر هذه المعطيات، قام أهل المدينة بخلع يزيد وطرد عامله «عثمان بن محمّد» وباقي بني أميّة ومن كان على رأيهم من قريش، وبايعوا عبدالله بن حنظلة الأنصاريّ، فكتب عامل يزيد بن معاوية على إثر ذلك كتابًا إلى يزيد يستغيث به، فأرسل يزيد جيشًا إلى الحجاز بقيادة مسلم بن عقبة المرّيّ، الذي قاتل أهل المدينة في ذي الحجّة سنة ٦٣ للهجرة، وانهزم أهل المدينة، ونُهبت المدينة من قبل ذلك الجيش واستباحها ثلاثة أيام، فلاذ الناس بقبر النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله، لكن جيش يزيد بن معاوية ما راعى لقبر النبيّ الأكرم حرمة، ودخلوه بخيلهم وقتلوا الناس، حتى بلغ عدد القتلى من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس ألفًا وسبعمئة، ومن سائر الناس عشرة آلاف[٢].

وقد أقبل إلى الإمام السجّاد عليه السلام مروان بن الحكم، حينما حاصر الثوّارُ الأمويّين في أوج الثورة، والي يزيد، قائلًا: «يا أبا الحسن، إنّ لي رحمًا، وحرمي تكون مع حرمك»، فقال الإمام عليه السلام: «افعل. فبعث بحرمه إليه... فخرج الإمام بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم في ينبع»، وكان مروان شاكرًا للإمام زين العابدين[٣].

[١]- للمزيد من التفاصيل ينظر: الطبريّ، محمّد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٤٨٠؛ ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن الجزري الموصلي، الكامل في التاريخ، مج٣، ص٣٠٧.

[٢]- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، مج٢، ص١٤.

[٣]- الطبريّ، تاريخ الرسل والملوك، م.س، ج٥، ص٤٨٥؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣١١.

وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام -في أوج الفتنة- ملاذَ العدوّ قبل الصديق، وأنّ أمانته ممّا يشهد بها الأعداء قبل الموالين.

٢. خصوصيّات عصر الإمام السجّاد عليه السلام وحركته الفكريّة والعلميّة

إنّ العصر الذي عاشه الإمام السجّاد عليه السلام شهد الكثير من الحركات الفكريّة والعلميّة، حيث كثرت الفتن من حوله من جهة، وتزايدت التحدّيات بعد الانفتاح الكبير من جهة ثانية، وهذا الأمر وإن كانت له في ظاهره بعض الإيجابيّات إلّا أنّ مخاطره على المنظومة الفكريّة الإسلاميّة كانت جسيمة. خاصّة أنّ بني أميّة لجؤوا إلى أسلوب التضليل، حيث اضطروا أن يتركوا الناس تتعلّم الإسلام ومنعوهم من تعلّم حدود الشرك. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ بني أمية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك حتّى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه»[١].

فبنو أميّة لم يسمحوا للعلماء وأهل الدين، ومن جملتهم الأئمّة عليهم السلام، بالتحدّث حول مفهوم الشرك ومصاديقه وأمثلته في المجتمع بشكل واضح وجليّ. وفي ذلك يقول المجلسيّ (رحمه الله) في بحار الأنوار: «إنّ آيات الشرك ظاهرها في الأصنام الظاهرة، وباطنها في خلفاء الجور الّذين أشركوا مع أئمّة الحقّ ونصّبوا مكانهم»[٢]. فأئمّة الحقّ هم خلفاء الله، وهم ينطقون عن الله؛ ولأنّ خلفاء الجور قد نصّبوا أنفسهم مكانهم وادّعوا الإمامة، فقد أصبحوا أصنامًا وطواغيت، فكلّ من يطيعهم يُعدّ مشركًا بالله. فالعلّامة المجلسيّ يؤكّد أنّ الآيات القرآنيّة ليست مختصّة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بل هي سارية وجارية في كلّ العصور والأزمان: «فهو يجري في أقوام تركوا طاعة أئمّة الحقّ، واتّبعوا أئمّة الجور لعدولهم عن الأدلّة العقليّة والنقليّة واتّباعهم الأهواء، وعدولهم عن النصوص الجليّة»[٣].

وقد طغى على الناس حبّ الدنيا، ومالوا إلى العيش الرغيد، وفضّلوا التزلّف إلى

---

[١]- الكلينيّ، محمد بن يعقوب (المُلَقَّب بثقة الإسلام)، أصول الكافي، مج٢، ص٤١٥.

[٢]المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، مج ٤٨، ص٩٦.

[٣]- م.ن، مج ٤٨، ص٩٦.

بني أميّة والتمتّع بالرخاء على الوقوف إلى جانب الحقّ، فباعوا آخرتهم بدنياهم واتّبعوا أئمّة الجور وظلّوا في طغيانهم يعمهون. هذا فضلًا عن أنّ الدولة الأمويّة فتحت أوسع أبوابها لوعّاظ السلاطين، وحثّتهم على وضع الأحاديث التي تتناسب مع المشروع الأمويّ قبالة مدرسة الإسلام، مشروع أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة.

لقد لجأ الإمام السجّاد عليه السلام إلى تبيين الحقائق ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وسعى إلى إعادة تركيز منظومة أصول الدين في وعي الأمّة، وتحسيسها أكثر بخطورة الإمامة وعظم جناية النّاس بقتلهم إمام زمانهم. وإنّ أعظم الأدوار الّتي مارسها الإمام السجّاد عليه السلام هي أنّه دوّن الفكر الأصيل للإسلام، كالتوحيد، النبوّة، وَحقيقة المقام المعنويّ للإنسان وارتباطه بالله.

«ففي ذلك الزمن، الّذي كان يسير فيه المسلمون -في كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ- نحو الحياة المادّيّة والملذّات، بدءًا من شخص الخليفة عبد الملك بن مروان، إلى العلماء المحيطين به كمحمّد بن شهاب الزهريّ، نزولًا إلى الجميع الّذين كانوا يغوصون في بحر الدنيا والمادّيّات. ففي خضم ذلك كلّه، يقف الإمام السجّاد عليه السلام، ويقول مخاطبًا الناس: «ألا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟». ففي هذه الجملة، يوضّح الإمام عليه السلام أنّ الفكر الإسلاميّ الأصيل كان عبارة عن جعل الهدف للمعنويّات والتحرّك نحو الوصول إلى الأهداف المعنويّة والإسلاميّة، وجعل الإنسان يرتبط بالله عبر التكليف. وهذا هو الموقف المقابل تمامًا لحركة الناس المادّيّة في ذلك الزمن. كان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يقوم بعملٍ كبيرٍ لأجل أن يحفظ الفكر الأصيل للإسلام في فضاء المجتمع الإسلاميّ. وكانت هذه الحادثة بداية أعمال الإمام السجّاد عليه السلام»[١].

فالصحيفة السجاديّة، كانت بمثابة الثقل الأوّل الذي خلّفه الإمام السجّاد عليه السلام للأمّة، أمّا الثقل الثاني، فقد تجلّى بوضوح في رسالة الحقوق، وهي عمل علميّ عظيم يستدعي دراسة موضوعيّة عميقة شاملة، نقف من خلالها على أبعاد دلالتها على حركة الإمام زين العابدين عليه السلام الاجتماعيّة، وخاصّة من المنظار السياسيّ، وما استهدفه من

[١]- خامنئي، عليّ، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، م.س، ص٢١٥-٢١٦.

بيانها ونشرها. ومن المفيد الإشارة إلى مقطعين مهمّين يرتبطان مباشرة بأمور الإدارة والحياة الاجتماعيّة، وهما: حقّ السلطان على الرعيّة، وحقّ الرعيّة على السلطان.

أ. حقّ السلطان على الرعيّة:

قال عليه السلام – في حقوق الأئمّة –: وأمّا حقّ سائسك بالسلطان: فأن تعلم أنّك جُعلت له فتنة، وأنّه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان، وهو أن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه، وقد بسطت يده عليك، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه. وتذلل وتلطف لإعطائه من الرضى ما يكفّه عنك، ولا يضرّ بدينك، وتستعين عليه في ذلك بالله. ولا تُعازَّهُ ولا تُعانده، فإنك إن فعلت ذلك عَقَقْته وعققت نفسك، فعرضتها لمكروهه، وعرضته للهلكة فيك، وكنت خليقًا أن تكون مُعينًا له على نفسك، وشريكًا له في ما أتى إليك من سوء، ولا قوّة إلّا بالله[١].

ب. حقّ الرعيّة على السلطان:

وقال عليه السلام – في حقوق الرعية –: وأمّا حقّ رعيّتك بالسلطان: فأن تعلم أنّك إنّما استرعيتهم بفضل قوّتك عليهم، فإنّه إنّما أحلّهم محل الرعيّة لك ضعفهم وذلّهم. فما أولى من كَفَاكَه ضَعْفَهُ وذلّه – حتى صيّره لك رعيّة، وصيّر حكمك عليه نافذًا، لا يمتنع عنك بعزّة ولا قوّة، ولا يستنصر في ما تعاظمه منك إلّا بالله – بالرحمة والحياطة والأناة. وما أولاك – إذا عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزّة والقوّة التي قهرت بها – أن تكون لله شاكرًا، ومن شكر الله أعطاه في ما أنعم عليه، ولا قوة إلّا بالله[٢].

«والإمام عليه السلام في هاتين الفقرتين، إنّما يُخاطب من هم من عامّة الناس – سلطانًا ورعيّة ممن لا بدّ أن تربط بينهم السياسة، إذ لا بدّ للناس من أمير، على ما هو سنّة الحياة وطبيعة التكوين الاجتماعيّة، فلا بدّ أن تكون لهم حقوق، وتثبت عليهم واجبات، ترتّب بذلك حياتهم ترتيبًا طيّبًا كي يعيشوا في صفاء وودّ وخير وسعادة[٣].

[١]- الإمام زين العابدين عليه السلام، رسالة الحقوق، الحق رقم ١٥.

[٢]- م.ن، الحق رقم ١٨.

[٣]- خامنئي، علي، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، م.س.

وبناء على ذلك، نلاحظ بوضوح أنّ الإمام السجّادعليه السلام مارس الدور الفكريّ والعلميّ من خلال الأدعية التي تحمل بين طيّاتها الكثير من الأصول الفكريّة والعقائديّة التي ساهمت في التأسيس لعلم الكلام.

وإذا تأمّلنا سيرتهعليه السلام ودقّقنا مسيرته المباركة، ينكشف لنا أنّ الأدوار العلميّة الفكريّة والتربويّة والاجتماعيّة العامّة، التي أدّاها الإمام السجّاد، كانت محكومةً بعاملين اثنين، هما: عتق العبيد، واعتماد أسلوب الدعاء. وسنفصل هذين العاملين في المطلبين الآتيين:

٣. مؤسّسة العتق ونشر مبادئ النهج المحمّديّ الأصيل.

إنّ الذي يتابع حياة الإمام زين العابدينعليه السلام، يُلفتُ نظره موضوع التّعامل مع تحرير الرقيق بشكل واضح وجليّ، وخاصّة بلحاظ الظروف الصعبة التي عاشها الإمامعليه السلام، فقد لجأ إلى أوسع عمليّة إعتاق للعبيد، ولكن بطريقةٍ ممنهجةٍ ومدروسةٍ تستحقّ الوقوف عندها، والتدقيق بأهدافها، ودراسة خطواتها، وسبر أغوارها، واستخراج أسرارها.

وإذا قمنا بالمقابل بدراسة كيف تعاملت الدولة الأمويّة في ملف العبيد، عندها سوف تكتمل الصورة في فهم هذا المشروع الذي تبنّاه الإمام السجّادعليه السلام، وأخرجه من الظلمات إلى النور بخطّةٍ محكمةٍ، فَأَعْداد الرقيق والعبيد كانت تتزايد إلى حدّ كبير على إثْرِ الفتوحات الكبيرة[١]. أضف إلى أنّ الأمويين كانوا ينتهجون سياسة التفرقة العنصريّة، فيعتبرون الموالي شبه الناس[٢]. فضلاً على أنّ الجهاز الحاكم كان يعمد إلى نشر الفساد الأخلاقيّ وإثارة الفوضى في أنحاء البلاد، حتى يتمكّن من الحفاظ على جبروته من جهة وتمييع الحقائق من جهة ثانية.

وقد سعى الإمام السجّادعليه السلام إلى وضع خطّةٍ ممنهجةٍ لقضيّة الرقيق من خلال شرائهم وعتقهم بحجج مختلفة، حتى إنّه ورد أنّه لم يُبقِ أحدَهم عنده أكثر من مدّة سنة

[١]- انظر: أمين، أحمد، موسوعة فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر ويوم الإسلام، ص٩٠.

[٢]- انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، مج١٧، ص٢٨٤.

واحدة فقط، وأنّه كان مستغنيًا عن خدمتهم[١].

ومن المفيد جدًّا الالتفات إلى المعاملة الإنسانيّة الراقية التي عامل بها الإمام السجّادعليه‌السلام العبيد، حيث سعى إلى تعليمهم العلوم الإسلاميّة بطريقةٍ استدلاليّةٍ تمكّنهم من الدفاع عن الدين وردّ الشبهات بالحجج الدامغة والحكمة البالغة. هذا بالإضافة إلى تزويدهم بما يحتاجونه؛ ليزاولوا الأعمال الحرّة، كأيّ فرد من الأمّة، ولا يكونوا عالة على أحد. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على تصدّي الإمام السجّادعليه‌السلام لوجه من وجوه سياسة الدولة الأمويّة في معاملتهم للرقيق، وقد حقّقعليه‌السلام نجاحًا باهرًا في هذا المجال.

ولا ريب أنّ الإمام زين العابدينعليه‌السلام لو أراد أن يفتح مدرسةً لتعليم مجموعة من الناس، فلا بدّ أنّه كان يواجه منعًا من الجهاز الحاكم، أو عرقلة لعمله، أو رقابة شديدة على أقل تقدير، ولكنّه من خلال «برنامج العتق» أسّس لمدرسةٍ عظيمةٍ في الإنسانيّة والعلم والجهاد والكفاح بعيدًا عن أعين السلطة.

وبفضل هذه السياسة الحكيمة للإمام السجّادعليه‌السلام شكّل العبيد المحرّرون حصنًا متينًا في الدفاع عن الدين القويم.

٤. أسلوب الدعاء وأثره في نشر العلوم وأداء رسالة آل البيتعليهم‌السلام

الدعاء هو قلب الحياة المعنويّة للإنسان؛ حيث يُخاطب الإنسان واجب الوجود، ويستمدّ منه القوّة الحقيقيّة لتشعر الروح بطمأنينة وراحة في ارتقائها وعلوّها؛ حيث تطمئنّ القلوب بذكر الله تعالى، ويخرج هذا الحبّ الممزوج بالطاعة على اللسان بصيغة المناجاة. وفي رواية زرارة عن الإمام الصادقعليه‌السلام: «إنّ أفضل الدعاء ما جرى على لسانك»[٢]، ويتّضح لنا من هذا الحديث القيمة الروحيّة للدعاء، وإنّه بالأساس مناجاة داخليّة بين الإنسان وربّه.

---

[١]- ابن طاووس، رضي الدين ابو القاسم علي ابن موسى، إقبال الأعمال، ص٤٧٧.

[٢]- الحرّ العامليّ، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، مج٧، ص١٣٩.

إنّ دور الإمام في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، هو دورٌ أساسيّ وجوهريّ، ولا يُمكن التغاضي عنه قيد أنملة، إلّا أنّ الظروف التي تُحيط بكلّ إمام تجعله يلجأ إلى الأسلوب الأفضل الذي يتلاءم مع عصره في التصدّي لنشر العلوم الإلهيّة، والحفاظ على النهج المحمديّ الأصيل بالطرق المتاحة.

لقد مارس بنو أميّة شتّى أساليب التضييق والتنكيل على أهل بيت النبوّة عليهم السلام، ولم يتركوا وسيلةً في هذا المقام إلّا ولجأوا إليها. وقد عانى شيعة أهل البيت عليهم السلام من ضروب المحن والبلاء قبل قتل الإمام الحسين عليه السلام وبعد قتله؛ حيث تفنّن الأمويّون في ظلمهم وإرهاقهم، وفتكوا بهم فتكًا ذريعًا، بصلبهم على جذوع النخل، ودفنهم أحياء، وهدم دورهم، وعدم قبول شهادتهم، وحرمانهم من العطاء، وترويع نسائهم، وإذاعة الذعر والخوف في جميع أوساطهم، إلى غير ذلك من صنوف التنكيل.

لقد سخرّ الأمويون الوعّاظ في جميع أنحاء البلاد ليحجبوا قلوب الناس عن أهل البيت، ويذيعوا الأضاليل في انتقاصهم دعمًا للحكم الأمويّ، واستخدموا كلّ الأساليب غير المشروعة لدعم مشروعهم في هذا السبيل.

ففي هذه الأجواء المتبلّدة والقاسية، كان الدعاء أنجح وسيلة في ذلك العصر لنشر علوم الدين والدفاع عن هذا النهج القويم، دون مواجهة مع السلطة. فالدعاء قناة غير مباشرة في إيصال ما يريده الإمام السجّاد عليه السلام من إعادة بناء أسس الدين كما صنع جدّه النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله.

وبالتالي، فإنّ التشيّع كان يُواجه صعوبات كثيرة، حيث كانت الدولة الأمويّة قد جنّدت كلّ رموزها الفكريّة التي تغذّت على العقيدة الباطلة للقضاء على منهج أهل بيت النبوّة عليهم السلام.

وقد كان الهدف الأساس من الدعاء، توعية الأمّة وتوجيهها إلى حقائق الأمور، في الوقت الذي انعدمت فيه البصيرة، فكان لا بدّ من تربية الأمّة وتوجيهها واستنهاضها بعد الخزي والعار الذي لحق بها بعد قتلها لإمام زمانها.

فمن خلال الدعاء، كان الإمام السجّاد عليه السلام يعبّئهم لكي يقفوا بوجه السلطان الجائر ولا يقبلوا بالواقع الفاسد الذي يعيشونه، وأنّ مقاليد الأمور بيد مالك الملك ولا ينبغي أن يبيعوا دينهم بدراهم معدودة.

فنجد من خلال أدعيته المباركة الهادفة، كيف استنهض الهمم وجعل الأمّة ترتقي في مواجهتها للظلم شيئًا فشيئًا، حيث كان يحثّهم أن يحدّدوا مواقفهم في القضايا المصيريّة التي تمسّ المجتمع، وقد بدأت تظهر نتائج هذه الأمور في ازدياد الوعي، وحصلت في حياته العديد من الثورات، وأبرزها ثورة التوّابين وغيرها التي سوف نشير إليها في طيّات بحثنا.

وأمّا أسباب اللجوء إلى الدعاء كأسلوب لنشر الفكر المحمديّ الأصيل، فقد أشرنا إلى أنّ الدولة الأمويّة مارست الكثير من الظلم على أتباع أهل البيت عليهم السلام، ولم يكن هناك مجال للإمام عليه السلام أن ينشر هذه العلوم إلّا بسلوك سبل مختلفة عن أسلوب الوعظ المباشر. فسعى الإمام السجّاد عليه السلام إلى تعبئة الأمّة، واستنهاضها، وبثّ روح الجهاد فيها من خلال الأدعية التي حوت من الأسرار وجواهر الكلام الكثير من المعاني العظيمة. واستطاع من خلال ذلك استنهاض الأمّة وحثّها على تحمّل مسؤوليّتها بعد أخطر واقعة على الإطلاق، وهي واقعة الطفّ. وأسّس الإمام مدرسة الدعاء، التي يجد فيها الباحث عن الحقيقة الكثير من الأمور التي يحتاجها للوصول إلى الكمال المنشود.

وتجد في دعائه منظومة أخلاقيّة عالية المضامين، ومدرسة عظيمة لأصول الدين المتين، وسلسلة عقائديّة ممنهجة وواضحة المعالم، تمكّن من الوقوف بوجه الضلال الذي بثّه بنو أميّة من عقيدة فاسدة مبنيّة على أفكار هدّامة تشكّل خطرًا على الدين، فكان لا بدّ من أن يتصدّى الإمام السجاد عليه السلام للدفاع عن الاسلام بكافّة الطرق المتاحة، والدعاء يمكّنه من إيصال رسالته إلى أوسع شريحةٍ ممكنة، من دون أن تستشعر السلطة الخطر، ودون أن تجد المبرّر للوقوف بوجهه عليه السلام، فالدعاء ممارسة عباديّة يمارسها الجميع لا يمكن منعها وحظرها، بل لا يعقل ذلك، ولكن مضامينها تنتشر في أوساط الأمّة فتثير الوجدان، وتغيّر المفاهيم وتحسّس بالتوبة، وتعمّق روح الرفض للظلم....

وبالتالي، فإنّ المنهج الذي اتّبعه الإمام السجّاد عليه السلام في الدعاء لم يكن تربويًا فحسب، بل امتدّ ليشمل كلّ الجوانب في الرسالة الخالدة، وخاصّة في القضايا العقائديّة، حيث لجأ بنو أميّة إلى استغلال جهل الأمّة لتمييع أفكارها ومعتقداتها، فنشروا وروّجوا لمقولات منحرفة، كالجبر، والإرجاء، والتشبيه والتجسيم، وهو ما حاربه الإمام السجّاد عليه السلام من خلال الدعاء. وقد جاء في الرواية أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام كان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم، إذ سمع قومًا يشبّهون الله تعالى بخلقه، ففزع لذلك وارتاع له، ونهض حتى أتى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فوقف عنده ورفع صوته يناجي ربه، فقال في مناجاته له: «إلهي بدت قدرتك ولم تبد هيئة فجهلوك، (وقدروك بالتقدير على غير ما به أنت)، شبّهوك وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك شيء إلهي ولم يدركوك، وظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو عرفوك، وفي خلقك يا إلهي مندوحة أن يناولوك، بل سوّوك بخلقك فمن ثمّ لم يعرفوك، واتخذوا بعض آياتك ربًّا فبذلك وصفوك، فتعاليت يا إلهي عمّا به المشبّهون نعتوك»[١].

ومن هنا، نجد كيف حوّل الدعاء إلى منظومةٍ عقائديةٍ تشكّل جامعة بحدّ ذاتها، وهي التي مهّدت لجامعة الإماميّن الباقر والصادق عليهما السلام.

ولعلّ أفضل تعبير عن أهمّيّة الصحيفة السجاديّة، ما كتبه الإمام الشهيد السيد محمّد باقر الصدر في مقدّمته للصحيفة: «إنّ الصحيفة السجاديّة تعبّر عن عمل اجتماعيّ عظيم، كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام، إضافة إلى كونها تراثًا ربّانيًّا فريدًا يظلّ على مرّ الدهور مصدر عطاءٍ ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب وتظلّ الإنسانيّة بحاجة إلى هذا التراث المحمديّ العلويّ، وتزداد حاجة كلّما ازداد الشيطان إغراء والدنيا فتنة»[٢].

وقد اشتملت الصحيفة السجاديّة على أربعة وخمسين دعاءً في مختلف الموضوعات

---

[١]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج١٥، ص١٥؛ وذكره: الصدوق، الأمالي، ص٤٨٧، عن الإمام الرضا عليه السلام؛ الصدوق، محمّد علي بن الحسين بن بابويه القمي، التوحيد، ص١٢٤.

[٢]الصدر، محمّد باقر، مقدمة الصحيفة السجّاديّة الكاملة، ص ١٥

العقائديّة والأخلاقيّة والتربويّة وغيرها، وقد تضمّنت بعض هذه الأدعية آيات قرآنيّة داعمة لهذه المضامين والدلالات.

يقول السيّد محسن الأمين العامليّ: «وبلاغة ألفاظها -أي الصحيفة السجّاديّة- وفصاحتها التي لا تُبارى وعلوّ مضامينها وما فيها من أنواع التذلّل لله تعالى والثناء عليه والأساليب العجيبة في طلب عفوه وكرمه والتوسّل إليه أقوى شاهد على صحّة نسبتها، وإنّ هذا الدرّ من ذلك البحر، وهذا الجوهر من ذلك المعدن، وهذا الثمر من ذلك الشجر، مضافًا إلى اشتهارها شهرة لا تقبل الريب، وتعدّد أسانيدها المتّصلة إلى منشئها صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين، فقد رواها الثقات بأسانيدهم المتعدّدة المتّصلة إلى زين العابدين عليه السلام، وقد كانت منها نسخة عند زيد الشهيد، ثمّ انتقلت إلى أولاده، وإلى أولاد عبد الله بن الحسن المثنّى، كما هو مذكور في أوّلها، مضافًا إلى ما كان عند الإمام الباقر عليه السلام من نسختها، وقد اعتنى بها عامّة الناس فضلًا عن العلماء اعتناء بروايتها وضبط ألفاظها ونسخها، وواظبوا على الدعاء بأدعيتها في الليل والنهار والعشيّ والإبكار».[١] ولأهمّيّة هذه المقاصد الشريفة التي وضعها الإمام داخل الصحيفة، فقد حظيت باهتمام بالغ من قبل العلماء والمفكّرين في جميع مراحل التأريخ، ووضعت لها شروح كثيرة باللغتين العربيّة والفارسيّة، وتُرجمت إلى لغات مختلفة، وقد عدّ العلّامة أغا بزرك الطهراني لهذه الصحيفة من الشروح أكثر من مائة وخمسين شرحًا في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، إضافة إلى الترجمات[٢].

ثانيًا: الأدوار العقائديّة والكلاميّة للإمام السجّاد عليه السلام

١. بيان الأصول العقائديّة وإثباتها

إنّ حفظ الدين من أوكد واجبات الإمام المعصوم، وقد سعى الإمام السجّاد عليه السلام لترسيخ المفاهيم العقديّة الصحيحة والأصيلة في وعي الأمّة ووجدانها، مقابل التزييف الأمويّ للدين والتحريف المكشوف للإسلام، وكان سعيُه في محاور أربعة:

[١]- الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج١، ص٦٨٣.

[٢]- الطهراني، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ص٣٧.

الأوّل: نشر العلم وحثّ الناس على طلبه لمواجهة التجهيل الأمويّ وسياسات التضليل والتحريف، ونجد كلمات عديدة للإمام في هذا السياق، منها: «لو علم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج..»[١].

الثاني: إعادة تصويب وبلورة الفكر المحمديّ الأصيل بعد أن سعى بنو أميّة إلى تحريف الدين عن مواضعه، ومن ضمنها تحصين العقيدة وبيان مفاهيمها الأصيلة والعمل على ردّ الشبهات.

الثالث: التأكيد على أحقّيّة أهل البيت عليهم السلام بالخلافة وأنّ الإمامة أصلٌ أساسيٌّ من أصول الدين.

الرابع: تأسيس نواة من الأصحاب والمقرّبين لأهل بيت النبوّة وتأهيلهم للدفاع عن دعائم الدين.

ولنفصّل روايات الإمام وأدعيته في بيان وتأكيد الأصول الاعتقاديّة:

أ. التوحيد:

إنّ قضيّة التوحيد هي الأساس في الدعوة إلى الله تعالى، وقد ركّز الإمام السجاد عليه السلام على هذه القضيّة، إذ إنّ الأمّة كانت تحتاج إلى إعادة بناءٍ عقائديٍّ على أسسٍ راسخةٍ وواضحة. فسعى إلى توطيد الأسس العقائديّة بأسلوب بيانيّ واضح وجليّ يحمل بين طيّاته الكثير من المعاني العميقة، والتي يمكن من خلالها دحض الشرك الذي أسّس له بنو أمية بطريقة ممنهجة، فتمكّن الإمام عليه السلام من التغلغل في معتقداتهم الباطلة ليصل إلى إظهار التوحيد مع إبراز الحجج الدامغة على ذلك. وقد جعل الإمام السجّاد عليه السلام أسسًا خاصّة في المعرفة والتوحيد، وقد أدلى بها إلى الصحابيّ الجليل جابر بن يزيد الجعفيّ حين سأله: يا جابر، أوتدري ما المعرفة؟ المعرفة إثبات التوحيد أولًا؛ ثمّ معرفة المعاني ثانيًا؛ ثمّ معرفة الأبواب ثالثًا؛ ثمّ معرفة الإمام رابعًا؛ ثمّ معرفة الأركان خامسًا؛ ثمّ معرفة النقباء سادسًا؛ ثمّ معرفة النجباء سابعًا؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩)».

---

[١] الكلينيّ، أصول الكافي، م.س، ج١، ص٣٥.

وتلا أيضًا قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧).

يا جابر؛ مولاك أمرك إثبات التوحيد ومعرفة المعاني، أمّا إثبات التوحيد معرفة الله القديم الغائب الذي ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣) وهو غيب باطن، ستدركه كما وصف به نفسه، وأمّا المعاني فنحن معانيه ومظاهره فيكم، اخترعنا من نور ذاته وفوّض إلينا أمور عباده، فنحن نفعل بإذنه ما نشاء، ونحن إذا شئنا شاء الله، وإذا أردنا أراد الله، ونحن أحلّنا الله عزّ وجلّ هذا المحلّ واصطفانا من بين عباده وجعلنا حجّته في بلاده، فمن أنكر شيئًا وردّه فقد ردّ على الله جلّ اسمه وكفر بآياته وأنبيائه ورسله. يا جابر؛ من عرف الله تعالى بهذه الصفة فقد أثبت التوحيد، لأن هذه الصفة موافقة لما في الكتاب المنزل وذلك قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣). وقوله تعالى:

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٣)[١].

ومن هنا ليس من باب الصدفة أن نجد في أوّل دعاء في الصحيفة السجاديّة أنّ الإمام السجّاد عليه السلام قد سعى إلى بيان صفات الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عمّا نسبه إليه بنو أميّة وغيرهم، فجاء في الدعاء: «الحمدُ لله الأوّلِ بلا أوّلٍ كانَ قبلَهُ، والآخر بلا آخرٍ يكونُ بعدَهُ، الذي قصُرتْ عن رؤيته أبصارُ الناظرين، وعجزت عن نعته أوهامُ الواصفين. ابتدع بقدرته الخلقَ ابتداعًا، واختَرعهُم على مشيّته اختراعًا، ثمّ سلكَ بهم طريقَ إرادته، وبَعَثَهُم في سبيل محبتهِ. لا يملكون تأخيرًا عما قدّمهم إليهِ، ولا يستطيعون تقدّمًا إلى ما أخّرَهُم عنهُ، وجعلَ لكلّ رُوح منهم قوتًا معلومًا مقسومًا من رزقه، لا ينقُصُ من زادهُ ناقصٌ، ولا يزيدُ من نَقَصَ منهم زائدٌ...»[٢].

[١]- الحائري، علي اليزدي، إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، ج١، ص٣٨.

[٢]- الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الأول، التحميد لله عز وجل.

فالإمام السجّاد عليه السلام يُثبتُ عقيدة التوحيد وينفي الشرك عنه تعالى، مؤكّدًا أنّه جلّ وعلا هو (الأوّل والآخر)، وأنّ هذه الصفات ثابتة للذات الإلهيّة، وأنّه غنيّ عن العالمين، ولا بدّ أن يلجأ العبد إلى الله تعالى من خلال الاعتراف بذلّ العبوديّة حتى يرفعه الباري تعالى إلى عزّ الربوبيّة.

ويؤكّد الإمام السجّاد عليه السلام على عدم قدرة المخلوقين على وصف عظمة الله تعالى وإدراكها، فقال: لو اجتمع أهل السماء والأرض أن يصفوا الله بعظمته لم يقدروا»[١].

وقد أكّد عَلَيْهِ السلام أنّ التوحيد أمان المؤمن من الهلاك، فقال: لَا يَهْلِكُ مُؤْمِنٌ بَيْنَ ثَلَاثِ خِصَالٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَشَفَاعَةِ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وسَعَةِ رَحْمَةِ اللهَّ جَلَّ وَعَز[٢].

وفي الكافي، عن مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ عَنِ النَّضْرِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ قَالَ: سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ فَأَنْزَلَ اللهُّ تَعَالَى قُلْ هُوَ اللهُّ أَحَدٌ وَالْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ إِلَى قَوْلِهِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ، فَمَنْ رَامَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ[٣].

ب. العدل:

إنّ العدل في العرف هو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهو من الأصول الثابتة في هذا الدين القويم، وبالعدل قامت السماوات والأرضون، وبه أظهر الله تعالى الحقّ المبين. ولم يغفل الإمام زين العابدين عليه السلام عن تبيان هذا الأصل، خاصّة في ظلّ الجور والظلم الذي تمادت به بنو أميّة إلى أبعد حدود، فنجد في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: وقد علمتُ أنّه ليس في حكمك ظلم، ولا في نقمَتِك عَجلَة، وإنما يَعْجَلُ من يخافُ الفوْتَ، وإنّما يحتاجُ إلى الظلمِ الضعيفُ، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علوًّا كبيرًا[٤].

---

[١]- الكلينيّ، أصول الكافي، م.س، ج١، ص١٠٢.

[٢]- الحليّ، ابن سعيد، نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر، ص٨٩.

[٣]- الكلينيّ، أصول الكافي، م.س، مج١، ص٩١.

[٤]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج٨٨، ص٢٤.

ففي هذا الدعاء، تحدّث الإمامعليه السلام عن تنزيه الله تعالى عن الظلم بطريقة استدلاليّة، حيث إنّ الظلم قبيح عقلًا وشرعًا، والعقل يحكم أنّ الذي يحتاج إلى الظلم هو الضعيف، وينزّه الذات الإلهيّة عن ذلك، فالغنيّ المطلق لا يحتاج إلى ذلك تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وفي الوقت نفسه، فإنّ بني أميّة الذين تمادوا في طغيانهم وظلمهم، وجدوا خطرًا كبيرًا من خلال الثورة العلميّة التي أحدثها الإمام السجّادعليه السلام بالدعاء.

وقد أكّد الإمام السجّادعليه السلام على قضيّة العدل، فاعتبره من المنجيات، فعن عليّ بن الحسينعليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: ثلاث منجيات: خوف الله في السرّ والعلانية، والعدل في الرضى والغضب، والقصد في الغنى والفقر[١].

وإذا اطّلعنا على رسالة الحقوق، فإنّ في كلّ حقّ يكمن دليلٌ على قضيّة العدل؛ لأنّ العدل يعني إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، والإمامعليه السلام أورد بالتفصيل كلّ هذه الحقوق. ويُروى عن الإمام زين العابدينعليه السلام وقد سُئل عن جميع شرائع الدين؟ أنّه قال: «قول الحقّ، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد»[٢].

فالإمامعليه السلام يؤكّد على أنّ الحكم بالعدل من الأمور الأساسيّة، والله تعالى غنيّ عن العالمين ولا يحتاج أن يظلم أحدًا تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ت. النبوّة:

إنّ بيان أصول الدين وإعادة الأمّة إلى فهم العقائد الصحيحة بعد أن ضيّعت مفاهيم كثيرة وانحرفت عن الطريق القويم من الأمور الأساسيّة التي سعى إليها الإمامعليه السلام، وكانت شغله الشاغل. فبعد بيان قضيّة التوحيد، كان لا بدّ من إعادة الأمّة إلى رشدها وبلورة فكرة النبوّة بطريقة لا يمكن لأيّ أحد إنكارها.

فقد أشار الإمام إلى مقام محمّد وآل محمّدعليهم السلام بوصفهم امتدادًا للرسالة الإسلاميّة، قال: «اللهُم يا من خصّ محمّدًا وآلَه بالكرامة وخصّصَهم بالوسيلةِ وجَعَلَهُم ورثة

[١]-الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، مج١، ص١٠٥.
[٢]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، مج١٦، ص١٢٥.

الأنبياء وختمَ بِهِم الأوصياءَ والأئمّة وعلّمَهم علم ما كانَ وما بقيَ وجعلَ أفئدةً من الناس تهوي إليهم. فصلّ على محمدٍ وآله الطاهرين، وافعل بنا ما أنت أهله في الدين والدنيا والآخرة، إنّك على كلّ شيء قدير»[١].

فإنّ الإمام عليه السلام لم يترك فرصةً لإظهار مقام أهل البيت عليهم السلام وأنّهم امتداد النبوّة إلّا وأظهرها في قالب الدعاء، فوصف محمّدًا وآله بالكرامة، وأنّ لهم المكانة الرفيعة التي تميّزهم عن بقية الخلق، وأنّهم الوسيلة إلى الله تعالى. فضلًا عن أنّ الإمام السجاد عليه السلام افتتح أغلب أدعيته بالصلاة على محمّد وآل محمّد، وهو بذلك يريد أن يشير إلى أنّهم هم الذين يتولّون تزكية النفوس وتهذيبها وإعادتها إلى الله تعالى طاهرة نقيّة من أيّ شائبة، حيث لا يمكن لأيّ أحد أن يضاهيهم في هذه المرتبة العظيمة.

عَنْ أَبِي الْجَارُودِ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «مَا يَنْقِمُ النَّاسُ مِنَّا! فَنَحْنُ وَاللهِ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَبَيْتُ الرَّحْمَةِ، وَمَعْدِنُ الْعِلْمِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ»[٢].

ويكفي ما جاء في خطبته المباركة في مجلس الطاغية يزيد في إبراز مقام النبوّة بأرقى معانيها وأبلغ مضامينها. قَالَ صَاحِبُ الْمَنَاقِبِ وَغَيْرُهُ، رُوِيَ أَنَّ يَزِيدَ أَمَرَ بِمِنْبَرٍ وَخَطِيبٍ لِيُخْبِرَ النَّاسَ بِمَسَاوِي الْحُسَيْنِ وَعَلِيٍّ عليهما السلام وَمَا فَعَلَا، فَصَعِدَ الْخَطِيبُ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ أَكْثَرَ الْوَقِيعَةَ فِي عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَأَطْنَبَ فِي تَقْرِيظِ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ لَعَنَهُمَا اللهُ، فَذَكَرَهُمَا بِكُلِّ جَمِيلٍ. قَالَ: فَصَاحَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: «وَيْلَكَ أَيُّهَا الْخَاطِبُ! اشْتَرَيْتَ مَرْضَاةَ الْمَخْلُوقِ بِسَخَطِ الْخَالِقِ؛ فَتَبَوَّأْ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ»، ثُمَّ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «يَا يَزِيدُ ائْذَنْ لِي حَتَّى أَصْعَدَ هَذِهِ الْأَعْوَادَ، فَأَتَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ للهِ فِيهِنَّ رِضًى ولِهَؤُلَاءِ الْجُلَسَاءِ فِيهِنَّ أَجْرٌ وَثَوَابٌ»؟ قَالَ: فَأَبَى يَزِيدُ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ائْذَنْ لَهُ فَلْيَصْعَدِ الْمِنْبَرَ، فَلَعَلَّنَا نَسْمَعُ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَالَ: إِنَّهُ إِنْ صَعِدَ لَمْ يَنْزِلْ إِلَّا بِفَضِيحَتِي وَبِفَضِيحَةِ آلِ أَبِي سُفْيَانَ!

فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا قَدْرُ مَا يُحْسِنُ هَذَا؟!

[١]- الصحيفة السجّاديّة الدعاء رقم ٤٦.

[٢]- الكلينيّ، أصول الكافي، م. س، مج١، ص٢٢١.

فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ قَدْ زُقُّوا الْعِلْمَ زَقًّا.

قَالَ: فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَذِنَ لَهُ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً أَبْكَى مِنْهَا الْعُيُونَ وَأَوْجَلَ مِنْهَا الْقُلُوبَ.

ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أُعْطِينَا سِتًّا وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ، أُعْطِينَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالسَّمَاحَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفُضِّلْنَا بِأَنَّ مِنَّا النبيّ الْمُخْتَارَ مُحَمَّدًا، وَمِنَّا الصِّدِّيقُ، وَمِنَّا الطَّيَّارُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ، وَمِنَّا سِبْطَا هَذِهِ الْأُمَّةِ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي أَنْبَأْتُهُ بِحَسَبِي وَنَسَبِي. أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا ابْنُ مَكَّةَ وَمِنَى، أَنَا ابْنُ زَمْزَمَ وَالصَّفَا، أَنَا ابْنُ مَنْ حَمَلَ الرُّكْنَ بِأَطْرَافِ الرِّدَا. أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنِ ائْتَزَرَ وَارْتَدَى، أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنِ انْتَعَلَ وَاحْتَفَى، أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنْ طَافَ وَسَعَى. أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَنْ حَجَّ وَلَبَّى، أَنَا ابْنُ مَنْ حُمِلَ عَلَى الْبُرَاقِ فِي الْهَوَاءِ.

أَنَا ابْنُ مَنْ أُسْرِيَ بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، أَنَا ابْنُ مَنْ بَلَغَ بِهِ جَبْرَائِيلُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.

أَنَا ابْنُ مَنْ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، أَنَا ابْنُ مَنْ صَلَّى بِمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، أَنَا ابْنُ مَنْ أَوْحَى إِلَيْهِ الْجَلِيلُ مَا أَوْحَى.

أَنَا ابْنُ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى، أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى، أَنَا ابْنُ مَنْ ضَرَبَ خَرَاطِيمَ الْخَلْقِ حَتَّى قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

أَنَا ابْنُ مَنْ ضَرَبَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ بِسَيْفَيْنِ، وَطَعَنَ بِرُمْحَيْنِ، وَهَاجَرَ الْهِجْرَتَيْنِ، وَبَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ، وَقَاتَلَ بِبَدْرٍ وَحُنَيْنٍ، وَلَمْ يَكْفُرْ بِاللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، أَنَا ابْنُ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَارِثِ النَّبِيِّينَ، وَقَامِعِ الْمُلْحِدِينَ، وَيَعْسُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَنُورِ الْمُجَاهِدِينَ، وَزَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَتَاجِ الْبَكَّائِينَ، وَأَصْبَرِ الصَّابِرِينَ، وَأَفْضَلِ الْقَائِمِينَ مِنْ آلِ يَاسِينَ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ....... فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ أَنَا أَنَا حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، وَخَشِيَ يَزِيدُ لَعَنَهُ اللهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةٌ فَأَمَرَ الْمُؤَذِّنَ فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَلَمَّا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ. قَالَ عَلِيٌّ: لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ.

فَلَمَّا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: شَهِدَ بِهَا شَعْرِي وبَشَرِي ولَحْمِي ودَمِي.

فَلَمَّا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

الْتَفَتَ مِنْ فَوْقِ الْمِنْبَرِ إِلَى يَزِيدَ، فَقَالَ: «مُحَمَّدٌ هَذَا جَدِّي أَمْ جَدُّكَ يَا يَزِيدُ؟ فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ جَدُّكَ فَقَدْ كَذَبْتَ وَكَفَرْتَ، وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ جَدِّي فَلِمَ قَتَلْتَ عِتْرَتَهُ؟! قَالَ: وَفَرَغَ الْمُؤَذِّنُ مِنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَتَقَدَّمَ يَزِيدُ فَصَلَّى صَلَاةَ الظُّهْرِ[١].

فمن خلال هذه الخطبة، نرى كيف وظّف الإمام السجّاد عليه السلام هذا الموقف ليظهر مقام النبوّة أمام الملأ، الأمر الذي جعل يزيد بن معاوية بجبروته وطغيانه يقطع خطبته ويتلعثم في الردّ عليه، فحوّل الإمام عليه السلام القطع برفع الآذان دليلًا قويًّا على النبوّة.

ونجد الإنسيابيّة والتسلسل أيضًا بجعل هذه الأمّة تعود إلى أصول الدين التي سعى بنو أميّة إلى سلبها من الأمّة. فبعد إثبات موضوع النبوّة يلجأ إلى قضيّة الإمامة.

ث. الإمامة:

إنّ قضيّة الإمامة من القضايا الأساسيّة والجوهريّة في هذا الدين القويم، وهي العلامة الفارقة للإماميّة وللنهج المحمديّ الأصيل، وقد سعى الإمام السجّاد عليه السلام إلى بلورتها من جديد في أذهان الأمّة، وربطها بمصدرها الأساسيّ، وأنّها تعيين إلهيّ محض، ولا أحد يمكنه أن يعيّن الإمام إلّا الله تعالى كالنبوّة.

وقد كان الإمام عليه السلام يتخيّر الظروف الزمانيّة والمكانيّة لأدعيته. ففي يوم عرفة، وفي لحظات توجّه القلوب إلى ابن رسول الله عليه السلام، لكي تخشع بما تسمع، نرى الإمام عليه السلام يصدع بهذا الدعاء:

«اللهمّ إنّك أيّدت دينك في كلّ أوان بإمام أقمته علمًا لعبادك، ومنارًا في بلادك

[١]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، مج٤٥، ص١٣٧.

بعد أن وصلت حبله بحبلك، والذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذّرت معصيته، وأمـــرت بامتثال أوامره، والانتهاء عند نهيه، وألّا يتقدّمه متقدّم، ولا يتأخّر عنه متأخّر، فهـو عصمة اللّائذين، وكهف المؤمنين، وعروة المتمسّكين، وبهاء العالمين.

ربّ صلّ على أطائب أهل بيته الذين اخترتهم لأمرك وجعلتهم... حفظة دينك وخـــلفاءك في أرضك وحججك على عبادك...

اللهمّ صلّ على محمّد وآله كما شرّفتنا به، وصلّ على محمّد وآله كما أوجبت لنا الحقّ على الخلق بسبب.

اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وتولّني في... موالي العارفين بحقّنا والمنابذين لأعدائنا بأفضل ولايتك.

اللهمّ صلّ على أوليائهم... المنتظرين أيّامهم، المادّين اليهم أعينهم، الصلوات المباركات الزاكيات الناميات الغاديات الرائحات».[١]

ومضامين هذا الدعاء لا توجّه الناس إلى حقائق الأمور فقط، بل إنّها أيضا تهزّ عرش بني أميّة، حيث إنّها تفضح أسرارهم بطريقةٍ ممنهجةٍ وهادفة، وتبيّن أنّ هذا التعيين منحصرٌ بربّ العالمين للذين تجلّت فيهم هذه الصفات الإلهيّة العظيمة وحملوا الأمانة الإلهيّة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال فأشفقن منها ولم يتمكّنوا من حملها، فكانت الإمامة وعاء لهذه الأمانة بعد النبوّة.

وقد حرص الإمام السجّاد عليه السلام كلّ الحرص على قضيّة الإمامة، ولم يترك مناسبة لذلك إلّا أظهرها. فعن أبي حمزة الثمالي عن أبي خالد الكابلي قال: دخلت على سيّدي علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام فقلت له: يا ابن رسول الله! أخبرني بالذين فرض الله طاعتهم ومودّتهم، وأوجب على خلقه الاقتداء بهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال لي عليه السلام: يا كنكر! إنّ أُولي الأمر الذين جعلهم الله أئمّة الناس وأوجب عليهم طاعتهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ انتهى الأمر إلينا، ثمّ سكت.

---

[١]- الصحيفة السجّاديّة، الدعاء رقم ٤٧.

فقلت له: يا سيّدي! روي لنا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: لا تخلو الأرض من حجّة لله على عباده، فمن الحجّة والإمام بعدك؟

قال عليه السلام: ابني محمّد، واسمه في التوراة باقر يبقر العلم بقرًا، هو الحجّة والإمام بعدي، ومن بعد محمّد ابنه جعفر اسمه عند أهل السماء الصادق، فقلت له: يا سيّدي فكيف صار اسمه: الصادق وكلّكم صادقون؟

فقال عليه السلام: حدّثني أبي عن أبيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (إذا ولد ابني جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب فسمّوه الصادق، فإنّ الخامس من ولده الذي اسمه جعفر يدّعي الإمامة اجتراءً على الله وكذبًا عليه، فهو عند الله (جعفر الكذّاب) المفتري على الله، المدّعي لما ليس له بأهل، المخالف على أبيه، والحاسد لأخيه، ذلك الذي يكشف سرّ الله عند غيبة وليّ الله.

ثمّ بكى عليّ بن الحسين عليهما السلام بكاءً شديدًا، ثمّ قال: كأنّي بجعفر الكذّاب وقد حمل طاغية زمانه على تفتيش أمر وليّ الله، والمغيّب في حفظ الله، والتوكيل بحرم أبيه جهلًا منه بولادته، وحرصًا على قتله إن ظفر به، طمعًا في ميراث أبيه حتّى يأخذه بغير حقّه.

قال أبو خالد: فقلت له: يا ابن رسول الله وإنّ ذلك لكائن؟ فقال عليه السلام: أي وربّي إنّه المكتوب عندنا في الصحيفة التي فيها ذكر المحن التي تجري علينا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال أبو خالد: فقلت: يا بن رسول الله ثمّ يكون ماذا؟

فقال عليه السلام: ثمّ تمتدّ الغيبة بوليّ الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة بعده، يا أبا خالد، إنّ أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل أهل كلّ زمان، لأنّ الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف، أُولئك المخلصون حقًّا، وشيعتنا صدقًا، والدعاة إلى دين الله سرًّا وجهرًا.

وقال عليه السلام: انتظار الفرج من أعظم الفرج[١].

---

[١]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج٣٦، ص٣٨٦.

وعن الإمام جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عليّ بن الحسين عليهم السلام قال: نحن أئمّة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغرّ المحجّلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان لأهل الأرض، كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منّا لساخت الأرض بأهلها[١].

ج. المعاد:

إنّ الإيمان بالمعاد هو الميزان الذي يجعل الإنسان يعمل لله تعالى ويستشعر عظمة مسؤوليته أمامه، ولولا الاعتقاد بهذا الأصل لعمّت الفوضى العالم أجمع، حيث يشعر الإنسان أنّه لا رقيب على أعماله ولا حسيب على أفعاله. ولولا الإيمان بالوقوف بين يديّ الله تعالى، يوم تنشر الصحف ويجد الإنسان ما عمله وقدّمه حاضرًا، لكان العباد يعيشون العبثيّة ويسيرون دون هدف واضح، ولعمّت الفوضى البشريّة جمعاء. ولكان من المحال تحقيق العدالة الموعودة؛ إذ إنّه توجد الكثير من الأعمال التي لا تكفي هذه الحياة الدنيا لنيل ثوابها، فضلًا عن الأعمال التي يرتكبها المفسدون في الأرض، ولا بدّ أن يخلّدوا عليها في النار.

وقد أشار الإمام السجّاد عليه السلام إلى هذا الأصل في صحيفته السجّاديّة بقوله: اللهم ومتى وقفنا بين نقصين في دين أو دنيا، فأوقع النقص بأسرعهما فناء، واجعل التوبة في أطولهما بقاء. اللهم ارزقنا خوف عقاب الوعيد، وشوق ثواب الموعود، حتى نجد لذّة ما ندعوك به، وكآبة ما نستجيرك منه. اللهم صل على محمد وآله... واكسنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا[٢].

وعليه، فإنّ الإمام السجّاد عليه السلام بيّن أصول الدين الخمسة من خلال الدعاء، ولم

[١]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، مج ٢٦، ص٣٦٨.

[٢]- الصحيفة السجّاديّة للإمام زين العابدين عليه السلام، الدعاء رقم ٤٥ دعاء وداع شهر رمضان..

يكتفِ بذلك، بل سعى إلى بيان المعارف الإسلاميّة في الصحيفة السجّاديّة وغيرها من الأدعية، بالإضافة إلى المواعظ التي كان لها دور كبير في نشر المعارف الإسلاميّة.

وتجدر الإشارة إلى ما امتاز به البيان السجّاديّ للمعارف العقديّة، ونركّز هنا على خصوصيّتين:

الأولى: ما نلاحظه في روايات الإمام، وخاصّة في أدعيته، سلوكه منهج التذكير، فالأسلوب البيانيّ للإمام لم يكن تعليميًّا مباشرًا، بل هو في الغالب نوع من إنعاش الذاكرة، أي إنّ الإمام لم يكن يجلس ليبيّن للنّاس دقائق التوحيد، أو ليفسّر لهم مسألة النبوّة، أكثر ممّا كان ويذكّرهم بها؛ وذلك لأنّ المجتمع الّذي كان يعيش فيه الإمام السجّاد عليه السلام لم تكن تفصله عن مرحلة النبيّ صلى الله عليه وآله مسافة زمنيّة كبيرة حتّى ينحرف كلّيًّا عن العقائد الإسلاميّة. بل كان هناك الكثير من الأشخاص الّذين عايشوا رسول الله صلى الله عليه وآله ومرّت عليهم مرحلة الخلفاء، وقد عاصروا أئمّتنا العظام من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام. ومن الناحية الاجتماعيّة، لم يصل الوضع إلى الانهيار الكامل؛ بل لا يزال، رغم كلّ العظائم التي مارستها السلطة، متماسكًا. نعم، كانت الثقافة الدينيّة مهدّدة بسبب استغراق الناس في ملاذّ الحياة نتيجة الرفاه الذي عاشه المجتمع، ولتشجيع السلطة على التسيّب والتهتّك وعدم الالتزام.

الثانية: مقاربة موضوع الإمامة وأحقّيّة أهل البيت بكلّ ما فيه من حساسيّة إزاء سلطة ترى في آل محمد صلى الله عليه وآله خصمًا وتهديدًا وجوديًّا، بنفس الأسلوب الوعظيّ حتى لا يثير ريبة الحكام وأزلامهم، فالإمام السجّاد عليه السلام أراد أن يُعيد الأمة إلى صوابها، ويستخرج منها كادرًا مؤهّلًا يُساهم في حصانة هذا الدين، ويقف في وجه الطغاة والمنحرفين في الدولة الأمويّة التي تسعى لمحو أصول الدين وتعاليمه العظيمة. فقد ورد عنه سلام الله عليه: «وإنّ الأمور الواردة عليكم في كلّ يوم وليلة من مظلمات الفتن وحوادث البدع وسنن الجور وبوائق الزمان وهيبة السلطان ووسوسة الشيطان»[١].

---

[١]- الكلينيّ، أصول الكافي، م.س، مج٨، ص١٤.

٢. تبيين فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم وعظمة موالاتهم.

أ. في تبيين فضائل أهل البيت عليهم السلام

لقد سعى الإمام السجّاد عليه السلام إلى إبراز مكانة أهل البيت عليهم السلام، بعد أن حاولت الدولة الأمويّة نزع هذه القدسيّة إثر واقعة كربلاء، إلّا أنّه سلام الله عليه لم يكن ليترك أيّ فرصة حتى يبيّن عظمة ومكانة أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، الأمر الذي أقلق مضجع بني أميّة وهزّ أركان عروشهم، فبذلوا قصارى جهدهم لإخفاء هذه الفضائل، إلّا أنّ الله تعالى متمّ نوره ولو كره المشركون. فلم يترك الإمام زين العابدين عليه السلام فرصة لإظهار هذا الحقّ إلا واستفاد منها، وقد سعى إلى إبراز مكانة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، وإظهار فضائله بعد أن انتهج بنو أميّة سبّه على المنابر، حتى أصبحت المسألة عندهم أشبه بالفريضة الواجبة، وهذا الأمر الذي أقلق الدولة الأمويّة بشكل كبير. ففي الحديث أنّ جابرًا قال له: ما هذا الجهد الذي كلّفته نفسك؟... يا بن رسول الله، البقيا على نفسك، فإنّك من أسرة بهم يُستدفع البلاء، وبهم تستكشف اللأواء، وبهم تستمسك السماء؟ فقال الإمام: يا جابر، لا أزال على منهاج أبويّ مؤتسيًا بهما حتّى ألقاهما. فأقبل جابر على من حضر، فقال: ما رؤي في أولاد الأنبياء مثل عليّ بن الحسين، إلّا يوسف بن يعقوب، والله لذرية عليّ بن الحسين أفضل من ذرّية يوسف[١].

وفي حديث عن الصادق عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا أخذ كتاب عليٍّ عليه السلام فنظر فيه قال: من يطيق هذا؟ من يطيق هذا؟[٢].

وبهذه الكيفيّة ينبّه الإمام عليه السلام إلى مقام جدّه عليه السلام، وعظمة الإمام عليّ عليه السلام، في بيئة سنّ فيها بنو أميّة سبّ أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر؛ لأجل أن يُضفوا على السقيفة نصرًا كاذبًا. وهكذا أثبت الإمام السجّاد عليه السلام أنّ كلّ هذه الفضائل الموجودة عندهم أهل البيت عليهم السلام، هي عند أمير المؤمنين عليه السلام بشكل أعلى وأرقى.

ومن الدّلالات المهمّة على بيان مكانة آل محمّد صلى الله عليه وآله والصّدع بها، افتتاحه كلّ أدعية

[١] المجلسي، بحار الأنوار، م. س، مج ٤٦، ص ٧٩.

[٢]- م.ن، مج ٤٦، ص١٠٤.

الصحيفة بالصلاة على محمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله. بل قد خصّص دعاء لذلك أيضًا، وجاء فيه: وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دُونَ الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ السَّالِفَةِ بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لاَ تَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ عَظُمَ، وَلا يَفُوتُهَا شَيْءٌ وَإِنْ لَطُفَ، فَخَتَمَ بِنَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ ذَرَأَ وَجَعَلَنَا شُهَدَاءَ عَلَى مَنْ جَحَدَ، وَكَثَّرَنا بِمَنِّهِ عَلَى مَنْ قَلَّ.».... إلى أن يقول الإمام عليه السلام: «اللَهُمَّ فَارْفَعْهُ بِمَا كَدَحَ فِيكَ إِلَى الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ، حَتَّى لاَ يُسَاوَى فِي مَنْزِلَةٍ وَلا يُكَافَأَ فِي مَرْتَبَةٍ وَلاَ يُوَازِيَهُ لَدَيْكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نبيٌّ مُرْسَلٌ، وَعَرِّفْهُ فِي أَهْلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأُمَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُسْنِ الشَّفَاعَةِ أَجَلَّ مَا وَعَدْتَهُ يَا نَافِذَ الْعِدَةِ يَا وَافِيَ الْقَوْلِ يَا مُبَدِّلَ السَّيِّئات بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ»[١].

إنّ المكانة القدسيّة والعلميّة لأهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة لا يمكن لأيّ أحد أن ينال منها، فرغم كلّ المحاولات التي سعت إليها الدولة الأمويّة لإخفاء هذه المكانة إلّا أنّهم أخفقوا في ذلك، خاصّة أنّهم سلام الله عليهم هم الامتداد الحقيقيّ للنبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله، وقد أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله في كتابه العزيز أن يجعل مودّتهم أجرًا للرسالة الإسلاميّة الخالدة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ (الشورى: ٢٣)، بالإضافة إلى آية المباهلة الواضحة والتي تدلّ على علوّ شأنهم أيضًا، والتي لا يمكن لأيّ أحد إنكارها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

وآية التطهير، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

فضلًا عن النصوص الدينيّة الوافرة والمستفاضة في هذا المقام، والتي تحكي عن فضلهم ومقامهم عند الله تعالى، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بالتمسّك بهم في وصيّته

[١] الصحيفة السجادية الدعاء الثاني، دعاء الصلاة على محمد وآله.

لأمّته بقوله: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يرِدَا عليَّ الحوض»[١].

ومن هنا، فإنّ الأفضليّة المطلقة لأهل البيت عليهم السلام، وإن كانت من مختصّات العقيدة الأساسيّة عند الإماميّة، ولكن فضائلهم وعظمتهم عليهم السلام لا يمكن أن تخفى على أحد، حتّى عن الذين ينصبون لهم العداء، كبني أميّة الذين لم يستطيعوا دحض هذه الفضائل أو التقليل منها رغم كلّ الجهود التي بُذلت في هذا المقام.

ويكفي شاهدًا على ذلك، قصيدة الفرزدق في حقّ الإمام السجّاد عليه السلام في ظلّ الدولة الأمويّة، حيث ورد أنّه حجّ هشام بن عبد الملك، فلم يقدر على الاستلام من الزحام، فنُصب له منبر فجلس عليه وأطاف به أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل عليّ بن الحسين عليه السلام وعليه إزار ورداء، من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم رائحة، بين عينيه سجّادة كأنّها ركبة عنز، فجعل يطوف فإذا بلغ إلى موضع الحجر تنحّى الناس حتّى يستلمه هيبة له، فقال شامي: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أعرفه، لئلّا يرغب فيه أهل الشام، فقال الفرزدق وكان حاضرًا: لكنّي أنا أعرفه، فقال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فأنشأ قصيدة ذكر بعضها في الأغاني، والحلية، والحماسة، وجاء في القصيدة[٢]:

يا سائلي أين حلّ الجود والكرم؟	عندي بيان إذا طلابه قدموا
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم	هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم.

وهذه الحادثة تدلّ بوضوح على أنّ مقام أهل بيت النبّوة وفضائلهم، كانت كالشمس الساطعة في وسط النهار ولا يمكن لغيوم التضليل أن تحجبها؛ لأنّ نورها يخرق السحب ليصل إلى وجدان الأمّة.

[١]الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، م.س، ج٢٧، ص٣٤.
[٢]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، م.س، ج٣، ص٣٠٦.

ب. في عظمة موالاة أهل البيت عليهم السلام

في إظهار عظمة موالاة أهل البيت عليهم السلام: اهتم الإمام السجّاد عليه السلام بوصف شيعته، فلم يترك مناسبة إلّا وأكّد على أهمّ صفاتهم من جهة، وفضلهم من جهة ثانية، فإنّ عظمة الولاية لأهل البيت تتطلّب صفات خاصّة عند الموالين يجب تحصيلها. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام قاعدًا في بيته إذ قُرع قوم عليهم الباب فقال: يا جارية انظري من بالباب؟ فقالوا: قوم من شيعتك، فوثب عجلًا حتى كاد أن يقع، فلما فتح الباب ونظر إليهم رجع، فقال: كذبوا فأين السمت في الوجوه؟ أين أثر العبادة؟ أين سيماء السجود؟ إنّما شيعتنا يعرفون بعبادتهم وشعثهم، قد قرحت العبادة منهم الآناف، ودثرت الجباه والمساجد. خمص البطون، ذبل الشفاه، قد هيّجت العبادة وجوههم، وأخلق سهر الليالي وقطع الهواجر جثثهم، المسبّحون إذا سكت الناس، والمصلّون إذا نام الناس، والمحزونون إذا فرح الناس [يعرفون بالزهد، كلامهم الرحمة، وتشاغلهم بالجنّة][١].

وفي رواية أخرى، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أنتم معاشر الشيعة العلماء بعلمنا تأولون مقرونون بنا وبملائكة الله المقرّبين، شهداء لله بتوحيده وعدله وكرمه وجوده، قاطعون لمعاذير المعاندين من إمائه وعبيده، فنعم الرأي لأنفسكم رأيتم ونعم الحظّ الجزيل اخترتم، وبأشرف السعادة سعدتم حين بمحمد وآله الطيبين قرنتم»[٢].

ومنها أيضا:

- عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، قال: «شيعتنا ذبل الشفاه، والإمام منّا من دعا إلى طاعة الله».[٣]

- وأوضح أنّ هذا الأمر هو عهد الله تعالى للذين يوالون أهل البيت عليهم السلام، وأنّ هناك ميثاقًا بينهم وبين خالقهم، فعن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنّه قال: «قد أخذ الله ميثاق شيعتنا معنا على ولايتنا لا يزيدون ولا ينقصون، إنّ الله خلقنا من طينة عليّين وخلق شيعتنا من طينة

---

[١] - المجلسي، بحار الأنوار، م. س، مج٦٥، ص١٧١.

[٢]- م.ن.

[٣]الصفّار، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد «عليهم السلام»، ص١٨.

أسفل من ذلك وخلق عدوّنا من طينة سجّين وخلق أوليائهم من طينة أسفل من ذلك»[١].

فقد كان حرص الإمام عليه السلام على تزكية الشيعة من جهة، والحرص على تعليمهم وإعدادهم ليكونوا عونًا له في خدمة هذا الدين القويم من جهة ثانية، وسنرى كيف أنّه جهز مجموعة من الأصحاب في هذا المقام.

ثالثًا: الإمام السجاد عليه السلام وتربية الطليعة الشيعيّة

سعى الإمام عليه السلام، وفي ضوء فهمه لعصره وتشخيصه للأمراض التي أصيبت بها الأمة في زمانه، إلى إعادة تشييد البُنى التحتيّة للمجتمع، وسار بخطّة حكيمة لتشكيل النواة التي تحمي هذا الدين المنيع وتقف كالبنيان المرصوص في وجه كلّ التحدّيات، خاصّة أنّ الأمة في ذلك الوقت وصلت إلى حدّ الاستهزاء بأحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد ذكرنا سابقًا قوله عليه السلام: «ما ندري، كيف نصنع بالناس؟! إن حدّثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ضحكوا، وإن سكتنا، لم يسعنا»[٢]. فالإمام السجّاد عليه السلام يُشير إلى هذا المستوى المتدنّي الذي وصلت إليه الأمّة؛ ولذا سعى عليه السلام طوال فترة إمامته، والتي استمرّت خمسة وثلاثين عامًا، لتجذير المدرسة الفكريّة التي استكمل تشييدها من بعده الإماميّن الباقر والصادق عليهما السلام، ومن بعدهما سائر الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

وكان لا بدّ من الخطوة الأولى التي تكمن في تربية الطليعة الشيعيّة التي تشكّل الحصانة المنيعة لمشروعه العلميّ والفكريّ في حماية الدين المحمديّ الأصيل، وقد تحدّث الإمام السجّاد عليه السلام، في روايات عديدة عن صفات الشيعة، أوردنا بعضها في الفصل السابق. وقد أسّس نخبة من العلماء الذين نهلوا من علومه وتتلمذوا على يديه وحملوا مشعل الولاية ليضيئوا به الظلمات والشبهات التي زرعتها الدولة الفاسدة في عقول الأمّة.

ولا بدّ في البداية أن نسلّط الضوء على ولده الإمام الباقر عليه السلام، الذي ورث مسيرة أبيه السجّاد عليه السلام، وروى عنه وأسّس للجامعة الإماميّة التي ازدهرت وتبلورت

[١] الخوارزمي، أحمد بن محمد المكي، الشهاب الثاقب في مناقب علي بن أبي طالب، مج٢، ص٢٨٦.

[٢]- الكلينيّ، أصول الكافي، م.س، مج٣، ص٢٣٤.

بصورتها الواضحة في عصر ولده الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وصار مذهب الإماميّة يُنسب إليه. ومن ثمّ نضيء على سائر أولاده، وأصحابه، وطلابه من عموم المسلمين.

أولاد الإمام عليه السلام

أ- الإمام الباقر عليه السلام.

هو النور الخامس من أنوار أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، الذي من خلالهم يستنار طريق الهدى ومن نورهم تنبثق معالم الدجى. وقد عاش في كنف جدّه الإمام الحسين عليه السلام ما يقارب الثلاث سنوات، وشاهد واقعة الطفّ، وقد ورد عنه سلام الله عليه بعض الأحاديث الخاصّة بهذه الواقعة. ثمّ عاش مع أبيه الإمام السجّاد عليه السلام ما يقرب من ثمان وثلاثين سنة ينهل من علومه ويشاركه في مسيرته العلميّة والفكريّة والجهاديّة، وتجلّى ذلك كلّه في تلك الجامعة الجعفريّة التي تبلورت على يد ولده الإمام الصادق عليه السلام.

كما كان له شرف الحصول على لقب «الباقر» من جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، كما في رواية الصحابيّ الجليل جابر بن عبد الله الأنصاريّ، حيث يقول: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «يوشك أن تبقى حتى تلقى ولدًا لي من الحسين عليه السلام يقال له محمّد يبقر العلم بقرًا (يشقّه شقًا)، فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام»، فلما كَبُر سنّ جابر وخاف الموت جعل يقول: يا باقر يا باقر أين أنت، حتّى رآه، فوقع عليه يقبّل يديه ورجليه ويقول: بأبي وأمي شبيه رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ أباك يقرؤك السلام.

قال له الأبرش الكلبيّ: أنت ابن رسول الله حقًّا. ثمّ صار إلى هشام فقال: دَعُونا منكم يا بني أميّة، إنّ هذا أعلم أهل الأرض بما في السماء والأرض، فهذا ولد رسول الله[١].

وقد تحدّث الإمام الباقر عليه السلام عن المرحلة التي عاشها مع والده الإمام السجّاد عليه السلام في العديد من الروايات، منها: عن جابر الجعفيّ عن أبي جعفر الباقر محمّد بن عليّ بن

---

[١]- الخوارزمي، الشهاب الثاقب، م.س، مج٢، ص٢٨٦.

الحسينعليه السلام، قال: (كان أبي عليّ بن الحسينعليه السلام، قد اتّخذ منزله - من بعد مقتل أبيه الحسين بن عليّعليه السلام - بيتًا من شعر، وأقام بالبادية، فلبث بها عدّة سنين، كراهية لمخالطة الناس وملاقاتهم[١]. وكان يصير من البادية بمقامه إلى العراق زائرًا لأبيه وجدّهعليهما السلام، ولا يشعر بذلك من فعله[٢].

وأشار الإمام الباقرعليه السلام إلى اعتناء والده السجّادعليه السلام بأصحابه وأهل العلم، وكيف كان يعتبرهم ودائع العلم، فيعظّمهم ويكرمهم ويهتمّ بهم، فإذا رأى أحدًا منهم رحّب به وقال له: «مرحبًا بوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله». ويقول الامام الباقرعليه السلام: «كان أبي زين العابدين إذا نظر إلى الشباب الذين يطلبون العلم أدناهم إليه، وقال: مرحبًا بكم أنتم ودايع العلم، ويوشك إذ أنتم صغار قوم أن تكونوا كبار آخرين»[٣].

ب- زيد ابن الإمام السجّادعليه السلام.

نشأ زيد بالمدينة في محيط تربويّ يضمّ كلًّا من والده الإمام السجّادعليه السلام، وأخيه الإمام الباقرعليه السلام، وابن أخيه الإمام الصادقعليه السلام، فنهل من مختلف العلوم والمعارف، وقد نقلت عنه أحاديث كثيرة في مصادر الشيعة كالكافي، وينسب إليه أكثر من عشرة آثار مدوّنة في علوم الفقه والكلام والتفسير والحديث[٤].

كان عصر زيد بن عليّ مصاحبًا لسطوة الأُمويّين المطلقة، وخلافة هشام بن عبد الملك بن مروان الذي عرف بالفسق والمجون. وبما أنّه كان مخالفًا للحكم الأُمويّ المستبدّ؛ كان يمثّل جبهة إعلاميّة مناهضة للولاة الأُمويّين، حتّى أواخر صفر وأوائل محرم سنة ١٢١ أو ١٢٢ هجريّة، فدارت حرب من الكرّ والفرّ بين أتباعه وجيش يوسف بن عمر الثقفيّ المكلّف من قبل هشام بقمع حركة زيد ـ انتهت باستشهاده[٥].

---

[١]- القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسن بن عليعليهما السلام، م.س.

[٢]- الصدوق، أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّيّ، الخصال، ص١٢٣.

[٣]- ابن حاتم الشامي، جمال الدين يوسف، الدر النظيم في مناقب الأئمّة الميامين، ص ١٨١.

[٤]- القرشّي، باقر شريف، حياة الإمام الحسن بن عليعليهما السلام، م.س.

[٥]- هناك روايات عديدة حول تاريخ استشهاده، منها ما جاء في: المجلسيّ، البحار، م.س، ج٤٦، ص١٨٣-١٨٤؛ اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، م.س، ج٢، ص٣٧٠-٣٧١.

وقد نصّت جملة من الروايات على أنّ هدفه من الخروج هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثأر لدماء الحسين عليه السلام. والأخبار بشهادته كثيرة، منها رواية معمّر: «كنت جالسًا عند الصادق عليه السلام فجاء زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام فأخذ بعضادتي الباب، فقال له الصادق عليه السلام: يا عمّ أُعيذك بالله أن تكون المصلوب بالكناسة، فقالت له أُمّ زيد: والله ما يحملك على هذا القول غير الحسد لابني، فقال: يا ليته حسدًا ثلاث مرّات ثمّ قال: حدّثني أبي عن جدّي أنّه يخرج من ولده رجل يُقال له زيد، يقتل بالكوفة، ويصلب بالكناسة، يخرج من قبره نبشًا»[١].

وقد أوضح زيد أنّه لا يمكن السكوت عن حقّ الإمامة مهما كلّف الأمر، وقد صرّح بذلك لابن أخيه الصادق جعفر بن محمّد -لما أراد الخروج إلى الكوفة-: «أوما علمت يا ابن أخي أنّ قائمنا لقاعدنا، وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت، فمن يخلفنا في حرمنا؟»[٢].

ت- عبد الله ابن الإمام السجّاد عليه السلام.

الشهير بعبد الله الباهر، من أبناء الإمام السجّاد، اختلف المؤرّخون في أمّه، فذُكر بأنّه شقيق الإمام الباقر وابن أم عبد الله بنت الإمام الحسن المجتبى[٣]. وذكر صاحب مستدرك سفينة البحار بأنّ أم عبد الله هي كنية فاطمة بنت الإمام الحسن. ومن جهة أخرى قال البعض بأنّه لأم ولد[٤].

تولّى عبد الله أمر صدقات رسول الله صلى الله عليه وآله وصدقات أمير المؤمنين، وقد كان فقيهًا فاضلًا، ونقل روايات كثيرة عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله[٥]. وأمّا شهرته بالباهر، فكانت

[١]- المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، مج٢، ص١٦٨.

[٢]- الرازحيّ، عليّ أحمد محمّد، المجموعة الفاخرة- مجموع كتب ورسائل الامام الهادي عليه السلام إلى الحقّ، ص٢٢٠. العسقلانيّ، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٥، ص٣٢٥؛ انظر: السيّد الخوئيّ، معجم رجال الحديث، مج١١، ص٢٨٣.

[٣]- العسقلانيّ، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٥، ص٣٢٥؛ انظر: الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث، مج١١، ص٢٨٣؛ المفيد، الإرشاد، م.س، ج٢، ص١٦٩.

[٤]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج٢، ص١٦٩.

[٥]- القمّيّ، عبّاس، منتهى الآمال في تاريخ النبيّ والآل، ج٢، ص٦٦.

لحسنه وجماله، فقيل ما جلس مجلسًا إلّا بهر جماله من حضر. وتوفّي الباهر وهو ابن سبع وخمسين سنة[١].

٢- أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام:

كان للإمام السجّاد عليه السلام دورٌ تأسيسيٌّ بارزٌ في تأسيس النواة لجامعة الإمام الصادق عليه السلام، والتي إليها ينتسب المذهب الشيعيّ، وتخرّج على يديه العديد من العلماء في مختلف الاتّجاهات: في الفقه، الأخلاق، العقائد، علم الكلام، وغير ذلك. ومن أبرز هؤلاء الأصحاب نذكر:

أ- أبان بن تغلب.

- **اسمه**: أبان بن تغلب ابن رباح البكري الجُريريّ، أبو سعيد الكوفيّ (ت ١٤١ هـ).

أقوال أئمّة أهل البيت عليهم السلام فيه: قال له الإمام الباقر عليه السلام: «اجلس في مسجد المدينة، وأفتِ الناس فإنّي أحبّ أن يُرى في شيعتي مثلك».

قال أبو عبدالله عليه السلام لما أتاه نعيه: أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان. وكان قارئًا من وجوه القرّاء، فقيهًا لغويًّا سمع من العرب وحكى عنهم.

وقال الإمام الصادق عليه السلام لمسلم بن أبي حيّة: «ائتِ أبّان بن تغلب، فإنّه قد سمع منّي حديثًا كثيرًا، فما روى لك فاروه عنّي»[٢].

- أقوال العلماء فيه: عدّه الشيخ في رجاله تارة من أصحاب السجّاد عليه السلام قائلًا: «مولى، توفّي في سنة ١٤١ في خلافة أبي جعفر. وروى عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام»، وأخرى من أصحاب الباقر عليه السلام وثالثة من أصحاب الصادق عليه السلام، قائلًا: «مولى».

وقد ذكره العلماء في كتبهم الرجاليّة والحديثيّة وغيرها، ومن أبرز هذه الأقوال:

- الشيخ النجاشي قدس سره: «عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي عليّ بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله عليهم السلام، روى عنهم، وكانت له عندهم منزلة وقدم»[٣].

---

[١]- ابن عنبة، جمال الدين احمد بن علي الحسينيّ، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ج١، ص٢٥٢.

[٢]- النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي (فهرس أسماء مصنّفي الشيعة)، ص١٣.

[٣]- م.ن، ص١٣.

- الشيخ الطوسيّ قدس سره: «كان قارئًا فقيهًا لغويًّا نبيلًا»[١].

- الشيخ ابن داود الحلّيّ قدس سره: «ثقة جليل القدر، سيّد عصره وفقيهه، وعمدة الأئمّة عليهم السلام، روى عن الصادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث»[٢].

- الشيخ عبد الله المامقاني قدس سره: «فوثاقة الرجل، وعظم شأنه، وجلالة قدره، متّفق عليه بين الفريقين، مستغنٍ عن البيان»[٣].

- **نبذة من حياته:** أوّل مصنِّف في غريب القرآن، وكان محدّثًا، فقيهًا، قارئًا، مفسّرًا، لغويًّا، من الرجال المبرّزين في العلم، ومن حملة فقه آل محمّد -صلى الله عليه وآله- أخذ الفقه والتفسير عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فقد حضر عند الإمام زين العابدين، ومن بعده عند الإمام الباقر، ثمّ عند الإمام الصادق، فهو من كبار أصحابهم والثقات في رواياتهم، وكان لعظم منزلته إذا دخل المدينة تقوّضت إليه الحِلَق، وأُخليت له سارية النبيّ -صلى الله عليه وآله-. وكان له عند الأئمّة من آل محمّد -صلى الله عليه وآله- منزلة وقدم. وكان أبان من الشخصيّات الإسلاميّة التي امتازت باتّقاد الذهن، وبُعد الغور، والاختصاص بعلوم القرآن، وهو ممن أجمعوا على قبول روايته وصدقه. عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: كنّا في مجلس أبان بن تغلب، فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد أخبرني كم شهد مع عليّ بن أبي طالب من أصحاب النبيّ -صلى الله عليه وآله-؟ فقال له أبان: كأنّك تريد أن تعرف فضل عليّ عليه السلام بمن تبعه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلّا باتّباعهم إيّاه.

- **آثارهُ:** لأبان بن تغلب كتب، منها: غريب القرآن، الفضائل، معاني القرآن، القراءات، الأُصول في الرواية على مذهب الشيعة، وكتاب صفّين. وله مناظرات ومجادلات وقراءة للقرآن مفردة مقرّرة عند القرّاء. وله روايات كثيرة عن أئمّة الهدى عليهم السلام تبلغ زهاء مئة وثلاثين موردًا. وروى له أصحاب الكتب الستّة إلّا البخاري.

- **وفاته:** توفّي أبان بن تغلب سنة إحدى وأربعين ومئة، ولما بلغ نعيه أبا عبد الله

---

[١]- الطوسي، الفهرست (أهم مصادر رجال الحديث عند الشيعة)، ص٥٧.

[٢]- ابن داوود، تقيّ الدين الحسن بن علي بن داوود الحليّ، رجال ابن داود، ص٢٩.

[٣]- المامقانيّ، عبد الله، تنقيح المقال في علم الرجال، مج٣، ص٩٤.

الصادقعليه السلام قال: «أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان»[١].

ب- ثابت بن أبي صفيّة (المعروف بأبي حمزة الثماليّ).

هو أبو حمزة الثماليّ العالم الجليل، والورع التقيّ، الذي تربّى بآداب أهل البيتعليهم السلام، ونهل من علومهم ودافع عن الدين القويم بما أوتي من قوّة وبصيرة، وقد اقترن اسمه بدعاء أبي حمزة الثماليّ الذي رواه عن الإمام السجّادعليه السلام، والذي يحمل في طيّاته ومضامينه الكثير من مختلف العلوم والعقائد الثابتة، بالإضافة إلى روايته لرسالة الحقوق للإمام زين العابدينعليه السلام.

ثابت بن أبي صفيّة الملقّب بـ (أبي حمزة الثمالي)، واسم أبيه صفيّة دينار، مولى، كوفيّ، ثقة، وكان آل المهلب يدعون ولاءه وليس من قبيلتهم. قال محمّد بن عمر الجعابيّ[٢]: (ثابت بن أبي صفيّة مولى المهلب بن أبي صفرة. وأولاد أبي حمزة هم: نوح ومنصور وحمزة، قتلوا مع زيد الشهيد (رحمه الله). لقي أبو حمزة الثماليّ الأئمّة عليّ بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله وأبا الحسنعليهم السلام وروى عنهم، وكان من خيار أصحابهم، وثقاتهم، ومعتمديهم في الرواية والحديث.

وروي عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام أنّه قال: «أبو حمزة في زمانه مثل سلمان في زمانه»[٣].

وقال الشيخ الصدوق: «أبو حمزة ثابت بن دينار الثماليّ، ودينار يكنّى أبو صفيّة، وهو من حي (طي)، ونسب إلى ثمالة، لأنّ داره كانت فيهم» [٤].

ويكنى بـ (أبي حمزة) وهي الكنية التي غلبت على اسمه واشتهر بها، وقد وردت في أسانيد أكثر الروايات من كتب الفريقين.

و(حمزة) أكبر أبنائه، استشهد هو وأخواه: نوح، ومنصور، مع زيد بن عليعليه السلام في

[١]- انظر: النجاشي، معجم رجال الحديث، م.س، ج١، رقم الترجمة ٢٨؛ موسوعة طبقات الفقهاء، ج١٧، ص٢.

[٢]- انظر: الطهرانيّ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، م.س، مج١٠، ص١٠٣.

[٣]- النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ج١، ص٨١.

[٤]- الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّيّ، من لا يحضره الفقيه، مج٤، ص٤٤٤.

ثورته[١]. ويكنّى بـ (ابن أبي صفيّة)، وردت هذه الكنية في كتب الحديث والرجال مقرونة باسمه (ثابت بن أبي صفيّة)، وهكذا عنونه محدّثو السنّة في كتب الرجال والترجمة[٢].

كان أبو حمزة معتمد الأئمّة في مناظرة المخالفين والاحتجاج على الخصوم، فقد عاصر أبو حمزة الثماليّ الفترة التي استحكمت خلالها في المجتمع الإسلاميّ بعض الجماعات والفرق المختلفة، كالمرجئة والخوارج، فتصدّى أصحاب أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وفي طليعتهم أبو حمزة الثماليّ، لتلك الجماعات ودخلوا معها في مناظرات واحتجاجات، لتفنيد آرائها ونصرة المذهب الحقّ. وإنّ أبا حمزة الثمالي كان من ثقاتهم لدى الناس وقت الأزمات وعند تعرّض آل البيت عليهم السلام للاضطهاد والتنكيل، فقد شهد أبو حمزة دعوة زيد بن عليّ عليه السلام بالكوفة وعاش أحداثها وخذلان من بايعه. قال الإمام الصادق عليه السلام: «يا أبا حمزة، هل شهدت عمّي ليلة خرج؟ قال: نعم»[٣].

ت- يحيى بن أمّ الطويل:

عُدّ من القلائل الذين بقوا - بعد كربلاء - على ولائهم واتصالهم بالإمام زين العابدين عليه السلام[٤]، ومن أبوابه[٥]. وكان من المجاهرين بالحقّ، كان يقف بالكناسة في الكوفة، وينادي بأعلى صوته: «معاشر أولياء الله! إنا برءآء مما تسمعون. من سبّ عليًا عليه السلام فعليه لعنة الله. ونحن برءآء من آل مروان وما يعبدون من دون الله. ثمّ يخفض صوته فيقول: من سب أولياء الله فلا تقاعدوه، ومن شكّ في ما نحن عليه فلا تفاتحوه، ومن احتاج إلى مسألتكم من إخوانكم... فقد خنتموه[٦]. وكان يدخل مسجد الرسول صلى الله عليه وآله - حيث يجتمع المشبّهة الملحدون - ويقول: كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء»[٧]. وقد طلبه الحجّاج، وأمر بقطع يديه ورجليه، وقتله[٨].

[١]- انظر: النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ج١، ص٨٢.

[٢]- انظر: م.ن، ج١، ص٨٢.

[٣]- الطوسيّ، أبو جعفر محمد، تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٧، الحديث ٢٠.

[٤]- الطوسي، أبو جعفر محمّد، اختيار معرفة الرجال برجال الكشيّ، ص١٢٣.

[٥]- الخوئيّ، أبو القاسم الموسويّ، معجم رجال الحديث وطبقات الرواة، مج٤٢، ص٢٠.

[٦]- الكلينيّ، أصول الكافي، م.س، مج٢، ص٢٨١.

[٧]- المفيد، محمّد بن محمد بن النعمان، الاختصاص، ص٦٤.

[٨]- الكشيّ، رجال الكشيّ، م.س، ص١٢٣.

ث- أبو خالد الكابليّ

ورد في رجال الكشيّ: «حدّثني محمّد بن مسعود قال: حدّثني أبو عبد الله الحسين بن إشكيب قال: حدّثني محمّد بن أورمة عن الحسين بن سعيد، قال: حدّثني عليّ بن النعمان عن ابن مسكان عن ضريس قال: قال لي أبو خالد الكابليّ: أما أنّي سأحدّثك بحديث إن رأيتموه وأنا حيّ فقلت صدقتني وإن متّ قبل أن تراه ترحّمت عليّ ودعوت لي: سمعت عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: إن اليهود أحبّوا عزيرًا حتى قالوا فيه ما قالوا، فلا عزير منهم ولا هم من عزير، وإنّ النصارى أحبّوا عيسى حتى قالوا فيه ما قالوا، فلا عيسى منهم ولا هم من عيسى، وأنا على سنّة من ذلك إنّ قومًا من شيعتنا ليحبّونا حتى يقولوا فينا ما قالت اليهود في عزير وما قالت النصارى في عيسى فلا هم منّا ولا نحن منهم»[١].

ونقل السيّد الخوئي في معجمه عن الكشّي: «وجدت بخطّ جبرائيل بن أحمد، حدّثني محمّد بن عبد الله بن مهران، عن محمّد بن عليّ، عن محمّد بن عبد الله الحنّاط، عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة، عن أبيه، عن أبي بصير، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان أبو خالد الكابلي يخدم محمّد بن الحنفيّة دهرًا وما كان يشكّ في أنّه إمام، حتّى أتاه ذات يوم فقال له: جعلت فداك، إنّ لي حرمة ومودّة وانقطاعًا، فأسألك بحرمة رسول الله وأمير المؤمنين إلّا أخبرتني أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه؟ قال: فقال: يا أبا خالد، حلفتني بالعظيم، الإمام علي بن الحسين عليه السلام عليَّ وعليك وعلى كلّ مسلم، فأقبل أبو خالد لمّا أن سمع ما قاله محمّد بن الحنفيّة، فجاء إلى عليّ بن الحسين عليه السلام، فلما أستأذن عليه فأخبر أنّ أبا خالد بالباب، فأذن له، فلمّا دخل عليه دنا منه، قال: مرحبًا يا كنكر، ما كنت لنا بزائر، ما بدا لك فينا؟ فخرّ أبو خالد ساجدًا شاكرًا لله تعالى مما سمع من عليّ بن الحسين عليه السلام، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى عرفت إمامي، فقال له عليّ عليه السلام: وكيف عرفت إمامك يا أبا خالد؟ قال: إنّك دعوتني باسمي الذي سمّتني أمي التي ولدتني، وقد كنت في عمياء من أمري، ولقد خدمت محمّد بن الحنفيّة دهرًا من عمري، ولا أشكّ إلّا وأنّه إمام حتّى إذا كان قريبًا سألته بحرمة الله وبحرمة رسوله وبحرمة أمير المؤمنين فأرشدني إليك، وقال: هو الإمام عليّ وعليك وعلى جميع خلق

---

[١]- الكشي، رجال الكشي، م.س، ص١١١.

الله كلّهم، ثمّ أذنت لي فجئت فدنوت منك، سمّيتني باسمي الذي سمّتني أمّي فعلمت أنّك الإمام الذي فرض الله طاعته على كلّ مسلم»[١].

٣- السجّاد عليه السلام وأعلام المدارس الأخرى

ولم تنغلق دائرة التتلمُذ على يد الإمام السجّاد في حدود الموالين، بل نجد ضمن الذين لزموا حلقاته، ونهلوا من معارفه وفيوض علمه، الكثير من علماء الفرق الأخرى، كسعيد بن جبير الذي «كان يأتمّ بعليّ بن الحسين عليه السلام ومن الراوين عنه، وكان عليّ عليه السلام يثني عليه، وما كان سبب قتل الحجّاج له إلّا على هذا الأمر»[٢]، وقصّة قتله على يد الحجّاج وحواره معه معروف.

ومن تلاميذه سعيد بن مسيّب الذي تحدّث عن ملازمة القرّاء للإمام السجّاد عليه السلام: «إنّ القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكّة حتّى يخرج عليّ بن الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب»[٣].

عن سعيد بن المسيّب قال: «كان القوم لا يخرجون من مكّة حتى يخرج عليّ بن الحسين عليهما السلام سيّد العابدين، فخرج فخرجت معه، فنزل في بعض المنازل فصلّى ركعتين فسبّح في سجوده، فلم يبقَ شجر ولا مدر إلا سبّحوا معه، ففزعنا فرفع رأسه وقال: يا سعيد أفزعت؟ فقلت: نعم يا ابن رسول الله، فقال: هذا التسبيح الأعظم حدّثني أبي عن جدّي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح. فقلت: علّمناه»[٤].

وتشير بعض عبارات الرجاليّين إلى أنّ سعيد بن مسيب ربّما كان على خطّ أهل البيت عليهم السلام، ولكنّه يتجاهر بالانتماء لمذهب العامّة، وفي النّصّ الوارد في اختيار معرفة الرجال للطوسيّ قرينة على ذلك: عن الإمام الباقر عليه السلام فيمن تعرّض له الحجّاج من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام: «وأمّا سعيد بن المسيّب فنجا، وذلك أنّه كان يُفتي

[١]- الخوئي، معجم رجال الحديث، م.س، ج١٥، ص١٣٤.

[٢]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال، م.س، ص٣٣٥.

[٣]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، مج٢، ص٨٣.

[٤]- الكشيّ، رجال الكشي، م.س، ص١٠٨.

بقول العامّة، وكان آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فنجا، وأمّا أبو خالد الكابليّ، فهرب إلى مكّة وأخفى نفسه فنجا. وأمّا عامر بن واثلة، فكانت له يد عند عبد الملك بن مروان فلهى عنه. وأمّا جابر بن عبد الله الأنصاريّ: فكان رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يتعرّض له وكان شيخًا قد أسنّ. وأمّا أبو حمزة الثماليّ وفرات بن أحنف، فبقوا إلى أيام أبي عبد الله عليه السلام وبقي أبو حمزة إلى أيّام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام»[١].

ولا يفوتنا موقفه عليه السلام من وعّاظ السلاطين والعلماء الذين يتقرّبون للحكام، وأفضل نموذج لهؤلاء من المعاصرين للسجّاد عليه السلام شهاب الدين الزهريّ الذي كان يضع للأمويّين الحديث، فيعظه السجّاد في رسالة مطوّلة يحذّره فيها من المسلك الذي سلكه، نقتطف منها مايلي: «....فانظر أيّ رجل تكون غدًا إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها، وعن حججه كيف قضيتها، ولا تحسبنّ الله قابلًا منك بالتعذير ولا راضيًا منك بالتقصير، هيهات هيهات ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ آل عمران: ١٨٧، واعلم أنّ أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم وسهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت وإجابتك له حين دعيت، فما أخوفني أن تكون تبوء بإثمك مع الخونة، وأن تسأل عمّا أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة، إنّك أخذت ما ليس لك ممّن أعطاك ودنوت ممّن لم يردّ على أحد حقًّا ولم تردّ باطلًا حين أدناك وأحببت من حادّ الله. أوليس بدعائه إيّاك حين دعاك جعلوك قطبًا أداروا بك رحى مظالمهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلّمًا إلى ضلالتهم، داعيًا إلى غيّهم، سالكًا سبيلهم، يأخذون بك الشكّ على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهّل إليهم، فلم يبلغ أخصّ وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلاّ دون ما بلغت من إصلاح فسادهم واختلاف الخاصّة والعامّة إليهم. فما أقلّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك، فكيف ما خرّبوا

[١]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال، م.س، ص ٣٣٩.

عليك فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر لها غيرك وحاسبها حساب رجل مسؤول»[١].

رابعًا: الإمام السجّاد بين الانشقاقات الشيعيّة ومواجهة الفرق المنحرفة

١. الإمام السجّاد ووحدة الصف الشيعيّ

من الأدوار الأساسيّة عند أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة بعد تأسيسهم لمجموعة من الأوفياء لهذا الخطّ القويم، كان الحفاظ على وحدة التشيّع، لما يشكّل ذلك من ترسانة عظيمة في وجه التحدّيات المعادية على مختلف الأصعدة.

وكان للإمام السجّاد عليه السلام دورٌ بارزٌ في ذلك، وقد ساهمت حركته العلميّة والفكريّة في التأسيس المباشر وغير المباشر للعديد من الثورات التي كانت تقف في وجه المعتدين لتقول كلمة حقّ في وجه سلطان جائر.

وإزاء وحدة الصفّ الشيعيّ والإماميّ، خصوصًا أنّ الإمام زين العابدين واجه تحدّيات عدّة منها:

أ. ثورة العلويّين:

لقد بيّن الامام السجّاد عليه السلام منهجه في موضوع الثورات، واتّخذ موقفًا حاسمًا واضحًا تجاه كلّ هذه الثورات التي قامت ضدّ طغيان بني أميّة وانحرافهم خلال خطبته عليه السلام أمام أهل الكوفة بعد استشهاد أبيه الإمام الحسين عليه السلام قال: «رحم الله امرءً قبِل نصيحتي وحفظ وصيّتي في الله ورسوله وأهل بيته، فإنّ لنا في رسول الله أسوة حسنة. فقالوا بأجمعهم: نحن كلّنا سامعون، ومطيعون، حافظون لذمامك غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرنا يرحمك الله! فإنّا حرب لحربك وسلم لسلمك، لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا، فقال عليه السلام: هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة! حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلى آبائي من قبل؟! كلّا! فإنّ الجرح لمّا يندمل، قتل أبي بالأمس وأهل بيتي معه، ولم ينسني ثكل رسول الله صلى الله عليه وآله

[١]- الحرّاني، الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة، تحف العقول، ص١٩٦.

وثكل أبي وبني أبي، وجده بين لهاتي ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه تجري في فراش صدري ومسألتي أن لا يكونوا لنا ولا علينا....»

هذه الكلمات تحمل بين طيّاتها المرارة والألم الشديد في كلّ قطعة من جسم الإمامعليه السلام، والغصّة ما برحت باقية في حلقه حزنًا وكمدًا من هذه التجربة المرّة، التي جعلته يتّخذ موقفًا حاسمًا لا مهادنة فيه بأن لا يكرّر التجربة التي مرّت على آبائه وأهل بيته، ويرفض الاستجابة لَمّا يدعونه إليه، وهو القيام على الحكم الأمويّ دون أن يطمئنّ لأسباب الانتصار.

بعد كربلاء، استكان العلويّون لفترة، حاولوا فيها أن يستوعبوا مصابهم الأليم الذي طالهم في أرض العراق. والخلاف حول شكل وطبيعة المشاركة العلويّة في السياسة نتج عنه ظهور خطّين مختلفين من التشيّع: الأوّل هو ذلك الذي يدعو إلى التقيّة والبعد عن معارضة الحكام، وهو خطّ الباقر وابنه جعفر الصادق، ومن بعدهما باقي الأئمّة الاثني عشر، وخطّ آخر يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتكام إلى السيف في مقارعة الحكّام الظالمين، وهو الخطّ الذي كان زيد بن عليّ أوّل ممثّليه، فعُرف واشتهر بالخطّ الزيديّ.

ويشير الشيخ السبحاني إلى أنّ هناك من استفاد من ثورة زيد، وساهم في تأسيس مذهب خاصّ في هذا المقام: «جاء بعد زيد، مفكّرون ودعاة، وهم بين دعاة للمذهب، أو بناة للدولة في اليمن وطبرستان، فساهموا في إرساء مذهب باسم المذهب الزيديّ، متفتّحين في الأصول والعقائد مع المعتزلة، وفي الفقه وكيفيّة الاستنباط مع الحنفيّة، ولكن الصلة بين ما كان عليه زيد الشهيد في الأصول والفروع وما أرسوه هؤلاء في مجالي العقيدة والشريعة منقطعة إلّا في القليل منها»[١].

ويضيف قائلًا: «ولا أغالي إذا قلت: إنّ المذهب الزيديّ مذهب ممزوج ومنتزع من مذاهب مختلفة في مجالي العقيدة والشريعة. ساقتهم إلى ذلك الظروف السائدة عليهم، وصار مطبوعًا بطابع مذهب زيد، وإن لم يكن له صلة بزيد إلاّ في القسم القليل»[٢].

---

[١]- السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل، مج٧، ص٤٦٥.

[٢]- م.ن، مج ٧، ص٤٦٧.

وهذا يدلنا على أنّ هذه الفرقة كانت في بدايتها قريبة من فرقة الإماميّة، ثمّ انشقّت بعد ذلك وأصبح لها معتقداتها الخاصّة بها.

وقد استفاد زيد من مدرسة أبيه عليه السلام في ردّ الشبهات، فضلًا عن استفادته من الإماميّن الباقر والصادق عليهما السلام، حيث تتلمذ على يديهما، وقد وضع الإمام السجاد عليه السلام الأسس المتينة في المواجهة العلميّة التي تمكّن طلاب الحقّ أن يواجهوا كلّ الانحرافات الفكريّة والسياسيّة وغيرها إلى يومنا هذا.

ولم يمرّ الكثير من الوقت حتى استطاع الأمويّون أن يضيّقوا الخناق على زيد، فقتلوه وصلبوه في منطقة تُعرف بكناسة الكوفة، وبقي جثمانه معلّقًا فيها لفترة طويلة، بحسب ما يذكره أبو الفرج الأصفهانيّ في كتابه «مقاتل الطالبيّين»[١].

وعلى الرغم من فشل ثورة زيد بن عليّ، إلّا أنّ أهمّيّتها ترجع إلى سببين رئيسين: أوّلهما، أنّها دشّنت خطًّا سياسيًّا ثوريًّا جديدًا، مشى العلويّون على خطاه لفترة طويلة في ما بعد. أمّا السبب الثاني، فيتمثّل في أنّ تلك الثورة أضعفت من قوّة الدولة الأمويّة ونفوذها بشكل كبير، إلى الحدّ الذي سيغدو معه القضاء عليها ممكنًا بعد أقلّ من عشر سنوات فحسب، بواسطة العباسيّين.

ب. ثورة المختار:

ذكر السيّد الخوئي قدس سره ترجمة المختار في كتابه (معجم رجال الحديث)، فقال: «والأخبار الواردة في حقّه على قسمين: مادحة وذامّة، أمّا المادحة فهي متضافرة، منها... عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما امتشطت فينا هاشميّة ولا اختضبت، حتّى بعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين»[٢].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا تسبّوا المختار فإنّه قتل قتلتنا، وطلب بثأرنا، وزوّج أراملنا، وقسّم فينا المال على العسرة»[٣].

[١]- انظر: الأصفهاني، أبو الفرج، مقاتل الطابيين، ص٨٧-٨٨.

[٢]- المجلسي، البحار، م.س، ج٤٥، ص٣٤٤.

[٣]- م.ن، ص٣٤٣.

وعن عمر بن عليّ بن الحسين: أنّ عليّ بن الحسين عليهما السلام لمّا أوتي برأس عبيد الله بن زياد، ورأس عمر بن سعد قال: فخرّ ساجدًا وقال: «الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي، وجزى الله المختار خيرًا»[١].

ونجد انطلاقات عديدة لثورات على الحكم الأمويّ، وإن لم يُكتب لها النجاح، إلّا أنّها توالت حتّى سقط النظام. ورغم أنّ أهدافها كانت متفاوتة، إلاّ أنّها كانت تستلهم من معين ثورة الحسين عليه السلام، أو تستعين بالظرف الذي صنعته. فمن ذلك ثورة التوّابين التي كانت ردّة فعل مباشرة للثورة الحسينيّة، وثورة المدينة، وثورة المختار الثقفيّ[٢]، الذي تمكّن من محاكمة المشاركين في قتل الحسين عليه السلام، ومجازاتهم بأفعالهم الشنيعة وجرائمهم الفظيعة، ثمّ ثورة مطرف بن المغيرة، وثورة ابن الأشعث، وثورة زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام[٣]، و«ثورة أبي السرّايا»[٤].

هذه الثورة تحالفت على المطالبة بدم الإمام الحسين عليه السلام والأخذ بالثأر من الذين تجرأوا على إمام زمانهم، وكان الإمام السجّاد عليه السلام يتصرّف معهم بحكمة، ويدعمهم بطريقة غير مباشرة بما يتناسب مع مصلحة الدين، وهذا ما نستفيده مما ورد من نصوص عنه في هذا المقام في تبرير ودعم هذه الحركات الإصلاحيّة التي تخدم مصلحة المشروع الإلهيّ، فقال لعمّه محمّد بن الحنفيّة: «يا عم، لو أنّ عبدًا تعصّب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد ولّيتك هذا الأمر، فاصنع ما شئت»[٥].

ومن جهة ثانية لما أرسل المختار برؤوس قتلة الإمام الحسين عليه السلام إلى الإمام السجاد عليه السلام، خرّ الإمام ساجدًا، ودعا له، وجزاه خيرًا[٦].

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان داعمًا بطريقة غير مباشرة لما قام به المختار الثقفيّ.

---

[١]- الكشّيّ، معجم رجال الحديث، م.س، ص١٠٢.

[٢]- انظر: الطبريّ، تاريخ الطبريّ، م.س، ج٤، ص٤٨٧.

[٣]- الأصفهانيّ، أبو الفرج، مقاتل الطالبيّين، ص١٣٥.

[٤]- م.ن، ص٥٢٣.

[٥]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، مج٤٥، ص٣٦٥.

[٦]- الكشي، رجال الكشي، م.س، مج١، ص١٢٥-١٢٧.

ت. الكيسانيّة:

إنّ الثورات التي حدثت في عهد الإمام السجّاد عليه السلام سواء الجهاديّة منها أو العسكريّة أو العلميّة، أدّت إلى إيجاد الفرق والمذاهب المتعدّدة من جهة، وأحدثت انشقاقات في الشيعة من جهة ثانية. وأشهر الفرق المنشقّة عن الإماميّة تلك التي دعت إلى إمامة محمّد بن عليّ المعروف بابن الحنفيّة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام.

وقد اختلفوا فيها إلى أقوال، إلّا أنّ أشهرها نسبتها إلى ابن الحنفيّة. وما جاء عن أتباع هذه الفرقة أنّ الكيسانيّة ادّعوا أنّ محمّدًا ابن الحنفيّة هو المهديّ والوصيّ الأساس لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأنّه إمام مفروض الطاعة، ولا يوجد ولاية لأحد عليه، وكلّ من يريد أن يقوم بثورة ينبغي أن يكون ذلك بإذنه، حتى ثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت بإذنٍ منه. وكذلك يقولون بالنسبة إلى ثورة المختار الثقفيّ التي خرج فيها مطالبًا بدم الإمام الحسين عليه السلام، كانت بمشورته، بل بإيعاز منه، حيث إنّه وليّ الدم، وهو الذي استعمل المختار بن أبي عبيدة على العراقيّين للأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام. وسمّاه كيسان لكيسه ولّما عرف من قيامه ومذهبه فيهم فهم يسمّون «المختاريّة»، ويدعون «الكيسانيّة»[١].

ومن أهمّ معتقداتهم القول بإمامة محمّد ابن الحنفيّة. فقد نُقل في كتب الملل والنحل أنّهم استدلّوا على كون محمّد ابن الحنفيّة إمامًا بقول عليّ عليه السلام له يوم البصرة وقد أقدم بالراية: «أنت ابني حقًّا». وأنت خبير بأنّ أحقّيّة البنوّة هو كونه شبيه والده في الشجاعة، لا أنّه إمام بعده أو بعد السبطين.

وينقل صاحب الاحتجاج محاججة الإمام السجّاد لعمّه محمّد بن الحنفيّة حول أحقّيّته بالإمامة: روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لما قُتل الحسين بن عليّ عليه السلام أرسل محمّد بن الحنفيّة إلى عليّ بن الحسين عليه السلام فخلا به ثمّ قال: يا بن أخي، قد علمت أنّ رسول الله كان جعل الوصيّة والإمامة من بعده لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ إلى الحسن، ثمّ الحسين، وقد قتل أبوك وصلّى عليه ولم يوص، وأنا عمّك وصنو أبيك، وأنا في سنّي وقدمتي أحقّ بها منك في حداثتك، فلا تنازعني الوصيّة والإمامة، ولا تخالفني.

---

[١]- انظر: النّوبختي، فرق الشّيعة، ص٢٦.

فقال له عليّ بن الحسين عليه السلام: اتّق الله ولا تدع ما ليس لك بحقّ، إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين، يا عم! إنّ أبي صلوات الله عليه أوصى إليّ قبل أن يتوجّه إلى العراق، وعهد إليّ في ذلك قبل أن يستشهد بساعة، وهذا سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله عندي، فلا تعرض لهذا فإنّي أخاف عليك بنقص العمر، وتشتّت الحال وأن الله تبارك وتعالى أبى إلّا أن يجعل الوصيّة والإمامة إلّا في عقب الحسين، فإن أردت أن تعلم فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحكّم إليه ونسأله عن ذلك.

قال الباقر عليه السلام: وكان الكلام بينهما وهما يومئذ بمكّة، فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام لمحمّد: ابتدئ فابتهل إلى الله واسأله أن ينطق لك الحجر ثمّ سله. فابتهل محمّد في الدعاء وسأل الله، ثمّ دعا الحجر فلم يجبه، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: أما أنّك يا عمّ لو كنت وصيًّا وإمامًا لأجابك! فقال له محمّد: فادع أنت يا بن أخي! فدعا الله عليّ بن الحسين عليه السلام بما أراد ثمّ قال: «أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق الناس أجمعين، لما أخبرتنا بلسان عربيّ مبين من الوصيّ والإمام بعد الحسين بن عليّ قال: فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه الله عز وجل بلسان عربي مبين، فقال: اللهم إنّ الوصيّة والإمامة بعد الحسين ابن علي عليهما السلام إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فانصرف محمد بن علي وهو يتولى علي بن الحسين عليه السلام»![1].

ويشكّك بعض الأعلام المحقّقين في أصل وجود هكذا فرقة، مستندًا إلى الغموض الذي يلفّ هذا المذهب، فيقول: «إنّ المذهب الكيسانيّ تحدقه إبهامات وغموض في مؤسّسه وأتباعه، وأهدافه تكاد تدفع الإنسان إلى أنّه مذهب مختلق من جانب الأعداء، ملصق بشيعة أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله لغاية تشويش أذهان الشيعة أوّلًا وتحطيم سمعة السيف البتّار المختار بن أبي عبيدة ثانيًا»[2].

٢. الإمام السجّاد والتيّارات المنحرفة

إنّ الإنحرافات الفكريّة التي كانت موجودة في عصر الإمام السجّاد عليه السلام أدّت

[١]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص٣٤٨.

[٢]- السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل، م.س، مج٧، ص٤٥.

إلى تهيئة الأرض لنشوء بعض الفرق والمذاهب المخالفة لنهج أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة.

ومن أهمّها:

أ. الجبريّة

من أوكد أدوار الأئمّة عليهم السلام في مسيرتهم المباركة، التصدّي للتيّارات المنحرفة التي تزيغ عن الصراط القويم، وتطرح أفكارًا منحرفةً بعيدة عن العقيدة الصحيحة. وكان للإمام السجاد نصيبه من هذا الأداء في التصدّي للشبهات التي أثيرت في عصره، ومن ذلك قضيّة الجبر التي أسّس لها معاوية في محاولة منه لتبرير أفعاله التي بدأت تظهر في شنيع أفعاله.

قال القاضي عبد الجبّار في «المغني في أبواب العدل والتوحيد»: أظهر معاوية أنّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذرًا في ما يأتيه ويوهم أنّه مصيب فيه، وأنّ الله جعله إمامًا وولّاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أميّة.

وهذه القضيّة كانت موجودة من قبل، إلّا أنّها ظهرت بشكل أوضح في عصر الإمام السجّاد عليه السلام، حيث سعى بنو أميّة للسيطرة على عقول الناس وبلورة أفكارهم بالطريقة التي تناسب ملكهم، فكان معاوية يقول في خطبه: «لو لم يرني الله أهلًا لهذا الأمر ما تركني وإيّاه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيّره». وقال معاوية في بعض خطبه: «أنا عامل من عمّال الله أُعطي من أعطاه الله وأمنع من منعه الله، ولو كره الله أمرًا لغيّره». فأنكر عليه عُبادة بن الصامت وغيره من الصحابة. نقله ابن المرتضى وقال: هذا صريح الجبر[١].

وقد استطاع معاوية من خلال تأسيسه لذلك أن يمهّد الأرضيّة لكي تقتل الأمّة إمام زمانها من دون أن تشعر بأيّ ذنب، وهذا ما صرّح به يزيد في مجلسه عندما نسب قتل الإمام الحسين عليه السلام إلى الله تعالى، إلّا أنّ الإمام السجّاد عليه السلام خاطبه قائلًا: «قتل أبي

[١]- الحسيني الجلالي، محمد رضا، جهاد الإمام السجّاد، ص٩٠.

الناس». قال يزيد: «الحمد لله الذي قتله فكفانيه». قال الإمام عليه السلام: «علىٰ من قتل أبي لعنة الله، أفتراني لعنت الله عزّ وجلّ؟.

وقد أظهر هذا الأمر أيضًا في الكوفة، قال عبيد الله: «أليس قد قتل الله عليّ بن الحسين؟ فقال الإمام عليه السلام ﴿اللَّـهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، فغضب عبيد الله وقال: وبك جرأة لجوابي، وفيك بقيّة للردّ عليّ، اذهبوا به فاضربوا عنقه، ثمّ صعد المنبر، وقال: الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهله ونصر أمير المؤمنين وحِزبه[١].

ومن هنا نجد كيف أنّ الإمام عليه السلام كان يواجه كلّ التحدّيات دون أن تأخذه في الله تعالى لومة لائم.

ب. المشبّهة:

مرّت بنا سابقًا الرواية: أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ذات يوم، إذ سمع قومًا يشبّهون الله بخلقه، ففزع لذلك، وارتاع له، ونهض حتّى أتى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فوقف عنده، ورفع صوته يدعو ربّه، فقال في دعائه: «إلهي بدت قدرتك، ولم تبد هيبة جلالك، فجهلوك، وقدّروك بالتقدير على غير ما أنت به مشبّهوك. وأنا بريء من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك شيء يا إلهي ولن يدركوك، فظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو عرفوك. وفي خلقك يا إلهي مندوحة عن أن يتأوّلوك. بل ساووك بخلقك، فمن ثمّ لم يعرفوك. واتّخذوا بعض آياتك ربًّا، فبذلك وصفوك، فتعاليت يا إلهي عمّا به المشبّهون نعتوك»[٢].

فالإمام سلام الله عليه أوضح هذا الأمر بصوت عالٍ، كما ذُكر في الرواية. وهذا يدلّ كيف كان الإمام عليه السلام يواجه كلّ الادّعاءات المزيّفة لبني أميّة بالحجج الدامغة وبوضوح جليّ بحسب الظروف المتاحة.

ت. الإرجاء

---

[١]- الحسيني الجلالي، محمد رضا، جهاد الإمام السجّاد، م.س، ص٩٠.

[٢]- المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، ج١٥، ص١٥.

واجه الإمام السجّاد عليه السلام الكثير من المسائل، ومن جملتها قضيّة الإرجاء التي تتلخّص بأنّ الإيمان هو إقرار باللسان، ولا شأن للعمل به، حتى لو كان المرء من أصحاب الكبائر فإيمانه صحيح. بل وصل الأمر ببعضهم إلى القول: إنّ الإيمان هو عقد القلب، وإن أعلن الكفر بلسانه فلا يسمّى كافرًا، وهكذا أصبح الإرجاء كما يقال دين الملوك، أو دينًا يحبّه الملوك أو دينًا يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم.

وقد واجه الإمام السجّاد عليه السلام هذه العقيدة المنحرفة، سالكًا منهج رسول الله صلى الله عليه وآله في محاربته للمرجئة؛ حيث قال: «لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيًّا، الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل. وعنه صلى الله عليه وآله: صنفان من أمّتي لعنهم الله على لسان سبعين نبيًّا: القدريّة والمرجئة، الذين يقولون: الإيمان إقرار ليس فيه عمل»[١].

وفي معالجة هذا الانحراف، أكّد الإمام السجّاد عليه السلام على أهمّيّة العمل مع الإيمان بالله تعالى، وأنّ حقيقة هذا الأمر قد تجسّدت في تعاليم القرآن الكريم، حيث نجد الإيمان مقرونًا بالعمل دائمًا، وأنّه بدون العمل يكون الإنسان في خسران مبين، كما في سورة العصر التي تكشف هذا الأمر بشكل واضح جدًّا. فعن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «إنّ لسان ابن آدم يشرف على جميع جوارحه كلّ صباح، فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا ويقولون: الله الله فينا ويناشدونه، ويقولون: إنّما: نثاب ونعاقب بك»[٢].

وفي حديث طويل، يُشير الإمام السجّاد عليه السلام إلى أنّه من أراد الجنّة، فلا يكفي أن يكون مؤمنًا، بل ينبغي عليه أن يبتعد عن الشهوات والمعاصي، وهذا يدلّ على أنّ الإيمان لا يمكن أن يكون إيمانًا حقيقيًّا إلّا من خلال التطبيق العمليّ، فيقول عليه السلام: «ألا ومن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النّار رجع عن المحرّمات»[٣].

ومن هنا نلحظ كيف واجه الإمام السجّاد عليه السلام عقيدة الإرجاء من خلال تبيان

---

[١]- المتّقي، الهنديّ، علاء الدين علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج١، ص١٣٥.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص١١٥.

[٣]- المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، ج٦٥، ص٣٨٣.

المفاهيم الإيمانيّة الصحيحة، سواء بالروايات الواردة عنه عليه السلام، والتي توضح حقيقة الإيمان واقترانه بالعمل الصالح، أو من خلال أدعيته المباركة، وما أعمق ما ورد في دعاء مكارم الأخلاق، في بيان حقيقة الإيمان بالله تعالى ومراتبه، حيث يقول فيه: «اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَبَلِّغْ بِإِيْمَانِي أَكْمَلَ الإِيْمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَّـاتِ، وَبِعَمَلِي إِلى أَحْسَنِ الأَعْمَالِ... وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَدًا عَنْهُ وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ...»[١]. ثم يقدّم قائمة طويلة جدًّا من الأعمال الصالحة التي ترسم معالم الشخصيّة المؤمنة.

ومن المرجئة من يقول: إنّ الإيمان هو عقد القلب، وإن أعلن الكفر بلسانه فلا يسمّى كافرًا. وهذا الأمر كان مناسبًا جدًّا للسلطة الأمويّة، وكما يقول أحمد أمين: هذه المبادئ تخدم بني أميّة -ولو بطريق غير مباشر- وأصحابها كانوا يرون أنّ مهادنة بني أميّة صحيحة، وأنّ خلفاءهم مؤمنون، لا يصح الخروج عليهم. ونتيجة ذلك لم يتعرّضوا للأمويّين بسوء، كما تعرّضوا للمعتزلة والخوارج والشيعة.

وهذا الأمر أتاح ليزيد المعلن للفسق والفجور أن يتمادى في طغيانه دون أدنى اعتراض من الأمّة، واستباح المدينة خلال وقعة الحرّة كما ذكرنا سابقًا. فالأمويّون استباحوا مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وحرمه، وقتلوا آلاف الناس، وفيهم جمع من أبناء صحابة الرسول صلى الله عليه وآله، وهتكوا الأعراض ونهبوا الأموال. ولم يكتفوا بذلك، بل أكملوا مسيرة الإجرام بمهاجمة الكعبة المشرّفة وهتك حرمتها وحرمة المقدّسات، وأباحوها لجيوشهم.

ومع كلّ ذلك، فحكّام بني أميّة في نظر المرجئة يجب طاعتهم وعدم الاعتراض عليهم. إلّا أنّ الإمام السجّاد عليه السلام فضح أمرهم، وكشف زيفهم، فتوالت الثورات في أيامه، كثورة المختار الثقفيّ التي كان للإمام السجّاد عليه السلام موقف منها كما أشرنا سابقًا.

---

[١]- الصحيفة السجّاديّة، الدعاء ٥٠.

ج. الخوارج:

نشأت هذه الفرقة في معركة صفين في بادئ الأمر؛ لأسباب سياسيّة، ثمّ بعد ذلك أصبحت فرقةً دينيّةً لها معتقداتها الخاصّة بها، وليس المقام مقام عرض وتفصيل عقائدهم.

ولّما قُتل الخوارج وأفلت منهم من أفلت، قال بعض أصحاب الإمام: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم، فقال: «كلّا، والله إنّهم نُطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نجم منهم قرن قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصًا سلّابين»[١].

ونقل المسعودي أنّ عليًّا عليه السلام عندما انتصر على الخوارج قال له بعض أصحابه: (قد قطع الله دابرهم إلى آخر الدهر، فقال: كلا، والذي نفسي بيده، وإنّهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، لا تخرج خارجة إلّا خرجت بعدها مثلها، حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الأشمط، يخرج إليه رجل منّا أهل البيت فيقتله، ولا تخرج بعدها خارجة إلى يوم القيامة)[٢].

اشتدّت قوّة الخوارج في عهد الدولة الأمويّة، وكانوا من العوامل الرئيسة التي أطاحت بحكم الأمويّين، فما من خليفة أمويّ إلّا ثاروا عليه، غير أنّهم ظهروا واشتهروا خصوصًا في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، وكانت ميادين القتال العراق وخراسان. وقد بدأ بقتال الخوارج مصعب بن الزبير - شقيق عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان في الخلافة - وكان قائده المهلب بن أبي صفرة. ولما تغلّبت قوّات عبد الملك على الزبيريين وقتل مصعب، كان لا يزال المهلّب يحارب الخوارج، فبايع عبد الملك بالخلافة عندما بلغه نعي مصعب، وتابع قتاله. ثمّ أرسل عبد الملك في سنة ٧٥ هجرية الحجّاج بن يوسف الثقفيّ واليًا على العراق، فتمكّن بشدّة بأسه من خضد شوكة الخوارج.

وفي زمن الإمام زين العابدين عليه السلام كان زعيم الخوارج البارز نافع بن الأزرق، ثمّ

---

[١]- الشريف الرضّي، نهج البلاغة، خطب الإمام علي، ج١، ص١٠٧.

[٢]- المسعودي، علي بن الحسن(ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٤١٨.

انشق عليه نجدة بن عامر المعروف بنجدة الحروريّ، وسيطر على نجد والبحرين وعمان وقسم من اليمن، لمدة ثلاث سنوات من ٦٥ إلى ٦٩ هجريّة.

ولا توجد رواية عن احتكاك بين نجدة والإمام زين العابدين عليه السلام، ومعناه أنّ الإمام عليه السلام كان يتوقّى ذلك، وكان نجدة مشغولًا عنه في مناطق حكمه.

وذكر اليعقوبيّ: «وأقام الحج للناس في هذه السنين في سنة ٦٣ عبد الله بن الزبير، وفي سنة ٦٤ ابن الزبير، وقيل يحيى بن صفوان الجمحي، وفي سنة ٦٥ وسنة ٦٦ وسنة ٦٧ ابن الزبير، وفي سنة ٦٨ وقفت أربعة ألوية بعرفات: لواء مع محمّد بن الحنفيّة وأصحابه، ولواء مع ابن الزبير، ولواء مع نجدة بن عامر الحروريّ، ولواء مع بني أميّة، وفي سنة ٦٩ وسنة ٧٠ وسنة ٧١ ابن الزبير»[١].

ولعلّ الإمام عليه السلام لم يحجّ في السنوات الصعبة أو حجّ مستخفيًا، حيث لم يذكر شيء عن لقائه أو احتكاكه أو مناظرته مع نجدة أو ابن الزبير أو الأمويّين، لكن ذكر حوار للإمام زين العابدين عليه السلام مع رجل من خوارج البصرة رُوي في الاحتجاج: «جاء رجل من أهل البصرة إلى عليّ بن الحسين عليه السلام، فقال: يا عليّ بن الحسين إنّ جدّك عليّ بن أبي طالب قتل المؤمنين! فهملت عينا عليّ بن الحسين دموعًا حتى امتلأت كفّه منها، ثمّ ضرب بها على الحصى، ثمّ قال: يا أخا أهل البصرة، لا والله ما قتل عليّ مؤمنًا ولا قتل مسلمًا، وما أسلم القوم ولكن استسلموا وكتموا الكفر وأظهروا الإسلام، فلما وجدوا على الكفر أعوانًا أظهروه، وقد علمت صاحبة الجدب والمستحفظون من آل محمّد صلى الله عليه وآله أنّ أصحاب الجمل وأصحاب صفّين وأصحاب النهروان لعنوا على لسان النبيّ الأمي وقد خاب من افترى.[٢]

[١]- اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، م.س، ج٢، ص٢٦٨.

[٢]- الطبرسّي، الاحتجاج، م.س، ج٢، ص٤٠.

الخاتمة:

خاض أهل البيت عليهم السلام معارك مختلفة لأجل الحفاظ على الدين وإيصال الرسالة نقيّة إلى الناس. ولمّا كان عصر الإمام السجّاد عليه السلام عصرًا انتقاليًّا، عرفت الأمّة فيه نكسة خطيرة، وانحدرت دينيًّا وقيميًّا إلى منحدرات سحيقة، كان لا بدّ للإمام عليه السلام أن يجد السبيل الأفضل في عمليّة إحياء الأمّة وإعادتها إلى الخطّ القويم الذي أسّسه رسول الله صلى الله عليه وآله وائتمن عليه أوصياءه من بعده.

ومن هنا، لجأ الامام السجّاد عليه السلام إلى استخدام أسلوب الدعاء ليوصل من خلاله كلّ الأهداف التي تخدم هذا الدين القويم، وتصدّى لردّ الشبهات من خلال الكنز الثمين الكامن في الصحيفة السجّاديّة، التي هي زبور آل محمّد عليهم السلام، ورسالة الحقوق التي أعادت اليقظة إلى أمّة كادت أن تدفن كلّ الحقوق في مدافن الانحطاط الأخلاقيّ والتربويّ الذي صنعه بنو أميّة. ونجح الإمام في اختراق المجتمع بطريقة لا تستفزّ السلطة عبر مؤسّسة العتق، فكان عليه السلام يشتري العبيد ويقوم بتثقيفهم ومن ثمّ يعتقهم، فصنع حصنًا منيعًا للدفاع عن نهج أهل البيت عليهم السلام لاحقًا.

كما سعى الإمام عليه السلام لمواجهة الانشقاقات الشيعيّة التي حدثت في عصره. ويفهم من خلال بعض الروايات بأنّه كان داعمًا بطريقة غير مباشرة بعض الثورات التي حصلت.

ومن أهمّ الأمور التي حقّقها الإمام السجّاد عليه السلام أنّه صنع على عينيه مجموعة من العلماء والأصحاب المخلصين، الذين تتلمذوا على يديه، وشكّلوا حصنًا منيعًا للدين، وكانوا النواة للجامعة التي استكملها الإمام الباقر عليه السلام وتبلورت بشكل واضح وجليّ على يدي الإمام الصادق عليه السلام فيما بعد.

وأخيرًا، لا ندّعي شموليّة البحث وإحاطته بكلّ جوانب الموضوع، ولكنّها محاولة

لدراسة دور الإمام السجّادعليه السلام في التأسيس العقديّ وتطوير علم الكلام بمعناه الواسع، الذي يتخطّى المصطلحات والتعريفات المدرسيّة الضيّقة.

ولا يخفى أن هذه المهمّة ليست بالهيّنة فالباحث يواجه فيها صعوبات جمّة ومنها ندرة المعلومات وقلّة المصادر في هذا السياق.

نرجو أن تكون هذه المحاولة خطوةً على هذا الدرب، لعلّها تحفّز الباحثين الأكثر قدرةً وكفاءة أن يخوضوا في هذا المضمار.

والله ولي التوفيق للمستنيرين في هذا الطريق.

قائمة المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة

٣. الصحيفة السجادية

٤. رسالة الحقوق

٥. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن الجزريّ الموصليّ، الكامل في التاريخ، لا.ط، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ١٩٦٧م.

٦. ابن داوود، تقيّ الدين بن عليّ بن داوود الحلّيّ، رجال ابن داوود.لا ط، لا ت.

٧. ابن طاووس، رضيّ الدين أبو القاسم علي ابن موسى، اقبال الأعمال، مكتب الإعلام الإسلاميّ.

٨. ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: علي شيري، لا.ط، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٦ م.

٩. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق: خيري سعيد، بيروت، المكتبة التوفيقيّة، ٢٠٠٠م.

١٠. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر.

١١. الإربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة عليهم السلام، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع.

١٢. الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٣. الجرجانيّ، الحسين بن إسماعيل، الاعتبار وسلوة العارفين، مؤسسّة زيد بن عليّ الثقافيّة.

١٤. الحائريّ، علي اليزدي، إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب، دار ومطبعة النعمان.

١٥. الحائريّ، محمّد مهدي، شجرة طوبى، ط٥، النجف، منشورات المكتبة الحيدريّة، ١٣٨٥ه.

١٦. الحرّ العامليّ، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١٧. الحسن البصريّ، محمّد عمارة، رسائل العدل والتوحيد، مؤسّسة دار الهلال.

١٨. الحسينيّ الجلاليّ، محمّد رضا، جهاد الإمام السجّاد، ط١، بيروت، دار الحديث، ١٤١٨ه.

١٩. الحلّيّ، ابن سعيد، نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر، تحقيق ونشر قم المقدسة، مدرسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

٢٠. الخامنئيّ، عليّ، إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، لا.ط، بيروت، مركز نون للتأليف والترجمة.

٢١. الخوارزميّ، أحمد بن محمّد المكّيّ، الشهاب الثاقب في مناقب علي بن أبي طالب، قم المقدّسة، ط١، مؤسّسة النشر الإسلاميّ.

٢٢. الخوئي، أبو القاسم الموسويّ، معجم رجال الحديث وطبقات الرواة، بيروت، دار المحجّة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٣. الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، خطب الإمام علي، شرح: محمّد عبده، ط١، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٤١٢ه.

٢٤. الصدر، محمّد باقر: مقدّمة الصحيفة السجّاديّة الكاملة، لاط، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ، لات.

٢٥. الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّيّ، الخصال، طهران، مؤسّسة النشر الإسلاميّ.

٢٦. الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّيّ، من لا يحضره الفقيه، قم، مؤسّسة نشر التراث الإسلاميّ.

٢٧. الصفّار، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد عليهم السلام، لا.ط، قم المقدّسة، مكتبة آية الله المرعشي النجفيّ.

٢٨. الطبرسيّ، أبي منصور أحمد بن علي، الاحتجاج، النجف الأشرف، مطابع النعمان.

٢٩. الطبريّ، محمّد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، لا.ط، مصر، دار المعارف، ١٩٦٨م.

٣٠. الطهرانيّ، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء.

٣١. الطوسيّ، محمّد بن محمّد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال برجال الكشّي، مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام.

٣٢. الطوسيّ، محمّد بن محمّد بن الحسن، الفهرست (أهمّ مصادر رجال الحديث عند الشيعة).

٣٣. القرشيّ، باقر شريف، حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، النجف الأشرف، مطبعة الآداب.

٣٤. القمّيّ، علي بن إبراهيم، تفسير القمّيّ، صحّحه وعلّق عليه: السيّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، بيروت - لبنان، دار السرور.

٣٥. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب، أصول الكافي، لا.ط، طهران، طبعة دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٦٥.

٣٦. المامقانيّ، عبد الله، تنقيح المقال في علم الرجال، ط١، بيروت، مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث، ٢٠٠٩م.

٣٧. المسعوديّ، عليّ بن الحسن(ت٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، لا.ط، بغداد، دار الكتاب العربيّ، د.ت.

٣٨. المتّقي، الهنديّ، علاء الدين علي بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، ط٥، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٩. المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط١، بيروت، مؤسّسة الوفاء.

٤٠. المرتضى، أحمد بن يحيى، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، دائرة المعارف النظاميّة.

٤١. المعتزليّ، ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، دار الكتاب العربيّ، دار الأميرة للطباعة والنشر.

٤٢. المفيد، أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبريّ البغداديّ، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، قم المقدّسة، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لحفظ التراث.

٤٣. المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان، الاختصاص، ط٢، بيروت، دار المفيد للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

٤٤. المنقريّ، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ.

٤٥. النجاشيّ، أحمد بن علي، رجال النجاشي: فهرس أسماء مصنّفي الشيعة.

٤٦. النّوبختيّ: فرق الشّيعة، لا.ط، النجف، المطبعة الحيدريّة، ١٩٣٦.

٤٧. أمين، أحمد، موسوعة فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر ويوم الإسلام، دار الكتاب العربيّ.

٤٨. جمال الدين، يوسف بن حاتم الشامي، الدر النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم، طهران، مؤسّسة النشر الإسلاميّ.

٤٩. سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربيّ، جامعة محمّد بن سعود اللإسلاميّة.

أدوار الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في التأسيس الكلامي

الشيخ حسن فوزي فواز(*)

المقدّمة

إنّ التأريخ لعلم الكلام في عصور أئمّة أهل البيت عليهم السلام عمومًا، وزمن الإمام الباقر عليه السلام خاصّة ذو قيمة بالغة؛ إذ يُبرز العقائد الأصيلة المتلقّاة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ويوضّح للباحث العقيدة الأصليّة للشيعة الإماميّة كما صدرت من المعصوم عليه السلام مباشرة، وتلقّفها الأصحاب. وهو من جهة أخرى، يكشف ظروف صدور النصوص العقديّة والإشكالات الكلاميّة التي تصدّى لها الإمام وعالجها؛ ما يساعد على فهم هذه النصوص فهمًا عميقًا.

والبحوث في هذا الموضوع شحيحة لا تكاد تُذكر، إلّا ما يمكن استفادته من كتب الملل والنحل المؤرّخة لعلم الكلام قديمًا وحديثًا.

وهذه الدراسة هي محاولة للإلمام بالموضوع (تاريخ علم الكلام في عصر الإمام الباقر عليه السلام) ابتداء من التعريف بالإمام الباقر عليه السلام، وبالظرف السياسيّ والفكريّ الذي عايشه، ومرورًا ببيان دوره في رسم العقيدة الإسلاميّة، وكلام الإماميّة وصولًا إلى عرض بياناته ومحاججاته التي اعتمدها في تأدية دوره في صيانة الأمّة وتحصينها.

وفي سبيل ذلك، اعتمدت الدراسة على المنهج التحليليّ النقليّ؛ واستندت إلى مصادر الحديث وكتب الملل والنحل، لتحلّل النصوص وتُكوّن صورةً واضحةً عن الظرف التاريخيّ الذي عايشه الإمام عليه السلام، وتسلّط الضوء على الأفكار الاعتقاديّة التي أبرزها

(*)- أستاذ حوزويّ، وباحث، لبنان.

الإمام الباقر عليه السلام، والأمور الأساسيّة التي كانت تشكّل مشكلة في الواقع الإسلاميّ، وكيفيّة معالجة الإمام لها.

هذا، وقد توزّعت الدراسة على مقدّمة وأربعة مطالب وخاتمة. وجاءت المباحث كالآتي:

المطلب الأوّل: في بيان حياة الإمام الباقر عليه السلام والظرف الفكريّ الذي عايشه، وذلك عن طريق استقراء الوضع السياسيّ وأهمّ الطروحات الفكريّة التي عاصرت زمنه عليه السلام.

المطلب الثاني: في بيان دور الإمام الباقر عليه السلام في رسم حدود المذهب وتحصينه لا سيّما عن طريق التأكيد على مصادر المعرفة الصحيحة.

المطلب الثالث: نتعرّض فيه لجملة من الاحتجاجات والبيانات التي تصلح لدفع تلك الأفكار الضالّة.

المطلب الرابع: في بيان حفظه عليه السلام لاستمراريّة المذهب عن طريق التأكيد على اتصال الإمامة وبقائها في عقبه، مضافًا إلى دوره في تربية الصحابة، ووصيّته بهم، مع التعريف ببعضهم.

أوّلًا: التعريف بالإمام الباقر عليه السلام وملامح عصره

١. النسب والولادة والوفاة واللقب والكنية

هو محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ولد في المدينة سنة ٥٧ للهجرة[١]، وكان عمره يوم قُتل جدّه الإمام الحسين عليه السلام ثلاث سنوات[٢]، واستشهد في المدينة سنة ١١٤ للهجرة، ودفن بالبقيع في القبر الذي دفن فيه أبوه عليّ بن الحسين عليهما السلام[٣].

---

[١]- الكلينيّ، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج١، ص٤٦٩.

[٢]- ابن خلّكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٤، ص١٧٤.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٤٦٩.

وكانت مدّة إمامته تسعة عشر سنة وشهرين[١]. أشهر ألقابه (الباقر)، فقد عرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله بباقر العلم على ما رواه نقلة الآثار[٢]، وسمّي بذلك؛ لأنّه بقر العلم بقرًا أي شقّه شقًّا وأظهره إظهارًا[٣]، وكنيته (أبو جعفر). وأمّه أم عبد الله[٤] بنت الحسن بن عليّ بن أبي طالب[٥]، ذُكر أنّ اسمها فاطمة[٦]، قال الإمام الصادق عليه السلام: «كانت صدّيقة لم تدرك في آل الحسن إمرأة مثلها»[٧]، فهو عليه السلام هاشميّ من هاشميّين وعلويّ من علويّين[٨].

بعض ما قيل في حقّه:

قال عنه الشيخ المفيد قدس سره: «وكان الباقر أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين عليه السلام من بين إخوته خليفة أبيه عليّ بن الحسين ووصيّه والقائم بالإمامة من بعده، وبرز على جماعتهم بالفضل في العلم والزهد والسؤدد، وكان أنبههم ذكرًا وأجلّهم في العامّة والخاصّة، وأعظمهم قدرًا، ولم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الآداب ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام وروى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين، وصار بالفضل به عَلَمًا لأهله تُضرب به الأمثال وتَسير بوصفه الآثار والأشعار»[٩].

امتدّت إمامة الإمام الباقر عليه السلام -كما لعلّه الأشهر- من سنة ٩٥ إلى ١١٤ للهجرة،

[١]- كما هو مرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام في الكافي، ج١، ص٤٧٢. وفي المقام أقوال أُخر، فقد جاء في فرق الشيعة، ص٦١ ذكر أنّه عليه السلام توفي في سنة أربع عشرة ومئة وهو ابن خمس وخمسين سنة وأشهر، قال: "وكان مولد سنة تسع وخمسين، وقال بعضهم: إنّه توفي في سنة تسع عشرة ومئة وهو ابن ثلاث وستين سنة،... وكانت إمامته احدى وعشرين سنة وقال بعضهم بل كانت أربعًا وعشرين سنة".

[٢]- الطبرسّي، الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص٥٠٥.

[٣]- كما ذكر الشيخ الصدوق (رحمه الله) في معاني الأخبار، ص٦٥، وما ورد في بعض الكتب من جعل هذه العبارة رواية عن المعصوم عليه السلام اشتباه. نعم، نقل هذا المعنى عن جابر بن يزيد الجعفي كما في علل الشرائع، ج١، ص٢٣٣.

[٤]- وما في التهذيب، ج٦، ص٧٧ من أنّ كنيتها (أم عبدة) كأنّه تصحيف.

[٥]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص٤٦٩.

[٦]- الطبرسي، إعلام الورى، م.س، ج١، ص٤٩٨.

[٧]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٤٦٩.

[٨]- المفيد، محمّد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص١٥٨.

[٩]- م.ن، ج٢، ص١٥٧.

وقد عاصر في تلك المدّة جملة من خلفاء بني أميّة، وهم: الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ)، وسليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ)، وعمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ)، ويزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ)، وهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ).

٢. الملامح الفكريّة العامّة لعصره

وأهمّ الملامح -بما يرتبط ببحثنا- لفترة بني أميّة يمكن تلخيصها بما يلي:

الأوّل: ظلم أهل البيت عليهم السلام، وإظهار النصب لهم، لا سيّما ما وقع من قتال أمير المؤمنين عليه السلام وإظهار سبّه والبراءة منه، وقتلهم للإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، والأصل في ذلك غصب الخلافة وما يلازمها من غصبهم لإرث أهل البيت عليهم السلام المادّيّ كما وقع بالنسبة لفدك.

الثاني: الترويج لعقيدة الجبر، فقد نقل عبد الجبار في المغني عن شيخه أبي عليّ قوله: (أوّل من قال بالجبر وأظهره معاوية، وأنّه أظهر أنّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذرًا فيما يأتيه، ويوهم أنّه مصيب فيه، وأنّ الله جعله إمامًا وولّاه الأمر؛ وفشا ذلك في ملوك بني أميّة. وعلى هذا القول قَتَلَ هشام بن عبد الملك غيلان الدمشقيّ[١]... وقال جهم: إنّه لا فعل للعبد)[٢]، وقد نقل الراغب في محاضراته قصّة في هذا المعنى[٣].

الثالث: تقريبهم لأهل الباطل وما يلازمه من شيوع الشبهات والأفكار المنحرفة، حيث استمرّ نهج الترويج للإسرائيليّات في البيئة الإسلاميّة، وإيقاع الشبهات العقديّة في ذهن المسلمين، كما ينقل من أنّ أصل الفتنة في مسألة الكلام الإلهيّ بدأت من شبهة ألقاها بعض علماء النصارى، وهو (يوحنّا الدمشقيّ) المتوفّى في النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة، وحاصلها: أنّ القرآن قد وصف عيسى بأنّه كلمته[٤]، فسأل النصراني

---

[١]- توفي سنة ١٠٦هـ، فقد كان غيلان الدمشقيّ قدريًّا مفوّضًا على ما ذكروا.

[٢]- القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج٨، ص٤.

[٣]- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد بن المفضل، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج١، ص٧٠٠.

[٤]- سورة النساء، الآية ١٧١، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

المسلمين عن كلام الله تعالى، وأنّه قديم أو مخلوق، فإن قالوا بقدمه فقد اعترفوا بقدم المسيح، وبالتالي بألوهيّته؛ إذ المرتكز في أذهان المسلمين أنّ كلّ قديم إله، وإن قالوا بمخلوقيّته، فالقرآن كلام الله تعالى، فيكون مخلوقًا، ويريد من ذلك -بحسب ما ذكروا- مُختلَق ومزوّر لا بمعنى الحادث[١]. هذا مضافًا إلى ما وقع من ترجمة للفلسفة، كما ينقل عن فعل (خالد بن يزيد بن معاوية)[٢].

٣. الملامح الفكريّة العامّة للفرق النابتة في تلك الحقبة

من ناحية الفرق النابتة في تلك الأيام، فقد ظهرت أسماء فرق متعدّدة من قبيل: المرجئة، الخوارج، الجهميّة، المشبّهة، الكيسانيّة... ولن نركّز في هذه الدراسة على التعريف بهذه الفرق -وإن كنّا نشير إلى بعض ذلك في الهوامش- وما نسب لها من أفكار وطروحات، بل نظرنا إلى أهمّ الآراء التي مثّلتها هذه الفرق -مع ما فيها من التداخل بينها أو مع البيت الأمويّ- لكي يتبيّن للقارئ في تراث الإمام الباقر عليه السلام كيف واجه عليه السلام تلك الفرق والمذاهب.

ولا بأس بعرض المهمّ من تلك الآراء بذكر خبرٍ يحاكي زمن الإمام الباقر عليه السلام -وإن كانت الواقعة قد حدثت مع الإمام الصادق عليه السلام لاتصال عصريهما- فيحكي عن حال تلك الفرق الشائعة في زمنه عليه السلام، ونصّ الخبر الناقل لطلب سفيان الثوريّ من الإمام الصادق عليه السلام أن يملي عليه خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف، ومما جاء فيها: "ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم"، وقد جاء فيه قول رجل من قريش من أهل مكة لسفيان:

---

[١]- انظر: السبحانيّ، جعفر، بحوث في الملل والنحل، ج٢، ص٢٥٣، وقد جاءت هذه الشبهة في كتاب الهرطقة المئة، ص٧٠ المنسوب لنفس يوحنّا الدمشقيّ، ونصّها: "إذا ما سألك المسلم قائلاً: من هو المسيح برأيك؟ قل له دون الخشية من الخطأ في ذلك، إنّه كلمة الله؛ لأنّ الكتاب المقدّس يدعوه كلمة الله... واسأله أنت بدورك وقل له: ماذا يُدعى المسيح في كتابك؟... وهكذا سيكون مرغمًا على إجابتك حتمًا، فيقول: في كتابي يدّعى المسيح روح الله وكلمته، عندئذٍ قل له من جديد: روح الله والكلمة بحسب كتابك، هل هما غير مخلوقين أم مخلوقان؟» إلى آخر ما ذكر.

[٢]- قال ابن النديم في الفهرست، ص٣٠٣: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبّة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيّين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصّح بالعربيّة، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليونانيّ والقبطيّ إلى العربيّ. وهذا أوّل نقل كان في الإسلام من لغةٍ إلى لغة».

"والله ألزم أبو عبد الله رقبتك شيئًا لا يذهب من رقبتك أبدًا، فقال[١]: وأيّ شيء ذلك؟ فقلت له: ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله قد عرفناه، والنصيحة لأئمّة المسلمين من هؤلاء الأئمّة الذين يجب علينا نصيحتهم؟ معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم[٢]؟! وكلّ من لا تجوز شهادته عندنا ولا تجوز الصلاة خلفهم. وقوله: واللزوم لجماعتهم، فأيّ الجماعة؟ مرجئ يقول: من لم يصل ولم يصم ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمّه فهو على إيمان جبرائيل وميكائيل؟! أو قدريّ يقول: لا يكون ما شاء الله عزّ وجلّ ويكون ما شاء إبليس؟! أو حروريّ يتبرّأ من عليّ بن أبي طالب وشهد عليه بالكفر؟! أو جهميّ يقول: إنّما هي معرفة الله وحده ليس الإيمان شيء غيرها؟! قال[٣]: ويحك وأيّ شيء يقولون؟ فقلتُ: يقولون: إنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام والله الإمام الذي يجب علينا نصيحته ولزوم جماعتهم أهل بيته، قال: فأخذ الكتاب فخرقه ثم قال: لا تُخبر بها أحدًا»[٤].

وكيف كان، فلنذكر هنا أهمّ الأفكار المطروحة في زمن الإمام الباقر عليه السلام، كما يعرف ذلك عن طريق مراجعة كتب الأخبار والكلام والملل والنحل:

أ- معرفة الله تعالى وصفاته بشكل عامّ

في معرفة الله تعالى وصفاته بشكل عامّ، حيث شاع بين المسلمين في تلك الفترة التعطيل والتشبيه، فمن معطّل يتأوّل كلّ الصفات أو خصوص ما كان مشتركًا كما هو المنقول عن الجهميّة[٥] أصحاب الجهم بن صفوان (ت١٢٨هـ)، ولم يُطلقوا على الله

---

[١]- يعني سفيان.

[٢]- ذكر هؤلاء من دون ذكر أيّ خليفة من العباسيّين يظهر منه صدور الخبر قبل زوال دولة بني أميّة، أي قبل سنة ١٣٢ هـ.

[٣]- يعني سفيان.

[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص٤٠٣-٤٠٤.

[٥]- في الملل والنحل عند بيان أقوال الجهم بن صفوان: «منها قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه؛ لأنّ ذلك يقضي تشبيهًا، فنفى كونه حيًّا عالمًا. وأثبت كونه: قادرًا، فاعلًا، خالقًا؛ لأنّه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة، والفعل، والخلق» أي باعتباره مجبرًا لا يرى الإنسان قادرًا على شيء على ما تأتي الإشارة إليه إنْ شاء الله تعالى. انظر: الشهرستاني، محمّد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ج١، ص٩٧ -٩٨.

تعالى اسم الموجود والشيء[١]، وفي مقابلهم المشبّهة والمجسّمة الذين أجروا الآيات على ما يدّعى لها من ظاهر، فذكروا أنّ الله جسم وله يد ورجل... وقد ذكر الشهرستاني تسرّب عقيدة التشبيه من اليهود، فقال عند شرحه لأحوالهم: «وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإنّ التشبيه فيهم[٢] طباع، حتى قالوا: اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وإنّ العرش لتئِطّ من تحته كأطيط الرّحل الحديد وإنّه ليفضل من كلّ جانب أربع أصابع»[٣].

ب- الخلاف في صفة العلم

ما تقدّم كان في بيان الخلاف الواقع في الصفات بشكل عامّ، ولهم خلاف في جملة من الصفات كما وقع بالنسبة للعلم، حيث ينقل عن الجهميّ نفيه علم الله تعالى الأزليّ بالأشياء، وأنّه أثبت علومًا حادثة للباري تعالى لا في محلّ، قيل: «قال: لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه»[٤]، ونُقل عنه تعليل يناظر تعليل بعض الفلاسفة في مسألة نفيهم علم الله تعالى بالجزئيّ بما هو جزئيّ ليس هنا موضع ذكره.

ت- الكلام الإلهيّ

قد عرفت في بدايات هذا المطلب إشكاليّة الكلام الإلهيّ المطروحة في ذلك الزمن، فلا نعيد.

ث- رؤية الله تعالى

وهو من توابع القول بالتجسيم والتشبيه، والقول برؤية الله تعالى مع ما ورد في جملة من أخبار العامّة من وقوع الرؤية يوم القيامة[٥].

---

[١]- الرازي، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص٦٩.

[٢]- يعني في اليهود.

[٣]- الشهرستاني، الملل والنحل، م.س، ج١، ص١٢١.

[٤]- م.ن، ج١، ص٩٨.

[٥]- من هذه الأحاديث ما جاء في صحيح البخاري: «إنّ أناسًا في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربّنا

ج- الجبر والتفويض

هذه المسألة تعدّ من أشكل المسائل الكلاميّة مع ما فيها من أبعاد مرتبطة بعلم الله تعالى، وإطلاق قدرته، وقضائه وقدره، والهداية والضلالة وأنّهما من الله... ومن نظر إلى حال المسلمين في تلك الفترة وجدهم في الغالب منقسمين إلى طائفتين:

الأولى: أهل الجبر المؤمنون بالخضوع القهري لكلّ شيء لقدر الله تعالى، وسلب الإرادة والاختيار عن جميع المخلوقات بمعنى أنّه ليس للإنسان من فعله شيء كما هو المنقول عن الجهميّ، وأنّه قال: «إنّ العبد ليس قادرًا البتّة»[١].

الثانية: أهل التفويض والقول بالاستطاعة، وهم من يطلق عليهم في الأخبار -غالبًا- اسم القدريّة[٢]، أي من أنكر جريان الأمور بقدر من الله تعالى، وما تقدّم نقله من توصيفهم بأنّهم يقولون «لا يكون ما شاء الله عزّ وجلّ ويكون ما شاء إبليس» من جهة أنّ حقيقة دعواهم ترجع إلى أنّ الله تعالى يُعصى بغلبة، وسوف يأتي إن شاء الله تعالى بيان احتجاج الإمام الباقر عليه السلام على هذه الطوائف.

ح- النبوة وتزييف الإسرائيليّات

مما ابتلت به هذه الأمّة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، أخذها الدين من غير منبعه الصحيح، ومن تلك المنابع التي ابتلت بها الأمّة ما جاء من قِبَل أحبار اليهود وقساوسة النصارى وفلاسفة اليونان، وقد أثّرت تلك الأفكار في البيئة المسلمة أيّما تأثير، نشهده إلى يومنا

يوم القيامة؟ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، قال: وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: ما تضارون في رؤية الله عزّ وجلّ يوم القيامة إلاّ كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن تتبّع كلّ أمّة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلاّ يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبقَ إلاّ من كان يعبد الله برّ أو فاجر وغبرات أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد عزير ابن الله. فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد... حتّى إذا لم يبقَ إلاّ من كان يعبد الله من برّ أو فاجر أتاهم ربّ العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال ماذا تنتظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم فيقولون لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثًا». البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، ج٥، ص١٧٩.

[١]- الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، م.س، ص٧٠.

[٢]- وقد جمعنا جملة من الأخبار التي هي بهذا المعنى في كتابنا: غاية المراد في شرح تجريد الاعتقاد، وعلى هذا الأساس نبني في هذه الرسالة فنطلق اسم القدرية على المفوّضة. انظر: فوّاز، حسن فوزي، غاية المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ج٢، ص٢٩٩ وما بعدها،

الحاضر، ومن المشهورات في الذكر ما أخذوه عنهم بلحاظ سيرة الأنبياءعليهم السلام مع ما فيها من العقائد الفاسدة وتوهين مقاماتهم[١].

خ- الإمامة وفروعها

في مسألة الإمامة، فإنّ العقيدة الرسميّة للدولة الأمويّة الخضوع والخنوع لحكّام بني أميّة، وعلى هامش ذلك هناك فِرَقٌ أُخر حَكَت وجودها كتب الملل والنحل، مثل (الكيسانيّة) المختلف في تفسير أحوالهم، بل ذكروا أنّهم متفرّقون إلى إحدى عشرة فرقة[٢]، يجمعهم القول بإمامة محمّد بن علّي بن أبي طالب المعروف بـ(ابن الحنفيّة) نسبة إلى أمّه (خولة بنت جعفر بن قيس الحنفيّة). وقد نُسب إلى بعضهم القول إنّ «محمّد بن الحنفيّة» حيّ بجبال رضوى، أسد عن يمينه ونمر عن شماله يحفظانه، يأتيه رزقه غدوة وعشيّة إلى وقت خروجه[٣].

وكانت حركة الخوارج موجودة أيضًا إلى ذلك الزمان، مع ما عندهم من النصب لأمير المؤمنينعليه السلام، وإشكالاتهم على قضيّة التحكيم التي وقعت يوم صفّين.

د- الأرزاق والسعي

من المسائل العقائديّة المعروفة، مسألة الأرزاق وجملة من أحكامها، وقد شاع منذ القدم وجود طائفة عادةً ما يطلق عليها اسم (الصوفيّة) ذات سلوكيات منحرفة في هذه المسألة وغيرها، فيُنسب إليهم القول بتحريم الاكتساب أو لا أقلّ من كونه أمرًا مرجوحًا.

ذ- الكفر والإيمان

من المسائل التي وقع فيها الخلاف منذ قديم الزمان، مسائل مرتبطة بالحكم بالإسلام والإيمان والكفر، وكثيرًا ما يُعنون في كتب الكلام باسم: (الأسماء والأحكام)، فظهرت

---

[١]- انظر: مرتضى، السيّد جعفر، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، ج١، صص١٣٦-١٥٣.

[٢]- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، ص١٨.

[٣]- م.ن، ص١٩.

فكرة عامّة ترى خروج العمل عن الإيمان بالمرّة، بحيث لا يضرّ الإيمان -حتّى بلحاظ كماله- طبيعة العمل، فالفاسق الفاجر القاتل للنفس المحترمة إيمانه كإيمان جبرائيل، ويُطلق على أصحاب هذه الفكرة اسم (الإرجاء)، وكلّ من يعتقد به (مرجئ)، قال النوبختيّ (رحمه الله): «لأنّهم توالوا المختلفين جميعًا وزعموا أنّ أهل القبلة كلّهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان ورجوا لهم جميعًا المغفرة، وافترقت «المرجئة» بعد ذلك فصارت إلى (أربع فرق): (فرقة) منهم غلوا فى القول وهم «الجهميّة» أصحاب «جهم بن صفوان» وهم مرجئة أهل خراسان...»[١].

وما ذكره من غلوّ (الجهميّة) في الإرجاء لعلّه راجع إلى ما نقل عن الجهميّ من قوله: «ومنها قوله: من أتى بالمعرفة ثمّ جحد بلسانه لم يكفر بجحده؛ لأنّ العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن»[٢].

وعلى كلّ، فالذي يميّز فكرة الإرجاء مسألة عقديّة متربطة بموضوع الحكم بالإيمان وعدم إضرار الفسق به، وما يلزمه تولّي أهل القبلة أجمعين سواء الظالم والمظلوم، وعدم التبرّي من أحد البتّة.

ثانيًا: الإمام الباقر عليه السلام وتأصيل حدود المعرفة الحقّة

١. خصائص الإمام الباقر عليه السلام والظروف التي ساعدت على نشر العلم

من لاحظ سيرة الأئمّة عليهم السلام يجد شيئًا من التنوّع في الأدوار بحسب مقام العمل، وقد تبيّن في بعض الأخبار أنّ ذلك عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد عقد الكلينيّ لذلك بابًا في الكافي تحت عنوان: «باب أنّ الأئمّة عليهم السلام لم يفعلوا شيئًا ولا يفعلون إلّا بعهد من الله عزّ وجلّ وأمر منه لا يتجاوزونه»[٣]، ولا بأس هنا أن ننقل رواية رواها عليّ بن بابويه[٤] وولده الشيخ الصدوق عنه[٥]، وننقل هنا نصّ ما ورد في علل الشرائع ضمن باب:

---

[١]- النوبختيّ، حسن بن موسى، فرق الشيعة، صص٦-٧.

[٢]- الشهرستانيّ، الملل والنحل، م.س، ج١، ص٩٩.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٢٧٩.

[٤]- الصدوق، عليّ بن الحسين بن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص٣٨.

[٥]- الصدوق، محمد بن عليّ بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٢٣١- ٢٣٢.

«باب العلّة التي من أجلها خرج بعض الأئمّة عليهم السلام بالسيف، وبعضهم لزم منزله وسكت، وبعضهم أظهر أمره، وبعضهم أخفى أمره، وبعضهم نشر العلوم، وبعضهم لم ينشرها»[١]، وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله بصحيفة من السماء لم ينزل الله تعالى كتابًا قبله ولا بعده، وفيه خواتيم من الذهب، فقال له: يا محمّد، هذه وصيّتك إلى النجيب من أهلك، فقال له: يا جبرائيل، من النجيب من أهلي؟ قال: عليّ بن أبي طالب، مره إذا توفّيت أن يفكّ خاتمها ويعمل بما فيه، فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله فكّ عليّ عليه السلام خاتمًا، ثمّ عمل بما فيه وما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى الحسن بن عليّ عليه السلام ففكّ خاتمًا وعمل بما فيه وما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى الحسين بن عليّ عليه السلام ففكّ خاتمًا فوجد فيه أُخرج بقوم إلى الشهادة لهم معك واشْرِ نفسك لله، فعمل بما فيه وما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى رجل بعده ففكّ خاتمًا فوجد فيه أطرق واصمت والزم منزلك ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)، ثمّ دفعها إلى رجل بعده ففكّ خاتمًا، فوجد فيه: أن حدِّث الناس وأفتهم وانشر علم آبائك، فعمل بما فيه وما تعدّاه، ثمّ دفعها إلى رجل بعده ففكّ خاتمًا فوجد فيه: أن حدِّث الناس وأَفْتِهم وصدّق آباءك ولا تخافن إلّا الله، فإنّك في حِرز من الله وضمان، وهو يدفعها إلى رجل بعده ويدفعها من بعده إلى من بعده إلى يوم القيامة»[٢]، ولا يخفى أنّ المأمور بالصمت ولزوم المنزل هو الإمام زين العابدين عليه السلام، والمأمور أوّلًا بالتحديث والإفتاء ونشر العلم هو الإمام الباقر عليه السلام

وهذا الذي ذكرناه لا ينافي أن يكون عهد كلّ إمام ملائمًا مع ظروف موضوعيّة تناسبه، وإلّا فليس البناء في تبليغ الدين ونشره بين الناس على الإعجاز الدائم، ويمكن أن نُبرز عاملين مساعدين لنشر الدين في زمن الإمام الباقر عليه السلام:

- العامل الأوّل: ظرف الدولة الأمويّة وترهّلها، وكثرة الثورات عليها، مما يوجب ضعف الدولة المركزيّة في الشام بحيث لا تسيطر على الأطراف سيطرة تامّة، وهذا مما يجرّئ الكثير على الإنكار عليهم وإظهار مخالفتهم.

- العامل الثاني: جابر بن عبد الله الأنصاري (رضوان الله عليه) وبشارته

[١]- الصدوق، محمد بن عليّ بن بابويه، علل الشرائع، ج١، ص١٧١.

[٢]- م.ن، ج١، صص١٧١-١٧٢.

بالإمام الباقر عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا من شأنه أن يعطي وقعًا خاصًّا في قلوب المسلمين، ولا بأس بأن ننقل خبرًا من الأخبار الحاكية لهذا الموضوع، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ جابر بن عبد الله الأنصاري كان آخر من بقي من أصحاب رسول الله[١]، وكان رجلًا منقطعًا إلينا أهل البيت، وكان يقعد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو معتمر بعمامة سوداء، وكان ينادي: يا باقر العلم، يا باقر العلم، فكان أهل المدينة يقولون: جابر يهجر، فكان يقول: لا والله ما أهجر، ولكنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّك ستدرك رجلًا منّي اسمه اسمي وشمائله شمائلي، يبقر العلم بقرًا فذاك الذي دعاني إلى ما أقول. قال: فبينما جابر يتردّد ذات يوم في بعض طُرق المدينة، إذ مرّ بطريق في ذاك الطريق كُتّاب فيه محمّد بن عليّ، فلمّا نظر إليه، قال: يا غلام، أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: شمائل رسول الله صلى الله عليه وآله والذي نفسي بيده. يا غلام، ما اسمك، قال: اسمي محمّد بن عليّ بن الحسين فأقبل عليه يقبل رأسه، ويقول: بأبي أنت وأمي أبوك رسول الله صلى الله عليه وآله يقرئك السلام، ويقول ذلك، قال: فرجع محمّد بن علي بن الحسين إلى أبيه وهو ذعر[٢]، فأخبره الخبر، فقال له: يا بنيّ، وقد فعلها جابر، قال: نعم، قال: الزم بيتك يا بنيّ، فكان جابر يأتيه طرفي النهار، وكان أهل المدينة يقولون: واعجباه لجابر يأتي هذا الغلام طرفي النهار وهو آخر من بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله!...»، الحديث[٣].

وعلى كلّ، فلنستعرض في هذا المطلب جملةً من النقاط التي أسس لها الباقر عليه السلام في مسائل المعرفة بشكل عامّ.

٢. الحثّ على طلب العلم

من المسائل التي أكّد عليها الإسلام بشكل عامّ (طلب العلم)، وقد رفع أمر طالب العلم في كلمات الإمام الباقر عليه السلام نقلًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن جُعل شريكًا للعالم،

---

[١]- نقل في مرآة العقول القول بتحديد وفاة جابر بالمدينة سنة أربع وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين. انظر: المجلسيّ، محمّد باقر بن محمّد تقي، ج٦، ص١٦

[٢]- قال العلامّة المجلسي (رحمه الله): «وكان ذعره عليه السلام للتقيّة والخوف من المخالفين؛ ولذا تعجّب عليه السلام من صدور هذه الأمور منه بمحضر الناس، ولذا أمره بلزوم بيته لئلا يتضرّر من حسد الأشقياء عند علمهم بمنزلته وكرامته عند الله وعند رسوله أو لصون قدره ورجوع الناس إليه". المجلسيّ، مرآة العقول، م.س، ج٦، ص.١٧

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص٦٩-٧٠.

فقال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: العالم والمتعلّم شريكان في الأجر، للعالم أجران، وللمتعلِّم أجر، ولا خير في سوى ذلك»[١]. وكما أمر بالتعلّم أمر ببثّ ذلك العلم، فقد روى عنه محمّد بن مسلم قوله: «إنّ الذي تعلم منكم له مثل أجر الذي يُعلِّمه وله الفضل عليه، تعلّموا العلم من حملة العلم، وعلِّموه إخوانكم كما علّمكم العلماء»[٢].

ولا يُقصد من العلم إلّا الدراية بما ورد عنهمعليهم السلام، فقد قال الإمام الباقرعليه السلام لولده الإمام الصادقعليه السلام: «يا بنيّ، اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم؛ فإنّ المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، إنّي نظرت في كتابٍ لعليّعليه السلام فوجدتُ في الكتاب أنّ قيمة كلّ امرئ وقدره معرفته، إنّ الله تبارك وتعالى يُحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا»[٣]. وذكر العقل في هذا الحديث باعتباره مناط الاحتجاج، كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى في المطلب اللاحق.

وقد نبّه الإمام الباقرعليه السلام على مسألة شديدة الحساسيّة، وهي أهمّيّة العلم بالفروع كالأصول، لا من جهة أنّ من لم يتفقّه في الحلال والحرام أعرابيّ كما في رواية محمّد بن مسلم عنهعليه السلام فقط[٤]، بل من جهة ما نبّه عليه الإمام الصادقعليه السلام، وأنّ من احتاج إلى أهل الضلال في الفقه يمكن أن يدخل في باب ضلالهم العقديّ وهو لا يعلم، فقد روي عن أبي عبد اللهعليه السلام قوله: «لا خير فيمن لا يتفقه من أصحابنا يا بشير إن الرجل منهم إذا لم يستغن بفقهه احتاج إليهم، فإذا احتاج إليهم أدخلوه في باب ضلالتهم وهو لا يعلم»[٥].

[١]- الصفّار، محمّد بن الحسن بن فرّوخ، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد، ج١، ص٤.

[٢]- م.ن، ج١، ص٤.

[٣]- الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، معاني الأخبار، صص١-٢.

[٤]- البرقيّ، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، ج١، ص٢٢٧؛ ص٢٢٨.

[٥]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣٣.

٣. التأكيد على مرجعيّة أهل البيتعليهم السلام

أهمّ ما يجب على الإنسان -أعني الذي لا يريد إلّا وجه الله تعالى- مراعاته في مقام طلبه العلم عمّن يأخذ علمه، وقد أكّد على ذلك الإمام الباقرعليه السلام إجمالًا وتفصيلًا:

أمّا إجمالًا، فعند بيانهعليه السلام لمعنى أو مصداق قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: ٢٤)، قالعليه السلام: «علمه الذي يأخذه عمن يأخذه»[١]، أو قولهعليه السلام: «فتعلّموا العلم من حملة العلم»[٢]، مع التأكيد على أنّ العلم محفوظ لم يرفع بعد وفاة رسول اللهصلى الله عليه وآله كما يؤكّد قولهعليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئًا يحتاج إليه الأمّة إلّا أنزله في كتابه وبيّنه لرسولهصلى الله عليه وآله، وجعل لكلّ شيء حدًّا، وجعل عليه دليلًا يدلّ عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدًّا»[٣]، وقوله: «ما كانت الأرض إلاّ وفيها عالم»[٤]، و«إنّ العلم الذي هبط مع آدمعليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وإنّه لم يمت عالم إلّا خَلَّفَ من بعده من يعلم مثل علمه أو ما شاء الله»[٥]. والمشيئة لا بد أنها بلحاظ الزيادة، وإلاّ لانتقض الصدر أعني «لم يرفع».

وأمّا تفصيلًا، فالأخبار المتناقلة عنهعليه السلام شديدة الوضوح في حصر الحقّ بهم، وهو القائل: «كلّ ما لم يخرج من هذا البيت فهو باطل»[٦]، وقال لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «شرّقا وغرّبا فلا تجدان علمًا صحيحًا إلّا شيئًا خرج من عندنا أهل البيت»[٧]، ومثله، لكن مع وصف مشعر بالعلّيّة أعني الاتصال بالغيب، قولهعليه السلام عن الحكم بن عتيبة: «أما والله لا يصيب العلم إلّا من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل»[٨]، وقال أيضًا:

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٥٠.

[٢]- م.ن، ج١، ص٣٥، وقد تقدّم نقله عن البصائر.

[٣]- م.ن، ج١، ص٥٩.

[٤]- البرقيّ، المحاسن، م.س، ج١، ص٣٤؛ الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٤٨٥.

[٥]- البرقيّ، المحاسن، م.س، ج١، ص٢٣٥؛ الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص١١٦، وقريب منه ما في: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، م.س، ج١، ص٢٢٣.

[٦]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٥١١.

[٧]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣٩٩.

[٨]- م.ن، ج١، ص٤٠٠.

"فوالله ليس الأمر إلّا من ها هنا، وأشار بيده إلى بيته»[١].

وقد كثر في زمنه دعوة القدرة على التفسير وبيان آيات الكتاب، وقد نبّه الإمام الباقرعليه السلام على أنّ القرآن بما هو عهد من الله تعالى لا يفسّره ويبيّن واقعه إلّا من أتاه الله تعالى العلم، فقد روى أبو بصير قال: قال أبو جعفرعليه السلام في هذه الآية ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩)، ثم قال: «أما والله -يا أبا محمد- ما قال بين دفتي المصحف، قلت: من هم جعلت فداك؟ قال: من عسى أن يكونوا غيرنا!»[٢]، وقد أكّد على هذا المعنى عنهعليه السلام في أخبار مستفيضة، ففي مورد عند قصده بيان مصداق الآية «فأومأ بيده إلى صدره»[٣]، وفي آخر قال: «إيّانا عنى»[٤]، أو «نحن»[٥]، أو «نحن الأئمّة خاصّة»[٦].

وممّا روي عنهعليه السلامفي الاحتجاج على بعض مفسّري العامّة المشهورين: عن زيد الشحّام قال: «دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفرعليه السلام، فقال: يا قتادة، أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفرعليه السلام: بلغني أنّك تفسّر القرآن! فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفرعليه السلام: بعلمٍ تفسره أم بجهل؟ قال: لا، بعلم. فقال له أبو جعفرعليه السلام: فإن كنتَ تفسّره بعلم فأنت أنت[٧]، وأنا أسألُك، قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ في سبإ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨) فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال، يريد هذا البيت، كان آمنًا حتى يرجع إلى أهله. فقال أبو جعفرعليه السلام: نشدتُك الله يا قتادة، هل تعلم أنّه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت، فيقطع عليه الطريق

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣٩٩.

[٢]- م.ن، ج١، ص٢١٤.

[٣]- م.ن، ج١، ص٢١٣.

[٤]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٢٠٤.

[٥]- م.ن، ج١، ص٢٠٥.

[٦]- م.ن، ج١، ص٢٠٦.

[٧]- أي أنت العالم الذي ينبغي أن يُرجع إليه.

فتذهب نفقته، ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه[١]، قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفرعليه السلام: ويحك يا قتادة، إن كنتَ إنّما فسّرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنتَ قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة! ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفًا بحقّنا يهوانا قلبه كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، ولم يعن البيت فيقول: (إليه)، فنحن والله دعوة إبراهيمعليه السلام التي من هوانا قلبه قُبِلَت حجّته، وإلّا فلا، يا قتادة، فإذا كان كذلك كان آمنًا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسّرتها إلّا هكذا، فقال أبو جعفرعليه السلام: ويحك يا قتادة! إنّما يعرف القرآن من خوطب به»[٢].

وفي خبر آخر أنّه قال له: «ويحك يا قتادة، إنّ الله جلّ وعزّ خلق خلقًا من خلقه، فجعلهم حججًا على خلقه، فهم أوتاد في أرضه، قوّام بأمره، نجباء في علمه، اصطفاهم قبل خلقه أظلّة عن يمين عرشه... فسكت قتادة طويلًا، ثمّ قال: أصلحك الله، والله، لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدّام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدّام واحد منهم ما اضطرب قدّامك، قال له أبو جعفرعليه السلام: ويحك! أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾(النور: ٣٧)، فأنت ثمّ ونحن أولئك»[٣].

٤. محاربة أصحاب الآراء والأهواء الفاسدة

شاعت الأهواء الفاسدة في زمن الإمام الباقرعليه السلام، وبما يرتبط ببحثنا العقديّ فقد حذّرعليه السلام من اختراع المذاهب، فروي عنه قولهعليه السلام في حديث: «من نصب دينًا غير دين الله فهو مشرك»[٤]، وقولهعليه السلام: «أدنى الشرك أن يبتدع الرجل رأيًا فيحبّ عليه

[١]- يعني هلاكه.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٨، صص٣١١-٣١٢.

[٣]- م.ن، ج٦، ص٢٥٦.

[٤]- البرقيّ، المحاسن، م.س، ج١، ص٢٠٩.

ويبغض»[١]، ونبّه من الفتن المذهبيّة التي ابتلي بها المسلمون عند ابتعادهم عن تلك العين الصافية، فنقل عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «أيّها الناس إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله يتولّى فيها رجال رجالًا، فلو أنّ الباطل خلص لم يخفَ على ذي حجى، ولو أنّ الحقّ خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معًا، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[٢].

وله رسالة أنيقة إلى سعد الخير جاء مما جاء فيها في بيان أحوال أهل الضلال: «وكلّ أمّة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه، وولّاهم عدوَّهم حين تولّوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهّال يُعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يُحزنهم تركهم للرعاية، وكان من نبذهم الكتاب أن ولّوه الذين لا يعلمون، فأوردوهم الهوى وأصدروهم إلى الردى، وغيّروا عُرى الدين»[٣].

ومن هنا تظهر الحاجة الماسّة إلى العالم ليردّ الناس إلى الصواب، وهو ما روي عنه من قوله عليه السلام: «إنّ الأرض لا تبقى إلّا وفيها منّا مَن يعرف الحقّ، فإذا زاد الناس قال: قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال: قد نقصوا ولولا ذلك كذلك لم يُعرف الحقّ من الباطل»[٤].

٥. بيان أصالة علمهم وأنّه وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله

قد عرفت في نقطة سابقة تأكيد الإمام الباقر عليه السلام على مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام في بيان الدين، وقد أكّد هذا المعنى في جملة من الأخبار الدّالة على أصالة علمهم وأنّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد روي عنه قوله عليه السلام لبعض أصحابه: «إنّا لو كنّا نحدّثكم برأينا وهَوَانا لكنّا من الهالكين، ولكنّا نحدِّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء

[١]- الصدوق، محمد بن عليّ بن بابويه، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٥٧٢.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٥٤.

[٣]- م.ن، ج٨، صص٥٢-٥٣.

[٤]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، صص٣٣١-٣٣٢.

ذهبهم وفضّتهم»[١]، و«لو أنّا حدّثنا برأينا ضللنا كما ضلّ من كان قبلنا، ولكنّا حدّثنا ببيّنة من ربّنا بيّنها لنبيّه فبيّنها لنا»[٢].

ومن لطائف الأخبار ما رُوي عن ضريس قال: «سمعت أبا جعفرعليه السلام يقول وأناس من أصحابه حوله: إنّي أعجب من قوم يتولّوننا ويجعلوننا أئمّة ويصفون بأنّ طاعتنا عليهم مفترضة كطاعة الله، ثمّ يكسرون حجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصون حقّنا ويعيبون ذلك علينا من أعطاه الله برهان حقّ معرفتنا والتسليم لأمرنا، أترون أنّ الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثمّ يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرِد عليهم مما فيه قوام دينهم؟!...»[٣].

ثالثًا: المعالم الاعتقاديّة من تراث الإمام الباقرعليه السلام

نُبيّن في هذا المطلب أهمّ المعالم الاعتقاديّة من تراث الإمام الباقرعليه السلام، لا سيّما مع النظر إلى الآراء الاعتقاديّة التي كانت سائدةً في عصره على ما تقدّم بيانه في المطلب الأوّل، وذلك في ضمن نقاط:

١. فيما يتعلّق بالتوحيد

أ. النهي عن الجدل وما يورث من الشكّ

قد شاع في تلك الفترة الخصومات، وما يستتبعها من شبهات، وما تُورثه من شكوك، لا سيّما مع تعدّي الناس عمّا كلّفوا به في مسألة المعرفة، وقد أُثر عنه قولهعليه السلام لأبي عبيدة الحذّاء واسمه زياد: «يا زياد، إيّاك والخصومات، فإنّها تورث الشكّ وتهبط (تحبط) العمل، وتُردي صاحبها، وعسى أن يتكلّم بالشيء فلا يُغفر له، إنّه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكّلوا به وطلبوا علم ما كفّوه حتى انتهى كلامهم إلى الله فتحيّروا، حتى إن كان الرجل ليُدعى من بين يديه فيجيب من

[١]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٢٩٩.

[٢]- م.ن، ج١، ص٢٩٩.

[٣]- م.ن، ج١، صص١٢٤-١٢٥.

خلفه، ويُدعى من خلفه فيجيب من بين يديه»[١].

والخوض في الشبهات، قد يوجب جملة من الإشكالات حتى يصل الأمر إلى مثل السؤال عن متى كان الله؟ وقد أجاب عنه الإمام الباقر عليه السلام بقوله: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان مَن لم يزل ولا يزال فردًا صمدًا لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا»[٢]، و"ويلك إنّما يقال لشيء (لم يكن) متى كان، إنّ ربّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون كيف، ولا كان له أين»[٣].

ب. النهي عن التفكّر في ذات الله والأمر بالتفكّر في عظيم خلقه

باعتبار أنّ كثيرًا من الناس قد تكلّفوا معرفة ما لم يكلّفوا بل ما لا يطيقون، فقد أكثر في تلك الأيام القول بالصفة، فجاء عن زرارة أنّه قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ الناس قِبَلَنا قد أكثروا في الصفة، فما تقول؟ فقال: مكروه، أَمَا تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم: ٤٢) تكلّموا فيما دون ذلك»[٤].

وعلى هذا الأساس وبسبب تكثّر الكلام في الصفات -وهو ما زال واقعًا إلى يومنا هذا- رسم الإمام الباقر عليه السلام حدود التفكّر في أمر الله تعالى، كما حكته الأخبار المتكثّرة، وأنّ اللازم في مقام التدبّر والتفكّر قصر النظر على الآيات وعظمة الخلق دون ذاته تعالى أو صفاته الذاتيّة، منها قوله عليه السلام: «تكلّموا في خلق الله ولا تكلّموا في الله، فإنّ الكلام في الله لا يزيد إلّا تحيّرًا»[٥]، و«دعوا التفكّر في الله فإنّ التفكّر في الله لا يزيد إلاّ تيهًا؛ لأنّ الله تبارك وتعالى لا تدركه الأبصار ولا تبلغه الأخبار»[٦]، و«اذكروا من عظمة الله ما شئتم ولا تذكروا ذاته فإنّكم لا تذكرون منه شيئًا إلّا وهو أعظم منه»[٧]، و«تكلّموا فيما دون العرش ولا تكلّموا فيما فوق العرش؛ فإنّ قومًا تكلّموا في الله فتاهوا حتى كان الرجل

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٩٢.

[٢]- م.ن، ج١، ص٨٨.

[٣]- م.ن، ج١، ص٨٨.

[٤]- الصدوق، محمد بن عليّ بن بابويه، التوحيد، ص٤٥٨.

[٥]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٤٥٤؛ نظيره في: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٩٢.

[٦]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٤٥٧.

[٧]- م.ن، ص٤٥٥.

ينادى من بين يديه فيجيب من خلفه»[١]، وقال وقد سأل عن شيء من الصفة بعدما رفع يده إلى السماء: «تعالى الجبّار، تعالى الجبّار، مَن تعاطى ما ثمَّ هلك»[٢]، و«إيّاكم والتفكّر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه»[٣].

نختم هنا بخبر رواه العلامة المجلسيّ قدس سره في البحار، ومضمونه عين ما تقدّم من المضامين، لكن ببيان أوضح، حيث روى عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «كلّما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه (فهو) مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم[٤]، ولعلّ النمل الصغّار تتوهّم أنّ لله تعالى زبانيتين، فإنّ ذلك كمالها ويتوهّم أن عدمها نقصان لمن لا يتّصف بهما، وهذا حال العقلاء[٥] فيما يصفون الله تعالى به»[٦].

ت. الإخراج عن حدّي التعطيل والتشبيه

بعدما عرفت من خوض الناس في مسائل الصفات، وما تقدّم في المطلب الأوّل من عرض مذاهب الناس في الصفات من إفراط وتفريط. فمنهم من نفى الصفات إلى حدّ التعطيل أعني تعطيل معرفة الله تعالى، وآخر مشبّه مجسّم، فقد وضع أئمّة أهل البيت عليهم السلام قاعدة الإخراج عن الحدّين أعني حدّ التعطيل والتشبيه، وقد روى الكلينيّ عن العدّة عن أحمد بن محمّد بن خالد عن محمّد بن عيسى عمّن ذكره قال: «سئل أبو جعفر عليه السلام: أَيَجوز أن يُقال: إنّ الله شيء؟ قال: نعم، يُخرجه من الحدّين، حدّ التعطيل وحدّ التشبيه»[٧].

وبغضّ النّظر عن المقصود من (أبو جعفر) المذكور في السند وأنّه الإمام الباقر أم

---

[١]- البرقيّ، المحاسن، م.س، ج١، ص٢٣٨.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٩٤.

[٣]- م.ن، ج١، ص٨٣.

[٤]- في شرح النهج أضاف هنا: «والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر الموت».

[٥]- في شرح النهج: العقلاء، وكأنّ الحديث ينتهي عند قوله: «زبانيتين» والباقي توضيحات.

[٦]- المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج٦٦، صص٢٩٢-٢٩٣، وكأنّ أقدم مصدر لهذا الحديث هو شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانيّ (ت٦٧٩هـ) حيث قال: (وإلى هذا النحو أشار الباقر محمّد بن عليّ عليه السلام مخاطبًا: وهل سُمّيَ عالماً قادرًا إلّا لأنّه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين، فكلّ ما ميزتموه بأوهامكم...). انظر: ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، ج١، ص١١٠.

[٧]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٨٥.

الجواد عليهما السلام، وإن كان الأقرب هو الثاني[١]، فقد أكّد على هذا المعنى في كلمات الإمام الباقر عليه السلام، فبيّن عليه السلام صفات الله تعالى بما ينفي التعطيل والتشبيه، فمثلًا: عند بيانه عليه السلام مفاد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ (طه: ٨١) قال: «هو العقاب... إنّه من زعم أنّ الله قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق، وإنّ الله تعالى لا يستفزّه شيء فيغيّره»[٢].

وتصدّى عليه السلام لرفع بعض الأوهام، فقد روي عنه قوله عليه السلام لبعض أصحابه: «ما أعظم فرية أهل الشام على الله عزّ وجلّ، يزعمون أنّ الله تبارك وتعالى حيث صعد إلى السماء وضع قدمه على صخرة بيت المقدس، ولقد وضع عبدٌ من عباد الله قدمه على حجرة[٣] فأمرنا الله تبارك وتعالى أن نتّخذه مصلىً. يا جابر، إنّ الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام المتوهّمين، واحتجب عن أعين الناظرين. لا يزول مع الزائلين ولا يأفل مع الآفلين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) وهو السميع العليم»[٤].

وعلى هذا الأساس، بيّن عليه السلام المقصود من وصفي السميع والبصير، فقال عليه السلام لمحمّد بن مسلم عند بيانه صفة القديم تعالى: «إنّه واحد صمد أحديّ المعنى ليس بمعاني كثيرة مختلفة، قال: قلت: جعلت فداك يزعم قوم من أهل العراق: إنّه يسمع بغير الذي يبصر ويبصر بغير الذي يسمع! قال: فقال: كذبوا وألحدوا وشبّهوا، تعالى الله عن ذلك، إنّه سميع بصير، يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع، قال: قلت: يزعمون

[١]- سواء بلحاظ ظاهر السند أم بلحاظ أنّ نفس هذا المتن قد روي في الكافي أنّ المرويّ عنه هو أبو جعفر الثاني عليه السلام يعني الإمام الجواد (صلوات الله عليه)، أوضح منه بلحاظ السند وأنّ المقصود الإمام الجواد عليه السلام ما رُوي في الكافي عن عبد الرحمن بن أبي نجران قال: (سألت أبا جعفر عليه السلام عن التوحيد، فقلت: أتوهّم شيئًا، فقال: نعم، غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل، وخلاف ما يتصوّر في الأوهام، إنّما يتوهّم شيء غير معقول ولا محدود) وإنّما ننبّه على هذا لِمَا وجدناه من وقوع اشتباهات في نسبة هذه الأحاديث. انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٨٢.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١١٠.

[٣]- قيل: هو إبراهيم عليه السلام وضع قدمه على حجرة في مكّة، وهي الآن في المحلّ المعروف بمقام إبراهيم.

[٤]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص١٧٩؛ هو مروي في تفسير العيّاشيّ، انظر: العيّاشيّ، محمّد بن مسعود، تفسير العيّاشيّ، ج١، ص٥٩.

أنّه بصير على ما يعقلونه، قال: فقال: تعالى الله، إنّما يُعقل ما كان بصفة المخلوق، وليس الله كذلك»[١].

وقد روي عنه عليه السلام قوله: «إنّ الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه، وكلّ ما وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله»[٢]، فلا يقاس الله تعالى بشيء.

وفي توضيح بعض النصوص التي قد يتمسّك بها أهل التشبيه روى محمّد بن مسلم، فقال: «سألتُ أبا جعفر عليه السلام عمّا يروون أنّ الله خلق آدم على صورته، فقال: هي صورة محدثة مخلوقة، واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبة إلى نفسه، والروح إلى نفسه فقال: ﴿بَيْتِيَ﴾ (البقرة: ١٢٥) ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر: ٢٩)»[٣].

وأيضًا جاء عنه عليه السلام وقد سئل عن معنى اليد الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥) قال: «اليد في كلام العرب القوّة والنعمة، قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ (ص: ١٧)، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ (الذاريات: ٤٧) أي بقوّة، وقال:

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢) أي قوّاهم، ويقال: لفلان عندي أياد كثيرة أي فواضل وإحسان، وله عندي يد بيضاء أي نعمة»[٤]، وفي هذا الخبر إفادات عدّة ليس هنا موضع ذكرها، لكن نشير إلى أنّ الإمام عليه السلام عند بيانه هذا الخبر لم يرَ نفسه أنّه في مقام حمل الآية على معنى مرجوح، بل بيّن معنى اليد بحسب استعمالات العرب بما يعطي أنّه الظاهر العرفيّ ابتداءً، فليدقّق.

وأيضًا، فإنّ الله تعالى ليس في مكان ولا هو على العرش كما هو مذهب أهل التشبيه، فقال عليه السلام في حديث: «ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكانًا،

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٠٨.

[٢]- م.ن، ج١، ص٨٢.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٣٤؛ الصدوق، التوحيد، م.س، ص١٠٣.

[٤]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص١٥٣؛ الصدوق، معاني الأخبار، ص١٦.

ولا قوي بعدما كوّن الأشياء، ولا كان ضعيفًا قبل أن يكوّن شيئًا ولا كان مستوحشًا قبل أن يبتدع شيئًا، ولا يشبه شيئًا مذكورًا، ولا كان خلوًّا من الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلوًّا بعد ذهابه، لم يزل حيًّا بلا حياة، وملكًا قادرًا قبل أن ينشئ شيئًا، وملكًا جبّارًا بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيف، ولا له أين، ولا له حدّ، ولا يعرف بشيء يشبهه، ولا يهرم لطول البقاء، ولا يصعق لشيء، بل لخوفه تصعق الأشياء كلّها، كان حيًّا بلا حياة حادثة ولا كون موصوف، ولا كيف محدود، ولا أين موقوف عليه ولا مكان جاور شيئًا، بل حيّ يعرف، وملك لم يزل له القدرة والملك، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته، لا يُحدُّ ولا يبعّض ولا يفنى، كان أوّلًا بلا كيف ويكون آخرًا بلا أين، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨)، ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)... إنّ ربّي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يُسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، و﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه: ٦)»[١].

ث. رؤية الله تعالى

من المسائل المتفرّعة على مسألة التشبيه، القول بإمكان رؤية الله تعالى، حيث عرفت ورود أخبار عند العامّة في وقوع الرؤية يوم القيامة، وهو المنفيّ في كلمات أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وقد روى بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام قال: «حضرتُ أبا جعفر عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج، فقال له: يا أبا جعفر، أيّ شيءٍ تعبد، قال: الله تعالى، قال: رأيته، قال: بل لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعرف بالقياس ولا يُدرك بالحواس ولا يُشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلّا هو، قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته»[٢].

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص٨٨-٨٩.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٩١؛ الصدوق، التوحيد، م.س، ص١٠٨.

ج. علم الله تعالى

كنّا قد ذكرنا أنّ هناك من طرح مسألة علم الله تعالى بالمعدوم قبل أن يوجد، وقد قال الإمام الباقر عليه السلام بما يرتبط بهذا الموضوع: «كان الله عز وجل ولا شيء غيره، ولم يزل عالمًا بما يكون فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه»[١].

ولا يخفى أنّ الفلسفة منذ قديم الزمان، قد جعلت الإرادة من مراتب العلم، وعلى هذا الأساس بني على قِدم العالم وما يسمّى عندهم بـ(دوام الفيض)، ويظهر من بعض الأخبار أنّ هذه الإشكاليّة قد جعلت ذريعة لإنكار علمه تعالى بالمعدومات، بدعوى أنّ علمه تعالى فعله، فلا يثبت العلم إلّا بعد الخلق لكي لا يكون معه تعالى في أزله شيء، فقد روى فضيل بن سكرة قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلتُ فداك، إن رأيتَ أن تعلمني: هل كان الله جلَّ وجهه يعلم قبل أن يخلق الخلق أنّه وحده، فقد اختلف مواليك، فقال بعضهم: قد كان يعلم قبل أن يخلق شيئًا من خلقه، وقال بعضهم: إنّما معنى يعلم يفعل، فهو اليوم يعلم أنّه لا غيره قبل فعل الأشياء، فقالوا: إن أثبتنا أنّه لم يزل عالمًا بأنّه لا غيره فقد أثبتنا معه غيره في أزليّته، فإن رأيت يا سيّدي أن تعلمني ما لا أعدوه إلى غيره، فكتب عليه السلام: ما زال الله عالمًا تبارك وتعالى ذكره»[٢]، وقد أوضحت هذه المسألة أكثر في كلمات الأئمّة اللاحقين عليهم السلام بما صار شعارًا لهم وأنّ إرادته تعالى فعله.

ح. البداء

من العقائد الأصيلة التي لها صلة بالعلم الإلهيّ، مسألة (البداء)، وهي في حقيقتها وإن كانت مرتبطة بإطلاق قدرة الله تعالى وأنّ ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ۝٤﴾ الروم: ٤، أنّ ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ۝٦٤﴾ (المائدة: ٦٤)، وقد روي عنه عليه السلام في هذا المعنى قوله: «من الأمور أمور موقوفة عند الله يقدّم منها ما يشاء ويؤخّر منها ما يشاء»[٣]، لكن قد يستشكل على هذا المعنى من جهة دعوى لزوم نسبة الجهل إلى الله تعالى من جهة ولزوم تكذيب الأنبياء إذا تغيّر ما أخبروا عنه من جهة أخرى، وقد

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٠٧؛ الصدوق، التوحيد، م.س، ص١٤٥.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٠٨.

[٣]- م.ن، ج١، ص٤٧.

أجيب عن هاتين الإشكاليّتين بقوله عليه السلام: «العلم علمان فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحدًا من خلقه وعلم علّمه ملائكته ورسله فما علّمه ملائكته ورسله، فإنّه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدّم منه ما يشاء ويؤخّر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء»[١].

خ. الكلام الإلهيّ

الأمويّين، وهي وإن اشتدّت في فترات متأخرّة عن الإمام الباقر عليه السلام، إلّا أنّهم (صلوات الله عليهم) قد أجابوا عن هذه المسألة منذ أوّل يوم بما هو واضح في تعاملهم مع هذه المسألة كفتنة لا ينبغي الدخول فيها، والمأثور في التراث عن الإمام الباقر عليه السلام قوله وقد سأله زرارة عن القرآن: «لا خالق ولا مخلوق، ولكنّه كلام الخالق»[٢]، ومن الملفت للنظر ما رواه الكشّي: «حدّثنا محمّد بن عيسى، قال: حدّثني المشرقيّ إنّه دخل على أبي الحسن الخراسانيّ عليه السلام، فقال: إنّ أهل البصرة سألوه عن الكلام، فقالوا: إنّ يونس يقول: إنّ الكلام ليس بمخلوق! فقلتُ لهم: صدق يونس، إنّ الكلام ليس بمخلوق، أمّا بلغكم قول أبي جعفر عليه السلام حين سُئل عن القرآن أخالق هو أو مخلوق، فقال لهم: ليس بخالق ولا مخلوق، إنّما هو كلام الخالق... [٣]، فاستشهد عليه السلام عليه بما أُثر عن جدّه الباقر عليه السلام.

د. في نفي الجبر والتفويض

من القواعد الأصيلة في مذهب أهل البيت عليهم السلام، نفي الجبر والتفويض، وإثبات الأمر بين الأمرين؛ باعتبار أنّ لازم التفويض إخراج الله عن سلطانه ولازم الجبر الظلم، وقد عبّر عن هذه المسألة بعبائر متعدّدة، وقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قوله للحسن البصريّ: «وإيّاك أن تقول بالتفويض؛ فإنّ الله عزّ وجلّ لم يفوّض الأمر إلى خلقه وهنًا منه وضعفًا، ولا أجبرهم على معاصيه ظلمًا»[٤]، وأنّه قال هو وولده الصادق عليهما السلام: «إنّ

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٤٧.

[٢]- العيّاشي، تفسير العيّاشيّ، م.س، ج١، صص٦-٧، ح١٤، وقريب منه ح١٥.

[٣]- الكشّيّ، محمّد بن عمر بن عبد العزيز، رجال الكشّيّ - اختيار معرفة الرجال، ص٤٩٠.

[٤]- الطبرسي، الاحتجاج، م.س، ج٢، ص٣٢٧.

الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثمّ يعذّبهم عليها، والله أعزّ من أن يريد أمرًا فلا يكون،... فسئُلا عليهما السلام: هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قال: نعم، أوسع مما بين السماء والأرض»[١]، والمقصود من القدر التفويض، وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّه الأكثر استعمالًا في النصوص، وإن كان يظهر من بعضها إطلاقه على أهل الجبر.

هذا، وقد تكثّرت النصوص في الردّ على القدريّة أي أهل التفويض سواء عن طريق غير مباشر كما في قوله عليه السلام: «لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلّا بهذه الخصال السبعة: بمشية وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل، فمن زعم أنّه يقدر على نقض واحدة منهن فقد كفر»[٢]، أم بالتنصيص كما في قوله عليه السلام: «يحُشر المكذّبون بقدر الله من قبورهم قد مسخوا قردة وخنازير»[٣]، وقوله: «نزلت هذه الآية في القدريّة: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ (القمر: ٤٨ – ٤٩)»[٤].

ذ. أهل التصوّف ومسألة الأرزاق

من المسائل الكلاميّة المطروحة، مسألة الأرزاق. وقد يُنسب إلى بعض الصوفيّة إنكار السعي طلبًا للرزق، ومنافاته للتوكّل أو الرضى بقضاء الله تعالى، وقد جاء في بعض الأخبار عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إيّاكم والجهّال من المتعبّدين، والفجار من العلماء، فإنّهم فتنة كلّ مفتون»[٥]، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ محمّد بن المنكدر كان يقول: ما كنتُ أرى أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام يدع خلفًا أفضل منه، حتى رأيتُ ابنه محمّد بن عليّ عليه السلام، فأردتُ أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأيّ شيء وعظَكَ؟ قال: خرجتُ إلى بعض نواحي المدينة في ساعةٍ حارّة، فلقيني أبو جعفر محمّد بن عليّ، وكان رجلًا بادنًا ثقيلًا، وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين،

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٢٥١.
[٢]- البرقيّ، المحاسن، م.س، ج١، ص٢٤٤.
[٣]- الصدوق، محمد بن عليّ بن بابويه، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص٢١٢.
[٤]- م.ن، ص٢١٢.
[٥]- الحميريّ، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، ص٧٠.

فقلتُ في نفسي: سبحان الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، أما لأعظنّه، فدنوتُ منه، فسلّمت عليه فرد عليَّ السلام بنهر وهو يتصابّ عرقًا، فقلت: أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، أرأيتَ لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال، ما كنتَ تصنع؟ فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في [طاعة من] طاعة الله عزّ وجلّ، أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنّما كنتُ أخاف أن لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله، فقلتُ: صدقتَ يرحمك الله، أردتُ أن أعظَكَ فوَعظتَني»[١].

٢. ما يرتبط بالنبوّة

في المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام بيانات عدّة حول الأنبياء وسيرتهم، فقد ورد عنه عليه السلام بيان للفرق بين النبيّ والرسول والمحدّث، كما في رواية زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥١)، ما الرسول وما النبيّ؟ قال: النبيّ الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك، قلت: الإمام ما منزلته؟ قال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك...»[٢].

وقد بيّن في كلماته عليه السلام المقام العظيم للأنبياء وعصمتهم في قبال الشائع في قصص الإسرائيليّات، بل وتنزّههم عن المنفّرات، فقد ورد عنه قوله: «إنّ أيوب عليه السلام ابتلي من غير ذنب، وإنّ الأنبياء لا يذنبون؛ لأنّهم معصومون مطهّرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا. وقال عليه السلام: إنّ أيّوب عليه السلام مع جميع ما ابتلي به لم ينتن له رائحة، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدّة من دم، ولا قيح ولا استقذره أحد رآه ولا استوحش منه أحد شاهده ولا يدود شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرّمين عليه...»[٣].

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٥، ص٧٣-٧٤.

[٢]- م.ن، ج١، ص١٧٦.

[٣]- الصدوق، الخصال، م.س، ج٢، صص٣٩٩-٤٠٠.

وقد ورد عنه توجيه دعاء نبيّ الله نوح عليه السلام على قومه بالاستئصال، فقد روى حنان بن سدير عن أبيه قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: أرأيتَ نوحًا عليه السلام حين دعا على قومه، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦ - ٢٧) قال عليه السلام: علم أنّه لا ينجب من بينهم أحد، قال: قلت: وكيف علم ذلك؟ قال: أوحى الله إليه أنّه لا يؤمن ﴿مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ (هود: ٣٦) فعند هذا دعا عليهم بهذا الدعاء»[١].

قد نبّهنا في المطلب الأوّل على مدى التأثير السلبيّ لعلماء اليهود والنصارى في الواقع الإسلاميّ، وما يلزمه من نشر للضلال وإثارة الشبهات، ومن لاحظ المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام وجد تراثًا معتدًّا به في بيان أحوال الأنبياء، وقد جاء عنه في وصف الأنبياء ضمن حديث طويل يذكر فيه أحوال الأنبياء وجنبة من سِيَرِهم: «فلمّا قضى محمّد صلى الله عليه وآله نبوّته واستكملت أيّامه أوحى الله تبارك وتعالى إليه يا محمّد، قد قضيت نبوّتك واستكملت أيّامك، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة في أهل بيتك عند عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فإنّي لم أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة من العقب من ذرّيّتك كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم، وذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾آل عمران: ٣٣ - ٣٤، وإنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل العلم جهلًا، ولم يكل أمره إلى أحد من خلقه لا إلى ملك مقرب ولا نبيّ مرسل، ولكنّه أرسل رسولًا من ملائكته، فقال له: قل كذا وكذا، فأمرهم بما يحب ونهاهم عما يكره، فقص إليهم أمر خلقه بعلم، فعلم ذلك العلم، وعلم أنبياءه وأصفياءه من الأنبياء والإخوان والذرية التي بعضها من بعض، فذلك قوله جل وعز: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا

[١]- الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج١، ص٣١.

عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥٤) فأمّا الكتاب فهو النبوّة، وأمّا الحكمة فهم الحكماء من الأنبياء من الصفوة، وأمّا الملك العظيم فهم الأئمّة [الهداة] من الصفوة، وكلّ هؤلاء من الذرّيّة التي بعضها من بعض والعلماء الذين جعل الله فيهم البقيّة وفيهم العاقبة وحفظ الميثاق حتى تنقضي الدنيا والعلماء ولِولّاة الأمر استنباط العلم وللهداة، فهذا شأن الفضل من الصفوة والرسل والأنبياء والحكماء وأئمّة الهدى والخلفاء الذين هم ولاة أمر الله عزّ وجلّ واستنباط علم الله وأهل آثار علم الله من الذرّيّة التي بعضها من بعض من الصفوة بعد الأنبياء عليهم السلام من الآباء والإخوان والذرّيّة من الأنبياء فمن اعتصم بالفضل انتهى بعلمهم ونجا بنصرتهم، ومن وضع ولاة أمر الله عزّ وجلّ وأهل استنباط علمه في غير الصفوة من بيوتات الأنبياء عليهم السلام فقد خالف أمره»[١].

وفي قبال ذلك، نجده عليه السلام يرغّب بذكر قصص أهل البيت عليهم السلام وحقّهم وفضلهم، فقد جاء عن سعد الإسكاف قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: «إنّي أجلس فأقصّ وأذكر حقّكم وفضلكم، قال: وددتُ أنّ على كلّ ثلاثين ذراعًا قاصًّا مثلك»[٢].

٣. مسائل مرتبطة بالإمامة

بيّن في كلماته عليه السلام عظمة الإمامة، فورد عنه قوله: «إنّ الله اتخذ إبراهيم عبدًا قبل أن يتّخذه نبيًا، واتّخذه نبيًّا قبل أن يتّخذه رسولًا، واتّخذه رسولًا قبل أن يتّخذه خليلًا، واتّخذه خليلًا قبل أن يتّخذه إماما، فلمّا جمع له هذه الأشياء -وقبض يده- قال له: يا إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم عليه السلام قال: يا ربّ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٢٤)»[٣].

وقد أكّد عليه السلام على موقع الإمامة ببيانات متعدّدة، منها قوله عليه السلام: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته، ثمّ قال:

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٨، صص١١٧- ١١٨.

[٢]- الكشّيّ، رجال الكشّيّ، م.س، ص٢١٥.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٧٥.

إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء: ٨٠)»[١].

قد عرفت ورود النصوص المتظافرة عنه عليه السلام في التأكيد على مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام المنحصرة، بل وتركيز مسألة صدور الكرامات كما يشهد له ما روي عن أبي بصير قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام، فقلت له: أنتم ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: نعم، قلت: رسول الله صلى الله عليه وآله وارث الأنبياء علم كلّ ما علموا، قال لي: نعم، قلت: فأنتم تقدرون على أن تحيوا الموتى وتبرؤوا الأكمه والأبرص؟ قال: نعم، بإذن الله، ثم قال لي: ادن منّي يا أبا محمّد فدنوت منه فمسح على وجهي وعلى عيني فأبصرت الشمس والسماء والأرض والبيوت وكلّ شيء في البلد، ثمّ قال لي: أتحبّ أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة أو تعود كما كنتَ، ولك الجنّة خالصًا؟ قلت: أعود كما كنتُ، فمسح على عيني فعدتُ كما كنت»[٢].

وقد واجه الإمام الباقر عليه السلام التوجّهات المتفرّقة، كالنواصب وما واجهوا به أمير المؤمنين عليه السلام، فقال الشيخ المفيد قدس سره: «وجاءت الأخبار: أنّ نافع بن الأزرق جاء إلى محمّد بن علي عليه السلام فجلس بين يديه فسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له أبو جعفر عليه السلام في عرض كلامه: قل لهذه المارقة: بما استحللتم فراق أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سفكتم دماءكم بين يديه في طاعته والقربة إلى الله بنصرته، فسيقولون لك: إنّه حكّم في دين الله، فقل لهم: قد حكّم الله تعالى في شريعة نبيّه عليه السلام رجلين من خلقه، فقال تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ (النساء: ٣٥)، وحكّم رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكم فيهم بما أمضاه الله، أوما علمتم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنّما أمر الحكمين أن يحكُما بالقرآن ولا يتعدّياه واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال، وقال حين قالوا له: حكمت على نفسك من حكم عليك، فقال: ما حكّمت مخلوقًا، وإنّما حكّمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، صص١٨٥-١٨٦.

[٢]- م.ن، ج١، ص٤٧٠.

واشترط ردّ ما خالفه لولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان، فقال نافع بن الأزرق: هذا كلام ما مرّ بسمعي قطّ ولا خطر منّي ببال، وهو الحقّ إن شاء الله»[١]، وقد روي دفاعهعليه السلام عن مقام أمير المؤمنينعليه السلام عندما أُشخص إلى الشام كما ورد في المناقب في حديث طويل[٢].

وأيضًا أكّدعليه السلام في سيرته على مظلوميّة جدّه الإمامعليه السلام بما يعبّر بشكل واضح عن الضلال الذي وقعت فيه الأمّة، لا سيّما بلحاظ من تسلّم زمام أمورها، وقد روي عنه أنّه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل الحسينعليه السلام جذبه إليه، ثمّ يقول لأمير المؤمنينعليه السلام: أمسكه، ثم يقع عليه فيقبّله ويبكي، يقول: يا أبت، لِمَ تبكي؟! فيقول: يا بنيّ، أقبّل موضع السيوف منك، قال: يا أبتِ، وأقتل! قال: إي والله، وأبوك وأخوك وأنت، قال: يا أبت فمصارعنا شتّى؟ قال: نعم، يا بنيّ، قال: فمن يزورنا من أمّتك، قال: لا يزورني ويزور أباك وأخاك وأنت إلّا الصدّيقون من أمّتي»[٣]، وعنهعليه السلام: «قتل الحسين بن عليعليه السلام وعليه جبّة خز دكناء، فوجدوا فيها ثلاثة وستين من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح أو رمية بالسهم»[٤].

وقد أكّدعليه السلام على تلك المظلمة القديمة المستمرّة عن طريق المطالبة بفدك بما تحمل من رمزيّة تاريخيّة، فقد روى هشام بن معاذ قال: «كنتُ جليسًا لعمر بن عبد العزيز حيث دخل المدينة، فأمر مناديه فنادى من كانت له مظلمة أو ظلامة فليأت الباب، فأتى محمّد بن علي ـ يعني الباقرعليه السلام ـ فدخل إليه مولاه مزاحم، فقال: إنّ محمّد بن عليّ بالباب، فقال له: أدخله يا مزاحم، قال: فدخل وعمر يمسح عينيه من الدموع، فقال له محمّد بن عليّ: ما أبكاك يا عمر، فقال هشام: أبكاه كذا وكذا يا ابن رسول الله) إلى أن قال بعد الوعظ البليغ: ثلاث من كنّ فيه استكمل الإيمان بالله، فجثى عمر على ركبتيه، ثم قال: إيه يا أهل بيت النبوّة، فقال: نعم يا عمر، من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحقّ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له، فدعا عمر بدواة

[١]- المفيد، الإرشاد، م.س، ج٢، صص١٦٤-١٦٥.
[٢]- ابن شهرآشوب، الشيخ رشيد الدين محمد بن عليّ، مناقب آل أبي طالب، ج٤، صص٢٠٣-٢٠٤.
[٣]- ابن قولويه، أبو القاسم جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ص٧٠.
[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٦، ص٤٥٢.

وقرطاس، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما ردّ عمر بن عبد العزيز ظلامة محمّد بن عليّ: فدك»[١].

هذا، وقد نبتت في فترة سابقة فرقة الكيسانيّة كما عرفت في المطلب الأوّل، وقد جاء في بعض الأخبار أنّه تكلّم بعض رؤساء الكيسانيّة مع الإمام الباقر عليه السلام عن حياة محمّد بن الحنفيّة، فقال عليه السلام: (ويحك! ما هذه الحماقة؟! أنتم أعلم به أم نحن، قد حدّثني أبي عليّ بن الحسين أنّه شهد موته وغسله وكفنه والصلاة عليه وإنزاله في القبر»، فقال: شُبِّه على أبيك كما شُبِّه عيسى ابن مريم على اليهود، فقال له الباقر عليه السلام: «أفتجعل هذه الحجّة قضاء بيننا وبينك» قال: نعم، قال: «أرأيتَ اليهود الذين شُبِّه عيسى عليهم كانوا أولياءه أو أعداءه»، قال: بل كانوا أعداءه، قال: «فكان أبي عدو محمّد بن الحنفيّة فشُبِّه له!» قال: لا، وانقطع، ورجع عمّا كان عليه[٢].

٤. الأسماء والأحكام

من المسائل الشائكة التي برزت في وقت مبكر مسألة الإيمان والكفر، فما هي حدود الإسلام والإيمان وما هي نواقضهما، وقد جاء في كلماته عليه السلام التفرقة بين الإسلام والإيمان، فقال: «الإيمان ما كان في القلب والإسلام ما كان عليه المناكح والمواريث وتحقن به الدماء، والإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان»[٣].

وقد أكّد على دخالة العمل في الإيمان وإن لم يكن بمعنى كفر تارك العمل إلّا إذا كان هناك جحود، بل بمعنى أنّ كمال الإيمان مرتبط بالعمل، وأنّ المؤمن بحقيقة الإيمان لا بدّ أن يكون عمله موافقًا لاعتقاده، فقد روي عنه عليه السلام أنّه قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله صلى الله عليه وآله كان مؤمنًا؟ قال: فأين فرائض الله؟ قال[٤]: وسمعته يقول كان عليّ عليه السلام يقول: لو كان الإيمان كلامًا لم ينزل فيه صوم ولا صلاة ولا حلال ولا حرام، قال: وقلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ عندنا قومًا يقولون إذا

[١]- الصدوق، الخصال، م.س، ج١، صص١٠٤-١٠٥.

[٢]- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، م.س، ج٤، ص٢٠٢.

[٣]- البرقيّ، المحاسن، م.س، ج١، ص٢٨٥.

[٤]- يعني الراوي، فهو سمع الإمام الباقر عليه السلام يقول...

شهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله صلى الله عليه وآله فهو مؤمن، قال: فلِمَ يضربون الحدود، ولم تقطع أيديهم، وما خلق الله عزّ وجلّ خلقًا أكرم على الله عزّ وجلّ من المؤمن؛ لأنّ الملائكة خدّام المؤمنين، وأنّ جوار الله للمؤمنين، وأنّ الجنّة للمؤمنين، وأنّ الحور العين للمؤمنين، ثم قال: فما بال من جحد الفرائض كان كافرًا؟!»[١].

٥. الردّ على فكرة الغلو

والبيان السابق كما يصلح في دفع شبهات المرجئة، يصلح أيضًا لردّ حركات الغلوّ؛ فإنّ من أبرز علامتهم تركهم الفروع استنادًا إلى دعاوى باطلة ليس هنا محلّ سردها، وبعضهم يستبيح حرمات الله تعالى بدعوى الاتكال على الإيمان بالولاية، وقد جاء عن الإمام الباقرعليه السلام قوله لجابر بن يزيد الجعفيّ: «يا جابر، أيكتفي من انتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت؟! فوالله ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلّا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلّا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء، قال جابر: فقلتُ يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحدًا بهذه الصفة، فقال: يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحبّ عليًّا وأتولّاه ثم لا يكون مع ذلك فعّالًا، فلو قال: إنّي أحبّ رسول الله، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من عليّ عليه السلام، ثمّ لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إيّاه شيئًا، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبُّ العباد إلى الله عزّ وجلّ وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته...»[٢].

٦. الردّ على توسّع الخوارج في التكفير

وقد وُجدت فرق متشدّدة كفّرت الكثير من فرق المسلمين، كالخوارج، وأخرى تساهلت إلى أقصى الحدود كما تقدّم نقله عن أصحاب فكرة الإرجاء، وقد تصدّى الإمام الباقرعليه السلام لتلك المعضلات، فذكر تشدّد الخوارج وأنّهم ضيقوا الأمر، فقال

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص٣٣.

[٢]- م.ن، ج٢، ص٧٤.

لإسماعيل الجعفيّ وقد سأله عن الدين الذي لا يسع العباد جهله: «الدين واسع[١]، ولكن الخوارج ضيّقوا على أنفسهم من جهلهم»، قال الجعفيّ: "قلتُ: جعلت فداك، فأحدّثك بديني الذي أنا عليه، فقال: بلى، فقلتُ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله، وأتولّاكم وأبرأ من عدوّكم ومن ركب رقابكم وتأمّر عليكم وظلمكم حقّكم، فقال: ما جهلتَ شيئًا، هو والله الذي نحن عليه...»[٢].

وأمّا أهل الإرجاء، فقد عرفت ما يلزم من كلماتهم، أعني عدم التبرّي من أعداء أهل البيت عليهم السلام، وقد جاء في بعض الأخبار لعنه عليه السلام لهم، وأنّه قال ابتداءً: «اللهم العن المرجئة، فإنّهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»، فقيل له: ما ذكرك جعلت فداك المرجئة؟ فقال: «خطروا على بالي»[٣].

ومن لطائف الأخبار ما جاء عنه عليه السلام من قوله في خبر: «ما أكثر ظلم [كثير من] هذه الأمّة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأقلّ إنصافهم له! يمنعون عليًا ما يعطونه سائر الصحابة وعليّ عليه السلام أفضلهم، فكيف يمنعون منزلة يعطونها غيره، قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال: لأنّكم تتولّون محبّي أبي بكر بن أبي قحافة، وتبرأون من أعدائه كائنًا من كان، وكذلك تتولّون عمر بن الخطاب، وتَبْرَأون من أعدائه كائنًا من كان، وتتولّون عثمان بن عفّان، وَتَبرَأون من أعدائه كائنًا من كان، حتى إذا صار إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام قالوا: نتولى محبيه ولا نتبرأ من أعدائه، بل نحبّهم! وكيف يجوز هذا لهم ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول في عليّ: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» أفتراهم لا يعادون من عاداه ولا يخذلون من خذله! ليس هذا بإنصاف!»[٤].

---

[١]- قال العلامة المجلسيّ (رحمه الله): «الدين واسع: أي لا يتحقّق الخروج من دين الإسلام بقليل من العقائد والأعمال كما هو مذهب الخوارج، حيث حكموا بكفر مرتكب المعاصي، وخاضوا في المسائل الدقيقة فجعلوها من أجزاء الإيمان)، المجلسيّ، مرآة العقول، م.س، ج١١، ص٢١١؛ وقريب منه ذكر: المازندرانيّ، محمّد صالح، شرح الأصول والروضة من الكافي، ج١٠، ص١٠٣.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص٤٠٥.

[٣]- م.ن، ج٨، ص٢٧٦؛ البرقي، المحاسن، م.س، ج٢، ص٣٥٢.

[٤]- التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، م.س، ص٥٦٢.

ثم إنّه من المبيّن في كلماته عليه السلام أنّ العقل هو مناط الخطاب والثواب والعقاب، وقد روي عنه قوله عليه السلام: «لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال: وعزّتي وجلالي، ما خلقتُ خلقًا هو أحبّ إليّ منك ولا أكملتك إلّا فيمن أحب، أما إنّي إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب»[١].

وعلى هذا الأساس لا تختصّ النجاة يوم القيامة بأهل الإيمان، بل هناك من يرجى له ذلك ممن كان مستضعفًا، وقد جاء في حديث إسماعيل الجعفيّ المتقدّم نقله، حيث جاء في ذيله بعدما عرض ما عليه من الإيمان قوله: «فهل سلم أحد لا يعرف هذا الأمر؟ فقال: لا، إلّا المستضعفين، قلت: من هم؟ قال نساؤكم وأولادكم، ثمّ قال: أرأيتَ أم أيمن[٢]، فإنيّ أشهد أنهّا من أهل الجنّة وما كانت تعرف ما أنتم عليه»[٣].

وقد أوضح معنى المستضعف في أخبار متعدّدة، منها قوله عليه السلام: «هو الذي لا يهتدي حيلةً إلى الكفر فيكفر ولا يهتدي سبيلًا إلى الإيمان، لا يستطيع أن يؤمن ولا يستطيع أن يكفر، فهم الصّبيان ومن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان مرفوعٌ عنهم القلم»[٤].

وهؤلاء المستضعفون -كما جاء في النصوص المستفيضة- لا يحكم عليهم بالكفر أو الإيمان، ومن لطائف الأخبار ما رُوي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في خبر طويل، حيث جاء في الخبر إصرار زرارة على انقسام الناس إلى مؤمن وكافر، والإمام الباقر يوجّهه إلى خلاف ذلك، وجاء في آخره قوله عليه السلام لزرارة:

---

[١]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص١٠.

[٢]- وقع الكلام في الذي لم تكن تعرفه أم أيمن, وقد ذكر العلامة المجلسي (رحمه الله) في مرآة العقول، معرفة أم أيمن بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام وقال: (أي إمامة سائر الأئمّة (عليهم السلام) سوى أمير المؤمنين ع, وكانت معذورة في ذلك لعدم سماعها ذلك, وعدم تمام الحجة عليها، فكذا المستضعف معذور لذلك أو صفات الأئمّة وكمالهم، أو لم تكن تعرف ذلك بالدليل بل بالتقليد، وأمّا أصل معرفة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام فعدم معرفتها ذلك بعيد جدًا، وكون أمّ أيمن امرأة أخرى معروفة للمخاطب سوى الحاضنة فأبعد). المجلسي، مرآة العقول، م.س، ج١١، ص٢١٢.

[٣]- الكليني، الكافي، م.س، ج٢، ص٤٠٥.

[٤]- م.ن، ج٢، ص٤٠٤.

«أمَا إنّك إن كبرت رجعتَ وتحلّلت عنك عقدك»[١]، ولا بأس أن ننقل هنا خبرًا آخر يحكي هذا المعنى، فقد روى زرارة قال: «دخلت أنا وحمران أو أنا وبكير على أبي جعفرعليه السلام: قال: قلت له: إنّا نمدّ المطمار. قال: وما المطمار؟ قلت: التّرّ[٢]، فمن وافقنا من علويّ أو غيره تولّيناه ومن خالفنا من علويّ أو غيره برئنا منه. فقال لي: يا زرارة قول الله أصدق من قولك، فأين الّذين قال فيهم الله عزّ وجلّ: ﴿ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٩٨) أين المرجون لأمر الله؟ أين الّذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا؟ أين أصحاب الأعراف؟ أين المؤلّفة قلوبهم؟»[٣].

رابعًا: معالم حفظ المذهب من قول الإمام الباقرعليه السلام وسيرته

١. أنّ الأرض لا تخلو من حجّة

قد أكّد الإمام الباقرعليه السلام على استمرار نهج الإمامة ومرجعيّة أهل البيتعليهم السلام إلى آخر الزمان، فقال: «والله ما ترك الله أرضًا منذ قبض آدمعليه السلام إلّا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، وهو حجّته على عباده ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده»[٤]، و«لو أنّ الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله» [٥].

٢. التنصيص على إمامة الصادقعليه السلام

وقد عيّن الإمامة بولده أبي عبد الله جعفر الصادقعليه السلام، فقد نظرعليه السلام إلى أبي عبد اللهعليه السلام يمشي، فقال لبعض أصحابه: "ترى هذا، هذا من الذين قال الله عز وجل: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، صص٤٠٢-٤٠٣.

[٢]- التّرّ خيطُ البناء، فلاحظ: الفراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين، ج٨، ص١٠٦.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، صص٣٨٢-٣٨٣.

[٤]- م.ن، ج١، ص١٧٩.

[٥]- م.ن، ج١، ص١٧٩.

(القصص: ٥)»[١]، وروى جابر بن يزيد الجعفيّ عنه عليه السلام قال: «سئل عن القائم عليه السلام، فضرب بيده على أبي عبد الله عليه السلام، فقال: هذا والله قائم آل محمّد صلى الله عليه وآله، قال: عنبسة، فلمّا قُبض أبو جعفر عليه السلام، دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بذلك، فقال: صدق جابر، ثمّ قال: لعلّكم ترون أن ليس كلّ إمام هو القائم بعد الإمام الذي كان قبله؟»[٢].

٣. الإشارة إلى عصر الغيبة

قد عرفت أنّ الإمام عليه السلام قد نبّه في بيانات مختلفة على لزوم الحجّة في كلّ زمان، وقد أشير في بعضها إلى لزوم الحجّة ولو كانت باطنة، فروي عنه عليه السلام قوله: «لا تبقى الأرض بغير إمام ظاهر أو باطن»[٣].

وفي الخبر الأخير، إشارةٌ إلى إمكان غيبة الإمام، وقد نصّ على ذلك أعني الائتمام بالإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف غائبًا، فضلًا عن زمن حضوره، فروى عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو يأتمّ به في غيبته قبل قيامه، ويتولّى أولياءه ويعادي أعداءه ذلك من رفقائي وذوي مودّتي وأكرم أمّتي عليّ يوم القيامة»[٤].

ومن أبرز مظاهر الائتمام به عجل الله تعالى فرجه الشريف في غيبته الثبات على العقيدة، وقد روي عنه عليه السلام أنّه قال: «يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم، فيا طوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان، إنّ أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم البارئ جلّ جلاله فيقول: عبادي وإمائي آمنتم بسرّي وصدّقتم بغيبي، فأبشروا بحسن الثواب منّي، فأنتم عبادي وإمائي حقًّا، منكم أتقبّل وعنكم أعفو ولكم أغفر وبكم أسقي عبادي الغيث وأدفع عنهم البلاء، ولولاكم لأنزلت عليهم عذابي)، ثمّ ذكر أنّ أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان حفظ اللسان ولزوم البيت»[٥].

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣٠٦.

[٢]- م.ن، ج١، ص٣٠٧.

[٣]- الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج١، ص١٩٧.

[٤]- الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، م.س، ج١، ص٢٨٦.

[٥]- م.ن، ج١، ص٢٣٠.

٤. الإمام الباقر عليه السلام وإعداد الأصحاب

هذا، وقد كان عصر الإمام الباقر عليه السلام زاخرًا في تربية كبار الأصحاب، وقد جاء في تعداد حوارييه عليه السلام وقد قيل: أين حواريّ محمّد بن عليّ وحواريّ جعفر بن محمّد: «فيقوم عبد الله بن شريك العامريّ، وزرارة بن أعين، وبريد بن معاوية العجليّ، ومحمّد بن مسلم، وأبو بصير ليث بن البختريّ المراديّ، وعبد الله بن أبي يعفور، وعامر بن عبد الله بن جذاعة، وحجر بن زائدة، وحمران بن أعين»[١].

وقد حفظ هذا الدين على لسان أربعة من هؤلاء الأكابر، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «بشّر المخبتين بالجنّة بريد بن معاوية العجليّ وأبو بصير ليث بن البختريّ المراديّ ومحمّد بن مسلم وزرارة، أربعة نجباء أمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوّة واندرست»[٢].

وقد أوصى الإمام الباقر عليه السلام ولده الصادق عليه السلام بأصحابه، فقال: «لما حضرت أبي عليه السلام الوفاة، قال: يا جعفر، أوصيك بأصحابي خيرًا، قلت: جعلتُ فداك، والله لأدعنّهم والرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحدًا»[٣].

وقد اشتهر جملة منهم بالكلام والاحتجاج على الخصوم، حتى أوهم ذلك بعضهم تسمية فرق خاصّة بأسمائهم كما يظهر مما روي عن يونس بن عبد الرحمن، قال: «قلت لهشام: إنّهم يزعمون أنّ أبا الحسن عليه السلام بعث إليك عبد الرحمن بن الحجاج يأمرك أن تسكت ولا تتكلّم فأبيت أن تقبل رسالته، فأخبرني كيف كان سبب هذا، وهل أرسل إليك ينهاك عن الكلام أو لا، وهل تكلّمت بعد نهيه إيّاك. فقال هشام: إنّه لمّا كان أيّام المهديّ شدّد على أصحاب الأهواء، وكتب له ابن المقعد صنوف الفرق صنفًا صنفًا، ثمّ قرأ الكتاب على الناس، فقال يونس: قد سمعت هذا الكتاب يُقرأ على الناس على باب الذهب بالمدينة ومرّة أخرى بمدينة الوضاح، فقال: إنّ ابن المقعد صنّف لهم صنوف الفرق فرقة فرقة، حتى قال في كتابه وفرقة منهم يقال لهم: (الزراريّة)، وفرقة منهم

---

[١]- الكشّيّ، رجال الكشّيّ، م.س، ص١٠.

[٢]- م.ن، ص١٧٠.

[٣]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣٠٦.

يقال لهم: (العمّاريّة) أصحاب عمّار الساباطيّ، وفرقة يقال لها: (اليعفوريّة)، ومنهم فرقة أصحاب سليمان الأقطع وفرقة يقال لها الجواليقيّة، قال يونس: ولم يذكر يومئذ هشام بن الحكم ولا أصحابه، فزعم هشام ليونس أنّ أبا الحسن عليه السلام بعث إليه، فقال له: كفّ هذه الأيام عن الكلام، فإنّ الأمر شديد! قال هشام: فكففت عن الكلام حتى مات المهديّ وسكن الأمر، فهذا الذي كان من أمره وانتهائي إلى قوله»[١].

وما يدّعى من وجود فرقة باسم (الزراريّة) هي نسبة إلى زرارة بن أعين (ت١٥٠هـ)، الذي قال عنه النجاشيّ: «شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدّمهم، وكان قارئًا فقيهًا متكلّمًا شاعرًا أديبًا، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقًا فيما يرويه. قال أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه (رحمه الله): رأيتُ له كتابًا في الاستطاعة والجبر»[٢].

نعم، الظاهر أنّه لم ينشغل تمام الانشغال بعلم الكلام كما يظهر من قول أبي غالب الزراريّ: «وكان خصمًا جدلًا لا يقوم أحد لحجّته إلّا أنّ العبادة أشغلته عن الكلام والمتكلّمون من الشيعة تلاميذه»[٣].

- حمران بن أعين نموذجًا

من النماذج التي تربّت في كنف الإمام الباقر عليه السلام حمران بن أعين، وقد عرف (رحمه الله) بالكلام، وقرّبه في ذلك من كلام أئمّة أهل البيت عليهم السلام، حتى قال له الإمام الصادق عليه السلام: «تجري الكلام على الأثر فتصيب»[٤]، وقد نقل عن صفوان قوله: «كان يجلس حمران مع أصحابه، فلا يزال معهم في الرواية عن آل محمّد صلى الله عليه وآله، فإن خلطوا في ذلك بغيره ردّهم إليه، فإن صنعوا ذلك عدل ثلاث مرّات قام عنهم وتركهم»[٥].

والمسائل المعروفة ما يقال له: (ترّ حمران)، فقد روى حمزة ومحمد ابنا حمران قالا: «اجتمعنا عند أبي عبد الله عليه السلام في جماعة من أجلّة مواليه، وفينا حمران بن أعين فخضنا في المناظرة، وحمران ساكت فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما لك لا تتكلم يا حمران، فقال:

---

[١]- الكشي، رجال الكشّيّ، م.س، ص٢٦٥.

[٢]- م.ن، ص١٧٥.

[٣]- الزراريّ، أحمد بن محمّد أبو غالب، رسالة أبي غالب الزراريّ إلى ابن ابنه في ذكر آل أعين، ص١٣٦.

[٤]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٧٣.

[٥]- الكشّيّ، رجال الكشّيّ، م.س، ص١٧٩.

يا سيّدي آليت على نفسي أنّي لا أتكلّم في مجلس تكون فيه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّي قد أذنت لك في الكلام فتكلّم، فقال حمران: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتّخذ صاحبة ولا ولدًا، خارج من الحدّين حدّ التعطيل وحدّ التشبيه، وأنّ الحقّ القول بين القولين لا جبر ولا تفويض، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأشهد أنّ الجنة حقّ وأنّ النار حقّ وأنّ البعث بعد الموت حقّ، وأشهد أنّ عليًّا حجّة الله على خلقه لا يسع الناس جهله، وأنّ حسنًا بعده، وأنّ الحسين من بعده، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ أنت يا سيّدي من بعدهم، فقال أبو عبد الله عليه السلام: الترّ ترّ حمران، ثم قال: يا حمران، مد المطمر بينك وبين العالم، قلت: يا سيدي، وما المطمر؟ فقال: أنتم تسمونه خيط البناء، فمن خالفك على هذا الأمر فهو زنديق. فقال حمران: وإن كان علويًّا فاطميًّا؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: وإن كان محمّديًّا علويًّا فاطميًّا»[١].

هذه لمحة سريعة في تأريخ المسائل العقديّة في زمن الإمام الباقر عليه السلام، ولم يختلف الحال كثيرًا في زمن الإمام الصادق عليه السلام من حيث أصل هذه المسائل، وإن بدأت بعض الأفكار الأُخر بالبروز أكثر فأكثر، كالإلحاد بالله تعالى، وحركات الغلوّ، وغيرها. وبهذا نكون قد أتممنا الكلام في المسألة.

---

[١]- الصدوق، معاني الأخبار، م.س، صص٢١٢-٢١٣.

الخاتمة

وهكذا تقودنا هذه المقالة التي أطلّت على تاريخ الكلام في زمن الإمام الباقر عليه السلام إلى جملة من الحقائق المهمّة:

١. عايش الإمام الباقر عليه السلام أواخر أيّام الدولة الأمويّة، التي اتّسم ظرفها العامّ بغصب الخلافة من أهل البيت عليهم السلام، وتقريب علماء أهل الكتاب المروّجين لأفكار التجسيم والخدش بالأنبياء، مضافًا إلى ترويجهم لفكرة الجبر.

٢. ابتدعت فرق عدّة نتيجة إجابات منحرفة عن تساؤلات عقديّة متعدّدة، سواء بلحاظ علم الله تعالى، أو مخلوقيّة الكلام الإلهيّ، أو رؤية الله تعالى، أو التكفير والحكم بالإيمان...

٣. تصدّى الإمام الباقر عليه السلام لتلك الأفكار الضالّة ببيان خطوط عامّة، فحثّ على طلب العلم من جهة وعلى حصر المرجعيّة بهم عليهم السلام من جهة أخرى، مع بيان أصالة علمهم وأنّه وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله.

٤. مضافًا إلى تلك الخطوط العامّة بيّن الإمام الباقر عليه السلام التفاصيل الاعتقاديّة التي كانت محلّ خلاف بين المسلمين كما في مسألة ضابط التعرّف على الله تعالى وصفاته ولزوم الخروج من حدّي التعطيل والتشبيه، والتأكيد على علم الله تعالى المطلق غير المنافي لفكرة البداء، وفي الجبر والتفويض وإثبات أمر بين الأمرين، وبيان ضابط الحكم بالإيمان مع الردّ على تفريط المرجئة وإفراط الخوارج في تلك المسألة...

٥. رسم الإمام الباقر عليه السلام خطوطًا تحفظ استمراريّة المذهب، سواء عن طريق النصّ على

الإمام من بعده، أو عن طريق حفظ هذا الدين بتربية جيل من العلماء، مضافًا إلى ذكره أحوال الغيبة وما يلزم على المؤمنين في ذلك الظرف الصعب.

ولا جدال أنّ هذه الدراسة، ورغم أهمّيّة النتائج التي أدركتها، تظلّ قاصرةً عن الإحاطة الكاملة والوافية بجميع جوانب الموضوع، وأبعاده؛ ولذا نرجو من الباحثين والمؤسّسات أن يولوا مسألة أدوار الأئمّة الأطهار عليهم السلام في تأسيس علم الكلام الإسلاميّ، ودور الباقر عليه السلام خاصّة، مزيدًا من العناية والاهتمام.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم، كتاب الله العزيز.

٢. ابن النديم البغداديّ، إسحاق بن أبي يعقوب الورّاق، فهرست ابن النديم.

٣. ابن خلّكان، أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، لا.ط، بيروت، دار صادر، لا.ت.

٤. ابن شهرآشوب، الشيخ رشيد الدين محمّد بن عليّ، مناقب آل أبي طالب، ط١، قم المشرّفة، نشر علامة، ١٤٢١هـ.

٥. ابن قولويه، أبو القاسم جعفر بن محمّد، كامل الزيارات، لا.ط، النجف الأشرف، دار المرتضويّة، ١٣٩٨هـ.

٦. ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة، ط ١، مكتب النشر الإسلاميّ، ١٣٦٢ش.

٧. أبو الحسن الأشعريّ، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، ط ٣، ألمانيا، فرانز شتاينر، ١٤٠٠هـ.

٨. الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ، ط ١، قم المشرّفة، مدرسة الإمام المهديّ عجل الله فرجه، ١٤٠٩هـ.

٩. البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول)، ١٤٠١هـ.

١٠. البرقيّ، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن، ط ٢، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧١هـ.

١١. الحميريّ، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، ط ١، قم المشرّفة، مؤسّسة آل البيت، ١٤١٣هـ.

١٢. الرازيّ، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٣هـ.

١٣. الزراري، أحمد بن محمّد أبو غالب، رسالة أبي غالب الزراري إلى ابن ابنه في ذكر آل أعين، ط ١، قم المشرّفة، مركز البحوث والدراسات الإسلاميّة، ١٤١١ ه.

١٤. الشهرستاني، محمّد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد بدران، ط٣، قم المشرّفة، الشريف الرضي، ١٣٦٤ش.

١٥. المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ط١، قم المشرّفة، مؤتمر الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.

١٦. الصدوق، عليّ بن الحسين بن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، ط ١، قم المشرّفة، مدرسة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، ١٤٠٤هـ.

١٧. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، التوحيد، صحّحه وعلّق عليه: السيّد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، ط١٠، قم المشرّفة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤٣٠هـ.

١٨. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، الخصال، ط١، قم المشرّفة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤٠٣هـ.

١٩. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ط٢، قم المشرّفة، دار الشريف الرضيّ للنشر، ١٤٠٦هـ.

٢٠. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، علل الشرائع، لا.ط، قم المشرّفة، مكتبة الداوري بالأوفست عن طبعة المكتبة الحيدريّة في النجف سنة ١٣٨٦هـ ق، لا. ت.

٢١. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، ط٢، طهران، المكتبة الإسلاميّة، ١٣٩٥هـ.

٢٢. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، معاني الأخبار، لا.ط، قم المشرّفة، مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بالأوفست عن النسخة المنشورة من قبل الشيخ علي أكبر غفاري سنة ١٣٧٩هـ ق، ١٤٠٣هـ.

٢٣. الصدوق، محمّد بن عليّ بن بابويه، من لا يحضره الفقيه، ط٢، قم المشرّفة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤١٣هـ.

٢٤. الصفّار، محمّد بن الحسن بن فرّوخ، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد، تحقيق: السيّد محمّد السيّد حسين المعلّم، لا ط، المكتبة الحيدريّة، ١٤٢٦هـ.

٢٥. الطبرسيّ، أحمد بن عليّ، الاحتجاج، ط١، مشهد المقدّسة، نشر المرتضى بالأوفست عن طبعة دار الجواد بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٦. الطبرسيّ، الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، ط ١، قم المشرّفة، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، ١٤١٧هـ.

٢٧. الطوسيّ، محمّد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ط ٤، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٧هـ.

٢٨. العيّاشيّ، محمّد بن مسعود، تفسير العيّاشيّ، طهران، ط ١، المطبعة العلميّة، ١٤٢٢هـ.

٢٩. الفراهيديّ، خليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق وتصحيح: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرّائيّ، ط ٢، قم المشرّفة، دار الهجرة، ١٤١٠هـ.

٣٠. القاضي عبد الجبّار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، لا.ط، القاهرة، الدار المصريّة، ١٩٦٢ - ١٩٦٥م.

٣١. الكشّيّ، محمّد بن عمر بن عبد العزيز، رجال الكشّيّ - اختيار معرفة الرجال، تحقيق: الدكتور حسن مصطفوي، لا ط، جامعة مشهد، ١٤٠٩هـ.

٣٢. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب، الكافي، ط ٦، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧٥ ش.

٣٣. المازندرانيّ، محمّد صالح، شرح الأصول والروضة من الكافي، تعليق: أبو الحسن الشعرانيّ، لا ط، طهران، المكتبة الإسلاميّة، لا ت.

٣٤. المجلسيّ، محمّد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٠٣هـ.

٣٥. النجاشيّ، أحمد بن عليّ، رجال النجاشيّ - فهرست أسماء مصنفي الشيعة، لا.ط، قم المشرّفة، تحقيق: السيّد موسى الشبيري الزنجانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، ١٤٠٧هـ.

٣٦. النوبختي، حسن بن موسى، فرق الشيعة، ط ٢، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٢هـ.

٣٧. السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل، ط١، قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٧هـ.

٣٨. فوّاز، حسن فوزي، غاية المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ط١، بيروت، دار الولاء لصناعة النشر، ١٤٤٠هـ.

٣٩. المجلسيّ، محمّد باقر بن محمّد تقي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، تحقيق السيّد هاشم رسولي، ط ٢، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ١٤٠٤هـ.

٤٠. مرتضى، السيّد جعفر، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، ط٢، قم المشرّفة، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٨هـ.

٤١. يوحنّا الدمشقيّ، الهرطقة المئة.

أدوار الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام
في التأسيس الكلامي

الشيخ أمين ترمس العامليّ (*)

المقدّمة

لا شكّ في أنّ المباحث الكلاميّة بمعنى المعتقدات الدينيّة يعود ظهورها إلى زمن ظهور الإسلام، وأنّ العصر التأسيسيّ للكلام يقوم على أركان ثلاثة: القرآن الكريم ومضامينه العقديّة الوسيعة، وروايات النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسيرته، والأئمّة الأطهار حديثًا وسيرةً، وخاصّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي شكّل مركز استقطاب لكلّ قضايا الدين عمومًا وقضايا العقيدة خصوصًا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، بما فيها أصل الإمامة التي غدت مركز الخلافات والافتراقات بعد الرسول صلى الله عليه وآله فافترقت الأمّة وظهرت الفرق الضالّة وتعمّقت الخلافات كلّما تقدّمنا في الزمن. واشتدّت الحاجة أكثر بعد توسّع رقعة انتشار الإسلام في المعمورة وتعرُّف المسلمين على ثقافاتٍ مغايرة واحتكاكهم مع أديان ومذاهب أخرى، وأدّى ذلك بطبيعة الحال إلى شبهات وإشكالات مستجدّة، وقضايا مستحدثة. وما زاد الأمر رسوخًا، حركة الترجمة لتراث غير المسلمين إلى اللغة العربيّة، وتعرّف المسلمين على معتقدات غيرهم، فشعر علماء الإسلام بضرورة تحصين المجتمع الإسلاميّ، فكان لا بد للعلماء من أن يدافعوا عن عقائدهم ويذودوا عن حياض دينهم. فتبلورت الحاجة إلى تطوير العلوم التي يحتاجونها في مناظراتهم، وتأصيل القواعد التي تفيد في الإجابة عن تلك الشبهات، وردّ هاتيك الإشكالات بالدليل والبرهان. وهذا ما فرض على علماء الإسلام التّوسعةَ في المباحث الكلاميّة.

(*)- باحث وأستاذ في الحوزة العلميّة ـ لبنان.

وهذا البحث يتصدّى لدراسة تطوّر هذا العلم في عصر الإمام السادس من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهو الإمام الصادق عليه السلام، ويُبرز خصوصيّات مدرسته الكلاميّة، وقد قُسّم إلى خمسة مطالب:

أوّلًا: نبذة عن الإمام الصادق عليه السلام وفضائله

ثانيًا: المدرسة العقديّة للإمام الصادق عليه السلام

ثالثا: منهجيّة الإمام الصادق في إعداد أصحابه

رابعًا: أعلام مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ممن عُرف بالمناظرات واشتهر بالمحاججات

خامسًا: الفرق الكلاميّة في عصر الإمام الصادق عليه السلام

وأنهينا البحث بخاتمة ضمنّاها النتائج والاستخلاصات.

أوّلًا: تعريف موجز بالإمام الصادق عليه السلام وفضائله:

هو جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم جميعًا سلام الله، وهو الإمام السادس من أئمّة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام. ولد في السابع عشر من شهر ربيع الأوّل سنة ٨٣ للهجرة النبويّة الشريفة، واستشهد في الخامس والعشرين من شهر شوّال سنة ١٤٨هـ. تبوّأ منصب الإمامة بعد شهادة أبيه الإمام الباقر عليه السلام سنه ١١٤ه، فكانت مدّة إمامته الأطول مقارنة بباقي الأئمّة عليهم السلام، حيث استغرقت ٣٤ سنة، كما أنّ عمره الشريف كان أطول عمر عاشه من بين المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، وكانت ولادته في مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، واستشهد ودفن فيها إلى جوار والده وجدّه وعم جدّه سبط النبيّ صلى الله عليه وآله الحسن المجتبى عليه السلام. عاش الإمام فتره شيخوخة الدولة الأمويّة وبداية الدولة العباسيّة، فعندما كان الأمويّون مشغولين بالدّفاع عن مراكز حكمهم وكراسيّ ملكهم، والعباسيّون يقاتلون للوصول والسيطرة على جميع مقدّرات الأمّة، كان الإمام الصادق عليه السلام مشغولًا بتصحيح ما أفسده الآخرون من دين جدّه وإظهاره كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله من دون تحريف أو تزوير، ففتح أبواب مدرسته

على مصراعيها، واستقبل جميع الطلّاب الرّاغبين بالعلم والباحثين عن الحقّ والحقيقة. فكان في تلك المدرسة آلاف الطلّاب من جميع الاختصاصات، وعلى اختلاف المشارب في انتماءاتهم الدينيّة والمعرفيّة والعرقيّة والمناطقيّة، ما فرض تنوّع العلوم.

واختصر لنا الشيخ المفيد رحمه الله وصف تلك المدرسة العظيمة بقوله:

«وكان الصادق جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسينعليه السلام من بين إخوته خليفة أبيه محمّد بن عليّعليه السلام ووصيّه والقائم بالإمامة من بعده، وبرز على جماعتهم بالفضل، وكان أنبههم ذكرًا وأعظمهم قدرًا وأجلّهم في العامّة والخاصّة، ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر ذكره في البلدان ولم ينقل عن أحد من أهل بيته العلماء ما نقل عنه ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبار، ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد اللهعليه السلام، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثّقات على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل. وكان لهعليه السلام من الدلائل الواضحة في إمامته ما بهرت القلوب وأخرست المخالف عن الطعن فيها بالشبهات»[١].

وقد أحصى الحافظ أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة الزيدي من طلّاب الإمام الصادقعليه السلام أربعة آلاف ممن روى الحديث عنه سلام الله عليه، وذكرهم في كتابٍ مستقلّ، وذكر لكلّ واحد رواية كمثال على ذلك[٢].

وأورد الشيخ النجاشي في كتابه بإسناده عن أحمد بن محمّد بن عيسى، قال: خرجت إلى الكوفة في طلب الحديث، فلقيت بها الحسن بن عليّ الوشّاء، فسألته أن يخرج لي كتاب العلاء بن رزين القلاء وأبان بن عثمان الأحمر، فأخرجهما إليّ، فقلت له: أحب أن تجيزهما لي، فقال لي: يا رحمك الله وما عجلتك اذهب فاكتبهما واسمع من بعدُ، فقلت: لا آمن الحدثان، فقال لو علمتُ أنّ هذا الحديث يكون له هذا الطلب لاستكثرتُ منه، فإنّي

[١]- المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص١٧٩.

[٢]- انظر: ابن شهرآشوب المازندراني، محمد بن علي (ت٥٨٨ ه)، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ج٤، ص٢٤٧.

أدركتُ في هذا المسجد تسعمئة شيخ كلٌّ يقول: حدّثني جعفر بن محمّد عليهما السلام[١].

وروى أحمد بن محمّد بن عيسى عن شيخه محمّد بن أبي عمير كتب مئة رجل من رجال أبي عبد الله الصادق عليه السلام[٢].

وليس بالأمر السهل في تلك الأوقات العصيبة أن تجمع مدرسةٌ واحدةٌ في مكان واحد هذا العدد الكبير من روّاد العلم والمعرفة والتأليف والتصنيف، وكانوا من بلدان متعدّدة، ونشروا هذه العلوم في بلاد المسلمين، وبعضهم كان يروي ويحفظ آلاف الأحاديث عنه عليه السلام.

فقد روى الشيخ النجاشيّ بإسناده عن صفوان بن يحيى وغيره، عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: أنّ أبان بن تغلب روى عني ثلاثين ألف حديث، فاروها عنه. وقال أبو علي أحمد بن محمد بن رياح الزهريّ الطحّان: حدّثنا محمّد بن عبد الله بن غالب قال: حدّثني محمّد بن الوليد، عن يونس بن يعقوب، عن عبد الله بن خفقة قال: قال لي أبان بن تغلب: مررت بقوم يعيبون على روايتي عن جعفر عليه السلام، قال: فقلت: كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلّا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله...[٣]

وأبان هذا كان من أعيان الطائفة ورموزها كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد عاصر الإمام الصادق عليه السلام عددًا من الحكّام الأمويّين والعباسيّين، فمن الحكام الأمويّين هشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخر حكام بني أميّة. ثمّ من العباسيّين عاصر أبا العبّاس عبد الله بن محمّد السفّاح، وأبا جعفر المنصور الدوانيقيّ، وهؤلاء الحكام عُرفوا ببطشهم وظلمهم وتجاهرهم بالفساد، وكان من أشهرهم فسادًا وظلمًا في الدولة الأمويّة هشام بن عبد الملك وفي الدولة العباسيّة السفاح وأبو جعفر المنصور الذي أمر بقتل الإمام عليه السلام بدسّ السمّ إليه ليتخلّص منه. وواجه الإمام التحدّيات السياسيّة والانحرافات الفكريّة

[١]- النجاشيّ، أحمد بن علي (ت٤٥٠ ه)، رجال النجاشي، ص٣٩، رقم ٨٠.

[٢]- الطوسي، محمّد بن الحسن، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، ص٤٠٤، رقم ٦١٨.

[٣]- النجاشي، رجال النجاشيّ، م.س، ص١٢، رقم ٧.

على حدّ سواء، في الوقت الذي رفض الإمامعليه السلام إعطاء أيّ نوع من الشرعيّة لحكّام عصره من الأمويّين والعباسيّين، ولو على مستوى زيارةٍ لهم، إلّا إذا أُجبر على ذلك.

فقد رُوي أنّ المنصور الدوانيقيّ كان في موسم الحجّ ومرّ على المدينة المنوّرة، والإمام الصادقعليه السلام مقيم فيها إلى جوار مرقد جدّهصلى الله عليه وآله، وجاء كبار القوم لزيارة الخليفة كما هو المعهود من سيرة الحكّام، وحضر أعيان العلماء والمحدّثين، فتفقّد المنصور الحاضرين فلم يرَ بينهم الإمام الصادقعليه السلام فسأل عنه، فقالوا له إنّه في المدينة، ولكنه لم يحضر، «فكتب المنصور إلى جعفر بن محمّد: لِمَ لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابهعليه السلام: ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنّيك، ولا تراها نقمة فنعزّيك بها، فما نصنع عندك؟ قال: فكتب إليه: تصحبنا لتنصحنا. فأجابهعليه السلام: من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك. فقال المنصور: والله لقد ميّز عندي منازل الناس من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة وأنّه ممن يريد الآخرة لا الدنيا»[١].

وكان يحضر في مجلسه وتحت منبره كبار الفقهاء والمحدّثين والعلماء في عصره ومن الموالين له وغيرهم، وحملوا وكتبوا ما سمعوه من الإمام الصادقعليه السلام ونشروه في بلاد المسلمين شرقًا وغربًا. ومن أبرز العلماء الذين حضروا عنده من غير الإماميّة، كان الإمام مالك بن أنس إمام المذهب المالكيّ، فقد رُوِي عنه أنّه قال: «ما رأتْ عين ولا سمعتْ أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلًا وعلمًا وعبادةً وورعًا»[٢].

واشتهر عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت إمام المذهب الحنفيّ أنّه قال: «لولا السنتان لهلك النعمان»، وهو يقصد السنتين اللتين حضر فيهما عند الإمام الصادقعليه السلام.

وقال محمّد أبو زهرة: إنّ الصادق كان على علم دقيقٍ بالفلسفة ومناهج الفلاسفة، وعلى علم بمواضع التهافت عندهم، وإنّه كان مرجع عصره في ردّ الشبهات، وقد كان

[١]- الإربلي، علي بن عيسى (ت٦٩٢ ه)، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٢٠٨.

[٢]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، م.س، ج٤، ص٢٤٧.

بهذا جديرًا، وذلك لانصرافه المطلق إلى العلم، ولأنّه كان ذا أفق واسع في المعرفة لم يتسنَّ لغيره من علماء عصره، فقد كانوا محدّثين أو فقهاء أو علماء في الكلام أو علماء في الكون، وكان هو كلّ ذلك... ولقد اشتهرت مناظرات الإمام الصادق حتى صار مصدرًا للعرفان بين العلماء، وكان مرجعًا للعلماء في كلّ ما تعضل عليهم الإجابة عنه من أسئلة الزنادقة وتوجيهاتهم، وقد كانوا يثيرون الشكّ في كلّ شيء ويستمسكون بأوهى العبارات ليثيروا غبارًا حول العقائد الإسلاميّة[١].

وقد اعترف بفضله وعلمه وسموّ أخلاقه ورفعة شأنه العدوّ قبل الصديق والبعيد قبل القريب.

وبحقّ يُقال لولا أئمّة آل البيت عليهم السلام عامّة والإمام الصادق عليه السلام خاصّة لضاع الدين الإسلاميّ، واندثرت أركانه، وطمست معالمه.

ثانيًا: المدرسة العقائديّة للإمام الصادق عليه السلام

الإحاطة بمعالم مدرسة الإمام الصادق عليه السلام تبدو متعذّرة؛ لضخامة التّراث الذي تركه الإمام حتى نُسب المذهب الإماميّ كلّه إليه، فيقال: المذهب الجعفريّ. ولكنّنا نحاول الإضاءة على بعض الجوانب المتعلّقة بالموضوع الكلاميّ أساسًا، ومن هنا سنعالج إجماليًّا الأصول الاعتقاديّة في روايات الإمام الصادق عليه السلام، وسنأخذ التوحيد نموذجًا، وكيف عرضه الإمام على أحد أصحابه الذي ساءه ما يتحدّث به الزنادقة من جحود وإنكار للألوهيّة (المفضل بن عمر الجعفيّ). ولأنّ التوسّع في عرض كلّ الأصول الاعتقاديّة يُخرج البحث عن حدوده، سنكتفي بإعطاء القارئ تصوّرًا عامًّا عن مرويّات الإمام الصادق عليه السلام في أصول العقيدة، ونحلّل قليلًا بعض ما ورد عنه في التوحيد وتنزيه المولى؛ لأنّ التوحيد أصل الأصول[٢].

[١]- أبو زهرة، محمّد، الإمام الصادق حياته وعصره آراؤه وفقهه، ص٩٩.

[٢]- وسنعطي هذا التصوّر العام استنادًا إلى مسند الإمام الصادق عليه السلام الذي أعدّه الشيخ العطارديّ.

١- الأصول الاعتقاديّة

من التصنيفات المهمّة التي أعدّت لتدوين الموروث الروائيّ للإمام الصادقعليه السلام، مسند الإمام الصادق للشيخ عزيز الله العطارديّ، ويتألّف هذا المسند من ٢٠ مجلدًا، وهو الأضخم إطلاقًا ضمن سلسلة مسانيد الأئمّة التي أعدّها الشيخ جزاه الله خيرًا، وسنكتفي بالتعريف بالمضامين العقديّة لهذا المسند والتي تتمركز أساسًا في المجلّدات الخمسة الأولى:

- **ففي الجزء الأول:** نجد كتاب العقل، وفيه ٤٥ رواية عن فضل العقل وجنوده، وأنّ العقل حجّة، وأنّ المرء يجازى بعقله. وكتاب العلم، وفيه ٢٨٢ رواية في فضل العلم، وصفات العلماء، والتفقّه والتفكّر في الدين، والرأي والقياس، وعلماء السوء والجدال والمراء....

- **في الجزء الثاني:** وفيه كتاب التوحيد، وكتاب النبوّة، وكتاب الإمامة:

أمّا كتاب التوحيد، فتضمّن ٣٧٣ رواية موزّعة على موضوعات هذا الباب: أنّ الله لا يوصف، العرش والكرسيّ، الزمان والمكان، الابتلاء والمشيئة، القضاء والقدر، الجبر والتفويض، البداء، الأسماء والصفات، الرؤية، حدوث العالم....التوحيد ونفي التشبيه، القدرة، العلم...

وتضمّن كتاب النبوّة ما روي عن الصادقعليه السلام في الأنبياء جميعًا من آدم إلى النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، وهي عشرات الروايات، منها ١٢٨ رواية في النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله.

ومن جهته تضمّن كتاب الإمامة ٣٠٠ رواية موزّعة على بعض العناوين استكملها في المجلد الثالث، والعناوين التي عالجها في هذا الكتاب: الاضطرار إلى الحجّة، والهداية إلى الإمام، النصوص على الأئمّة، مقام النبيّ والإمام، أنّ الأرض لا تخلو من إمام، أنّهمعليهم السلام عين الله،...فرض طاعتهم..

وفي الجزء الثالث: استكمال لروايات كتاب الإمامة، وهي مئات الروايات التي غطّت العناوين المتبقّية، مثل: أنّهمعليهم السلام هم الهداة، ولاة الأمر (٢٦ رواية)،....صفات

الإمام (١٢ رواية)، أرواح الأئمّة (٣٦ رواية)، أنّهم أهل الذكر (١٠ روايات)، أنّهم الراسخون في العلم (٥٠ رواية)،... عرض الأعمال عليهم (٢٨ رواية)، عندهم علم النبيّ ﷺ (٥١ رواية)...إلى غيرها من العناوين المتعلّقة بملكات الإمام، وعلومهم ومنزلتهم. ومجموع عناوين كتاب الإمامة في هذا الجزء الثالث ٦٧ عنوانًا.

أمّا القسم الثاني من هذا الجزء الثالث، فعرض فيه الكاتب روايات كتاب الغيبة، وهي في مجموعها بلغت ٤١٤ رواية موزّعة على عناوين الباب، منها: صفة المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، انتظار الفرج، طول الغيبة، التوقيت، علة الغيبة،.... ما يحدث عند قيامه، علامات ظهوره، ظهوره عجّل الله تعالى فرجه الشريف،...النوادر في الغيبة.....

والجزء الرابع: حوى كتابين اثنين: كتاب فضائل أهل البيت عليهم السلام، وكتاب ما رُوي عن الأصحاب. في الكتاب الأوّل عشرات الرواية في فضائل أهل البيت عليهم السلام (٥٧ رواية)، ومحبّتهم (١٠ روايات)، وأورد المصنّف ١٤٥ رواية في فضائل الإمام عليّ عليه السلام، و٦١ رواية في فضائل الزهراء عليها السلام، و١٣ رواية في فضائل الإمام الحسن عليه السلام، و٣٦١ رواية في فضائل الإمام الحسين عليه السلام... أمّا كتاب الأصحاب، فقد تضمّن ما رُوي عن الصادق عليه السلام في أصحاب الرسول والأئمّة وخصوص أصحابه عليه السلام، وتضمّن الكتاب ١٥٧ اسمًا.

والجزء الخامس: حوى كتابين اثنين أيضًا في فضائل الشيعة وكتاب الإيمان والكفر، تضمّن الكتاب الأوّل حوالي ٢٤٢ رواية في فضائل الشيعة تحت عناوين صفات الشيعة، وامتحانهم، وخلقهم، وابتلائهم وهدايتهم واختلافهم وفرجهم... وأمّا كتاب الإيمان والكفر فتضمّن ٤١٢ رواية موزّعة على موضوعات شتّى في هذا الكتاب: باب طينة المؤمن والكافر، ودرجات الإيمان، وخصال المؤمن، والخوف والرجاء، والإسلام والإيمان (٧٦ رواية)...

وتضمّنت بعض الأجزاء اللّاحقة بعض الروايات الكلاميّة، كالجزء التاسع الذي حوى كتاب الاحتجاجات، والجزء العشرين الذين حوى كتاب الحشر والنشر وفيه ٧٥ رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في الجنّة ونعيمها، والصراط، والشفاعة.... من مرويّات أصل المعاد.

ولكن بعد الاستقراء والتتبّع، فقد تمركزت مادة الأجزاء الأخرى في روايات المواعظ وروايات تفسير آيات القرآن الكريم والأدعية، من الجزء السادس إلى الجزء التاسع، ومنه إلى الجزء العشرين تشكّلت مضامين أجزاء المسند من روايات أبواب الفقه من الطهارة إلى الميراث.

نكتفي بهذا العرض الوصفيّ لروايات الإمام الصادق في الأبواب العقديّة والكلاميّة، والتي تمنح القارئ فكرةً إجماليّةً عن معالم هذه المدرسة الكلاميّة الأصيلة.

٢- التوحيد في مدرسة الإمام الصادقعليه السلام

في هذا الباب، نكتفي بأصلٍ روائيّ واحد (توحيد المفضل) كنموذج للعقيدة التوحيديّة، ولطريقة تعليم الإمام أصحابه هذه المضامين العالية. فممّا يُنسب إلى الإمام الصادقعليه السلام دروس أملاها على تلميذه المفضّل بن عمر الجعفيّ الكوفيّ، وهو ما اشتهر بـ (توحيد المفضّل)، وأغلب الظنّ أنّه هو الذي ذكره الشيخ النجاشيّ في كتابه بقوله: "المفضل بن عمر الجعفيّ الكوفيّ، وله كتاب في بدء الخلق والحثّ على الاعتبار[١]. روى محمّد بن سنان قال حدّثنا المفضّل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالسًا في الروضة بين القبر والمنبر وأنا مفكّر فيما خصّ الله به سيّدنا محمّدًا صلى الله عليه وآله من الشرف والفضائل وما منحه وأعطاه وشرّفه به وحباه مما لا يعرفه الجمهور من الأمّة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته وخطر مرتبته، فإنّي لكذلك إذ أقبل ابن أبي العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه، فلما استقرّ به المجلس إذا رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه، فتكلّم ابن أبي العوجاء فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العزّ بكماله وحاز الشرف بجميع خصاله ونال الحظوة في كلّ أحواله، فقال له صاحبه إنّه كان فيلسوفًا ادّعى المرتبة العظمى والمنزلة الكبرى وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول وضلّت فيها الأحلام وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر فرجعت خاسئات وهي حسيرة، فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء دخل الناس في دينه أفواجًا، فقرن اسمه باسم ناموسه، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع في جميع البلدان والمواضع التي

[١]- النجاشيّ، رجال النجاشي، م.س، ص٤١٦، رقم ١١١٢.

انتهت إليها دعوته وعلت بها كلمته وظهرت فيها حجّته برًّا وبحرًا وسهلًا وجبلًا في كلّ يوم وليلة خمس مرّات مردّدًا في الأذان والإقامة ليتجدّد في كلّ ساعة ذكره لئلّا يخمل أمره، فقال ابن أبي العوجاء دع ذكر محمّد ﷺ فقد تحيّر فيه عقلي وضلّ في أمره فكري وحدّثنا في ذكر الأصل الذي يمشي به، ثم ذكر ابتداء الأشياء وزعم أنّ ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ولا صانع له ولا مدبّر، بل الأشياء تتكوّن من ذاتها بلا مدبّر وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال.

قال المفضل: فلم أملك نفسي غضبًا وغيظًا وحنقًا، فقلت يا عدوّ الله ألحدت في دين الله وأنكرت البارئ جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم وصوّرك في أتمّ صورة، ونقلك في أحوالك، حتى بلغ بك إلى حيث انتهيت، فلو تفكّرت في نفسك وصدقك لطيف حسّك لوجدت دلائل الربوبيّة وآثار الصنعة فيك قائمة وشواهده جلّ وتقدّس في خلقك واضحة وبراهينه لك لائحة، فقال يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك فإن ثبت لك حجّة تبعناك وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت فما أفحش في خطابنا ولا تعدّى في جوابنا وإنّه للحليم الرزين العاقل الرصين لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نَزَق ويسمع كلامنا ويصغي إلينا ويستعرف حجّتنا حتى استفرغنا ما عندنا وظنّنا أنّا قد قطعناه أدحض حجّتنا بكلامٍ يسيرٍ وخطاب قصير يلزمنا به الحجّة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه ردًّا، فإن كنتَ من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

قال المفضّل: فخرجت من المسجد محزونًا مفكّرًا فيما بُلي به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها، فدخلت على مولاي صلوات الله عليه، فرآني منكسرًا، فقال ما لك؟ فأخبرته بما سمعت من الدهريّين[١] وبما رددت عليهما، فقال لألقين إليك من حكمة البارئ جل وعلا وتقدّس اسمه في خلق العالم والسباع والبهائم والطير والهوام وكلّ ذي روح من الأنعام والنبات والشجرة المثمرة وغير ذات الثمر والحبوب والبقول المأكول من ذلك وغير المأكول ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون ويتحيّر

[١]- الدهري: الملحد القائل: إنّ العالم موجود أزلاً وأبدًا، لا صانع له.

فيه الملحدون، فبكّر عليّ غدًا، قال المفضل: فانصرفت من عنده فرحًا مسرورًا وطالت عليّ تلك الليلة انتظارًا لما وعدني به، فلمّا أصبحت غدوت فاستؤذن لي، فدخلت وقمت بين يديه، فأمرني بالجلوس، فجلست، ثمّ نهض إلى حجرة كان يخلو فيها، فنهضت بنهوضه، فقال اتبعني، فتبعته، فدخل ودخلت خلفه، فجلس وجلست بين يديه، فقال: يا مفضّل كأنّي بك وقد طالت عليك هذه الليلة انتظارًا لما وعدتك، فقلت أجل يا مولاي، فقال يا مفضّل إنّ الله كان ولا شيء قبله وهو باق ولا نهاية له، فله الحمد على ما ألهمنا، وله الشكر على ما منحنا، وقد خصّنا من العلوم بأعلاها ومن المعالي بأسناها واصطفانا على جميع الخلق بعلمه وجعلنا مهيمنين عليهم بحكمه، فقلت يا مولاي أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه وكنت أعددت معي ما أكتب فيه، فقال لي افعل.

يا مفضّل إنّ الشكّاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فيما ذرأ البارئ جلّ قدسه وبرأ من صنوف خلقه في البر والبحر والسهل والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود حتى أنكروا خلق الأشياء وادّعوا أنّ كونها بالإهمال لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبّر ولا صانع تعالى الله عما يصفون و{قاتلهم الله أنى يؤفكون} فهم في ضلالهم وعماهم وتحيّرهم بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها لا يستغنى عنها، ووضع كلّ شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير وحكمة من التدبير فجعلوا يتردّدون فيها يمينًا وشمالًا ويطوفون بيوتها إدبارًا وإقبالًا محجوبة أبصارهم عنها لا يبصرون بنية الدار وما أعد فيها، وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه وأعدّ للحاجة إليه وهو جاهل بالمعنى فيه ولما أعدّ ولماذا جعل كذلك، فتذمر وتسخط وذمّ الدار وبانيها، فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة، فإنّهم لما غربت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجولون في هذا العالم حيارى ولا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقته وحسن صنعته وصواب تهيئته وربما وقف بعضهم على الشيء لجهل سببه والإرب فيه فيسرع إلى ذمه ووصفه بالإحالة والخطأ، كالذي أقدمت عليه

المانويّة[١] الكفرة وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة وأشباههم من أهل الضلال المعلّلين أنفسهم بالمحال فيحقّ على من أنعم الله عليه بمعرفته وهداه لدينه ووفّقه لتأمّل التدبير في صنعة الخلائق والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التعبير بالدلالة القائمة الدالّة على صانعها أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك ويرغب إليه في الثبات عليه والزيادة منه، فإنه جل اسمه يقول ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم: ٧)[٢].

٣- النهي عن الكلام في ذات الله

وفي الوقت الذي فُتح الباب على مصراعيه في المسائل العقديّة، كان ثمّة نهي وتحذير صريح عن المعصومين عليهم السلام من الخوض في الكلام عن ذات الله تعالى، بل حتى التفكير بذلك، وإنّما ينبغي النّظر والكلام في خلق الله تعالى من السماوات والأرض وما فيهن، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

(آل عمران: ١٩١).

ومن الروايات التي فيها نحو تصريح عن النهي في هذا الأمر ما رواه الشيخ الكلينيّ بإسناده عن سليمان بن خالد قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٢)، فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»[٣].

وعن محمّد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا محمّد، إنّ الناس لا يزال بهم

[١]- المانويّة: قوم يذهبون إلى قدم النور والظلمة، وأنّ العالم مركّب منهما، وأنّهما مطبوعان على الخير والشر، منسوبة إلى [ماني] اسم رجل، انظر: الشريف المرتضى، علي بن الحسين (ت٤٣٦ ه)، رسائل الشريف المرتضى، ج ٢، ص ٢٨٤.

[٢]- المجلسيّ، محمّد باقر بن محمّد تقي (ت١١١٠ ه)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج٣، ص٥٧.

[٣]- الكلينيّ، محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت٣٢٩ ه)، الكافي، ج١، ص٩٢؛ انظر: الصدوق، محمد بن علي ابن بابويه (ت٣٨١ه)، التوحيد، ص٤٥٦.

المنطق حتى يتكلّموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا لا إله إلا الله الواحد الذي ليس كمثله شيء»[١].

وعن الحسين بن المياح عن أبيه قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «من نظر في الله كيف هو هلك»[٢].

وعن سليمان بن خالد قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «إياكم والتفكّر في الله فإنّ التفكّر في الله لا يزيد إلّا تيها؛ لأنّ الله عزّ وجلّ لا تدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار»[٣].

وعن ضريس الكناسيّ قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «إيّاكم والكلام في الله، تكلّموا في عظمته ولا تكلّموا فيه، فإنّ الكلام في الله لا يزداد إلّا تيهًا»[٤].

ثالثًا: منهجيّة الإمام الصادق عليه السلام في إعداد الأصحاب

لقد اهتمّ الإمام الصادق عليه السلام بأصحابه، وسعى إلى إعدادهم ليكونوا ذخرًا للدين ويذبّوا عن حرمه، فسلك في ذلك منهجيّة متقنة، فخصّ بعضهم بخصائص تتلاءم مع شخصيّتهم والمهمّة الموكولة إليهم، ونبّههم لشروط المناظرة وحثّهم على مراعاتها، وشجّعهم وأثنى عليهم وساعدهم وواكب مسيرتهم، ولم يغفل عن حمايتهم حيث اعتمد أساليب لحفظهم من السلطة الجائرة ومن الوقوع في منزلقات المناظرين. وفي هذا المطلب، نعرض المنهجيّة التي اتّبعها الإمام عليه السلام.

١- التخصّص

كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام ينظر إلى أصحابه على قدر كفايتهم الموهوبة، كلٌّ على حسب استعداده وكفاءته، فخصّ جماعة منهم لمحاربة أهل الإلحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة، والفِرَق الشاذة، حيث كانت تَرِد عليه الوفود من سائر

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٩٢؛ انظر: الصدوق، التوحيد، م.س، ص٤٥٦.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٩٣.

[٣]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٤٥٧.

[٤]- م.ن، ص٤٥٧.

البلاد الإسلاميّة للاستفادة مرّة، وللمناظرة أخرى، فقد جعل لكلّ واحد من خواص أصحابه وظيفةً خاصّة ودورًا مميّزًا يقوم به عندما يحتاج إليه ويعوّل عليه في المناظرات مع الآخرين، إظهارًا لفضله وعلوّ منزلته؛ ولذلك كان من مميّزات تلك المدرسة ومن أدوات منهج الإمام جعفر الصادقعليه السلام التعمّق والتخصّص، ولا يخفى ما للتخصّص من دور كبير في إنماء الفكر الإسلاميّ وتطويره في تلك المرحلة، بحيث يكون الأسلوب الذي انتهجه الإمامعليه السلام قادرًا على استيعاب الطاقات الكثيرة الوافدة على مدرسته من سائر أنحاء العالم الإسلاميّ. فلذا توجّهَ الإمامعليه السلام نحو التخصّص العلميّ، واعتنى به، وتصدّى للإشراف على كلّ تلك التخصّصات بنفسه الشريفة.

ففي الفقه، تخصّص كلٌّ من: زرارة بن أعين الذي جعله للمناظرة في الفقه، ومحمّد بن مسلم، وبُريد بن معاوية، وأبو بصير، وعبيد الله بن علي الحلبي، والفضيل بن يسار، وأبان بن تغلب الذي أمره أن يجلس في المسجد ويفتي الناس. وقد تخصّص أبان في عدّة علوم منها اللغة العربيّة. فهؤلاء وغيرهم كانوا من أبرز فقهاء مدرسة أهل البيتعليهم السلام، ووكّل لحمران بن أعين أن يجيب عن مسائل علوم القرآن الذي كان حجّة فيها. وتخصّص مؤمن الطاق في علم الكلام، وهشام بن سالم في علم التوحيد، وهشام بن الحكم في علم الإمامة، وهكذا غيرهم في علوم أخرى. ومن تخصّص في علم واشتُهر به لا يعني بالضرورة أنّه غير متبحّر بعلم آخر، إنما اشتهر بعلم معيّن فذاع صيته وأصبح منارًا له.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ طريقة التخصّص التي اعتمدها الإمام الصادقعليه السلام لم تكن متعارفةً في ذلك العصر، وإنّما الذي كان سائدًا وقتها أنّ المدارس كانت تخرّج علماء من صنف واحدٍ وبتخصّص واحدٍ، بينما كان الإمامعليه السلام ينوّع بين تلامذته، ففيهم الفقهاء والأدباء والمفسّرون والمتكلّمون، وكلٌّ متخصّص يُبحر في بحر علوم الإمامعليه السلام ويغوص إلى الأعماق ويستخرج الدرر كلٌّ بحسب إمكاناته وسعة وعائه وطول باعه. وهذا ما نراه في تلك الحادثة مع الشاميّ، فقد روى الشيخ الكشّيّ بإسناده عن يونس بن يعقوب، عن هشام بن سالم، قال: كنّا عند أبي عبد اللهعليه السلام جماعة من

أصحابه، فورد رجل من أهل الشام فاستأذن فأذن له، فلمّا دخل سلم فأمره أبو عبد اللهعليه السلام بالجلوس، ثمّ قال له حاجتك أيّها الرجل قال بلغني أنّك عالم بكلّ ما تُسأل عنه فصرت إليك لأناظرك! فقال أبو عبد اللهعليه السلام: فيما ذا؟ قال: في القرآن وقطعه، وإسكانه، وخفضه ونصبه ورفعه، فقال أبو عبد اللهعليه السلام يا حمران دونك الرجل! فقال الرجل إنّما أريدك أنت لا حمران، فقال أبو عبد اللهعليه السلام إن غلبت حمران فقد غلبتني، فأقبل الشاميّ يسأل حمران حتى غرض[١] وحمران يجيبه، فقال أبو عبد اللهعليه السلام كيف رأيت يا شاميّ قال رأيته حاذقًا ما سألته عن شيء إلّا أجابني فيه، فقال أبو عبد اللهعليه السلام يا حمران سل الشامّي فما تركه يكشر[٢]، فقال الشامي أريد يا أبا عبد الله أناظرك في العربّية! فالتفت أبو عبد اللهعليه السلام فقال يا أبان بن تغلب ناظره، فناظره فما ترك الشاميّ يكشر، فقال أريد أن أناظرك في الفقه! فقال أبو عبد اللهعليه السلام يا زرارة ناظره! فناظره فما ترك الشاميّ يكشر، قال أريد أن أناظرك في الكلام! قال يا مؤمن الطاق ناظره، فناظره فسجل[٣] الكلام بينهما، ثمّ تكلّم مؤمن الطاق بكلامه فغلبه به، فقال أريد أن أناظرك في الاستطاعة فقال للطيّار كلّمه فيها! قال فكلمه فما تركه يكشر، ثمّ قال أريد أكلّمك في التوحيد، فقال لهشام بن سالم كلّمه! فسجل الكلام بينهما ثّم خصمه هشام، فقال أريد أن أتكلّم في الإمامة، فقال لهشام بن الحكم كلّمه يا أبا الحكم! فكلّمه فما تركه يرتم[٤] ولا يحلى ولا يمرّ، قال فبقي يضحك أبو عبد اللهّعليه السلام حتى بدت نواجده، فقال الشامي كأنّك أردت أن تخبرني أنّ في شيعتك مثل هؤلاء الرجال قال هو ذاك، ثمّ قال يا أخا أهل الشام أما إنّ حمران: فحزقك[٥] فحرت له فغلبك بلسانه وسألك عن حرف من الحقّ فلم تعرفه، وأمّا أبان بن تغلب: فمغث[٦] حقًّا بباطل فغلبك، وأمّا زرارة: فقاسك

---

[١]- غرض أي ضجر من السؤال وملّ.

[٢]- يكشر أي يهرب.

[٣]- فسجل الكلام أي دار الكلام بينهما مرّة لذا ومرّة لذاك.

[٤]- رتم يرتم بكلمة أي تكلّم. ويقال ما يمرّ ولا يحلى أي لا يتكلّم بمرّ ولا حلو. وحاصل المعنى أنّ أبا الحكم هشام بن الحكم، أفحمه وتركه بحيث لا يرضى أن يدع المناظرة ويبرح عنها، ولا يستطيع أن يتكلّم بحلو ولا بمرّ أصلاً، فظلّ مخصومًا، مغلوبًا متحيرًا مبهوتًا.

[٥]- حزق، أي شدّ حبل الجدل في المناظرة وضيّق عليه المخرج.

[٦]- مغث أي خلط.

فغلب قياسه قياسك، وأمّا الطيار: فكان كالطير يقع ويقوم وأنت كالطير المقصوص لا نهوض لك، وأمّا هشام بن سالم: فأحسن أن يقع ويطير، وأمّا هشام بن الحكم: فتكلم بالحقّ فما سوغك بريقك[١].

يا أخا أهل الشام إنّ الله أخذ ضغثًا من الحقّ وضغثًا من الباطل فمغثهما ثمّ أخرجهما إلى الناس، ثمّ بعث أنبياء يفرّقون بينهما ففرّقها الأنبياء والأوصياء، وبعث الله الأنبياء ليعرفوا ذلك وجعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من يفضل الله ومن يختصّ، ولو كان الحقّ على حدة والباطل على حدة كلّ واحد منهما قائم بشأنه ما احتاج الناس إلى نبيّ ولا وصيّ، ولكن الله خلطهما وجعل تفريقهما إلى الأنبياء والأئمّةعليهم السلام من عباده! فقال الشاميّ: قد أفلح من جالسك، فقال أبو عبد اللهعليه السلام إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجالسه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل يصعد إلى السماء فيأتيه بالخبر من عند الجبّار، فإن كان ذلك كذلك فهو كذلك، فقال الشاميّ: اجعلني من شيعتك وعلّمني! فقال أبو عبد اللهعليه السلام يا هشام[٢] علّمه فإني أحبّ أن يكون تلميذًا لك.

قال عليّ بن منصور وأبو مالك الحضرميّ رأينا الشاميّ عند هشام بعد موت أبي عبد اللهعليه السلام، ويأتي الشاميّ بهدايا أهل الشام وهشام يزوّده هدايا أهل العراق. قال علي بن منصور وكان الشاميّ ذكيّ القلب[٣]. علّي بن منصور هذا من أصحاب هشام كان كوفيًّا متكلّمًا وسكن بغداد[٤].

ونستخلص من هذه المناظرة أمورًا عدّة:

أ. إنّ الإمامعليه السلام كان فاتحًا باب مدرسته للجميع ممن يريد طلب العلم والمعرفة، وحتى للذين يريدون المناظرة والمحاجّة والمناقشة وما أشبه ذلك. وهذه ميزةٌ غير موجودة إلّا في مدرسة أهل البيتعليهم السلام خصوصًا في ظلّ حكّام ظالمين ومتربّصين من أمويّين وعبّاسيّين.

---

[١]- سوغ: جعله سائغًا هنيئًا. والريق: لعاب الفم.

[٢]- المراد هو هشام بن الحكم.

[٣]- الطوسيّ، محمّد بن الحسن، -رجال الكشّيّ- اختيار معرفة الرجال، ص٢٧٥.

[٤]- النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ص٢٥٠.

ب. إنّ الإمام عليه السلام كان يُعطي كلّ عالم عنده وفي مدرسته دوره المتضلّع فيه، ويضع كلّ رجل في مكانه المناسب له، وكان يوزّع الأدوار حسب الاختصاصات.

ت. يتّضح من هذه المناظرة إلى أيّ حدّ كانت ثقة الإمام عليه السلام بأصحابه، واعتماده عليهم في المناظرات مع الخصوم، إذ بلغ الأمر أن جعل التغلّب على تلميذه تغلبًا عليه عليه السلام، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على معرفة الإمام بكلّ واحد من أصحابه وما قدر إحاطته بالمسائل الخلافيّة وبمستواه العلميّ.

ث. إعطاء الإمام عليه السلام لأصحابه الثقة بأنفسهم، وأنّهم يمتلكون قدراتٍ علميّةً تخوّلهم المناظرة مع الخصوم والتفوّق عليهم وإخضاعهم للحقّ بالأدلّة الدّامغة والبراهين السّاطعة، حتى لو كان ذلك بحضور الإمام عليه السلام وهذا له بُعدٌ كبير على دور كلّ واحد من أصحابه.

ومما يؤكّد اعتماد الإمام عليه السلام على ذوي الاختصاص من أصحابه، وأنّه لا يُسمح لمن ليس متمكّنًا من علم معيّن أن يخوض في أيّ مناظرة مع الخصوم، ما رواه الشيخ الكلينيّ بإسناده عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام، فقال إنّي رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال أبو عبد الله عليه السلام كلامك من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أو من عندك، فقال من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ومن عندي، فقال أبو عبد الله عليه السلام فأنت إذًا شريك رسول الله؟ قال لا، قال فسمعت الوحي عن الله عزّ وجلّ يخبرك؟ قال لا، قال فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال لا، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليّ فقال يا يونس بن يعقوب هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلّم، ثمّ قال: يا يونس، لو كنت تحسن الكلام كلّمته، قال يونس فيا لها من حسرة، فقلت: جعلت فداك إنّي سمعتك تنهى عن الكلام وتقول ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله، فقال أبو عبد الله عليه السلام إنّما قلت فويل لهم إن تركوا ما أقول وذهبوا إلى ما يريدون، ثم قال لي اخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلمين فأدخله، قال فأدخلت حمران بن أعين وكان يحسن الكلام وأدخلت الأحول وكان

يحسن الكلام وأدخلت هشام بن سالم وكان يحسن الكلام وأدخلت قيس الماصر وكان عندي أحسنهم كلامًا، وكان قد تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليه السلام، فلمّا استقرّ بنا المجلس وكان أبو عبد الله عليه السلام قبل الحجّ يستقرّ أيّامًا في جبل في طرف الحرم في فازة له[١] مضروبة، قال فأخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من فازته، فإذا هو ببعير يخبّ، فقال هشام: وربّ الكعبة قال فظنّنا أنّ هشامًا رجل من ولد عقيل كان شديد المحبّة له قال فورد هشام بن الحكم، وهو أوّل ما اختطت لحيته، وليس فينا إلّا من هو أكبر سنًّا منه، قال فوسّع له أبو عبد الله عليه السلام وقال ناصرنا بقلبه ولسانه ويده، ثمّ قال يا حمران كلّم الرجل فكلّمه، فظهر عليه حمران، ثمّ قال يا طاقي كلّمه فكلّمه فظهر عليه الأحول، ثمّ قال يا هشام بن سالم كلّمه فتعارفا، ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام لقيس الماصر كلّمه فكلّمه، فأقبل أبو عبد الله عليه السلام يضحك من كلامهما مما قد أصاب الشاميّ، فقال للشامي كلّم هذا الغلام يعني هشام بن الحكم، فقال نعم، فقال لهشام يا غلام سلني في إمامة هذا فغضب هشام حتى ارتعد، ثمّ قال للشاميّ يا هذا أربّك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم، فقال الشاميّ بل ربّي أنظر لخلقه، قال ففعل بنظره لهم ماذا قال أقام لهم حجّة ودليلًا كيلًا يتشتّتوا أو يختلفوا يتألّفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربّهم، قال فمن هو؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله، قال هشام فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله قال الكتاب والسنّة، قال هشام فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنّة في رفع الاختلاف عنّا؟ قال الشاميّ نعم، قال فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إيّاك، قال فسكت الشاميّ، فقال أبو عبد الله عليه السلام للشاميّ ما لك لا تتكلّم، قال الشاميّ إن قلت لم نختلف كذبت وإن قلت إنّ الكتاب والسنة يرفعان عنّا الاختلاف أبطلت؛ لأنّهما يحتملان الوجوه، وإن قلت قد اختلفنا وكلّ واحد منا يدّعي الحقّ، فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنّة، إلّا أنّ لي عليه هذه الحجّة، فقال أبو عبد الله عليه السلام سله تجده مليًّا، فقال الشاميّ: يا هذا من أنظر للخلق أربهم أو أنفسهم، فقال هشام ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم، فقال الشاميّ: فهل أقام لهم من يجمع لهم كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقّهم من باطلهم، قال هشام في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله أو الساعة؟ قال الشاميّ في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله والساعة، فقال هشام

[١]- الفازة الخيمة الصغيرة و« يخب» من الخبب بالخاء المعجمة والموحدتين ضرب من العدو.

من هذا القاعد الذي تشدّ إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السّماء والأرض وراثة عن أب عن جدّ، قال الشاميّ فكيف لي أن أعلم ذلك، قال هشام سله عمّا بدا لك، قال الشاميّ قطعت عذري فعليّ السؤال، فقال أبو عبد اللهعليه السلام يا شاميّ أخبرك كيف كان سفرك وكيف كان طريقك كان كذا وكذا، فأقبل الشاميّ يقول صدقت أسلمت للهّ الساعة، فقال أبو عبد اللهعليه السلام بل آمنت بالله الساعة إنّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون ويتناكحون والإيمان عليه يُثابون، فقال الشاميّ: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّك وصيّ الأوصياء. ثمّ التفت أبو عبد اللهعليه السلام إلى حمران فقال تُجري الكلام على الأثر فتصيب والتفت إلى هشام بن سالم فقال تريد الأثر ولا تعرفه، ثمّ التفت إلى الأحول، فقال قيّاس روّاغ تكسر باطلًا بباطل إلّا أنّ باطلك أظهر ثمّ التفت إلى قيس الماصر، فقال تتكلّم وأقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبعد ما تكون منه تمزج الحقّ مع الباطل وقليل الحقّ يكفي عن كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان، قال يونس فظننت والله أنّه يقول لهشام قريبًا مما قال لهما، ثمّ قال يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس فاتّق الزلّة والشفاعة من ورائها إن شاء الله[١].

٢- الالتزام بآداب المناظرة

وقد التزم الإمامعليه السلام بآداب الحوار والمناظرة مع الآخرين، وكان يأمر طلّابه بذلك، وقد اعترف له خصومه ومناوؤوه بهذه الميزة، فقد روى الشيخ الكلينيّ بإسناده عن أحمد بن محسن الميثميّ قال: "كنت عند أبي منصور المتطبّب فقال أخبرني رجل من أصحابي قال كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفع ترون هذا الخلق؟ وأومأ بيده إلى موضع الطواف ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانيّة إلّا ذلك الشيخ الجالس يعني أبا عبد الله جعفر بن محمّدعليه السلام، فأما الباقون فرعاع وبهائم، فقال له ابن أبي العوجاء وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء، قال لأنّي رأيت عنده ما لم أره عندهم...".[٢] والحوار مفصّل وطويل لا يسع هذا المختصر لذكره.

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٧١.

[٢]- م.ن، ج١، ص٧٤.

وعن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو شاكر الديصانيّ إنّ لي مسألةً تستأذن لي على صاحبك فإنّي قد سألت عنها جماعة من العلماء فما أجابوني بجواب مشبع، فقلت هل لك أن تخبرني بها فلعلّ عندي جوابًا ترتضيه، فقال إنّي أحبّ أن ألقى بها أبا عبد الله عليه السلام فاستأذنت له فدخل فقال له أتأذن لي في السؤال فقال له سل عمّا بدا لك، فقال له ما الدليل على أنّ لك صانعًا، فقال وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين إما أن أكون صنعتها أنا أو صنعها غيري، فإن كنت صنعتها أنا فلا أخلو من أحد معنيين إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة أو صنعتها وكانت معدومة، فإن كنت صنعتها وكانت موجودة فقد استغنت بوجودها عن صنعتها، وإن كانت معدومة فإنّك تعلم أنّ المعدوم لا يحدث شيئًا، فقد ثبت المعنى الثالث أنّ لي صانعًا وهو الله ربّ العالمين فقام وما أحار جوابًا[١].

فالديصانيّ كان في ذلك الوقت من كبار الملحدين، وقد سأل عددًا من العلماء من غير مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فلم يحصل على جواب شافٍ يروي غليله حتى استأذن على الإمام الصادق عليه السلام وسمع منه جوابًا علميًّا يقوم على دليلٍ قاطعٍ وبرهانٍ ساطع.

٣- تقدير الأصحاب والثناء عليهم

وكان الإمام الصادق عليه السلام مسرورًا بمناظرات طلّابه، فكان في بعض الأحيان يُثني على بعضهم ويترحّم عليه كما حصل مع منصور بن حازم، فقد روى أنّه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنّي ناظرت قومًا فقلت لهم إنّ الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يُعرف بخلقه، بل العباد يُعرفون بالله، فقال رحمك الله[٢]. وكان أحيانًا يطلب من بعضهم أن يحكي له أمام أصحابه ما جرى بينه وبين خصمه في بعض تلك المناظرات.

فقد روى ثقة الإسلام الشيخ الكلينيّ بإسناده عن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم حمران بن أعين ومحمّد بن النعمان وهشام بن سالم والطيّار وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام يا هشام

[١]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٢٩٠.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٨٦؛ انظر: الصدوق، التوحيد، م.س، ص٢٨٥.

ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ فقال هشام يا ابن رسول الله إني أجلّك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوا، قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متّزرًا بها من صوف، وشملة مرتديًا بها والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثمّ قعدت في آخر القوم على ركبتي ثمّ قلت أيها العالم إنّي رجل غريب تأذن لي في مسألة، فقال لي نعم، فقلت له ألك عين؟ فقال يا بنيّ أيّ شيء هذا من السؤال وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت هكذا مسألتي، فقال يا بني سل وإن كانت مسألتك حمقاء، قلت أجبني فيها قال لي سل، قلت ألك عين؟ قال نعم، قلت فما تصنع بها؟ قال أرى بها الألوان والأشخاص، قلت فلك أنف؟ قال نعم، قلت فما تصنع به؟ قال أشم به الرائحة، قلت ألك فم؟ قال نعم، قلت فما تصنع به؟ قال أذوق به الطعم، قلت فلك أذن؟ قال نعم، قلت فما تصنع بها؟ قال أسمع بها الصوت، قلت ألك قلب؟ قال نعم، قلت فما تصنع به؟ قال أميّز به كل ما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال لا، قلت وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟ قال يا بني إنّ الجوارح إذا شكّت في شيء شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته ردّته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشّكّ، قال هشام فقلت له فإنّما أقام الله القلب لشكّ الجوارح، قال نعم، قلت لا بدّ من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح، قال نعم، فقلت له يا أبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إمامًا يُصحّح لها الصحيح ويتيقّن به ما شكّ فيه ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم لا يقيم لهم إمامًا يردون إليه شكّهم وحيرتهم ويقيم لك إمامًا لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكّك، قال فسكت ولم يقل لي شيئًا ثم التفت إليّ فقال لي أنت هشام بن الحكم؟ فقلت لا، قال أمن جلسائه؟ قلت لا، قال فمن أين أنت؟ قال قلت من أهل الكوفة، قال فأنت إذا هو ثم ضمّني إليه وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتى قمت، قال فضحك أبو عبد الله عليه السلام وقال يا هشام من

علّمك هذا؟ قلت شيء أخذته منك وألّفته، فقال هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى"[١].

٤- مساعدة الأصحاب وإرشادهم

لم تكن علاقة الإمام عليه السلام بأصحابه علاقةً عابرةً وتنقطع بانقطاعه عن مجلس درسه، وإنّما كان الإمام يواكب حركتهم العلميّة ونشاطهم الفكريّ، فيسأل عن أحوالهم، ويتتبّع أمورهم، وإذا ما استصعبت على بعضهم مسألة وأعياه الجواب للخصم فكان الإمام عليه السلام يتدخّل لإرشاد تلاميذه إلى ما هو الصواب، ولو من خلال اطلاعه على علم الغيب الذي اختصّه الله تعالى به، أو من خلال القواعد والكلّيّات التي كان يزوّد أصحابه بها، وهم يمتلكون القدرة والمهارة لإسقاطها على أفرادها وصغرياتها، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّما علينا أن نلقي إليكم الأصول وعليكم أن تفرّعوا[٢].

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه الشيخ الكشّيّ بإسناده عن يونس بن عبد الرحمن، عن أبي جعفر الأحول، قال: قال ابن أبي العوجاء مرّة أليس من صنع شيئًا وأحدثه حتّى يعلم أنّه من صنعته فهو خالقه؟ قال بلى، فأجّلني شهرًا أو شهرين ثمّ تعال حتى أريك! قال فحججت فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقال أما إنّه قد هيّأ لك شاتين وهو جاء معه بعدّة من أصحابه، ثمّ يخرج لك الشاتين قد امتلأتا دودًا، ويقول لك هذا الدود يحدث من فعلي، فقل له إن كان من صنعك وأنت أحدثته فميّز ذكوره من إناثه! فأخرج إليّ الدود، فقلت له ميّز الذكور من الإناث! فقال هذه والله ليست من أبزارك هذه التي حملتها الإبل من الحجاز، ثم قال عليه السلام ويقول لك أليس تزعم أنّه غنيّ فقل بلى، فيقول أيكون الغنيّ عندك في المعقول في وقت من الأوقات ليس عنده ذهب ولا فضة فقل له نعم، فإنّه سيقول لك كيف يكون هذا غنيًا؟ فقل له إن كان الغنيّ عندك أن يكون الغني غنيًا من قبل فضته وذهبه وتجارته فهذا كلّه مما يتعامل الناس به، فأيّ القياس أكثر وأولى بأن يقال غنيّ من أحدث الغنى فأغنى به الناس قبل أن يكون شيء وهو وحده، أو من

---

[١]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص١٦٩.

[٢]- ابن إدريس، محمّد بن أحمد (ت٥٩٨ ه)، السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، ج٣، ص٥٧٥.

أفاد مالًا من هبة أو صدقة أو تجارة، قال فقلت له ذلك، قال فقال وهذه والله ليست من أبزارك هذه والله مما تحملها الإبل[١].

ومن ذلك أيضًا ما رواه الشيخ المفيد بإسناده عن حريز قال: دخلت على أبي حنيفة وعنده كتب كادت تحول فيما بينه وبيني، فقال لي هذه الكتب كلّها في الطلاق واليمين، فأقبل يقلّب بيديه، قال فقلت نحن نجمع هذا كلّه في كلمة واحدة في حرف، قال وما هو؟ قلت قوله {يا أيها النبيّ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة}[٢] فقال لي: فأنت لا تعمل شيئًا إلّا برواية؟ قلت أجل، فقال لي: ما تقول في مكاتب كانت مكاتبته ألف درهم وأدى تسعمائة وتسعة وتسعين ثمّ أحدث يعني الزنا كيف تحدّه؟ فقلت عندي بعينها حديث حدّثني محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنّ عليًّا عليه السلام كان يضرب بالسوط وبثلثه وبنصفه وببعضه بقدر استحقاقه، فقال لي أما إنّي أسألك عن مسألة لا يكون عندك فيها شيء ما تقول في جمل أخرج من البحر؟ فقلت إن شاء فليكن جملًا وإن شاء فبقرة إن كانت عليه فلوس أكلناه وإلّا فلا[٣].

٥- أساليب الإمام لحفظ الأصحاب:

كان الإمام الصادق عليه السلام يربي طلّابه على الاعتدال، ومداراة الآخرين ومناقشتهم، ومحاورتهم بالدليل والبرهان، حتى إذا ما اشتدّ عودهم وقويت حجّتهم وأخذوا من علوم الإمام عليه السلام ما يكفيهم للقيام بمهام الدعوى إلى الإسلام المحمّدي الصحيح، فحينئذ كان الإمام عليه السلام يأذن لهم بالخروج والانتشار بين الناس، وبهذا الأسلوب الربّانيّ على القاعدة القرآنيّة ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥). كان أصحاب الإمام عليه السلام على قدرٍ كبير من الاحترام والتقدير بين الخاصّة والعامّة، فمن هنا كان الجميع يرجعون إلى أصحاب الإمام عليه السلام في مسائلهم الدينيّة، وهذا ما تجلّى بشكلٍ

[١]- ابن إدريس، محمّد بن أحمد، السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، م.س، ص١٨٩ رقم ٢٢١.

[٢]- سورة الطلاق، الآية ٢.

[٣]- المفيد، محمّد بن محمّد (ت٤١٣ ه)، الاختصاص، ص٢٠٦.

كبير مع أبان بن تغلب عندما حظي بثقة الجميع، فحينها طلب منه الإمامعليه السلام أن يجلس في مسجد المدينة ويُفتي الناس، وكان الطلّاب كافّة يتزاحمون على حلقة درسه ويتركون الآخرين، وهذا ما سنراه في أقوال علماء العامّة، وخصوصًا الذهبيّ وهو المعروف بتعصّبه وبغضه لشيعة أهل البيتعليهم السلام، إلّا أنّه كان مرغمًا على ذكر فضائل أبان بن تغلب وتوثيقه، والأخذ بروايته، ويقول: «لو ردّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبويّة، وهذه مفسدة بيّنة[١].

ومع كلّ هذه العلاقة المميّزة بين أصحاب الإمامعليه السلام إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه لا يوجد خلاف في الآراء العلميّة والمسائل الفكريّة، فإنّهم وإن اتّفقوا على الأصول والأركان في كلّ علم، فإنّ هذا لا يمنع من الاختلاف في بعض الفروع والأجزاء، وقد يخالف بينهم الإمامعليه السلام لمصلحة يراها، بغية الحفاظ عليهم كما في روايات عدّة، منها:

ما رواه الشيخ الكليني بإسناده عن زرارة بن أعين عن أبي جعفرعليه السلام قال: «سألته عن مسألة فأجابني، ثم جاءه رجل فسأله عنها فأجابه بخلاف ما أجابني، ثم جاء رجل آخر فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، فلمّا خرج الرجلان قلت يا ابن رسول الله، رجلان من أهل العراق من شيعتكم قدما يسألان، فأجبت كلّ واحد منهما بغير ما أجبت به صاحبه، فقال: يا زرارة إنّ هذا خير لنا وأبقى لنا ولكم ولو اجتمعتم على أمر واحد لصدّقكم الناس علينا ولكان أقل لبقائنا وبقائكم، قال: ثمّ قلت لأبي عبد اللهعليه السلام: شيعتكم لو حملتموهم على الأسنّة أو على النار لمضوا وهم يخرجون من عندكم مختلفين قال: فأجابني بمثل جواب أبيه»[٢].

وبإسناده عن سالم أبي خديجة عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «سأله إنسان وأنا حاضر، فقال: ربما دخلت المسجد وبعض أصحابنا يصلّون العصر وبعضهم يصلّون الظهر، فقال: أنا أمرتهم بهذا لو صلّوا على وقت واحد عُرِفوا فأُخِذ برقابهم»[٣].

---

[١]- الذهبيّ، محمّد بن أحمد (ت٧٤٨)، ميزان الاعتدال، ج١، ص٥.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٦٥.

[٣]- م.ن، ج٣، ص٢٧٦.

وما رواه الشيخ الطوسيّ مرسلًا عن الصادق عليه السلام أنّه: «سُئل عن اختلاف أصحابه في المواقيت وغير ذلك؟ فقال عليه السلام: أنا خالفت بينهم»[١].

ثم الاختلاف في تلك الأمور أمرٌ إيجابيّ، ودليلٌ على حريّة الرأي بين أصحاب الإمام عليه السلام، بل كتب بعضهم كتبًا في ردّ آراء الآخر، فهشام بن الحكم له كتاب ردّ فيه على زميله هشام بن سالم وله كتاب آخر ردّ على زميله مؤمن الطاق[٢]. وكتب عبد الله بن جعفر الحميريّ القمّيّ كتابًا ما بين هشام بن الحكم وهشام بن سالم[٣].

ومن الإجراءات التي سلكها الإمام في هذا السياق لحفظ أصحابه سرّيّة العلاقة وعدم البوح؛ لأنّ الأجواء في زمن الإمام الصادق عليه السلام كانت صعبة وحرجة، وحكّام عصره لا يتورّعون عن ارتكاب أيّ حماقة بحقّ الإمام ومن حوله من أصحابه. فكان الإمام يفرض على أصحابه سرّيةً وتكتمًا شديدين فيما يتعلق باسم الإمام الفعليّ، ولم يكن عليه السلام يأذن لأحد بالتصريح به وتسميته أمام عامّة الناس، اللهم إلّا ما كان في الدائرة الضيّقة من خواص الشيعة؛ لأنّ ذلك فيه خطر عليهم قبل الخطر على الإمام. وما جرى مع هشام بن سالم في بعض المناسبات يُبيّن ذلك، فقد روى الشيخ الكشّي بإسناده عن هشام بن سالم قال: كلّمت رجلًا بالمدينة من بني مخزوم في الإمامة، قال: فقال: فمن الإمام اليوم قال: قلت: جعفر بن محمّد. قال: فقال: والله لأقولنّها له! قال: فغمّني بذلك غمًّا شديدًا خوفًا أن يلعنّي أبو عبد الله أو يتبرّأ منّي، قال: فأتاه المخزوميّ فدخل عليه، فجرى الحديث، قال: فقال له مقالة هشام، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: أفلا نظرت في قوله؟ فنحن لذلك أهل، قال: فبقي الرجل لا يدري أيش يقول! وقطع به، قال: فبلغ هشامًا قول أبي عبد الله عليه السلام ففرح بذلك وانجلت غَمّته[٤].

[١]- الطوسيّ، عدّة الأصول، م.س، ج١، ص ١٣٠.

[٢]- انظر: النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ص٤٣٣، رقم ١١٦٤.

[٣]- م.ن، ص٢١٩، رقم ٥٧٣.

[٤]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشي-، م.س، ص٢٨١.

رابعًا: أعلام مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ممن عُرف بالمناظرات واشتهر بالمحاججات

إنّ الحديث عن أصحاب الأئمّة عليهم السلام ممتعٌ وشيّق، وخصوصًا أصحاب الإمام الصادق عليه السلام؛ لما تميّزوا به من صفات وتنوّع وكثرة. وفي هذا المطلب، نقتصر بالإشارة إلى نماذج من هؤلاء النجباء، مع العلم أنّ بعض الروايات والأحداث مشتركة بين أكثر من شخص ممن سيرد ذكرهم، فلذا نقتصر على ذكر النصّ المشترك مرّة واحدة فقط، ومن خلاله يّتضح الغرض.

١. أبان بن تغلب

ذكره الشيخ النجاشيّ فقال: أبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكريّ الجريريّ... عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي عليّ بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله عليهم السلام، روى عنهم، وكانت له عندهم منزلة وقدم.. وقال له أبو جعفر عليه السلام: اجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فإني أحبّ أن يُرى في شيعتي مثلك. وقال أبو عبد الله عليه السلام لما أتاه نعيه: أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان. وكان قارئًا من وجوه القرّاء، فقيهًا، لغويًّا، سمع من العرب وحكى عنهم.. وكان أبان رحمه الله مقدّمًا في كلّ فنّ من العلم في القرآن والفقه والحديث والأدب واللغة والنحو، وله كتب: منها تفسير غريب القرآن وكتاب الفضائل.. ولأبان قراءة مفردة مشهورة عند القرّاء... وله كتاب صفّين... حدثنا أبان بن محمّد بن أبان بن تغلب قال: سمعت أبي يقول: دخلت مع أبي إلى أبي عبد الله عليه السلام، فلمّا بصر به أمر بوسادة فألقيت له، وصافحه واعتنقه وساءله ورحّب به.

وقال: وكان أبان إذا قدم المدينة تقوضت إليه الحلق[١]، وأخليت له سارية النبيّ صلى الله عليه وآله... عن عبد الرحمن بن الحجّاج قال: كنا في مجلس أبان بن تغلب فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد، أخبرني كم شهد مع عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله

---

[١]- تَقَوَّضَت الحَلَقُ والصُّفُوفُ، إذا انْتَقَضت وتَفَرَّقَت. وهي جَمعُ حلْقَة من النَّاس. الحسيني الزبيدي، محمد مرتضى (ت١٢٠٥ ه)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج١٠، ص١٤٥. والمعنى أنه إذا جاء إلى المدينة المنورة ودخل مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله الذي فيه الكثير من المدرّسين والطلاب فعندما يدخل أبان يتفرق الطلاب عن أساتذتهم ويلتحقون بحلقة درس أبان وهذا التصرّف منهم له بُعدٌ كبير.

قال: فقال له أبان: كأنّك تريد أن تعرف فضل عليّعليه السلام بمن تبعه من أصحاب رسول الله صلّى عليه وآله قال: فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلّا باتّباعهم إياه... قال: فقال أبان له: يا أبا البلاد، تدري من الشيعة؟! الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذوا بقول عليّعليه السلام، وإذا اختلف الناس عن عليّ أخذوا بقول جعفر بن محمّدعليه السلام.. عن صفوان بن يحيى وغيره، عن أبان بن عثمان عن أبي عبد اللهعليه السلام: أنّ أبان بن تغلب روى عني ثلاثين ألف حديث، فاروها عنه... وعن عبد الله بن خفقة قال: قال لي أبان بن تغلب: مررت بقوم يعيبون على روايتي عن جعفرعليه السلام، قال: فقلت: كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلّا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله... وعن سليم بن أبي حيّة قال: كنت عند أبي عبد اللهعليه السلام، فلما أردت أن أفارقه ودّعته وقلت: أحب أن تزوّدني، فقال: إيت أبان بن تغلب فإنّه قد سمع مني حديثًا كثيرًا فما روى لك فاروه عنّي. مات أبان في حياة أبي عبد اللهعليه السلام سنة إحدى وأربعين ومئة[١].

وترجم له الشيخ الطوسيّ، فقال: أبان بن تغلب أبو سعيد البكريّ الجريريّ... ثقة، جليل القدر، عظيم المنزلة في أصحابنا، لقي أبا محمّد عليّ بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد اللهعليهم السلام وروى عنهم، وكانت له عندهم حظوة وقدم. ولأبان رحمة الله عليه قراءة مفردة، أخبرنا بها أحمد بن محمّد بن موسى، قال: حدّثنا أحمد بن محمّد ابن سعيد، قال: حدثنا أبو بكر محمّد بن يوسف الرازي المقرئ بالقادسيّة سنة إحدى وثمانين ومائتين، قال: حدّثني أبو نعيم الفضل بن عبد الله ابن العبّاس بن معمر الأزدي الطالقانيّ، ساكن سواد البصرة سنة خمس وخمسين ومائتين بالريّ، قال: حدّثنا محمد بن موسى بن أبي مريم صاحب اللؤلؤ قال: سمعت أبان بن تغلب، وما أحد أقرأ منه يقرأ القرآن من أوّله إلى آخره، وذكر القراءة. ولأبان كتاب الفضائل... ومات أبان سنة إحدى وأربعين ومائة في حياة أبي عبد الله. ولأبان بن تغلب أصل[٢].

وترجم له علماء العامّة وأخذوا عنه العلم والرواية والقراءة، ومما قاله الذهبيّ في

---

[١]- النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ص١٠، رقم ٧.

[٢]- الطوسيّ، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، م.س، ص٤٤.

ميزان الاعتدال: أبان بن تغلب الكوفيّ شيعيّ جلد، لكنّه صدوق، فلنا صدقه وعليه بدعته، وقد وثّقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وأبو حاتم، وأورده ابن عديّ، وقال كان غاليًا في التشيّع...

فلقائل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع وحدُّ الثقة العدالة والإتقان؟ فكيف يكون عدلًا من هو صاحب بدعة؟ وجوابه أنّ البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلوّ التشيّع، أو كالتشيّع بلا غلوّ ولا تحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق. فلو ردّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبويّة، وهذه مفسدة بيّنة. ثمّ بدعة كبرى، كالرفض الكامل والغلوّ فيه، والحطّ على أبي بكر وعمر، والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة، وأيضًا فما أستحضر الآن في هذا الضرب رجلًا صادقًا ولا مأمونًا، بل الكذب شعارهم، والتقيّة والنفاق دثارهم، فكيف يقبل نقل من هذا حاله! حاشا وكلّا فالشيعيّ الغالي في زمان السلف وعرفهم هو من تكلّم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب عليًا، وتعرّض لسبّهم والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفّر هؤلاء السادة، ويتبرّأ من الشيخين أيضًا، فهذا ضال معثر ولم يكن أبان بن تغلب يعرض للشيخين أصلًا، بل قد يعتقد عليًّا أفضل منهما[١].

فالذهبي رغم تعصّبه وعناده وحقده على الشيعة، وخصوصًا على علمائهم، وقلّما كان منصفًا في حقّ خصومه، إلّا أنّه قال كلمة الحقّ وهو كاره.

وقال المزّيّ في تهذيب الكمال: «أبان بن تغلب الربعي، أبو سعد الكوفيّ القاري. روى عن: جعفر بن محمّد الصادق، وأبي جعفر محمد بن عليّ الباقر... قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه، وإسحاق بن منصور عن يحيى بن معين، وأبو حاتم والنسائيّ: ثقة. زاد أبو حاتم: صالح وقال أبو أحمد بن عدي: له أحاديث ونسخ، وعامّتها مستقيمة إذا روى عنه ثقة، وهو من أهل الصدق في الروايات، وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وهو معروف في الكوفيّين، وقد روى نحوًا من مئة حديث، وهو في الرواية صالح لا

---

[١]- الذهبيّ، ميزان الاعتدال، م.س، ج١، ص٥.

بأس به، قال أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه: مات سنة إحدى وأربعين ومئة روى له الجماعة، إلّا البخاري»[١].

ولم يكتفِ ابن حجر بذكر أبان والثناء عليه، بل دافع عنه ورد قول مَن طعن عليه. قال في تهذيب التهذيب: «أبان بن تغلب الربعيّ أبو سعد الكوفيّ... قال أحمد ويحيى وأبو حاتم والنسائيّ ثقة. زاد أبو حاتم وقال الجوزجاني زائغ مذموم المذهب مجاهر، وقال أبو بكر بن منجويه مات سنة (١٤١) وقال ابن عدي له نسخ عامّتها مستقيمة إذا روى عنه ثقة وهو من أهل الصدق في الروايات وإن كان مذهبه مذهب الشيعة وهو في الرواية صالح لا بأس به. قلت: هذا قول منصف، وأمّا الجوزجانيّ فلا عبرة بحطّه على الكوفيّين، فالتشيّع في عرف المتقدّمين هو اعتقاد تفضيل عليّ على عثمان، وأنّ عليًّا كان مصيبًا في حروبه وأنّ مخالفه مخطئٌ مع تقديم الشيخين وتفضيلهما، وربما اعتقد بعضهم أنّ عليًّا أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا كان معتقد ذلك ورعًا ديّنًا صادقًا مجتهدًا، فلا تردّ روايته بهذا لا سيّما إن كان غير داعية. وأمّا التشيع في عرف المتأخّرين، فهو الرفض المحض فلا تقبل رواية الرافضيّ الغالي ولا كرامة. وقال ابن عجلان ثنا أبان بن تغلب رجل من أهل العراق من النساك ثقة. ولما خرّج الحاكم حديث أبان في مستدركه قال كان قاصّ الشيعة وهو ثقة ومدحه ابن عيينة بالفصاحة والبيان وقال أبو نعيم في تاريخه مات سنة (١٤٠) وكان غاية من الغايات، وقال أحمد بن سيار مات بعد سنة (١٤١)، وقال العقيليّ: سمعت أبا عبد الله يذكر عنه عقلًا وأدبًا وصحّة حديث إلّا أنّه كان غاليًا في التشيّع، وقال ابن سعد كان ثقة وذكره ابن حبان في الثقات وأرخ وفاته ومنه نقل ابن منجويه، وقال الأزدي كان غاليًا في التشيّع وما أعلم به في الحديث بأسًا»[٢].

وقد روى عنه العامّة في كتبهم الصحاح والمسانيد والسنن، كأحمد بن حنبل في مسنده، والدارمي في سننه، ومسلم في صحيحه، وابن ماجه وأبو داود والترمذيّ والنسائي في

[١]- المزّيّ، الحافظ جمال الدين أبو الحجّاج (ت٧٤٢ ه)، تهذيب الكمال، ج٢، ص٦.

[٢]- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمّد(ت٨٥٢ هـ)، تهذيب التهذيب، ج١، ص٨١.

سننهم. وأمّا البخاري فإنّ تعصّبه وحنقه على كلّ شيعيّ موالٍ لآل البيت عليهم السلام حمله على ترك الرواية عنه.

٢. حمران بن أعين

حمران بن أعين الشيبانيّ، أبو الحسن، هو الآخر من الشخصيّات المميّزة، ومن بيت معروف بالفقه والعلم والولاء لأهل البيت عليهم السلام، ومن الذين كانوا حول الأئمّة عليهم السلام، فهو من التابعين كما هو صريح الشيخ الطوسيّ[١]، ومن حواريّي الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[٢]، ومن خواصّهما، وكان قد لقي الإمام السجّاد علّي بن الحسين عليهما السلام كما نصّ على ذلك أبو غالب الزراريّ في رسالته[٣]. وكان قد تعرّف على التشيّع من أحد كبار حواريّي الأئمّة عليهم السلام وهو أبو خالد الكابليّ[٤]. وحمران هو أخو زرارة وأكبر منه، وكان معروفًا عند الإمام الباقر عليه السلام قبل زرارة وعندما التقى زرارة بالإمام عليه السلام عرفه بالشّبه أنّه أخو حمران. فقد روى الشيخ الكشّيّ بإسناده عن زرارة أنّه قال: «قدمت المدينة وأنا شاب أمرد، فدخلت سرادقًا لأبي جعفر عليه السلام بمنى، فرأيت قومًا جلوسًا في الفسطاط وصدر المجلس ليس فيه أحد، ورأيت رجلًا جالسًا ناحية يحتجم، فعرفت برأيي أنّه أبو جعفر عليه السلام، فقصدت نحوه فسلّمت عليه، فردّ السلام عليّ، فجلست بين يديه والحجّام خلفه، فقال أمن بني أعين أنت؟ فقلت: نعم، أنا زرارة بن أعين، فقال إنّما عرفتك بالشبه، أحجّ حمران؟ قلت: لا، وهو يقرئك السلام، فقال إنّه من المؤمنين حقًّا لا يرجع أبدًا، إذا لقيته فأقرئه منّي السلام!...»[٥].

وهذا يُبيّن إلى أي حدّ كانت منزلة حمران عند الإمام، وكم كان الإمام يتشوّق للقاء به.

ووصفه أبو غالب في رسالته بقوله: «وكان حمران من أكبر مشايخ الشيعة المفضّلين الذين لا يشكّ فيهم. وكان أحد حملة القرآن ومن يعدّ ويذكر اسمه في كتب القرّاء.

---

[١]- الطوسيّ، محمّد بن الحسن (ت٤٦٠ ه)، رجال الطوسيّ، ص١٩٤.

[٢]- انظر: الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص٩.

[٣]- أبوغالب الزراري، أحمد بن محمّد (ت٣٦٨ ه)، رسالة أبي غالب الزراري إلى ابن ابنه في ذكر آل أعين، ص١١٣.

[٤]- انظر: م.ن، ص١٣٥.

[٥]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشي-، م.س، ص١٧٨، وفي رواية أخرى الراوي فيها هو بكير بن أعين ومضمونها مشابه جدًّا يلاحظ المصدر نفسه ص١٧٩.

وروي أنّه قرأ على أبي جعفر محمّد بن عليّعليه السلام. وكان مع ذلك عالمًا بالنحو واللغة»[١].

وكان ثقةً معتمدًا عليه عند الخاصّة والعامّة، فقد ذكره ابن حبان في كتابه الثقات[٢]، وأخرج له أحمد بن حنبل في مسنده[٣]، كذلك ابن ماجه في سننه[٤]. ووصفه ابن النديم في فهرسه بأنّه كان نحويًّا[٥]. ولم يكن من حملة القرآن فحسب، بل كان من القرّاء الذين تُشدّ إليهم الرحال، فقد أخذ عنه القراءة حمزة بن حبيب الزيّات أحد القرّاء السبعة[٦].

وورد في حقّ حمران العديد من الرويات، منها:

ما رواه الشيخ الكشّيّ بإسناده «عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم، عن حجر بن زائدة، عن حمران بن أعين، قال: قلت لأبي جعفرعليه السلام إنّي أعطيت الله عهدًا، لا أخرج من المدينة حتى تخبرني عمّا أسألك! قال، فقال لي سل! قال، قلت أمن شيعتكم أنا قال نعم في الدنيا والآخرة»[٧].

وفي رواية أخرى عن أبي عبد اللهعليه السلام أنّه قال في حمران إنّه رجلٌ من أهل الجنّة[٨].

وفي ثالثة أنّهعليه السلامكان يقول: «حمران بن أعين مؤمن لا يرتدّ والله أبدًا»[٩].

عن زيد الشحّام، قال قال لي أبو عبد اللهعليه السلام ما وجدت أحدًا أخذ بقولي وأطاع أمري وحذا حذو أصحاب آبائي غير رجلين رحمهما الله: عبد الله بن أبي يعفور وحمران بن أعين، أما إنّهما مؤمنان خالصان من شيعتنا، أسماؤهم عندنا في

---

[١]- أبوغالب الزراريّ، رسالة أبي غالب الزراريّ، م.س، ص١١٣.

[٢]- ابن حبّان، محمّد بن حبّان (ت٣٥٤ ه)، الثقات، ج٤، ص١٧٩.

[٣]- ابن حنبل، أحمد (ت٢٤١ هـ)، مسند أحمد، ج٣٨، ص٢٤٨، رقم٢٣١٩٥.

[٤]- ابن ماجة، أبي عبدالله محمد بن يزيد القزوينيّ (ت٢٧٣ هـ)، سنن الحافظ، ج٣، ص٧١، رقم١٥٣٦؛ ج٤، ص٥٤٩، رقم ٣١١٩.

[٥]- ابن النديم، محمد بن إسحاق النديم الورّاق البغداديّ (ت٤٣٨هـ)، فهرست ابن النديم، ص٢٧٦.

[٦]- انظر: كتاب الجرح والتعديل ج٣ ص٢١٠؛ المزي، تهذيب الكمال، م.س، ج٧، ص٣٠٦، رقم ١٤٩٧؛ الذهبيّ، ميزان الاعتدال، م.س، ج١، ص٦٠٤، رقم٢٢٩٢.

[٧]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٧٦ -١٧٧.

[٨]- م.ن، ص١٧٦.

[٩]- م.ن.

كتاب أصحاب اليمين الذي أعطى الله محمّدًا[١].

«عن هشام بن الحكم، قال سمعته يقول حمران مؤمن لا يرتدّ أبدًا، ثم قال: نعم الشفيع أنا وآبائي لحمران بن أعين يوم القيامة، فآخذ بيده ولا نزايله حتى ندخل الجنّة جميعًا»[٢].

وعن صفوان، قال: كان يجلس حمران مع أصحابه فلا يزال معهم في الرواية عن آل محمّد صلى الله عليه وآله، فإن خلطوا في ذلك بغيره ردّهم إليه، فإن صنعوا ذلك عدل ثلاث مرات قام عنهم وتركهم[٣].

ملاحظة: ظنّ البعض أنّ عدم ذكر الشيخ النجاشيّ له في كتابه هو مؤشّرٌ سلبيّ، والصّحيح أنّ ذلك كان بسبب عدم وجود مصنَّف لحمران أو كتاب حتى يكون داخلًا في موضوع كتاب الفهرس؛ لأنّ كتب الفهارس موضوعها مَن كان مؤلِّفًا وصاحب كتاب، وكذلك فعل الشيخ الطوسي في كتابه الفهرس علمًا أنّه ذكره في رجاله؛ لأنّه داخل في موضوعه.

٣- زرارة بن أعين

ذكره الشيخ النجاشيّ بقوله: «زرارة بن أعين بن سنسن أبو الحسن، شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم، وكان قارئًا فقيهًا متكلّمًا شاعرًا أديبًا، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقًا فيما يرويه...»[٤].

ونقل أبو غالب الزراريّ في رسالته وصفه بقوله: «وروي أنّ زرارة كان وسيمًا جسيمًا أبيضَ، وكان يخرج إلى الجمعة وعلى رأسه برنس أسود وبين عينيه سجادة وفي يده عصا، فيقوم له الناس سماطين ينظرون إليه لحسن هيئته، فربما رجع عن طريقه. وكان خصمًا جدلًا لا يقوم أحد لحجّته إلّا أنّ العبادة أشغلته عن الكلام، والمتكلّمون من الشيعة

---

[١]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ، ص١٨٠.

[٢]- م.ن.

[٣]- م.ن، ص١٧٩.

[٤]- النجاشي، رجال النجاشي، م.س، ص١٧٥، رقم ٤٦٣.

تلاميذه، ويقال إنّه عاش سبعين[١] سنة»[٢].

وأمّا منزلة زرارة بن أعين عند الأئمّةعليهم السلام، فقد وُصف في كلماتهم خصوصًا من الإمام الصادقعليه السلام بأوصاف عدّة في العديد من الروايات قلّما وجدت هذه الأوصاف في شخص غيره وإن شاركه في بعضها، بل في أكثرها بعض أقرانه.

منها: أنّه من حواريّي الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام[٣]، وأنّه من أعلام الدين أوتاد الأرض[٤]، وأنّه من المخبتين بالجنّة ومن نجباء الله على حلاله وحرامه ولولا أربعة هو منهم انقطعت أثار النبوّة واندرست[٥]، وأنّه من القوّامين بالقسط ومن الصادقين المقرّبين[٦]، وأنّه من أحبّ الناس إلى الإمام الصادقعليه السلام أحياء وأمواتًا[٧]، وأنّه كان يرشد الناس للرجوع إليه لمعرفته أحاديث أهل البيتعليهم السلام[٨]، وأنّه كان من الذين أحيوا ذكر أئمّة أهل البيتعليهم السلام وأحاديث الإمام الباقرعليه السلام ومن أمنائه على حلاله وحرامه ومن السابقين في الدنيا والآخرة[٩]، وعيبة علمه ومستودع سّره ومن حفظة الدين وبه وبأمثاله كان الله يصرف عن أهل الأرض السوء، وهو من نجوم شيعة الإمامعليه السلام حيًّا وميتًا وبه وبأقرانه يكشف الله كلّ بدعه وكان من الذين ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأول الغالين[١٠].

وإن قلت: فقد روي في حقّه روايات ذامّة، بل في بعضها يخرجه الإمام عن الملّة والدين.

قلت: إنّ الإمامعليه السلام قد شرح لنا وبيّن السبب في ذلك، وإلّا من غير المعقول

[١]- وفي بعض النسخ: تسعين.

[٢]- أبو غالب الزراريّ، رسالة أبي غالب الزراريّ، م.س، ص١٣٦.

[٣]- الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص٩.

[٤]- م.ن، ص٢٣٨.

[٥]- م.ن، ص١٧٠؛ ص١٣٦.

[٦]- م.ن، ص١٧٠؛ ص١٣٦.

[٧]- م.ن، ص١٣٥.

[٨]- م.ن، ص١٣٥.

[٩]- م.ن، ص١٣٦.

[١٠]- م.ن، ص١٣٧.

أنّ شخصيّة مثل زرارة وبهذه المنزلة من العلم والفقه والعبادة والوفاء والإخلاص للأئمّة عليهم السلام يصدر في حقّه مثل هذا الكلام، وإنّما كان ذلك بسبب شدّة التقيّة، لأنّه كان من أهل الكوفة وسكّانها والشائع في الكوفة مذهب مخالف لأهل البيت عليهم السلام وحكّام ذلك العصر كانوا يتربّصون بمن يواليهم الدوائر ويأخذونهم على الظنّ والتهمة ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (التوبة: ٨).

يروي الشيخ الكشّيّ بأكثر من سند عن عبد الله بن زرارة، قال، قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ مني على والدك السلام، وقل له إنّي إنّما أعيبك دفاعًا منّي عنك، فإنّ الناس والعدوّ يسارعون إلى كلّ من قرّبناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى في من نحبّه ونقرّبه، ويرمونه لمحبّتنا له وقربه ودنوّه منّا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كلّ من عبناه نحن وإن نحمد أمره، فإنّما أعيبك لأنّك رجلٌ اشتهرت بنا ولميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر لمودّتك لنا وبميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك، يقول الله جل وعز: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف: ٧٩) يأخذ كلّ سفينة (صالحة) غصبًا، هذا التنزيل من عند الله صالحة، لا والله ما عابها إلّا لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعيب منها مساغ والحمد لله، فافهم المثل يرحمك الله فإنّك والله أحب الناس إلي وأحب أصحاب أبي عليه السلام حيًّا وميتًا، فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وأن من ورائك ملكًا ظلومًا غصوبًا يرقب عبور كلّ سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليأخذها غصبًا ثمّ يغصبها وأهلها، ورحمة الله عليك حيًّا ورحمته ورضوانه عليك ميتًا، ولقد أدّى إليّ ابناك الحسن والحسين رسالتك، حاطهما الله وكلأهما ورعاهما وحفظهما بصلاح أبيهما كما حفظ الغلامين، فلا يضيقن صدرك من الذي أمرك أبي عليه السلام وأمرتك به، وأتاك أبو بصير بخلاف الذي أمرناك به، فلا والله ما أمرناك ولا أمرناه إلّا بأمر وسعنا ووسعكم الأخذ به، ولكلّ ذلك عندنا تصاريف ومعان توافق الحقّ، ولو أذن لنا لعلمتم أنّ الحقّ في الذي أمرناكم به، فردّوا إلينا الأمر وسلّموا لنا واصبروا لأحكامنا وارضوا بها، والذي فرّق بينكم فهو راعيكم الذي استرعاه الله خلقه،

وهو أعرف بمصلحة غنمه في فساد أمرها، فإن شاء فرّق بينها لتسلم ثمّ يجمع بينها لتأمن من فسادها وخوف عدوّها في آثار ما يأذن الله، ويأتيها بالأمن من مأمنه والفرج من عنده، عليكم بالتسليم والردّ إلينا وانتظار أمرنا وأمركم وفرجنا وفرجكم، ولو قد قام قائمنا وتكلّم متكلّمنا ثمّ استأنف بكم تعليم القرآن وشرائع الدين والأحكام والفرائض كما أنزله الله على محمّد صلى الله عليه وآله لأنكر أهل البصائر فيكم ذلك اليوم إنكارًا شديدًا...»[١].

فهذا نصٌّ صريح من الإمامعليه السلام في بيان الحكمة من كلّ ما صدر منه بحقّ زرارة وأمثاله من ذمٍّ أو طعنٍ وما شابه.

وقد عدّه الشيخ الكشّيّ في تسمية الفقهاء من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد اللهعليهما السلام، ومن الذين اجتمعت العصابة على تصديقهم وانقادوا لهم بالفقه، وهم ستّة: أوّلهم زرارة وأفقههم[٢] وهذا ما اشتهر عند المتأخّرين باسم أصحاب الإجماع. ويصفه تلميذه جميل بن درّاج عندما قال له محمّد بن أبي عمير، ما أحسن محضرك وأزين مجلسك! فقال: «إي والله ما كنا حول زرارة بن أعين إلّا بمنزلة الصبيان في الكتّاب حول المعلم»[٣].

ولم يكن زرارة محبًّا ومخلصًا لأهل البيتعليهم السلام فحسب، بل كان قلبه مفعمًا بالحبّ والوفاء للموالين للأئمّةعليهم السلام، فقد روى عبد الله بن بكير عنه أنّه قال: "لوددت أنّ كلّ شيء في قلبي في قلب أصغر إنسان من شيعة آل محمّدعليهم السلام"[٤]. ولزرارة مصنّفات عدّة ذكر الأصحاب بعضها في فهارسهم[٥].

وأمّا وفاته، فقد صرّح الشيخان النجاشيّ والطوسيّ بأنّها كانت سنة مئة وخمسين بعد شهادة الإمام الصادقعليه السلام[٦]. بينما ذكر الشيخ الكشّيّ أنّه: «مات بعد أبي عبد اللهعليه السلام بشهرين أو أقلّ، وتوفي أبو عبد اللهعليه السلام وزرارة مريض مات في مرضه

[١]- الطوسيّ، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٣٨.

[٢]- م.ن، ص٢٣٨.

[٣]- م.ن، ص١٣٤.

[٤]- م.ن، ص١٧٨.

[٥]- انظر: الطوسيّ، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، م.س، ص٢٠٩؛ النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ص١٧٥.

[٦]- النجاشي، رجال النجاشي، م.س، ص١٧٥؛ الطوسي، رجال الطوسي، م.س، ص٢١٠.

ذلك»[١]. وشهادة الإمام الصادقعليه السلام كانت سنة ١٤٨ هـ..

٤. محمد بن مسلم

وصفه الشيخ النجاشيّ بقوله: «محمّد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحّان مولى ثقيف الأعور، وجه أصحابنا بالكوفة، فقيه، ورع، صحب أبا جعفر وأبا عبد اللهعليهما السلام، وروى عنهما وكان من أوثق الناس. له كتاب يسمّى الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام... ومات محمّد بن مسلم سنة خمسين ومائة»[٢].

كان عالمًا فقيهًا وعابدًا ومتواضعًا مطيعًا لإمامه فيما يأمره به، ولشدّة تسليمه وإطاعته لإمامه كان يأتمر ويلتزم بما يطلبه منه ولو كان على خلاف رغبته، وهذا كان واضحًا عندما أشار إليه الإمام الباقرعليه السلام أن يتواضع، فعندما رجع إلى بلده الكوفة غيّر من أسلوب حياته، فقد روى الشيخان الكشّيّ والمفيد بإسناديهما أنّ محمّد بن مسلم «كان رجلًا شريفًا موسرًا، فقال له أبو جعفرعليه السلام تواضع يا محمّد! فلمّا انصرف إلى الكوفة أخذ قوصرة من تمر مع الميزان وجلس على باب مسجد الجامع وجعل ينادي عليه، فأتاه قومه فقالوا له فضحتنا، فقال إنّ مولاي أمرني بأمر فلن أخالفه ولن أبرح حتى أفرغ من بيع باقي هذه القوصرة، فقال له قومه إذ أبيت إلّا لتشتغل ببيع وشراء فاقعد في الطحّانين! فهيّأ رحى وجملًا وجعل يطحن، وقيل إنّه كان من العبّاد في زمانه»[٣].

ومحمّد بن مسلم لم يكن من المتكبّرين، ولكنّه كان موسرًا وصاحب ثروة ماليّة، فلعلّ بعض الناس كان يتعامل معه كما يتعامل مع الأغنياء، ويُنظر إليه من قبل الناس على أنّه من طبقة خاصّة بالمجتمع، وهذا الأمر قد يبعده عن طبقة الفقراء والمحتاجين في بلده الكوفة، وهم في الأغلب من الموالين للأئمّةعليهم السلام، وبالتالي فهو لا يطّلع على أحوالهم، ولا يقدّم لهم المعونات الماليّة. فقد يكون قصد الإمامعليه السلام بالتواضع هو هذا المعنى، بأن يكون قريبًا من الطبقة المحرومة وأن يكون أصحابه قدوةً للآخرين وقريبين من الناس، أو لعلّ الإمامعليه السلام خشي عليه من أن يقع في فخّ الغرور والعجب فيهلك، فأراد أن

---

[١]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٤٢.

[٢]- النجاشي، رجال النجاشيّ، م.س، ص٣٢٣، رقم ٨٨٢.

[٣]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٦٥؛ انظر: المفيد، الاختصاص، م.س، ص٥١.

يبعده عن المهالك، وهذا فيه إعانة له ولسائر أصحاب الإمامعليه السلام على الجهاد الأكبر ولنشر علوم آل البيت بين سائر طبقات الناس.

ولتلك الصفات والفضائل التي كان محمّد بن مسلم يتميّز بها كان مورد احترام وتقدير واعتماد ووثاقة عند عامّة المسلمين من الشيعة والسنّة، وروى عنه العامّة[١] في كتبهم، واعتمدوا عليه في نقل الأحاديث رغم تشدّدهم في الرواية عن الموالين للأئمّةعليهم السلام.

ومحمّد بن مسلم يشبه زرارة إلى حدّ كبير فيما وصفه به الإمامعليه السلام من أنّه: من حواريّي الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام[٢]، وأنّه من أعلام الدين أوتاد الأرض[٣]، وأنه من المخبتين بالجنّة ومن نجباء الله على حلاله وحرامه ولولا أربعة هو منهم انقطعت آثار النبوّة واندرست[٤]، وأنّه من القوّامين بالقسط ومن الصادقين المقرّبين[٥]، وأنّه من أحبّ الناس إلى الإمام الصادقعليه السلام أحياء وأمواتًا[٦]، وأنّه كان من الذين أحيوا ذكر أئمّة أهل البيتعليهم السلام وأحاديث الإمام الباقرعليه السلام ومن أمنائه على حلاله وحرامه ومن السابقين في الدنيا والآخرة[٧]، وعيبة علمه، ومستودع سرّه، ومن حفظة الدين، وبه وبأمثاله كان الله يصرف عن أهل الأرض السوء، وهو من نجوم شيعة الإمامعليه السلام حيًّا وميتًا، وبه وبأقرانه يكشف الله كلّ بدعة، وكان من الذين ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأوّل الغالين[٨].

ولأنّ محمّد بن مسلم كانت له منزلة رفيعة عند الأئمّةعليهم السلام، وكان يغبطه عليها كثير من الأصحاب، فقد برزت هذه المنزلة في مناسبات عدّة، منها ما رواه الشيخان الكشّيّ والمفيد بإسنادهما عن محمّد بن مسلم - واللّفظ للأوّل - أنّه قال: «خرجت إلى المدينة

[١]- انظر: البرقيّ، أحمد بن محمد (ت٢٧٤ ه)، رجال البرقيّ، ص١٧.

[٢]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص٩.

[٣]- م.ن، ص٢٣٨.

[٤]- م.ن، ص١٧٠؛ ص١٣٦.

[٥]- م.ن، ص١٧٠؛ ص١٣٦؛ المفيد، الاختصاص، م.س، ص٦٦.

[٦]- الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٣٥.

[٧]- الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٣٦؛ المفيد، الاختصاص، م.س، ص٦٦.

[٨]- الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٣٧.

وأنا وجع ثقيل، فقيل له محمّد بن مسلم وجع، فأرسل إليّ أبو جعفر بشراب مع الغلام مغطّى بمنديل، فناولنيه الغلام وقال لي اشربه فإنّه قد أمرني ألّا أرجع حتى تشربه، فتناولته فإذا رائحة المسك منه وإذا شراب طيّب الطعم بارد، فلمّا شربته قال لي الغلام يقول لك إذا شربت فتعال! ففكرت فيما قال لي ولا أقدر على النهوض قبل ذلك على رجلي، فلما استقرّ الشراب في جوفي كأنّما نشطت من عقال، فأتيت بابه فاستأذنت عليه، فصوَّت بي صحّ الجسم ادخل ادخل! فدخلت وأنا باكٍ فسلّمت عليه وقبّلت يده ورأسه، فقال لي وما يبكيك يا محمّد، فقلت جعلت فداك أبكي على اغترابي وبعد الشقّة وقلّة المقدرة على المقام عندك والنّظر إليك، فقال لي: أمّا قلّة المقدرة: فكذلك جعل الله أولياءنا وأهل مودّتنا، وجعل البلاء إليهم سريعًا، وأما ما ذكرت من الغربة: فلك بأبي عبد الله أسوة بأرض ناء عنّا بالفرات عليه السلام وأمّا ما ذكرت من بعد الشقّة: فإنّ المؤمن في هذه الدار غريب وفي هذا الخلق المنكوس حتّى يخرج من هذه الدار إلى رحمة الله، وأما ما ذكرت من حبّك قربنا والنظر إلينا وإنّك لا تقدر على ذلك: فالله يعلم ما في قلبك وجزاؤك عليه»[١].

ولقرب منزلته عند الإمام عليه السلام واعتماده عليه، كان الإمام يُرجع الموالين إليه فيما يحتاجونه من أمور دينهم، خصوصًا لمن كان بعيدًا عن مكان إقامة الإمام عليه السلام.

روى الشيخ الكشّيّ بإسناده عن العلاء بن رزين، عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنّه ليس كلّ ساعة ألقاك ولا يمكن القدوم، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني وليس عندي كلّما يسألني عنه، قال: فما يمنعك من محمّد بن مسلم الثقفي فإنّه قد سمع من أبي وكان عنده وجيهًا»[٢].

وروى أيضًا بإسناده عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، قال: «أقام محمّد بن مسلم بالمدينة أربع سنين يدخل على أبي جعفر عليه السلام يسأله، ثم كان يدخل على جعفر بن محمّد يسأله، قال قال أبو أحمد[٣]: فسمعت عبد الرحمن بن الحجّاج وحمّاد بن عثمان

[١]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال ـ رجال الكشّيّ ـ، م.س، ص١٦٧؛ المفيد، الاختصاص، م.س، ص٥٢.

[٢]- م.ن، ص١٦١.

[٣]- أبو احمد كنية ابن أبي عمير وهو الراوي عنهما.

يقولان ما كان أحد من الشيعة أفقه من محمّد بن مسلم، قال، فقال محمّد بن مسلم سمعت من أبي جعفرعليه السلام ثلاثين ألف حديث، ثمّ لقيت جعفرًا ابنه، فسمعت منه، أو قال سألته عن ستة عشر ألف حديث، أو قال مسألة»[١].

بل كان محمّد بن مسلم مرجعًا في حال التنازع بين كبار أصحاب الإمامعليه السلام، فقد روى الشيخ المفيد بإسناده عن ابن أبي عمير أنّ هشام بن سالم قال له: «ما اختلفت أنا وزرارة قط فأتينا محمّد بن مسلم فسألناه عن ذلك إلّا قال لنا قال أبو جعفرعليه السلام فيها كذا وكذا وقال أبو عبد اللهعليه السلام فيها كذا وكذا»[٢].

حتى أنّ أبا حنيفة ورغم منزلته في الكوفة، فإنه كان المرجع في الأحكام الشرعيّة لشريحةٍ كبيرةٍ من الناس، كان هو يُرجع بعضهم إلى محمّد بن مسلم عندما لا يجد جوابًا على بعض المسائل، فقد روى الشيخان الكشّيّ والمفيد بإسناديهما -واللفظ للثاني- عن عبد الله بن بكير عن محمّد بن مسلم قال: «إنّي ذات ليلة لنائم على السطح؛ إذ طرق الباب طارق، فقلت من هذا، فقال أشرف رحمك الله، فأشرفت، فإذا امرأة، فقالت لي ابنة عروس يضربها الطلق[٣] فما زالت تطلق حتى ماتت والولد يتحرّك في بطنها ويذهب ويجيء فما أصنع، فقلت لها يا أمة الله، سئل محمّد بن عليّ بن الحسين الباقرعليه السلام عن مثل هذا، فقال يشقّ بطن الميّت ويستخرج الولد، يا أمة الله، افعلي مثل ذلك، يا أمة الله، إني رجل في ستر من وجّهك إليّ، قالت لي رحمك الله جئت إلى أبي حنيفة صاحب الرأي فقال لي ما عندي فيها شيء، ولكن عليك بمحمّد بن مسلم الثقفيّ فإنّه يخبرك فما أفتاك به من شيء فعودي إليّ فأعلمنيه، فقلت لها امضي بسلام، فلما كان الغد خرجت إلى المسجد فإذا أبو حنيفة يسأل أصحابه عنها، فتنحنحت فقال اللهم غفرًا[٤] دعنا نعيش»[٥].

[١]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشي-، م.س، ص١٦٧؛ ص١٦٣؛ انظر: المفيد، الاختصاص، م.س، ص٢٠١.

[٢]- المفيد، الاختصاص، م.س، ص٥٣.

[٣]- الطلق: وجع الولادة.

[٤]- الغفر: الستر.

[٥]- المفيد، الاختصاص، م.س، ص٢٠٣؛ الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٦٢.

٥- مؤمن الطاق

مؤمن الطاق، هو محمّد بن عليّ بن النُعمان بن أبي طُرَيْفَة الكوفيّ البجليّ، كنيته أبو جعفر، وكان يُلقّب بالأحول وبمؤمن الطاق، وصاحب الطاق، وكانت الصيرفة مهنته التي يرتزق منها، وكان له دكّان في طاق المحامل بالكوفة، ولذلك لقّب بمؤمن الطاق، أمّا المخالفون فكانوا يلقّبونه بشيطان الطاق نكاية به وحقدًا عليه.

كان له في العلم منزلةً عاليةً، فكان فقيهًا مناظرًا لا يُشقُّ له غبار، متكلّمًا حاذقًا وكان من الفصحاء البلغاء، لا يُطاوَل في النّظر والجدال في الإمامة، حاضر الجواب، كثير العلم، وإنّ منزلته في العلم أشهر من أن يُعرّف بها.

يُعدُّ مؤمن الطاق من المُتكلّمين البارعين، كما يُعدُّ من ثُقات المُحدِّثين، فقد روى عن الإمامين محمّد بن عليّ الباقر وجعفر بن محمّد الصادقعليهما السلام. ونسب له خصومه وأعداؤه الكثير من الافتراءات والأكاذيب والآراء الباطلة والأقوال المنكرة، حتى وصل بهم الأمر أن جعلوا له مذهبًا وفرقة خاصّة به[١].

ترجم له الشيخ النجاشيّ بقوله: «محمّد بن عليّ بن النعمان بن أبي طريفة البجليّ مولى، الأحول أبو جعفر، كوفيّ، صيرفيّ، يلقّب مؤمن الطاق وصاحب الطاق، ويلقّبه المخالفون شيطان الطاق... وكان دكّانه في طاق المحامل بالكوفة، فيرجع إليه في النقد، فيرد ردًا يخرج كما يقول، فيُقال شيطان الطاق. فأمّا منزلته في العلم وحسن الخاطر فأشهر، وقد نسب إليه أشياء لم تثبت عندنا، وله كتاب افعل لا تفعل، رأيته عند أحمد بن الحسين بن عبيد الله رحمه الله كتاب كبير حسن،[٢] وقد أدخل فيه بعض المتأخّرين أحاديث تدلّ فيه على فساد..، ويذكر تباين أقاويل الصحابة. وله كتاب الاحتجاج في إمامة أمير المؤمنينعليه السلام، وكتاب كلامه على الخوارج، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة

[١]- انظر: الأشعريّ، علي بن إسماعيل (ت٣٢٤ ه)، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، ج١، ص٣٧؛ البلخي، أحمد بن سهل (ت٥٠٧ هـ)، البدء والتاريخ، ج٥، ص١٣٢.

[٢]- انظر: البغدادي، أحمد بن حسين الواسطيّ، الرجال (لابن الغضائريّ)، ص١٢٤، رقم٥٨.

والمرجئة، وكانت له مع أبي حنيفة حكايات كثيرة، فمنها أنّه قال له يومًا يا أبا جعفر تقول بالرجعة فقال له: نعم، فقال له: أقرضني من كيسك هذا خمسمائة دينار فإذا عدت أنا وأنت رددتها إليك فقال له في الحال: أريد ضمينًا يضمن لي أنّك تعود إنسانًا، فإنّي أخاف أن تعود قردًا فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت منّي»[١].

ووصفه الشيخ الطوسيّ في الفهرس بقوله: «وكان متكلّمًا، حاذقًا، حاضر الجواب. له كتب، منها: كتاب الإمامة، وكتاب المعرفة، وكتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول، وكتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة، وكتاب في إثبات الوصيّة، وكتاب افعل لا تفعل[٢]. ووثّقه في رجاله»[٣].

ووصفه الشيخ المفيد بقوله: «وكان من متكلّمي الشيعة مدحه أبو عبد اللهعليه السلام على ذلك»[٤].

وبإسناده عن أبي عبد اللهعليه السلام أنّه قال: «أربعة أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتًا، بريد بن معاوية العجليّ وزرارة بن أعين ومحمّد بن مسلم وأبو جعفر الأحول، أحبّ الناس إليّ أحياء وأمواتًا»[٥].

وبإسناده عن أبي خالد الكابليّ، قال: «رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة قد قطع أهل المدينة أزراره وهو دائب[٦] يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه فقلت إنّ أبا عبد الله ينهانا عن الكلام، فقال أمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا والله، ولكن أمرني أن لا أكلّم أحدًا، قال فاذهب فأطعه فيما أمرك، فدخلت على أبي عبد اللهعليه السلام فأخبرته بقصّة صاحب الطاق وما قلت له وقوله لي اذهب وأطعه فيما أمرك، فتبسّم أبو عبد

[١]- النجاشيّ، رجال النجاشيّ، م.س، ص٣٢٥، رقم ٨٨٦.

[٢]- الطوسيّ، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، م.س، ص٣٨٨، رقم ٥٩٥.

[٣]- الطوسيّ، رجال الطوسيّ، م.س، ص٣٤٣.

[٤]- المفيد، الاختصاص، م.س، ص٢٠٤.

[٥]- الطوسيّ، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٨٥.

[٦]- الدائب: من كان في جد وتعب وهو مشدود بالمناظرة والمجادلة والسؤال والجواب.

الله عليه السلام وقال يا أبا خالد إنّ صاحب الطاق يكلّم الناس فيطير وينقض، وأنت إن قصّوك لن تطير»[١].

وبإسناده عن إسماعيل بن عبد الخالق، قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام ليلًا فدخل عليه الأحول فدخل به من التذلّل والاستكانة أمر عظيم، فقال له أبو عبد الله عليه السلام ما لك وجعل يكّلمه حتى سكن، ثمّ قال له بما تخاصم الناس، قال فأخبره بما يخاصم الناس، ولم أحفظ منه ذلك فقال أبو عبد الله عليه السلام خاصمهم بكذا وكذا»[٢].

مناظراته مع الآخرين:

روى ثقة الإسلام الشيخ الكلينيّ بإسناده عن أبان قال: أخبرني الأحول أنّ زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام بعث إليه وهو مستخف، قال فأتيته، فقال لي يا أبا جعفر ما تقول إن طرقك طارق منّا أتخرج معه، قال فقلت له إن كان أباك أو أخاك خرجت معه، قال: فقال لي فأنا أريد أن أخرج أجاهد هؤلاء القوم فاخرج معي، قال قلت لا ما أفعل جعلت فداك، قال فقال لي أترغب بنفسك عنّي، قال قلت له إنّما هي نفس واحدة فإن كان للهّ في الأرض حجّة فالمتخلّف عنك ناج والخارج معك هالك، وإن لا تكن للهّ حجّة في الأرض فالمتخلّف عنك والخارج معك سواء، قال فقال لي: يا أبا جعفر كنت أجلس مع أبي على الخوان فيلقمني البضعة[٣] السمينة ويبّرد لي اللقمة الحارّة حتى تبرد شفقة عليّ، ولم يشفق عليّ من حرّ النار إذا أخبرك بالدين ولم يخبرني به، فقلت له جعلت فداك من شفقته عليك من حرّ النار لم يخبرك خاف عليك أن لا تقبله فتدخل النار وأخبرني أنا، فإن قبلت نجوت وإن لم أقبل لم يبال أن أدخل النار، ثمّ قلت له جعلت فداك أنتم أفضل أم الأنبياء، قال بل الأنبياء، قلت يقول يعقوب ليوسف ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ٥﴾(يوسف: ٥) لِمَ لَمْ يخبرهم حتى

---

[١]- الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّي-، م.س، ص١٨٦.

[٢]- م.ن، ص١٨٦.

[٣]- أي: القطعة من اللحم.

كانوا لا يكيدونه، ولكن كتمهم ذلك، فكذا أبوك كتمك؛ لأنّه خاف عليك، قال فقال أما والله لئن قلت ذلك لقد حدثني صاحبك بالمدينة أنّي أقتل وأصلب بالكناسة وإن عنده لصحيفة فيها قتلي وصلبي. فحججت فحدّثت أبا عبد اللهعليه السلام بمقالة زيد وما قلت له، فقال لي أخذته من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه ولم تترك له مسلكًا يسلكه[١].

وبإسناده عن أبي مالك الأحمسيّ، قال: «كان رجل من الشراة يقدم المدينة في كلّ سنة، فكان يأتي أبا عبد اللهعليه السلام فيودِعه ما يحتاج إليه، فأتاه سنة من تلك السنين وعنده مؤمن الطاق والمجلس غاصّ بأهله، فقال الشاري وددت أنّي رأيت رجلًا من أصحابك أكلّمه، فقال أبو عبد اللهعليه السلام لمؤمن الطاق كلّمه يا محمّد! فكلّمه به فقطعه سائلًا ومجيبًا، فقال الشاري لأبي عبد الله ما ظننت أنّ في أصحابك أحدًا يحسن هكذا! فقال أبو عبد الله إنّ في أصحابي من هو أكثر من هذا، قال فأعجبت مؤمن الطاق نفسه، فقال يا سيدي سررتك؟ قال والله لقد سررتني والله لقد قطعته والله لقد حصرته، والله ما قلت من الحقّ حرفًا واحدًا، قال وكيف؟ قال لأنّك تكلّم على القياس والقياس ليس من ديني»[٢].

روى الشيخ الكشّيّ بإسناده عن أبي مالك الأحمسيّ، قال خرج الضحاك الشاري[٣] بالكوفة فحكم وتسمّى بإمرة المؤمنين ودعا الناس إلى نفسه، فأتاه مؤمن الطاق، فلمّا رأته الشراة وثبوا في وجهه، فقال لهم جانح[٤]! قال فأتي به صاحبهم، فقال لهم مؤمن الطاق أنا رجل على بصيرة من ديني وسمعتك تصف العدل فأحببت الدخول معك! فقال الضحّاك لأصحابه إن دخل هذا معكم نفعكم، قال ثمّ أقبل مؤمن الطاق على

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٧٤؛ انظر: الطبرسيّ، أحمد بن علي (ت٥٨٨ ه)، الاحتجاج على أهل اللجاج، ج٢، ص٣٧٦.

[٢]- الطوسيّ، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص١٨٨.

[٣]- الشارى جمعه الشراة وهم الخوارج.

[٤]- أي مائل إلى دينكم.

الضحّاك فقال لهم لمَ تبرّأتم من علي بن أبي طالب واستحللتم قتله وقتاله، قال لأنّه حكم في دين الله، قال وكل من حكم في دين الله استحللتم قتله وقتاله والبراءة منه، قال نعم، قال فأخبرني عن الدين الذي جئت أناظرك عليه لأدخل معك فيه إن غلبت حجّتي حجّتك أو حجّتك حجّتي من يوقف المخطي على خطئه ويحكم للمصيب بصوابه، فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا، قال فأشار الضحّاك إلى رجل من أصحابه، فقال هذا الحكم بيننا فهو عالم بالدين، قال وقد حكمت هذا في الدين الذي جئت أنا أناظرك فيه قال نعم، فأقبل مؤمن الطاق على أصحابه، فقال إنّ هذا صاحبكم قد حكم في دين الله فشأنكم[١] به! فضربوا الضحّاك بأسيافهم حتى سكت[٢].

وقد كانت لأبي جعفر مؤمن الطاق مقامات مع أبي حنيفة تدلّ على سرعة بديهته وفطنته وقدرته على الإفحام:

منها ما في الاحتجاج «أنّ أبا حنيفة كان يومًا يتماشى مع مؤمن الطاق في سكّة من سكك الكوفة، إذا منادٍ ينادي من يدلّني على صبيّ ضالّ؟ فقال مؤمن الطاق أمّا الصبيّ الضالّ فلم نره، وإن أردت شيخًا ضالًّا فخذ هذا، عنى به أبا حنيفة»[٣].

ومنها في ردّه على أبي حنيفة عندما قال له -وقد مات جعفر بن محمدعَلَيْهِ السَّلَامُ-: «يا أبا جعفر إنّ إمامك قد مات! فقال أبو جعفر لكن إمامك {من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم}»[٤].

٦- هشام بن الحكم

ترجم له الشيخ النجاشيّ بقوله: «هشام بن الحكم أبو محمّد، مولى كندة، وكان ينزل بني شيبان بالكوفة، انتقل إلى بغداد سنة تسع وتسعين ومائة ويقال: إنّ (إنّه) في هذه السنة مات... وأمّا مولده فقد قلنا الكوفة، ومنشؤه واسط، وتجارته بغداد. ثمّ

[١]- أي عابكم به. أو يقرء: فشأنكم به، أي افعلوا به ما شئتم وسكت: مات.

[٢]- الطوسّي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشيّ-، م.س، ص١٨٧.

[٣]- الطبرسي، الاحتجاج، م.س، ج٢، ص١٤٩.

[٤]- الطبرسي، الاحتجاج، م.س، ص١٨٦.

انتقل إليها في آخر عمره ونزل قصر وضّاح. وروى هشام عن أبي عبد الله وأبي الحسن موسىعليهما السلام، وكان ثقة في الروايات، حسن التحقيق بهذا الأمر»[١].

وقد ذُكر له أكثر من ثلاثين كتابًا يغلب على مواضيعها الأبحاث العقديّة. قال الشيخ الطوسيّ: "هشام بن الحكم له أصل... وله من المصنّفات كتب كثيرة... وكان هشام يكنّى أبا محمّد وهو مولى بني شيبان، كوفيّ، ونزل بغداد، ولقي أبا عبد الله جعفر بن محمّد وابنه أبا الحسن موسىعليهما السلام، وله عنهما روايات كثيرة.

وروي عنهما فيه مدائح له جليلة، وكان ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب بالنّظر، وكان حاذقًا بصناعة الكلام، حاضر الجواب، سئِل يومًا عن معاوية أشهد بدرًا؟ قال: «نعم من ذاك الجانب! وكان منقطعًا إلى يحيى بن خالد البرمكيّ، وكان القيّم بمجالس كلامه ونظره. وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام في درب الجبّ، وتوفي بعد نكبة البرامكة بمديدة يسيرة مستترًا، وقيل في خلافة المأمون، وكان لاستتاره قصّة مشهورة»[٢].

وذكره ابن النديم بقوله: «هشام بن الحكم، وهو أبو محمّد هشام بن الحكم، مولى بنى شيبان. كوفيّ تحوّل إلى بغداد من الكوفة، من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمدعليه السلام. من متكلّمي الشيعة، ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب بالنظر وكان حاذقًا بصناعة الكلام، حاضر الجواب. سئل هشام عن معاوية، أشهد بدرًا، فقال: نعم، من ذاك الجانب...»[٣]. وذكر له ما يناهز العشرين كتابًا.

عاش هشام في الكوفة التي كانت مسرحًا للتيّارات الفكريّة والمذاهب الفقهيّة، فكثرت فيها مجالس البحث والمناقشات العلميّة وخصوصًا ما يتعلّق بالعقيدة، فمن هنا كان لعلم الكلام مكانةٌ خاصّة لأهمّيّته في حسم النّزاعات والانتصار للمذهب،

[١]- النجاشّي، رجال النجاشّي، م.س، ص٤٣٣، رقم ١١٦٤.

[٢]- الطوسّي، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، م.س، ص٤٩٤، رقم ٧٨٣.

[٣]- ابن النديم، فهرست ابن النديم، م.س، ص٢٢٣.

وقد امتاز هشام بقوّة شخصيّته التي جعلته محطّ أنظار علماء عصره، وكان من أبرز المتخصّصين في هذا العلم مع شدّة إخلاصه لآل البيتعليهم السلام وتفانيه في الذود عن حياضهم، وكان يعرّض حياته للخطر لقول الحقّ أمام سلاطين الجور، وقد نُقل عن هارون الرشيد -بعد ما سمع عن قوّة حجج هشام وبراعته في مناظرات خصومه- أنّه قال: «إنّ لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف». وقال أبو عبيدة المعتزليّ لهشام بن الحكم الدليل على صحّة معتقدنا وبطلان معتقدكم كثرتنا وقلّتكم مع كثرة أولاد علي وادّعائهم، فقال هشام لست إيّانا أردت بهذا القول إنّما أردت الطعن على نوح، حيث لبث في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت: ١٤) يدعوهم إلى النجاة ليلًا ونهارًا وما آمن معه إلّا قليلًا[١].

وبملاحظة جملة من الروايات يتبيّن إلى أيّ حدّ كانت منزلة هشام بن الحكم رفيعة، بحيث يتشوّق الإمام الصادقعليه السلام لرؤيته وحضوره في مجالس المناظرات، وكان الإمامعليه السلام يرقب مناقشات واستدلالات أصحابه وهشام أصغرهم سنًّا وما زال شابًا في مقتبل العمر، فيفسح الإمام له المجلس ويطريه بقوله: «ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ومثلك فليكلّم الناس»[٢].

وقد خصّه الإمام موسى الكاظمعليه السلام بحديث طويل ومفصّل عن العقل، نقله ثقة الإسلام الشيخ الكلينيّ في كتاب الكافي[٣] وهذا منهعليه السلام دليل على العناية الخاصّة والمنزلة الرفيعة لهشام عند الإمام الصادقعليه السلام.

٧-هشام بن سالم

ترجم له الشيخ النجاشيّ فقال: «هشام بن سالم الجواليقيّ مولى بشر بن مروان أبو الحكم، كان من سبي الجوزجان. روى عن أبي عبد الله وأبي الحسنعليهما السلام، ثقة ثقة. له

[١]- ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، م.س، ج١، ص٢٧٤.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص١٧١.

[٣]- الكليني، الكافي، ج١، ص١٣، ح ١٢.

كتاب يرويه جماعة. أخبرنا محمّد بن عثمان قال: حدّثنا جعفر بن محمّد قال: حدّثنا عبيد الله بن أحمد قال: حدّثنا ابن أبي عمير عنه بكتابه. وكتابه الحجّ، وكتابه التفسير، وكتابه المعراج»[١].

فهو مؤلِّف لعدد من الكتب، كما هو صريح الشيخ النجاشيّ، إلّا أنّ الشيخ الطوسيّ لم يذكر له إلّا كتابًا واحدًا وعبّر عنه بالأصل[٢].

ومما تقدّم من تراجم الأصحاب المذكورين أعلاه يتبيّن الكثير للقارئ العزيز من سيرة هشام بن سالم، فلا أُعيد وأكرّر ما ذُكر خوف الإطالة، ونكتفي بذكر رواية واحدة فيها العديد من النقاط التي تبيّن أهمّيّة هشام ودوره في الدفاع عن حقّ أهل البيتعليهم السلام في الإمامة.

فقد روى الشيخ الكشّيّ بإسناده عن هشام بن سالم قال: كنّا بالمدينة بعد وفاة أبي عبد اللهعليه السلام أنا ومؤمن الطاق أبو جعفر قال والناس مجتمعون على أنّ عبد الله صاحب الأمر بعد أبيه، فدخلنا عليه أنا وصاحب الطاق والناس مجتمعون عند عبد الله، وذلك أنّهم رووا عن أبي عبد اللهعليه السلام أنّ الأمر في الكبير ما لم يكن به عاهة، فدخلنا نسأله عمّا كنا نسأل عنه أباه فسألناه، عن الزكاة في كم تجب قال: في مائتين خمسة قلنا ففي مائة قال: درهمان ونصف درهم، قال قلنا له والله ما تقول المرجئة هذا! فرفع يديه إلى السماء، فقال: لا والله ما أدري ما تقول المرجئة... قال فدخلت فإذا أبو الحسنعليه السلام فقال لي ابتداء: لا إلى المرجئة ولا إلى القدريّة ولا إلى الزيديّة ولا إلى المعتزلة ولا إلى الخوارج إليّ إليّ إليّ، قال فقلت له جعلت فداك مضى أبوك قال نعم، قال قلت جعلت فداك مضى في موت، قال نعم، قلت جعلت فداك فمن لنا بعده؟ فقال إن شاء الله يهدك هداك، قلت جعلت فداك إنّ عبد الله يزعم أنّه من بعد أبيه، فقال يريد عبد الله أن لا يُعبد الله، قال قلت له جعلت فداك فمن لنا من بعده؟ فقال إن شاء الله أن يهديك هداك أيضًا، قلت جعلت فداك أنت هو؟ قال ما أقول ذلك، قلت في نفسي لم أصب طريق المسألة، قال:

[١]- النجاشي، رجال النجاشيّ، م.س، ص٤٣٤، رقم ١١٦٥.

[٢]- الطوسي، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، م.س، ص٤٩٣، رقم ٧٨٢.

قلت: جعلت فداك عليك إمام قال لا، فدخلني شيء لا يعلمه إلّا الله إعظامًا له وهيبة أكثر ما كان يحلّ بي من أبيه إذا دخلت عليه، قلت جعلت فداك أسألك عمّا كان يُسأل أبوك قال سل تخبر ولا تذع فإن أذعت فهو الذبح، قال، فسألته فإذا هو بحر، قال، قلت جعلت فداك شيعتك وشيعة أبيك ضلّال فألقي إليهم وأدعوهم إليك فقد أخذت عليّ بالكتمان، قال من آنست منهم رشدًا فألق إليهم وخذ عليهم بالكتمان، فإن أذاعوا فهو الذبح وأشار بيده إلى حلقه، قال، فخرجت من عنده فلقيت أبا جعفر، فقال لي ما وراك قال، قلت الهدى، قال، فحدّثته بالقصة، قال، ثمّ لقيت المفضّل بن عمر وأبا بصير، قال، فدخلوا عليه فسمعوا كلامه وسألوه، قال، ثمّ قطعوا عليهعليه السلام، ثمّ قال، ثمّ لقيت الناس أفواجًا، قال، فكان كلّ من دخل عليه قطع عليه إلّا طائفة مثل عمّار وأصحابه، فبقي عبد الله لا يدخل عليه أحد إلّا قليل من الناس، قال، فلمّا رأى ذلك وسأل عن حال الناس، قال، فأخبر أنّ هشام بن سالم صدّ عنه الناس، قال، فقال هشام فأقعد لي بالمدينة غير واحد ليضربوني[١].

اقتصرت في الرواية على ما هو ضروريّ للبحث وسأقف عند أمور عدّة، فيها:

الأول: إنّ الإمام الصادقعليه السلام كان قد أخفى اسم الإمام من بعده حتى عن معظم كبار أصحابه حفاظًا عليه وخوفًا عليهم؛ لأنّ المنصور الدوانيقيّ كان قد كتب إلى واليه على المدينة محمّد بن سلمان: «إن كان جعفر بن محمّد قد أوصى إلى رجل واحد بعينه فقدّمه واضرب عنقه"، فجاءه الجواب أنّه قد أوصى إلى خمسة واحدهم أبو جعفر المنصور ومحمّد بن سليمان وعبد الله وموسى ابنه وحميدة زوجته وهي أمّ الإمام موسى الكاظمعليه السلام[٢]. وبهذا يتبينّ أنّ تشدّد الإمام في كتمان الأمر كان مبرّرًا إلى حدّ كبير، وهذا ما أشار إليه الإمام الكاظمعليه السلام أكثر من مرّة في الرواية بأنّ في إذاعته الذبح.

الثاني: إنّ هشام بن سالم مع مؤمن الطاق كان لهما دورٌ أساسيّ في فضح عبد الله الأفطح ابن الإمام جعفر الصادقعليه السلامالذي ادّعى الإمامة.

---

[١]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص٢٨٢.

[٢]- انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، ص٣١٠.

الثالث: بعد أن أيقن هشام بأنّ الإمامة عند الإمام موسى الكاظمعليه السلام أرشد العديد من الثّقات الذين يطمئنّ بأنّهم لا يذيعون الأمر على عامّة الناس، فإنّ في ذلك الذبح كما عبّر الإمام.

الرابع: إنّ ما فعله هشام من فضح الأفطح جعل الناس يتركونه إلّا القليل ممن بقي معه، وهذا ما غاظ عبد الله الأفطح، فاشتدّ حقده وحنقه على هشام.

الخامس: إنّ ما فعله هشام دليل على أنّ له مكانة رفيعة بين خواصّ الموالين لأهل البيتعليهم السلام بحيث يستجيب له كبار الأصحاب ويتركون عبد الله ويلتحقون بالإمام الكاظمعليه السلام، وهذا ما دفع الأفطح إلى الانتقام من هشام، فأرسل جماعة يترصّدونه حتى ينالوا منه.

خامسًا: الفرق الكلاميّة في عصر الإمام الصادقعليه السلام

١. الإمام الصادق والانشقاقات الإسلاميّة العامّة

من الأدوار الجليلة التي أدّاها الإمام الصادقعليه السلام مواجهة التيّارات المنحرفة التي انتشرت في ربوع الأمّة الإسلاميّة، وقد تميّز عصر الإمام الصادق بالذات بتشعّب هذه المدارس والاتّجهات، واحتدام الصّراع فيما بينها ليبلغ مراحل خطرة غدت معها الصّراعات الدينيّة في خدمة السّلطة وبتوظيفات سياسيّة رخيصة، وأفضل نموذج لذلك ما حدث بين المعتزلة والحنابلة، والجدل حول خلق القرآن وقدمه، وهو نزاع كان أئمّة أهل البيتعليهم السلام عمومًا، والإمام الصادقعليه السلام خصوصًا، يدركون جيّدًا أبعاده ومراميه السياسيّة، ولذلك حذّروا شيعتهم من الخوض في مثل هذه الموضوعات حتى لا يسهموا من حيث لا يشعرون في تأجيج الفتن في المجتمع المسلم وتحقيق أهداف السّلطة في إلهاء النّاس عن ظلم الحكام وفسادهم.

ومن جهة ثانية، يقود التحقيق التاريخيّ في جذور العديد من المذاهب المصطنعة والمنحرفة، إلى تسليط الضّوء على الدور اليهوديّ خصوصًا وأهل الكتاب عمومًا في

صناعة مثل هذه الأجواء الملائمة للتشكيك والبلبلة في أوساط المسلمين.

فمثلًا يوحنّا الدمشقيّ عند النصارى من كبار علمائهم، بل قدّيس وكان من الذين يشغلون مراكز نافذة في الحكومة الأمويّة، وأبوه سرجون بن منصور الروميّ الذي كان كاتبًا لمعاوية وصاحب أمره[١]، ومن بعدُ كان أيضًا كاتبًا ليزيد ابنه، ومن ثمّ لعبد الملك بن مروان[٢].

فقد بذل يوحنا الدمشقيّ جهدًا كبيرًا لتشكيك المسلمين بدينهم، وكان يقول للمسلمين: إنّ قرآنكم نصّ على أنّ عيسى بن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم، فهل كلمة الله قديمة أو لا؟ فإن قالوا: قديمة، أثبت بذلك دعوى النصارى بأنّ عيسى قديم، وإن قالوا له: لا، قال لهم: زعمتم أنّ كلام الله مخلوق.

ومن ثمّ كثر اللغط في أواخر العصر الأمويّ وبدايات العصر العباسيّ في العديد من المسائل الكلاميّة، مثل: الجبر والقدر والصفات الإلهيّة. وقد ساهم أعوان الحكّام في إشعال نار الاختلاف، وعملوا على بذر بذور الاختلاف وسقوها بماء حقدهم، فكثرت الآراء الفقهيّة وتعدّدت المسائل الكلاميّة والعقائديّة ولا سيّما في مسائل التوحيد والقضاء والقدر والجبر والاختيار ونحو ذلك، وتوسّع القول بالغلوّ. وقد تصدّى الإمام عليه السلام وكبار أصحابه وتلامذته لهذه الأقوال والآراء، ودارت بينهم مناظرات وحوارات كثيرة ومعمّقة، فرجع العديد منهم إلى القول الحقّ وأصرّ آخرون على غيّهم بلا دليل يعتمدون عليه أو حصن يرجعون إليه.

وأما الروايات التي وصلتنا في ذمّ هذه الجماعات والفرق، فهي كثيرة، وفي بعضها ذمّ وتحذير من فرقة بعينها، ومنها ما فيه ذمّ لعدّة منها، ونقتصر هنا على إيراد بعضها كأمثلة على ذلك.

---

[١]- انظر: الطبريّ، محمّد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الطبريّ، ج٤، ص ٢٤٣.

[٢]- انظر: ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ (ت٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، ج٢، ص ١٦١.

وأمّا الفرق والمذاهب التي نشأت في عصر الإمام الصادقعليه السلام أو قريبًا منه، فهي متعدّدة، ومن أهمّها:

أ. المرجئة:

وهي فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، سمّوا مرجئة لاعتقادهم أنّ الله تعالى أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أي أخّر عنهم، وقيل غير ذلك. وقد ورد ذمّ شديد للمرجئة في كلمات أهل البيتعليهم السلام خصوصًا من الإمام الصادقعليه السلام وحذّروا منهم أيّما تحذير.

فقد روى البرقيّ بإسناده عن بشير الدهان قال: «قال لي أبو عبد اللهعليه السلام إنّ هذه المرجئة وهذه القدريّة وهذه الخوارج ليس منهم أحد إلّا وهو يرى أنّه على الحقّ وإنّكم إنّما أجبتمونا في الله، ثم تلا ﴿**أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ**﴾ النساء: ٥٩. ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ**﴾(الحشر: ٧). ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ**﴾ (النساء: ٨٠).

﴿**إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ**﴾(آل عمران: ٣١)، ثم قال: والله لقد نسب الله عيسى ابن مريم في القرآن إلى إبراهيم من قبل النساء ثمّ قال﴿**وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾(الأنعام: ٨٤-٨٥)»[١].

وفي تفسير العياشيّ عن عمر بن معمّر: «قال أبو عبد اللهعليه السلام: لعن الله القدريّة لعن الله الحروريّة لعن الله المرجئة لعن الله المرجئة، قلت له جعلت فداك كيف لعنت هؤلاء مرّة، ولعنت هؤلاء مرّتين، فقال: إنّ هؤلاء زعموا

[١]- البرقيّ، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، ج١، ص١٥٦.

أنّ الذين قتلونا مؤمنين، فثيابهم ملطخة بدمائنا إلى يوم القيامة أمَا تسمع لقول الله ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ** ﴾(آل عمران: ١٨٣) قال: فكان بين الذين خوطبوا بهذا القول وبين القاتلين خمس مائة عام، فسماهم الله قاتلين برضاهم بما صنع أولئك»[١].

بل نهى الإمام الصادق عليه السلام من مجالستهم، وحذّر من مخالطتهم وأن يُبعدوا أولادهم عن سماع أضاليلهم، فقد روى الشيخ الكلينيّ بإسناده عن الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تجالسوهم يعني المرجئة لعنهم الله ولعن الله مللهم المشركة الذين لا يعبدون الله على شيء من الأشياء[٢].

وعن جميل بن درّاج وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة[٣].

ب. القدريّة:

وهم قوم منسوبون إلى القدر ويزعمون أنّ كلّ أفعالهم مخلوقة لهم، وليس لله فيها قضاء ولا قدر، ولا يرون المعاصي والكفر بتقدير الله ومشيّته. وورد العديد من الأحاديث عن المعصومين عليهم السلام في ذمّهم ولعنهم والتحذير منهم ومن بعض الفرق الأخرى.

فقد روى الشيخ الصدوق بإسناده «عن مروك بن عبيد عن عمرو رجل من أصحابنا عمن سأل أبا عبد الله عليه السلام فقال له: إنّ لي أهل بيت قدريّة يقولون نستطيع أن نعمل كذا وكذا ونستطيع أن لا نعمل، قال فقال أبو عبد الله عليه السلام قل له هل تستطيع أن لا تذكر ما تكره وأن لا تنسى ما تحب، فإنّ قال لا فقد ترك قوله، وإن قال نعم فلا تكلّمه أبدًا فقد ادّعى الربوبيّة»[٤].

---

[١]- العيّاشيّ، محمد بن مسعود، تفسير العياشيّ، ج١، ص٢٠٨؛ انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص٤٠٩.

[٢]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص٤١٠.

[٣]- م.ن، ج٦، ص٤٧.

[٤]- الصدوق، التوحيد، م.س، ص٣٥٢.

و«عن داود بن سليمان عن أبي الحسن علي بن موسى عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صنفان من أمّتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية»[١].

و«عن عليّ بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الرقى[٢] أتدفع من القدر شيئًا، فقال هي من القدر، وقال عليه السلام إنّ القدريّة مجوس هذه الأمّة وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه، وفيهم نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر: ٤٨ – ٤٩).

و«عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله اثني عشر ألفًا: ثمانية آلاف من المدينة وألفان من مكة وألفان من الطلقاء، ولم يرَ فيهم قدريّ ولا مرجئ ولا حروريّ ولا معتزليّ ولا صاحب رأي، كانوا يبكون الليل والنهار ويقولون اقبض أرواحنا من قبل أن نأكل خبز الخمير»[٣].

و«عن أبي مسروق قال: سألني أبو عبد الله عليه السلام عن أهل البصرة، فقال لي ما هم قلت مرجئة وقدريّة وحروريّة[٤]، فقال لعن الله تلك الملل الكافرة المشركة التي لا تعبد الله على شيء»[٥].

ت. أصحاب القياس والرأي:

وهم أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ومن اتّبعه، أخذوا بالقياس وأكثروا العمل به، ويقال لهم أيضًا أصحاب الرأي لتقديمهم رأيهم على أخبار الآحاد.

وكان موقف الإمام الصادق عليه السلام حاسمًا في رفض هذه الفئة من الناس، بل حاجج رأسهم ورئيسهم في أكثر من مناسبة، فقد روى الشيخ الكلينيّ بإسناده عن أبي شيبة

---

[١]- الصدوق، محمد بن علي ابن بابويه، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص٢١٢.

[٢]- جمع رقيَة كغرفة، هي ما يعوذ به الصبيان وأصحاب الآفات كالحمى والصرع وغيرهما.

[٣]- الصدوق، محمد بن علي ابن بابويه، الخصال، ج٢، ص٦٣٩.

[٤]- الحروريّة: فرقة من الخوارج تنسب إلى حروراء وهي قرية بقرب الكوفة.

[٥]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص٣٨٧.

الخراسانيّ قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول إنّ أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس، فلم تزدهم المقاييس من الحقّ إلّا بعدًا وإنّ دين الله لا يُصاب بالمقاييس»[١].

وعن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ السنّة لا تُقاس، ألا ترى أنّ امرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها يا أبان، إنّ السنّة إذا قيست محقَ الدين»[٢].

وعن مسعدة بن صدقة قال حدّثني جعفر عن أبيه عليه السلام أنّ عليًّا عليه السلام قال: «من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في ارتماس- قال وقال أبو جعفر عليه السلام من أفتى الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم، فقد ضادّ الله حيث أحلّ وحرّم فيما لا يعلم»[٣].

وعن عيسى بن عبد الله القرشيّ قال: «دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له يا أبا حنيفة بلغني أنّك تقيس، قال نعم، قال لا تقس فإنّ أوّل من قاس إبليس حين قال ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢ فقاس ما بين النار والطين ولو قاس نوريّة آدم بنوريّة النار عرف فضل ما بين النورين وصفاء أحدهما على الآخر»[٤].

ث. المعتزلة:

ومؤسّسها واصل بن عطاء توفي ١٣١ ه. وهو تلميذ الحسن البصريّ، فبعد أن دار نقاش بينه وبين أستاذه حول مرتكب الكبيرة وما هو مصيره يوم القيامة، اعتزل واصل وتنحّى عن مجلس أستاذه البصريّ، فقال عنه: «اعتزلنا واصل». وعمرو بن عبيد الذي توفّي سنة ١٤٣ هـ وهو الإمام الثاني للمعتزلة بعد واصل بن عطاء. وقد مرّ ذكر المناظرة[٥] التي جرت بين هشام بن الحكم وبين عمرو بن عبيد والتي كان الإمام الصادق عليه السلام مسرورًا بها.

---

[١]- الكليني، الكافي، م.س، ج١، ص٥٦.

[٢]- م.ن، ج١، ص٥٧.

[٣]- م.ن، ج١، ص٥٧.

[٤]- م.ن، ج١، ص٥٨.

[٥]- م.ن، ج١، ص١٦٩.

ومن المناظرات المباشرة للإمام الصادق مع المعتزلة: «دخل عليه أناس من المعتزلة، وفيهم عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وحفص بن سالم، وأناس من رؤساء المعتزلة، وذلك حين قتل الوليد واختلف أهل الشام بينهم، فتكلّموا وأكثروا، وخطبوا فأطالوا، فقال لهم الصادقعليه السلام: إنّكم قد أكثرتم عليّ فأطلتم، فأسندوا أمركم الى رجل منكم، فليتكلّم بحجّتكم وليوجز، فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال، فكان فيما قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض وتشتّت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلًا له دين وعقل ومروّة ومعدن لخلافة، وهو محمّد بن عبد الله بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ثمّ نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن بايعه كنّا معه وكان معنا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه، ونصبنا له على بغيه، ونردّه إلى الحقّ وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك فإنّه لا غناء لنا عن مثلك، لفضلك وكثرة شيعتك. فلمّا فرغ قال أبو عبد اللهعليه السلام: أكلّكم على مثل ما قال عمرو؟ قالوا: نعم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ قال: إنّما نسخط إذا عُصي الله فإذا أطيع الله رضينا، أخبرني يا عمرو لو أنّ الأمّة قلّدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤونة فقيل لك: ولّها من شئت، من تولّي؟ قال: كنت أجعلها شورى بين المسلمين، قال: بين كلّهم؟ قال: نعم، قال: بين فقهائهم وخيارهم؟ قال: نعم، قال: قريش وغيرهم؟ قال: العرب والعجم، قال: يا عمرو أتتولّى أبا بكر وعمر أو تتبرّأ منهما؟ قال: أتولاّهما، قال: يا عمرو إن كنت رجلًا تتبرّأ منهما فإنّه يجوز لك الخلاف عليهما، وإن كنت تتولاّهما فقد خالفتهما، قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحدًا، ثمّ ردّها أبو بكر عليه ولم يشاور أحدًا، ثمّ جعلها عمر شورى بين ستة، فأخرج منها الأنصار غير أولئك الستة من قريش، ثمّ أوصى الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك، قال: وما صنع؟ قال: أمر صهيبًا أن يصلّي بالناس ثلاثة أيام، وأن يتشاور أولئك الستّة ليس فيهم أحد سواهم إلاّ ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت الثلاثة أيام ولم يفرغوا ويبايعوا أن يُضرب أعناق

الستة جميعا، وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان، أن يضرب أعناق الاثنين، أفترضون بذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟ قالوا: لا، قال: يا عمرو دع ذا، أرأيت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو إليه، ثمّ اجتمعت لكم الأمّة ولم يختلف عليكم منهم رجلان، فأفضيتم إلى المشركين؟ قالوا: نعم، قال: فتصنعون ماذا؟ قال: ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية، قال: فإن كانوا مجوسًا وعبدة النار والبهائم وليسوا بأهل كتاب؟

قال: سواء. قال عليه السلام: فأخبرني عن القرآن أتقرؤونه؟ قال: نعم، قال: اقرأ: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»(التوبة: ٢٩). قال: فاستثنى عزّ وجل واشترط من الذين أوتوا الكتاب فيهم والذين لم يؤمنوا سواء، قال عليه السلام: عمّن أخذت هذا؟ قال: سمعت الناس يقولونه. قال: فدع ذا فإنّهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم، كيف تصنع بالغنيمة؟ قال: أخرج الخمس وأقسّم أربعة أخماس بين من قاتل عليها، قال: تقسّمه بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم، قال عليه السلام: فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وآله في فعله وسيرته، وبيني وبينك فقهاء المدينة ومشيختهم فسلهم، فإنّهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إنّما صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم وألّا يهاجروا على أنّه إن دهمه من عدوّه دهم فيستنفرهم فيقاتل بهم وليس لهم من الغنيمة نصيب، وأنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وآله في سيرته في المشركين. دع ذا، ما تقول في الصدقة؟ قال: فقرأ الآية: «إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها» (التوبة: ٦٠) الى آخرها، قال: نعم، فكيف تقسّم بينهم؟ قال: أقسّمها على ثمانية أجزاء، فأعطي كلّ جزء من الثمانية جزءًا، فقال عليه السلام: إن كان صنف منهم عشرة آلاف، وصنف رجلًا واحدًا أو رجلين أو ثلاثة جعلت لهذا الواحد مثلما جعلت لعشرة آلاف؟ قال: نعم، قال: وتصنع بين صدقات أهل الحضر والبوادي فتجعلهم سواء؟ قال: نعم، قال: فخالفت رسول الله صلى الله عليه وآله في كلّ ما به قلت في سيرته، كان رسول الله يقسّم صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضر في أهل

الحضر، ولا يقسّمها بينهم بالسويّة، إنما يقسّمها قدر ما يحضره منهم، وعلى ما يرى وعلى ما يحضره، فإن كان في نفسك شيء مّما قلت فإن فقهاء أهل المدينة ومشيختهم كلّهم لا يختلفون في أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كذا كان يصنع. ثمّ أقبل على عمرو وقال: اتّق الله يا عمرو وأنتم أيّها الرهط فاتّقوا الله، فإنّ أبي حدّثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من ضرب الناس بسيفه ودعاهم الى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلّف[١].

ج. الخوارج:

نشأت هذه الجماعة بعد مسألة التحكيم في صفّين بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية سنة ٣٧هـ، فقد كان أبو موسى الأشعريّ موكّلًا من طرف أمير المؤمنين عليه السلام وعمرو بن العاص كان من طرف معاوية بن أبي سفيان. وكان الإمام عليه السلام راغبًا في أن يجعل عبد الله بن عباس من طرفه، ولكن من انشقّ فيما بعد عن جيش أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعُرفوا بالخوارج كانوا قد أصرّوا على أن يكون أبو موسى الأشعريّ ممثّلًا للإمام، فقام عمرو بن العاص بغدر وخداع أبي موسى وحصل ما حصل فيما بعد.

وورد عن الصادق عليه السلام روايات يتبرّأ فيها من الخوارج كما يتبرّأ من القدريّة والمرجئة:

- «محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن مروك بن عبيد، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لعن الله القدريّة، لعن الله الخوارج، لعن الله المرجئة، لعن الله المرجئة قال: قلت: لعنت هؤلاء مرّة مرّة ولعنت هؤلاء مرّتين؟! قال: إنّ هؤلاء يقولون: إن قتلتنا مؤمنون فدماؤنا متلطّخة بثيابهم إلى يوم القيامة، إنّ الله حكى عن قوم في كتابه: «لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيّنات

[١]- المظفّر، محمّد الحسين، الإمام الصادق عليه السلام، ج١، صص٢٠٧-٢١١.

وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين». قال: كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام فألزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا»[١].

- «عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمّد بن حكيم وحمّاد بن عثمان، عن أبي مسروق قال: سألني أبو عبد الله عليه السلام عن أهل البصرة ما هم؟ فقلت: مرجئة وقدريّة وحروريّة، فقال: لعن الله تلك الملل الكافرة المشركة التي لا تعبد الله على شيء»[٢].

ح. الصوفيّة

كردة فعل على الرّخاء النسبيّ الذي عاشه المجتمع الإسلاميّ بعد اتّساع الفتوحات ودخول البلدان إلى الإسلام ووفرة الخراج، انبرت بعض الفئات نحو الزهد والتصوّف، كموقفٍ رافضٍ لهذه البحبوحة في العيش، بدعوى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وصحبه لم يعيشوا في هذا المستوى من البذخ والترف، وهذا مدعاة للعزوف عن هذه الدنيا وملذّاتها والتزام طريقة المتصوّفة والزهّاد في الحياة، خشية الفتنة والوقوع في مصائد النفس والشهوات.

وصحّح الإمام الصادق عليه السلام لبعض هؤلاء المبتدعة تصوّراتهم عن حقيقة الزهد، وأرشدهم إلى الطريقة المثلى في تعاطي المؤمن مع الدنيا إذا أقبلت دون أن يقع في أسر ملذّاتها وشهواتها. ومن أشهر مناظراته في هذا السياق ما جرى بينه وبين سفيان الثوريّ: «دخل سفيان الثوريّ على الصادق عليه السلام فرأى ثيابه بيضًا كأنّها غرقى البيض، فقال له: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك، فقال له: اسمع منّي ما أقول لك، فإنّه خير لك عاجلًا وآجلًا، إن أنت متّ على السنّة والحقّ ولم تمت على البدعة أخبرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب، فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثوريّ، فوالله أنّني لمع ما

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٢، ص٤٠٩.

[٢]- م.ن.

ترى عليّ منذ عقلت ما مرّ صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعًا إلاّ وضعته[١].

ومن مناظرته مع جمع يدّعون الزهد ما جاء في أوّل كتاب المعيشة في الكافي، باب دخول الصوفيّة على أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال: «فأتاه قوم ممن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشّف، فقالوا له: إنّ صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حججه فقال لهم: فهاتوا حججكم، فقالوا له: إنّ حججنا من كتاب الله، فقال لهم: فأدلوا بها فإنّها أحقّ ما اتّبع وعُمل به، فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى مخبرًا عن قوم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) فمدح فعلهم وقال في موضع آخر: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨) فنحن نكتفي بهذا، فقال رجل من الجلساء: إنّا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيّبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتّى تمتّعوا أنتم منها؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: دعوا عنكم ما لا تنتفعون به أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمّة؟ فقالوا له: أو بعضه فأمّا كلّه فلا، فقال لهم: فمن هنا أتيتم. وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزّ وجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحًا جائزًا ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عزّ وجلّ؛ وذلك أنّ الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخًا لفعلهم، وكان نهى الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظرًا لكيلا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعًا، فمن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس تمرات أو خمس قرص أو

[١]- انظر: المظفّر، محمّد الحسين، الإمام الصادق عليه السلام، م.س، ج١، ص٢١١-٢١٢.

دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثمّ الثانية على نفسه وعياله، ثمّ الثالثة على قرابته الفقراء، ثمّ الرابعة على جيرانه الفقراء، ثمّ الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجرًا. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصاريّ حين أُعتق عند موته خمسة أو ستّة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين يترك صبية صغارًا يتكفّفون الناس...»[١].

وما ورد عنه أيضًا: «عن عليّ بن محمّد بن بندار، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن إبراهيم بن محمّد الثقفيّ، عن عليّ بن المعلّى، عن القاسم بن محمّد رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل له: ما بال أصحاب عيسى عليه السلام كانوا يمشون على الماء وليس ذلك في أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله؟ قال: إنّ أصحاب عيسى عليه السلام كفوا المعاش وإنّ هؤلاء ابتلوا بالمعاش»[٢].

٢. الإمام الصادق والانشقاقات الشيعيّة

لم يكتفِ الإمام الصادق عليه السلام بمواجهة الانشقات الإسلاميّة العامّة، بل تصدّى للانحرافات التي طرأت على بعض أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وشكّلوا مدارس ومذاهب شاذّة ومنحرفة عنها، وفيما يلي نورد أهمّ هذه المذاهب:

أ. الزيديّة:

وهم الذين يُنسَبون للشهيد زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، الذي استشهد سنة ١٢٠ للهجرة. والذي عليه الإماميّة أنّ زيدًا لم يدّعِ الأمر لنفسه، وإنّما دعا للرضى من آل البيت عليهم السلام. ومن بايعه إنّما بايعه للجهاد في سبيل الله ضدّ الحكّام الأمويين الطغاة، وأن يقاتلوا تحت إمرته لذلك، وليس لأنّه إمام مفترض الطاعة، فهو قائد جهاديّ. وكانت لزيد بعض الآراء التي ناظره فيها أصحاب الإمام الصادق عليه السلام

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٥، ص٦٦ وما بعدها.
[٢]- م.ن، ج٥، ص٧١.

كما تقدّم، ولكن تلك الآراء لم تخرجه عن إيمانه بإمامة ابن أخيه الإمام الصادقعليه السلام. نعم، نُسبت إليه فيما بعد أمور كثيرة لم نجد لها ما يؤكّدها في كلمات زيد الشهيد عندنا.

ووردت العديد من الأحاديث عن الإمام الصادقعليه السلام والأئمّة من بعده صلوات الله عليهم أجمعين فيها ذمّ لمن ينتسب إلى هذه الجماعة، منها:

ما رواه الصفّار بإسناده عن سعيد السمان قال: «كنت عند أبي عبد اللهعليه السلام إذ دخل عليه رجلان من الزيديّة، فقالا أفيكم إمام مفترض طاعته، فقال لا، قال: فقالا له فأخبرنا عنك الثقات أنّك تعرفه وتسمّيهم [نسمّيهم] لك وهم فلان وفلان وهم أصحاب ورع وتشمير، وهم ممن لا يكذبون، فغضب أبو عبد اللهعليه السلام وقال ما أمرتهم بهذا، فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا، فقال لي أتعرف هذين، قلت نعم هما من أهل سوقنا من الزيديّة، وهما يزعمان أنّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله عند عبد الله بن الحسن، فقال كذبا لعنهما الله، ولا والله، ما رآه عبد الله بعينيه ولا بواحد من عينيه ولا رآه أبوه...»[١].

وعن عمار السجستانيّ قال: «كان عبد الله النجاشيّ منقطعًا إلى عبد الله بن الحسن يقول بالزيديّة، فقضي أنّي خرجت وهو إلى مكّة، فذهب هذا إلى عبد الله بن الحسن وجئت أنا إلى أبي عبد اللهعليه السلام قال فلقيني بعد، فقال استأذن لي على صاحبك، فقلت لأبي عبد اللهعليه السلام إنّه سألني الإذن له عليك، قال فقال ائذن له، قال فدخل عليه فسأله، فقال له أبو عبد اللهعليه السلام ما دعاك إلى ما صنعت تذكر يوم كذا يوم مررت على باب قوم فسال عليك ميزاب من الدار فسألتهم، فقالوا إنّه قذر، فطرحت نفسك في النهر مع ثيابك وعليك مصبغة، فاجتمعوا عليك الصبيان يضحكونك ويضحكون منك، فقال عمار فالتفت الرجل إليّ فقال ما دعاك أن تخبر بخبري أبا عبد الله، قال: قلت لا والله ما أخبرته هو ذا قدّامي يسمع كلامي، قال فلما خرجنا قال لي يا عمّار هذا صاحبي دون غيره»[٢].

[١]- الصفّار، محمّد بن حسن (ت٢٩٠ هـ)، بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلىّ الله عليهم، ج١، ص١٧٤.
[٢]- الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج١، ص٢٤٥.

وروى الشيخ الكلينيّ بإسناده عن أبي شبل قال: «دخلت أنا وسليمان بن خالد على أبي عبد الله عليه السلام فقال له سليمان بن خالد إنّ الزيديّة قوم قد عرفوا وجرّبوا وشهرهم الناس وما في الأرض محمديّ أحبّ إليهم منك، فإن رأيت أن تدنيهم وتقرّبهم منك فافعل، فقال يا سليمان بن خالد إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدّونا عن علمنا إلى جهلهم، فلا مرحبًا بهم ولا أهلًا، وإن كانوا يسمعون قولنا وينتظرون أمرنا فلا بأس»[١].

ب. البتريّة

هم أصحاب كثير النواء، والحسن بن صالح بن حي، وسالم بن أبي حفصة، والحكم بن عتيبة، وسلمة بن كهيل، وأبو المقدام ثابت الحدّاد، وهم الذين دعوا إلى ولاية عليّ عليه السلام ثمّ خلطوها بولاية أبي بكر وعمر ويثبتون لهما إمامتهما، وينتقصون عثمان وطلحة والزبير، ويرون الخروج مع بطون ولد عليّ بن أبي طالب يذهبون في ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويثبتون لكلّ من خرج من ولد عليّ عليه السلام عند خروجه الإمامة.

وأمّا سبب تسميتهم بالبتريّة، فهو ما رواه الشيخ الكشّيّ بإسناده عن سدير، قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام ومعي سلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحدّاد وسالم بن أبي حفصة وكثير النواء وجماعة معهم، وعند أبي جعفر عليه السلام أخوه زيد بن عليّ عليه السلام، فقالوا لأبي جعفر عليه السلام نتولّى عليًّا وحسنًا وحسينًا ونتبرّأ من أعدائهم! قال نعم. قالوا نتولّى أبا بكر وعمر ونتبرّأ من أعدائهم! قال فالتفت إليهم زيد بن عليّ قال لهم أتتبرؤون من فاطمة بترتم[٢] أمرنا بتركم الله، فيومئذ سموا البتريّة»[٣].

وبإسناده عن أبي عمرو سعد الحلاب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لو أنّ البتريّة صفّ واحد ما بين المشرق إلى المغرب، ما أعزّ الله بهم دينًا»[٤].

---

[١]- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج٨، ص١٥٩.

[٢]- بتره بترًا أي قطعه.

[٣]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشّيّ-، م.س، ص٢٣٦.

[٤]- م.ن، ص٢٣٢.

ت. الغلاة

الغلاة هم فئة ادّعت حبّ أهل البيت عليهم السلام، وقالوا فيهم ما لا يرتضونه، ما جعل الأئمّة عليهم السلام يصدّوهم ويمنعوهم من نشر ادّعاءاتهم. فقد كان موقف الإمام الصادق عليه السلام حازمًا وصلبًا تجاههم، فقال فيهم ما يكسر شوكتهم ويشتّت شملهم. فتارة نجد الإمام عليه السلام يتوجّه إلى الدعاء لله بما يُثبت عبوديّته وخضوعه له سبحانه وتعالى، وتارة نجده يتهجّم على الغلاة ويلعنهم ويتبرّأ منهم. ومن الروايات المذكورة في هذا المجال نذكر ما يلي:

«قال المفضّل بن عمرو دخلت يومًا على أبي عبد الله جعفر بن محمّد صلوات الله عليهما، فرأيته مقاربًا منقبضًا مستعبرًا، فقلت له ما لك جعلت فداك؟ فقال سبحان الله وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا؛ أيْ مفضّل زعم هذا الكذّاب الكافر إنّي أنا الله، فسبحان الله ولا إله الّا هو ربّي وربّ آبائي هو الذي خلقنا وأعطانا وخوّلنا، فنحن أعلام الهدى والحجّة العظمى أخرج إلى هؤلاء -يعني أصحاب أبي الخطّاب- وقل لهم إنّا مخلوقون وعباد مربوبون، ولكن لنا من ربّنا منزلة لم ينزّلها أحد غيرنا، ولا تصلح إلّا لنا ونحن نور من نور الله...»[١].

ولما لبّى أبو الخطّاب بالكوفة وادّعى في أبي عبد الله عليه السلام ما ادّعاه قال زيد: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام مع عبيد بن زرارة، فقلت له: جعلت فداك لقد ادّعى أبو الخطّاب وأصحابه فيك أمرًا عظيمًا أنّه لبّى بلبّيك جعفر لبّيك معراج، وزعم أصحابه أنّ أبا الخطاب أسريَ به إليك فلما هبط إلى الأرض من ذلك دعا إليك ولذلك لبّى بك. قال: فرأيت أبا عبد الله عليه السلام قد أرسل دمعته من حماليق عينيه وهو يقول: يا ربّ برأت إليك مما ادّعى فيّ الأجدع عبد بني أسد خشع لك شعري وبشري عبدٌ لك ابن عبد لك خاضع ذليل. ثمّ أطرق ساعة في الأرض كأنّه يناجي شيئًا ثمّ رفع رأسه وهو يقول: أجل، أجل، عبدٌ خاضعٌ خاشعٌ ذليلٌ لربّه صاغر راغم من ربّه خائف وجل لي. والله ربّ أعبده لا أشرك به شيئًا ما له خزاه الله وأرعبه ولا آمن روعه يوم القيامة ما كانت تلبية الأنبياء هكذا ولا تلبية

---

[١]- العطارديّ، عزيز الله، مسند الإمام الصادق عليه السلام، ج٣، ٢٦١-٢٦٢.

الرسل إنّما لبّيت بلبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك. ثم قمنا من عنده فقال: يا زيد إنما قلت لك هذا لأستقرّ في قبري، يا زيد، استر ذلك عن الأعداء»[١].

وقال ميسرة: «ذكرت أبا الخطّاب عند أبي عبد الله عليه السلام وكان متّكئًا فرفع إصبعه إلى السماء ثمّ قال: على أبي الخطّاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فأشهد بالله أنّه كافر فاسق مشرك، وأنّه يُحشر مع فرعون في أشدّ العذاب غدوًّا وعشيًّا، ثمّ قال: والله والله، إنّي لأنفس على أجساد أصيبت معه النار»[٢].

ث. الكيسانيّة

وهم الذين قالوا بإمامة محمّد بن الحنفيّة، وقد اختُلف في سبب تسميتهم بالكيسانيّة، وهم في ذلك فرق مختلفة، فمنهم من قال بأنّ محمّدًا بن الحنفيّة هو المهديّ، وهو وصيّ أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّ مصالحة الحسن عليه السلام لمعاوية وخروج الحسين عليه السلام على يزيد كانا بإذنه، وخروج المختار طالبًا بالثأر أيضا بإذنه، ومنهم من قال بإمامته بعد أخويه الحسنين عليهما السلام، وإنّه هو المهدي وبذلك سمّاه أبوه، وإنّه لم يمت ولا يموت ولا يجوز ذلك، ولكنه غاب ولا يدرى أين هو، وسيرجع ويملك الأرض، ولا إمام بعد غيبته إلى رجوعه، وهؤلاء هم أصحاب ابن كرب ويسمّون الكربيّة. ومنهم من قال إنّه مقيم بجبال رضوى بين مكّة والمدينة، وهو عندهم الإمام المنتظر. وذهب بعض آخر إلى أنّ محمّد بن الحنفيّة مات والإمام بعده ابنه عبد الله.

وتعدّ هذه الفرقة من الفرق التي لاقت رواجًا في عصر الإمام الصادق عليه السلام؛ لذلك سعى الإمام للردّ عليهم وإظهار بُعدهم عن الحقّ، فقد دخل حيّان السّراج -وهو من الكيسانيّة- يومًا على الصادق عليه السلام، فقال له أبو عبد الله: «يا حيّان ما يقول أصحابك في محمّد بن الحنفيّة؟ قال: يقولون: إنه حيّ يرزق، فقال الصادق عليه السلام: حدّثني أبي عليه السلام: إنّه كان فيمن عاده في مرضه وفيمن غمضه وأدخله حفرته وزوّج

[١]- العطارديّ، عزيز الله، مسند الإمام الصادق عليه السلام، ج٢٠، ص٣٣٩-٣٤٠.

[٢]- الطوسي، اختيار معرفة الرجال، م.س، ج٢، ص٥٨٥.

نساءه وقسّم ميراثه، فقال: يا أبا عبد الله إنّما مثل محمّد في هذه الأمّة كمثل عيسى بن مريم شبّه أمره للناس، فقال الصادق عليه السلام: شبّه أمره على أوليائه أو على أعدائه؟ قال: بل على أعدائه، فقال عليه السلام: أتزعم أنّ أبا جعفر محمّد بن علي عليه السلام عدوّ عمّه محمّد بن الحنفيّة؟ فقال: لا، ثمّ قال الصادق عليه السلام: يا حيّان إنكم صدفتم عن آيات الله، وقد قال تبارك وتعالى ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٧)»[١].

وقال بريد العجلي: «دخلت على الصادق عليه السلام فقال لي: لو سبقت قليلًا لأدركت حيّان السرّاج، وأشار إلى موضع في البيت، فقال: كان هاهنا جالسًا، فذكر محمّد بن الحنفيّة وذكر حياته، وجعل يطريه ويقرضه، فقلت له: يا حيّان أليس تزعم ويزعمون، وتروي ويروون: لم يكن في بني إسرائيل شيء إلاّ وهو في هذه الأمّة مثله؟ قال: بلى، فقلت: هل رأينا ورأيتم، وسمعنا وسمعتم بعالم مات على أعين الناس، فنُكحت نساؤه وقسّمت أمواله، وهو حيّ لا يموت؟ فقام ولم يردّ عليّ شيئًا»[٢].

[١]- الصدوق، محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٦٤.
[٢]- المظفّر، محمّد الحسين، الإمام الصادق عليه السلام، م.س، ج١، ص٤٧.

الخاتمة

إنّ علم الكلام من العلوم المهمّة التي لا يمكن الاستغناء عنها أو تركها، ولأهمّيّته الكبرى أولاه المعصومون عليهم السلام عنايةً خاصّة، وظهر ذلك في زمن الإمام الصادق عليه السلام بشكل أجلى وأوضح، كونه زمنًا لاقى فيه المعصوم فسحة من الحرّيّة الفكريّة وإن كانت مقيّدة. وقد تعدّدت الآراء والأقوال، وشاع النقاش والجدل، وعُقدت جلسات للمناظرة في كثير من الأبحاث العقديّة، وخصوصًا في صفات الله تعالى. فكان لا بدّ للإمام عليه السلام- وهو المدافع الأوّل عن الدين وأهله- من أن يتصدّى لأيّ فكر انحرافيّ في الأمّة، وذلك يكون إمّا بتدخّل منه مباشرة أو عبر طلّابه وتلامذته وأصحابه النجباء، وقد أبلوا بلاءً حسنًا في هذا المجال، بحيث صانوا الكثير من المجتمعات الإسلاميّة التي تعرّضت لتلك الحملات التضليليّة.

وهذا ما سعى البحث للإضاءة عليه؛ إذ قدّم نبذة عن الإمام الصادق عليه السلام وفضائله، ومن ثمّ جرى تناول المدرسة العقديّة للإمام الصادق عليه السلام من خلال الإشارة إلى الأصول الاعتقاديّة في الموروث المرويّ عنه عليه السلام. كما وقع التطرّق إلى التوحيد عند الإمام عليه السلام بالاعتماد على أحد الأصول المرويّة عنه وهو توحيد المفضّل. مع التأكيد على نهي الإمام عن الكلام في ذات الله، وكيف نبّه من خطورة الكلام والتفكير في ذات الله تعالى لِمَا يحمل في طيّاته من مخاطر لا تحمد عقباها. وبما أنّ علم الكلام علم قائم الذات ويحتاج إلى متكلّمين، فقدحلّلنا منهجيّة الإمام الصادق عليه السلام في إعداد أصحابه لِكلّ ما هو محتمل في تلك الحقبة الزمنيّة التي تميّزت بكثرة الآراء وأصحاب الرأي في الدين، وهو الخطر الداخليّ الذي كان يهدّد استمراريّة الدين. وبعد ذلك تطرّق البحث إلى ذكر أبرز أعلام مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ممن عُرف بالمناظرات واشتهر بالمحاججات؛ حيث سُلّط الضوء على شيء من سيرتهم ومسيرتهم وجهودهم المباركة التي بذلوها في تحصين الأمّة من شبهات وأضاليل المنحرفين، ليقف القارئ الكريم على تلك الجهود

المخلصة التي بُذلت وأثمرت ثمرًا يانعًا طيّبًا. وفي الأخير، ذُكرت أهمّ الفرق والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في زمن الإمام الصادق عليه السلام، فمنها ما تفرّع عن الإسلام بشكل عامّ، ومنها ما تفرّع عن الشيعة بشكل خاصّ، فكان للإمام عليه السلام موقفه ووقفته الصارمة ضدّهم، سواء بالمناظرة أو بالردّ عليهم وإظهار ضلالهم أمام أصحابه.

ولقد اتّضح للقارئ العزيز من خلال ما عُرض كم كان لتلك الجماعات الضالّة من الضرر على الأمّة لو لم يُوضع لها حدّ، وإلّا لأفسدوا على الناس دينهم، وكان لتلك الجهود المباركة الأثر الأكبر في القضاء على كثير من تلك الجماعات، بحيث لم يبق لها أثر ولا أتباع. ولم يغفل البحث عن ذكر عدد من الروايات التي وصلتنا عن الإمام عليه السلام تحسم الجدل في أهمّ وأخطر الأبحاث العقديّة والتحذير من قائليها ومروّجيها.

قائمة المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم

٢. ابن إدريس، محمّد بن أحمد (ت٥٩٨ هـ)، السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، محقّق/ مصحّح: الموسويّ، حسن بن أحمد وابن مسيح، أبو الحسن، ط٢، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم، ١٤١٠ هـ.

٣. ابن النديم، محمّد بن إسحاق النديم الورّاق البغداديّ (ت٤٣٨هـ)، فهرست ابن النديم، تحقيق: رضا تجدد.

٤. ابن حبان، محمّد بن حبان (ت٣٥٤ هـ)، الثقات، ط١، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدكن، مؤسّسة الكتب الثقافيّة، ١٣٩٣.

٥. ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن عليّ بن محمّد(ت٨٥٢ هـ)، تهذيب التهذيب، ط١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م.

٦. ابن حنبل، أحمد (ت٢٤١ هـ)، مسند أحمد، المحقق: شعيب الأرنؤوط ومعه مجموعة من المحقّقين، ط١، بيروت، مؤسّسة الرسالة ١٤١٦ هـ.

٧. ابن شهرآشوب المازندرانيّ، محمّد بن عليّ (ت٥٨٨ هـ)، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، ط١، قم، علامة، ١٤٢١ هـ.

٨. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ (ت٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: علي شيري، لا.ط، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.

٩. ابن ماجة، أبي عبدالله محمد بن يزيد القزوينيّ (ت٢٧٣ هـ)، سنن الحافظ، المحقق: بشّار عوّاد، لا.ط، بيروت، دار الجيل، ١٤١٨ هـ.

١٠. أبو غالب الزراريّ، أحمد بن محمد (ت٣٦٨ هـ)، رسالة أبي غالب الزراريّ إلى ابن ابنه في ذكر آل أعين، ط١، قم، مركز البحوث والدراسات الإسلاميّة ١٤١١ هـ.

١١. الإربليّ، عليّ بن عيسى (ت٦٩٢ هـ)، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، محقق/ مصحح: رسولي محلاتي، هاشم، ط١، تبريز، بني هاشمي، ١٤٢٣ هـ.

١٢. الأشعريّ، علي بن إسماعيل (ت٣٢٤ هـ)، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، تحقيق ومراجعة: هلموت ريتر، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، لا.ت.

١٣. البرقيّ، أحمد بن محمّد (ت٢٧٤ هـ)، رجال البرقيّ، محقّق: المصطفويّ، حسن، ط١، طهران، منشورات جامعة طهران، ١٣٨٣ هـ.

١٤. البغداديّ، أحمد بن حسين الواسطيّ، الرجال (لابن الغضائريّ)، محقّق/ مصحّح: الحسينيّ الجلاليّ، محمّد رضا، ط١، قم، دار الحديث، ١٤٠٥ هـ.

١٥. البلخيّ، أحمد بن سهل (ت٥٠٧ هـ)، البدء والتاريخ، لا.ط، بغداد، مكتبة المثنّى ببغداد، ١٨٩٩ م.

١٦. الحسينيّ الزبيديّ، محمّد مرتضى (ت١٢٠٥ هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، محقّق/ مصحّح: عليّ، هلالي وسيري، علي، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ.

١٧. الحلّيّ، الحسن بن عليّ بن داود، رجال ابن داود الحلّيّ، محقّق/ مصحّح: بحر العلوم، محمّد صادق، ط١، طهران، جامعة طهران، ١٣٨٤ هـ.

١٨. الذهبيّ، محمّد بن أحمد (ت٧٤٨)، ميزان الاعتدال، تحقيق: علي محمّد البجّاوي، ط١، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٨٢-١٩٦٣ م.

١٩. الرازيّ، ابن أبي حاتم (ت٣٢٧ هـ)، الجرح والتعديل، ط١، الهند - بيروت، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة – بحيدر آباد الدكن -؛ دار إحياء التراث العربيّ، ١٣٧١ - ١٩٥٢ م.

٢٠. الشريف المرتضى، عليّ بن الحسين (ت٤٣٦ هـ)، رسائل الشريف المرتضى، تقديم: السيّد أحمد الحسينيّ، إعداد: السيّد مهدي الرجائي، لا.ط، قم، دار القرآن الكريم، ١٤٠٥.

٢١. الصدوق، محمّد بن عليّ ابن بابويه (ت٣٨١هـ)، التوحيد، محقّق/ مصحّح: الحسينيّ، هاشم، ط١، قم، جماعة المدرّسين، ١٣٩٨ هـ.

٢٢. الصدوق، محمّد بن عليّ ابن بابويه، الخصال، محقّق/ مصحّح: غفاري، علي أكبر، ط١، قم، جماعة المدرّسين، ١٤٠٣ هـ.

٢٣. الصدوق، محمّد بن عليّ ابن بابويه، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ط٢، قم، دار الشريف الرضي للنشر، ١٤٠٦ هـ.

٢٤. الصدوق، محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ: كمال الدين وتمام النعمة، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، لا.ط، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ (التابعة) لجماعة المدرّسين بقم المشرفة)، ١٤٠٥هـ.

٢٥. الصفّار، محمّد بن حسن (ت٢٩٠ هـ)، بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلّى الله عليهم، محقق/ مصحّح: كوچه باغي، محسن بن عبّاس علي، ط٢، قم، مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ، ١٤٠٤ هـ.

٢٦. الطبرسيّ، أحمد بن عليّ (ت٥٨٨ هـ)، الاحتجاج على أهل اللجاج، محقّق/ مصحّح: الخرسان، محمّد باقر، ط١، مشهد، نشر المرتضى، ١٤٠٣ هـ.

٢٧. الطبريّ، محمّد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الطبريّ، حقّقه وصحّحه: نخبة من العلماء، لا.ط، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لا.ت.

٢٨. الطوسيّ، محمّد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ)، رجال الطوسيّ، محقّق/ مصحّح: قيومي أصفهاني، ط٣، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، ١٤١٥ هـ.

٢٩. الطوسي، محمّد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، العدة في أصول الفقه، تحقيق: محمّد رضا الأنصاريّ القمّيّ، ط١، قم، ستاره، ذو الحجّة ١٤١٧هـ.

٣٠. الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال -رجال الكشي-، محقق/ مصحح: المصطفوي، حسن، ط١، مشهد، منشورات جامعة مشهد، ١٤٠٩ هـ.

٣١. الطوسيّ، محمّد بن الحسن، فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، ط١، قم، ستاره، ١٤٢٠ هـ.

٣٢. العطارديّ، عزيز الله، مسند الإمام الصادقعليه السلام، ط١، طهران، نشر عطارد، ١٣٨٤هـ.

٣٣. الكلينيّ، محمّد بن يعقوب بن إسحاق (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، محقّق/ مصحّح: علي أكبر غفاري، ط٤، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٠٧ هـ.

٣٤. المجلسيّ، محمّد باقر بن محمّد تقي (ت١١١٠ هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، محقّق/ مصحّح: جمع من المحقّقين، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٠٣هـ.

٣٥. المزّي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج (ت٧٤٢ هـ)، تهذيب الكمال، تحقيق وضبط وتعليق: الدكتور بشّار عوّاد معروف، ط٤، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٦ - ١٩٨٥ م.

٣٦. المظفّر، محمّد الحسين، الإمام الصادقعليه السلام، ط٤، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ١٤٠٩هـ.

٣٧. المفيد، محمّد بن محمّد (ت٤١٣ هـ)، الاختصاص، محقّق/ مصحح: علي أكبر غفاري، ومحمود محرمي زرندي، ط١، قم، الموتمر العالميّ لألفيّة الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ.

٣٨. المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، محقّق/ مصحّح: مؤسّسة آل البيتعليهم السلام، ط١، قم، مؤتمر الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.

٣٩. النجاشيّ، أحمد بن عليّ (ت٤٥٠ هـ)، رجال النجاشيّ، ط٦، قم، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعه لجماعه المدرّسين بقم المشرّفة، ١٤٠٦ هـ.